مظهر عاصف

لستُ أنا

رواية

دار الجيل العربي للنشر

لستُ أنا

ركبنا البحر هربًا من (بنغازي) بعد الانفجار بثلاثةِ أشهر متوجهين للوطن أولم نكن ندري أننا سلمنا أنفسنا لقراصنة البحر وقطاع طرقه. القاربُ لم يتسع للهواء لكن قلوبنا لم تتسع حينها للموت أالركاب تشبثوا بالأمل الذي لا أمل فيه للهروب أ وكنت منهم ومعهم قلبًا وقالبًا أفالحربُ تلهثُ خلفنا أوالوجوهُ الغاضبةُ بلا سببٍ وجيهٍ تلاحقُ الأبرياء قبل غيرهم. وإذ مضينا مودِّعين الشاطئ لبحرٍ لا نعرفُ عنه سوى أنه الطريق للهرب؛ وجدنا أننا هربنا للهروب ذاته دون أن ندرك ذلك... مضحكٌ أن تفرَّ بكلِّ ما فيك للفرار أثم لا يقتنع الفرار أنك بين يديه.

أحاطوا بنا بعد أيامٍ واقتادونا للسجنِ بتهمةِ المتاجرةِ بالعبيد.

العبيدُ هم الأطفالُ والحسناوات الذين لم نرهم بعدها أأما التجارُ فهم البؤساء الذين نجوا من القتل تحت نير مزاجِ القاتل.

صوَّب الجندي السناري سلاحه الضوئي فور وصولنا الشاطئ نحو رأسي وأطلق الضوءَ الناري على آخر أثم صوَّبه لرأسي وقتلَ آخر أثم آخر أثم آخر... هي التسليةُ بدماء البشر لا أكثر أثم قالَ كلامًا بلغةٍ لم أفهمها ليضعوني وآخرين على (بغالٍ ميكانيكية) مرددين لحنًا رديئًا لا يخضع لقافيةٍ أو وزن... لا بد أن أستطرد هنا بجملة مهمة إن سمحت لي: موسيقا اللغة العربية تشبهُ إلى حدٍّ كبير موسيقا الطبيعة ذاتها أ تأكَّدت من هذا بالدليل الذي يصعب إثباته بعد سنةٍ في السجن سمعتُ خلالها أغلب اللغات البشرية.

ISBN ٩٩٥٧١٧٣٣٤-٣
٩٧٨٩٩٥٧١٧٣٣٤٨

دار الجيل العربي للنشر
aljeelalarabi@yahoo.com

لستُ أنا

رواية

مظهر عاصف

لستُ أنا

الطّبعة الثّانية

2022

رواية: لستُ أنا

تأليف مظهر عاصف أحمد عودة

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنيّة: 8/2019/4397

ردمك: ISBN 978-9957-67-

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطّبعة الثّانية: 2022

دار الجيل العربي للنشر والتّوزيع

إهداء:

إلى مَن تنافستا كي أكونَ كما أريد، وتشابهتا رغم المسافاتِ البعيدةَ والملامح المختلفةَ، فلم تأتيا مِن رحمٍ واحدةَ؛ بل سكنتا عند ولادةِ القصيدةَ قلبًا واحدًا...

إلى ملك وحسناء

(1)

الفخ

لماذا أنا؟ ... لماذا أنا تحديدًا؟

ويتكرّرُ هذا السّؤالُ عندَ كلّ اختيارٍ يقعُ علينَا دون غيرِنا؛ رغم انتمائنا بكلِّ ما فينا لثقافةِ الجموعِ؛ رافضينَ الفرديّةَ خشيةَ أن يقعَ علينا الاختيارُ القَدَريّ، فنكونُ قد شذذنا عن القاعدة بما أصابنا لا بما اخترناه، وقد أكرِّرُه لا لأنّني شقيّةٌ؛ بل لتأثّرنِا الدّائمِ بما يشابههُ من أسئلةٍ يتلذّذُ التّعساءُ بجلدِ حظوظهم بأسواطِها؛ متجاهلين على الدّوام السّؤالَ ذاته بجماليّته إن ميَّزنا القدرُ عن غيرِنا باختياره الاصطفائيّ قبلها أو بعدها.

حمقاءُ مثلي كان بإمكانها لو فَكّرت قليلًا أن تتجنّبَ الكثيرَ من المتاعب والمكائد الّتي أحاطت بها، أو أوقعت نفسَها فيها؛ لكنّني عاطفيّةٌ جدًّا كما وصفني الرّاقدُ على سريرِهِ أمامي بعدَ أن أنهكتهُ الأمراض، ونخرتُه الوساوس والمخاوف، وقد شارف على السّادسة والثّمانين؛ مُدرِكةً أنَّ الرّجلَ بشكلٍ عام لا _***«أصلان»*** فقط_ يصفُ المرأة بهذا إن أنَّبت نفسها كثيرًا أمامه، أو ظهرَ غباؤها بشكلٍ واضحٍ، أو بعد تفاعلات الشّكّ والغيرةِ أثناء نسيج حروفها له.

أمَّا مَن حدَّثَ هذا السّؤال _لماذا أنا تحديدًا؟_ بمرارتِه في ذاكرتي على الدّوام فهو رجلٌ يُدعى ***«العجّان»***.

العجّان الّذي وقعتُ في فخّه ونجوتُ بمعجزةٍ من بينِ أسنانه وأسنانِ أولاده، غير مصدِّقةٍ أن لم يمسسني سوءٌ بشريٌّ حينها؛ رغم أنّ السّوءَ حاق بي من جميعِ الجهات... نعم إنّه العجّانُ الّذي لا أعرفُ كيف بدا طائرًا في الهواء قبل أن يهبطَ كصخرةٍ على مقدّمةِ سيّارتي متأوِّهًا بشدّة، لينهضَ متمايلًا بعدَ أمَةٍ شاتمًا البشريّةَ جمعاء قبل شتمي وعائلتي لدهسه... رفضَ الذّهاب إلى المشفى، رفضَ المال، رفضَ تدخّلَ المارّة، رفضَ الرّفضَ نفسه، ثمَّ قبِلَ أخيرًا أن أقلّهُ في سيّارتي لبيتهِ باكيةً معتذرةً له عمّا جرى.

- ساعديني فما زلتُ أشعرُ بالدّوار.

لم ألتقط من ثرثرته المُزعجةِ حينَ وصلنا إلى غايتِه وترجّلنا مِن السيّارة سوى هذه الجملةِ؛ إذ انصبَّ تركيزي على معالمِ الحيّ القديم بتفاصيله الغريبةِ؛ حيثُ لمْ أر مسبقًا بيوتًا متلاصقة بهذا الشّكل، وما دريتُ قبلها أنَّ كلمة «بيت» اسمٌ نطلقه على الكثير من الأشياء المختلفة؛ تلك الأشياء الّتي لا تتشابهُ ظاهريًّا أو داخليًّا فيما بينها أبدًا لتبقى مجرّد أسماء لا أكثر.

أمسكتُ بيده وسندته قليلًا بكتِفي بينما راح يمشي بخطوات ثقيلة نحو بابٍ صدِئ؛ يُفضي إلى ممرٍّ طويل رُصِفَ بالقاذورات والأتربة، قبل أن يفاجئني ويسحبني عنوةً وبسرعةٍ قِرديَّةٍ لندورَ في دهاليزَ داخليّة ضيّقة؛ تهوي إلى شبهِ قبو يفضي إلى حُجرات تُشعرك أنّها مهجورة من ألفِ عامٍ رغم أنَّ ساكنيها أمامك.

وجدتُني صَيدًا سهلًا له ولأبنائه، وتأكّدتُ فورَ إحكام قبضته على يدي أنّني تعرضتُ لخديعةٍ ومؤامرة قد تكلّفني حياتي الّتي عجزتُ عن الدّفاع عنها والخلاص بها من شدّة الخوف الّذي تملّكني... **{سيغتصبونني}** سرًّا قلتُها وانفجرتُ باكيةً متوسّلةً أن يطلقوا سراحي وقد قذفوا بي على الأرض غيرَ

عابئينَ بملامحِ وجهي المذعورِ والمدفون؛ بين كتفيْ جسدٍ راح يتسحَّبُ باضطرابٍ إلى الخلف، ويرتعشُ من شدّة الذّعر في زاويةٍ قذرة خوفًا مِن الآتي.

- كفاكِ نباحًا فلن تسمعكِ الماما يا ماما.

قالها ملتفتًا إليَّ بنصفهِ وقد حشا فمَه بربع رغيف دفعةً واحدة، ثمَّ وقد عدَّل جلستَه خاطبَ أولادَه بصوتٍ امتزجَ بفقاقيعِ أنفاسِه الّتي تتفجّرُ بقنابل هواء تباعًا عبرَ مضغهِ بشراهةٍ للطّعام.

- سترني الله هذه المرّة، كادت هذه المجنونة أن تدهسَني حقًّا.

- في كلّ مرّةٍ تكرّرُ العبارة ذاتها و...

قطَعَ على ابنه ***«ميمون»*** حديثَه بصفعةٍ حذائيّةٍ خاطفةٍ على وجههِ؛ شاتمًا أمَّه وأختَه ونساءَ العالمِ الثّالثِ تحديدًا سائلًا إيّاه ببرودِ الواثق:

- وما الّذي كنتُ أنتظره من ابن عاهرة مثلك؟

تابَعوا على إثرِها تناولَهم العشاء كأنَّ شيئًا لم يحدث بينهم. **{لم يغسلْ يديه بعد تركه للحذاء، مقزّز}.** وإذ أسررتُ بها شعرتُ بسخافةِ ملاحظةٍ لا تنبثق إلّا عن بلهاء مثلي في هذا الوقت، بيد أنّ الملاحظةَ ذاتَها استنسخَت أسئلةً مخيفةً فرضَت أشباحَها أمامي على شكلِ صور مُتخيّلةٍ متسارعةٍ لثيابٍ ممزّقة؛ وضحكاتٍ هستيريّة، وصراخٍ لا يسمعه أحد، ودماءٍ تبدأ من أسفلي وتنتهي بأعلاي... **{هل هذا ما سيحدث فعلًا؟ أيعقلُ أن أكونَ الفتاة المفقودة الّتي سيجدونَ جثّتها بعد أسابيعَ من اختفائها في مكانٍ وعر؟}.**

- كلا، ليست بحاجةٍ لربطها فهي طفلةٌ وادعة... فقط لا تنسَ بعد العشاء أن تقذف بهاتفها في مكان بعيد، وإيّاك أن تراودك نفسك لبيعهِ. **جرَّتني هذه الجملة من غياهبي نحو الواقع كصفعةٍ مباغتةٍ توقّعت حدوثَها على نحوٍ مختلف.**

- والسيّارة أإلى الجزّار مباشرة؟ **سأله أحد الخمسة.**

- هذه المرّة سنكونُ كرماء... القناعة كنزٌ يا ابن الهبلة، هل تقبل لضيفتنا أن تعودَ مشيًا على الأقدام بعدما نفرغُ منها؟ ما الّذي سيقولُه التّاريخ عنّا لو قبلنا بهذا؟

ضحك السّائلُ فيما ظلَّ باقي أولاده الجالسين واجمين. واحدٌ منهم بصقَ عليه، أو فعلَ ما تمنّيتُ القيام به تجاههم جميعًا؛ لكنّ ما فعلته هو أن تصلَّبتُ أكثر بعدَ أن عزمت على النّهوض، أو الهرب، أو البكاء... الحقيقةُ لا أتذكّر ما أردتُ فعله سيما بعد استغراب العجَّان الواضحِ من صمتي المطبق، وابتلاعي الكاملِ لصراخي الّذي لن يسمعه أحد:

{هل أردتِ البقاء؟ هل أردتِ خوضَ المغامرة حتّى نهايتها؟ هل أردتِ ما لا تتمنّاه أيّ أنثى في الأرضِ لو كانت في مكانك؟ كلّا، لا توبّخي نفسك على ما لا ذنب لك به فالخوفُ وحدَه مَن منعَكِ مقاومته لحظةَ اقتادك عنوةً للداخل؛ إثرَ تحوّله المفاجئ مِن مسنٍّ هزيلٍ إلى ثورٍ هائج، والخوفُ مَن حرّك أمواجَ قلبك بعواصفِ رعشاتهِ ورهباتهِ، وملأ قدحي عينيك بالدموعِ كي تستسلمي لقدرك الّذي تجهلين... بإمكانك الرّفض والمقاومة الآن، فإن كنتِ فريسةً للهنود الحمر فلتكوني كذلك بعد الموت}.

- انظر مَن بالباب؟ **قالها العجّان وهو يمسح يديه بثيابه وطرَقاتٌ بعيدةٌ جاءت مِن على لسان الباب الخارجيّ وقد ارتسمت الحيرة على وجوهِ الجميع كأنّهم لم يسمعوا طرقات باب من قبل.** هذه طرقاتُ ضيف لا طرقاتُ الّلعين ***«سيف»***.

لم ينتهِ من هذه الجملة حتّى صاحبَ الطّرقاتِ صوتُ رجال الشّرطةِ، وخلعُ أبواب بعيدة وقريبةٍ خلال ثوانٍ فقط، ثمَّ قال أحدهم بصوت جهوريّ مرتفع: «**الفتاةُ في الدّاخل**»... نعم هذه هي الجملة المحفورةُ في ذاكرتي والّتي جاءت على لسان الرّجل الّذي لعنه العجّان مُستبعِدًا أن يحضُرَ طارقًا بابه، قبل أن تداهمَ الشّرطةُ وكرَهم ويتمّ القبض عليهم جميعا.

قالها مرّةً أخرى للتّأكيد فتشرّبتها جوارحي أكثر أثناء اقتيادِ الشّرطة للعجّان وأبنائه؛ وعلِقَ صداها بأذني حتّى هذا الوقت، أو هكذا تهيَّأ لي؛ إذ ظنَّ سيفٌ على ما يبدو أنّهم لم يعثروا عليَّ بعد، وبالرّغم مِن عدم رؤيتي له أو معرفةِ مَن يكون مِن جملةِ الوجوه الكثيرة الّتي كانت في الخارج؛ إلَّا أنّني خرجت مُسرعةً فرحةً فور اقتيادهم أمامي زوجةَ العجّان وابنته ***«شهد»*** بعد أدائهنّ المُتقن لدورِ الضحيّةِ لا الجلّاد.

أعدتُ روايةَ هذا الحدثِ العالق في ذاكرتي لمريضي الشّاعر الرّاقد أمامي حتّى هدّدني ممازحًا أن يقتلني إن كرّرته مجدّدًا، لكنّني كرّرته بعدها لمرّات ومرّات وسط امتعاضه وحنقه قبل أن يصيحَ بي ضائجًا:

- أرجوك، ارحميني، أنتِ ملاك رحمةٍ لا عذاب، أنت تعذّبينني بتكرار هذه القصّة الّتي بدأت أحفظها عن ظهر قلب. **قالها وقد فرغ من سيرهِ ذهابًا وإيابًا ببطءٍ شديد بين جدران الغرفةِ ليحرّك مفاصله المتحنّطة على حدّ تعبيره.**

- سأفعل إن صدَّقتَني. **قلتها ضاحكة.**

- بماذا؟ سأصدّقك مهما قلتِ طالما لن تكرّري قصصَك هذه على مسامعي مجدّدًا. بماذا أصدقك؟ **استلقى على السّرير ببطء بينما رحتُ أساعده على رفع قدميه.**

- بأنَّ صوتَ سيف نسخةٌ طبق الأصل عن صوتك.. صوتُك وصوته من نبعةٍ نغميَّةٍ واحدة. لقد ظلَّ عالقًا في ذهني حتّى الآن مع أنّني لم أره، لا أعرف إن كان الفضولُ من يقفُ وراء رغبتي برؤيته رغم مجاهدتي عبثًا لنسيانِ تلك اللّيلة. **قلت هذه الجملة بسرعةٍ لدرجةِ شككتُ أنّه قد فهم ما قلته لاختلاط الحروف ببعضها من شدّةِ انفعالي.**

- رؤيةُ الضّيفِ أم اللّعين سيف؟ على حدِّ وصف عجَّانك هذا.

- رؤية الاثنين. **وشكّلتُ بأصابعي الرّقمَ اثنين مبتسمة.**

- لعلَّ سيفًا هذا تقصَّد تقليدَ صوتي لطمأنتك إذن، وقد عرَف أنّك معجبةٌ بصوتي قبل شعري! **قالها ساخرًا.**

- هل تعتقد أن تذكّري لصوتكَ وتساؤلاتي حينها دليلٌ على حماقتي؟

- أظنّها دليلًا على قوّة شخصيتك، أو إشارةً ما كي تكتشفي بنفسكِ قدرةَ حواسِّكِ الدّفينة. ثمّ لِمَ لا أكونُ أنا صاحب ذاك الصّوت لا سيف؟ **قالها ضاحكًا.**

- قوّة؟ والرّعب الّذي تملّكني وقتها؟! قد أنتحبُ بكاءً الآن لمجرّد ذكرِ ما لم أذكره يومًا لاستحالةِ الجهرِ به. **رحتُ أرفع ناحية السّرير من جهة رأسهِ للأعلى كي يريحَ قوامَه الطّويل.**

- إذن لا تتذكّريه، بإمكاننا أن نبدأ؟

- قبل أن نبدأ، لم تسألني عن المرّة الثّانية الّتي قلت فيها لنفسي: لماذا أنا تحديدًا؟

- بالتّأكيد عندما التقينا على متنِ هذه الجزيرة اللّعينة.

- لنبدأ إذن. **قلتها غاضبة.**

لم يشأ أيضًا سماع ما كرّرته على مسامعه ألف مرّة رغم متعتي بتكراره، فتجاهلَ غضبي ناظرًا نحو ساعةِ الحائط الرقميّة المُتوقّفة والّتي تبدو جزءًا من الجدَار، وتهيَّأَ كي يُملي على مسامعي الرّسالة الّتي أراد كتابتها هذه المرّة لزوجته... وضعَ يدَه على صدره قائلًا بصوتهِ الدّافئ المنساب كجدولِ ماء بطيء، بينما رحتُ أنقر بسرعةٍ على حاسوبي ما يمليه علي:

- ***شيءٌ*** ما يلتهمني من الدّاخل مصرًّا على التهامِ ذاكرتي أثناءَ تآكلي... ذاكرتي الّتي حاربَتْ عواملَ التّعريةِ النّحسيِّة، والحتِّ الحظّيّة بكامل قوّتها لتصمدَ في وجهِ النّسيانِ ثمانينَ عامًا على الأقلّ دون هزيمةٍ تُذكر... السّاعة الآن يا عزيزتي تشيرُ للثّانيةَ عشرةَ، وهي منذ أمدٍ طويل لم تتحرّك، ولم تحفِّز أرقامها وعقاربها على المسير، ومِن مفارقات الحياة أن تختلفَ عناقاتُ العقارب كلّما ابتعدنا في ساعةٍ تراقبُ الوجوهَ الّتي أحببتُ؛ عن عناقات ساعةٍ لا يراها غيري فوقَ مسرح الجدران الصامتة.

يتنبأُ الأطبّاءُ المأجورون لي بأيّام معدودة، وتقول لي نفسي: «ستحيا عامًا آخر». وما بين المصدرينِ أجدُني مُرتعبًا من فكرةِ الموتِ؛ كارهًا تلكَ الحقيقةَ الحتميّة.

لا أريدُ أن أدفنَ في الأرض. كارثةُ الكوارثِ أن يلقوني في حفرةٍ مهيلينَ عليَّ التّراب لأكونَ جزءًا منه. خُلقتُ منه ولا أجدُ في نفسي أدنى رغبةٍ بالعودةِ إليه مجدّدًا. دومًا أكرّر كلّما تخيّلتُ هذه اللّحظة: «سأختنق». ثمَّ يتبادرُ لذهني ذاك السّؤال فورًا: «كيف ستختنق ميْتًا؟!». لو عرفتُ ماهيّةَ الموت أساسًا

لعرفتُ كيف أجيبُ عن هذا السّؤال! لو عرفتُ حقيقته لما خفت منه خوفي من القبر وفكرةِ الاختناق ذاتها.

ما زلتُ تحت تأثيرِ ذاك الرّعب الوعظيّ لرجال الدّين، فَهُم مَن صوّروا لنا القبرَ كغرفةِ تحقيقٍ معتمة في دائرة المخابرات؛ يُستجوب فيها المذنبُ والبريء بالقسوة ذاتها. هم من جاؤوا بقصصٍ خرافيّةٍ عن الثّعابينِ الجائعة، وطرقِ التّعذيب، والسّلخ، وقلعِ الأظافر الّتي سنتعرّض لها، ورغم رفضي لفكرةِ عذاب القبرِ هذه مقتنعٌ أنّ الله وحدَه مَن سيحاسب البشرَ على ما قدّموه في حياتهم؛ وألّا علاقةَ للملائكةِ الكرام بهذا الأمر قطعًا؛ إلّا أنّني وإن كنت لم أعترف مسبقًا بهذا أتساءلُ على الدّوام: «ماذا لو كانوا محقِّين؟». هنا تحديدًا أضع يدي على رأسي يائسًا متمنّيًا الفناء.

وجهُ والدي لم يزل عالقًا في ملكوتِ ذاكرةٍ يوميّةٍ لا تغادرني منذ وُضِع في القبر. لم أستطع رؤيتهم وقد أهالوا عليهِ التّراب، لكنّني استطعت أن أضمَّه ميتًا وأشتمُّه وأتحدّث إليه مودِّعًا. كان أديبًا مغمورًا يعملُ في شركةِ حسابات كموظفٍ بسيط، لم ينجب غيري لأنَّ والدتي بعد ولادتي المرهقة وشبهِ المستحيلة؛ خسرت ما يؤهّلها للإنجاب مرّة أخرى رغم عشقه للبنين.

أبي من أولئك الّذين ولِدوا ليموتوا دونَ أن يتركوا أثرًا على سطح هذه الأرض. ربّما أدركَ هذا الأمرَ مُبكّرًا فأرادني أن أكونَ أثرَه عليها؛ حيث ألزمني صغيرًا بحفظِ ما لم يستطع أحدٌ حفظه في مثل عمري من أشعارٍ وآيات وأحاديث واقتباسات كان يجمعها بعنايةٍ ليلقمَها عقلي صباح مساء؛ بينما اقتصرَ دورُ أمّي على منعهِ من المبالغةِ بقولَبتي كما يريد.

- أنتَ تُحمّل عقله ما لا طاقة له به. **وسحبتني أمّي من يدي مخبّئةً إيّاي خلفَ ظهرها بعد أن أجهشتُ بالبكاء بسببِ غضبه جرّاء نسياني بعضَ ما راجعه معي من محفوظي.**

- ستفسدينه بدلالك يا امرأة. **قالها أبي وقد امتصّت ابتسامتُها غضبه.**

- بل أنتَ مَن سيفسده بالضّغط عليه.

- أريدهُ أن يكونَ مختلفًا... عظيمًا.

- سيكون كذلك. لا تخف.

- عبر دلالك؟ **وتماسَكَ كيلا يثور في وجهها.**

- عبرَ كلّ شيء... لا يمكن لأحدٍ حتّى أنتَ أن يعرفَ عنه ما أعرفه... لن يكونَ مهما حاولتَ إلّا هو، لكنّني أراه منذ الآن في مكان لا ينافسه عليه أحد.

- وأصبحتِ تتنبّئين بالمستقبلِ أيضًا. **ضربَ على فخذهِ مبتسمًا.** المستقبل لا يزهرُ بالأماني بل بمعاولِ الجدِّ والهمّة.

- نظرياتٌ بالية مكرورة لا تسأمُ من ترديدها على مسامعنا. لو حملتَ به أنتَ. **وابتسمتْ مداعبةً إيّاه.** وشعرتَ به كيف كان يركل ويتشقلب ويتحرّك باستمرار في بطني. **واضعة يدَها على بطنها.** حتّى يكادُ يمزّقه للخروج منه مندفعًا إلى الحياة لعرفتَ أنَّ ابنك هذا ليس كغيره.

- كلّ الأمّهات يقلن هذا. **وتمغّط فمه للجانبين سخرية.**

- كلّهن صادقات إن لم يخدعن أنفسهن.

- تقولين هذا وأنت أبرعهن بخداعكِ لنفسك. يبدو أنّك نسيت حين صرتِ مثارِ سخريةٍ للأطبّاء حين لم تصدّقي أنّك حاملٌ بجنينٍ واحد مصرّة أنّك حامل بتوأم...

- كم تتلذّذ بذكرك هذه الحادثة. **قاطعته وحاولت أن تستديرَ لكنّه استوقفها.**

- بل أتحسّر. ليتكِ كنتِ صادقةً حينها... لكنّني بصدق متعجّبٌ حتّى اللّحظة من إصرارك على وجودِ جنينينِ في بطنك ومعاندتك للطّبيب الّذي كاد يعتزل الطبّ بسببك.

- وأنا أيضًا ما زلتُ متعجّبةً من نفسي حينَ شعرتُ بوجودِ جنينينِ في أحشائي مثلك تمامًا.

- ها قد اعترفتِ أخيرًا بخطئكِ. **قال ذلك بنشوةِ المنتصر.**

- طبعًا أعترف... كان عليَّ أن أشعرَ بوجودِ عشرة منهم لا اثنين... فابني هذا عن عشرة وأكثر.

- عدنا للمكابرة.

- أنتَ من تكابر لا أنا. **قالتها بدلال.** ثمّ إنّ عليه واجبات مدرسيّة ينبغي له الاهتمام بها.... إن كنتَ مصرًّا فالرّياضيات الّتي لا يجيدها مطلقًا أولى بأن توليها اهتمامك.

- وما الّذي فعله علم الرّياضيّات لأبيه؟ لا شيء. **متأفّفًا.**

- وما الّذي سيفعله الأدب له؟

- سيجعله شحّاذا كأبيه.

ضحكا واتّجهَ نحوها معانقًا مبعثرًا شَعري بيديه متودّدًا لكلينا بما قد يغمُر الإنسان من حبّ يكفيهِ لباقي حياته. .. لم يقترن بغيرِها لأنّه أحبَّها، أو لأنّه

نذرَ بعد ساعاتٍ من ولادتي _وقد أخبره الأطبّاء باحتمال هلاكي المبكّر_ ألَّا يفكّر بإنجابِ غلامٍ آخر إن خيَّبَت إرادةُ الله ظنَّ الأطباء وعشتُ سليمًا معافًى، وهذا في النّهاية ما حدثَ وكان.

قالوا بأنَّ الدّم الّذي فقدتهُ بعد ولادتي بخطأ طبيّ سيقضي عليَّ بعد يومين على أكثرِ تقدير، لكنّني خلَّصت نفسي من مخالب الموت سريعًا، واستردتُ عافيتي مؤكّدًا للجميع بأنّني من سلالةٍ مُعمّرة لا تموت باكرًا بسببِ نزيفٍ غبيّ؛ أفقدني بعضَ وحداتٍ من الدّم الطّازج بُعيد لحظات مِن مشوار حياتي الطّويل... علينا أن نصارعَ الحياةَ وتصارعَنا حتّى آخر لحظة كما أفعل أنا الآن، لكنّه _أي والدي_ مَن خيَّب ظنّي على غيرِ عادته حين مات مُبكّرًا وبشكلٍ مفاجئ... وقفت أمامَه مُعاتبًا إيّاه فلاموني على هذا العتاب اللاّمنطقيّ؛ فلذتُ بالصّمتِ مُهشَّمًا أمامَ هذا الدّرس العظيم المؤلم.

في الأربعين حسدتُ الموتى البوذيّين على حرق أجسادهم. غبطت الّذين يموتون غرقًا فتلتهمُهم أسماكُ القرش، حسدتُ الّذين يموتون بانفجارٍ يبعثرُهم بالكامل فلا يُجمعُ منهم بعدها إلّا أربطةُ أحذيتهم، ولأنَّ هذا لم يحدث، ثمَّ أُصبتُ بمرض ***«تيروم»*** في سجن الجزيرةِ _كما يدّعون_ فكم أتمنّى حقيقةً لو أنّهم يفصلونَ رأسي بعد موتي عن جسدي، ثمَّ يقومونَ بإلقائي في البحر.

ستنزعجينَ لا محالة من تكراري لنفس الجملةِ الّتي بدأت بها وصيّتي العلنيّة الّتي يحفظها الجميع عن ظهر قلب، ولكنّني سأكرّرها مرّةً أخرى راجيًا منكِ أن تكرّريها أيضًا على مسامعِ أولادي: «إن متُّ هنا وتسلّمتم جثّتي رغم استبعادي حدوث هذا، فلا تُكرموني بالدّفن فورًا كما نصَّت الأحاديث

الشّريفة، فأنا متقبلٌ وبكاملِ قواي العقليّة أن أضيفَ لآثامي الكثيرة هذا الإثمَ وأحاسب عليه».

سأقول لمِن لا يُظلمُ عنده أحدٌ: «يا إلهي كنتُ خائفًا فقط. مرتعبًا من هذه الفكرة، مؤمنًا أنَّ الموت حقّ، والبعثَ حقّ، والحساب حقّ، بيد أنَّ رحمتَك ما يرجوهُ عاصٍ مثلي يخشى مِن الغيبِ رغم إيمانهِ المطلق به».

يتوجّبُ عليهم حينها أن يتركوني في ثلّاجة الموتى ليومين فقط، وأن يتفقّدوني بين السّاعة والأخرى للتأكّدِ فعلًا من موتي، فإن تيقّنوا فليأخذوني ويضعوني في ***«الفسقيّة»*** الّتي أعددتُها لهذا الغرضِ المُخيفِ مسبقا. أكّدي عليهم _أرجوكِ_ أن يُرَخُّوا الكفنَ عن جسدي، وأن يفتحوه من جهةِ الصّدر والرّأس، وتكفيني بعدها «فاتحةُ الكتابِ» دون مواعظَ يحفظها الجميع عن ظهر قلب قبل أن يغلقوا عليَّ مرقدي الأخير ويغادروا.

أقول هذا محاولًا أن أتعاملَ مع خبرِ موتي بطريقةٍ طبيعيّةٍ متناسيًا واقعي المحيط بي؛ حتّى إذا فكّرتُ بمنطقيّة عدتُ ضاربًا المنطقَ بعرضِ الجنون متسائلًا: «كيفَ سيتسنّى لي أن أعبّر عن رفضي إن لم يرق لي شيءٌ أثناء الجنازة؟» إذ لطالما تساءلتُ إن كان الميت راضيًا عن بروتوكولات جنازتهِ أم لا؟ وماذا لو حقَّ له أن يُبدي رأيه فيما هو ماضٍ إليه.

لطالما ضحِكتِ من وصيّتي ومخاوفي، ومن هذه الشّروط الغريبة، ولكنّني لم أخبرك مسبقًا أن مجرّد سماعي لقصّةِ ميت استيقظَ أثناء تغسيلِه، أو وضعه في القبر، أو في ثلّاجة الموتى كان يصيبني بالذّعر؛ فماذا لو كنتُ أنا ذلك الميت؟

- بدأت أخاف الموتَ بسببك. **قلتُها مبتسمةً ببلاهة دون وعيٍ منّي رغم امتعاضه.**

- إذن لا تحبِّي الحياة.

- وإن فعلتُ أو غُرِّر بي؟

- لن تبتسمي حينها عند تذكّره.

- سأبتسمُ دومًا.

- ابتسمي إذن ولا تقاطعيني مجدّدًا لو سمحت.

قالها ممتعضًا مِن مقاطعتي إيّاه، هازًّا رأسه تعبيرا عن تطفّلي الدّائم على أفكاره ووقته، ثمَّ وبعد أن أغمضَ عينيهِ راح يُملي عليّ مرّةً أخرى:

- رغمَ إيماني بأنَّ جثّتي أو رفاتي بعد موتي لن تخرج من هذه الجزيرة، ولن تروها قطّ؛ غير أنّي لا زلت آملُ أن يتسنّى لي ولكم ذلك، فقد أُخبِرتُ أنّ المساجينَ الموتى هنا يتمتّعون بعد موتهم بحقٍّ لم يحصلوا عليه في حياتهم، وهو السّماحُ لهم بمغادرة هذه الأسوار سريعًا، وإبلاغ ذويهم مباشرةً بأن ميِّتَهم الضّائعَ كان أحد الجرذان في معامل طغيانهم.

إن لم يحدث هذا أيضًا، فقد تتولّى ممرّضتي عناء إخباركم بهذا يومًا ، لكنَّ «قد» هذه تفيد التّشكيك لا التّحقيق بسببِ ما يحيط حياتنا وموتنا في هذه الجزيرة من ضبابيّة مبهمة؛ أضافت لمخاوفي مخاوفَ جديدةً لتخلِّفَني كالمستجيرِ من الرّمضاء بجهنّمَ ذاتها.

التّفكير بالأمر يرهقُني، وكذلك تصنعُ الأفكارُ بمن يحترفُ التّحليل والتّمحيص لأمورِ الحياة، فجميعُ مخاوفي اللّحظة لم تكن إلّا نتيجة أفكارٍ وتأمُّلٍ في فلسفات الحياة والموت، لذا لم أخشَ هذه الفكرة في العشرين من عمري

بتاتًا لا لأنّني لم أفكّر بها؛ بل لأنّني لم أتأمّلها كما يجب، دلالةً أنَّ الاهتمامَ بالتّفاصيلِ الصّغيرة لن يريكَ إلّا التّفاصيلَ الصّغيرة لا مجملَ الشّيء.

عزيزتي:

تنقرُ بدلًا عنّي لكتابة هذه الرّسالةِ على أزرارِ الحاسوب الآن ممرّضةٌ حسناء رقيقة تدعى ***«ريم»***، وهي ممرّضةٌ بقلب دافئ قادها حظّها العاثر أيضًا للعمل في مشفى جزيرة الشّياطين هذه.. هذه الّتي تقعُ في أدنى الأرض والجهة المظلمةِ منها؛ والّتي لم أتوقّع يومًا أن يصارعَني الموتُ مجدّدًا وبشدَّةٍ في إحدى مشافيها اللّعينة، بمقدار عدم توقّعها أن تعملَ ممرّضةً في مشفى كهذا يقع في سجنٍ كبيرٍ اسمه ***«سنبار»***.

- أعجَبني الوصف، يسعدني هذا. **ضحكتُ هذه المرّة.**

- وصف الجزيرة؟

- وصفي كحسناء رقيقة.

بدا عليه الامتعاض مرّةً أخرى، فتظاهرتُ _هربًا من التفاتته نحوي_ بتشكيلِ بعض الحروف على الحاسوب كيلا يوبِّخني؛ ثمَّ تابعَ بعد أن أفَّ لمرّاتٍ متتالية:

- ***ما*** إن تبادلتُ معها الحديث في قسم دخول المرضى بعدما اقتادوني من السّجن وقد ساءت حالتي؛ حتّى قرأتُ في ملامحها وتعابيرها أنّها عرفتني...

لم أتخيّل مُطلقًا أن يتعرّفَ عليّ أحدٌ _في المشفى الأشبه بالسّجنِ الّذي جاؤوا بي منه_ أو يراني كما كان يراني النّاس في وطني؛ لذا قلتُ لها على الفور بعد أن شعرتُ بأنّها ربّما تصدّقني وقد كذَّبني الجميع: نعم أنا الشّاعر «*أصلان باكير*».

(2)

الولادة والموت

لم أصدّقه بدايةً لكنّني لم أستطع تكذيب أذني الّتي باستطاعتها التقاطَ صوته مِن بين كلّ أصوات الشّعراء، بل والرّجال أيضًا في العالم. لم أصدّقه لأنّني رأيتهُ كإحدى معجباتهِ مِن قبل مرارًا في الوطن آخرها قبل خمسِ سنوات. نعم بدا حينها غريبًا وشاردًا بعض الشّيء على المِنبر بعد انقطاعه المفاجئ عن الظّهور لسنوات طويلة تردّد فيها أنّه يخشى الظّهور في الأماكن الكبيرة خشيةَ اغتياله، بينما راحت بعض الأقاويل تؤكّد مرضه؛ والكثير من الإشاعات الّتي دارت حول مرض صوتيّ ألمَّ بحنجرته؛ لكنّه لم يكن على هذه الحالةِ قطعًا، إذ لم أرَ أمامي حينَ حدّثني سوى وجهٍ مشوّهٍ وجسدٍ هزيلٍ سمحت الحروقُ المنتشرةُ فيه للأمراضِ بكرمٍ باذخٍ أن تنالَ نصيبها الكامل منه.

كنتُ قد احتفظتُ بالكثير من أشعاره صوتًا وصورةً في مكتبتي الرقميّة؛ كإحدى أشدِّ المعجبات بشعرهِ حدَّ الثّمالة... طلبت إليه أن ينشدَ بعضًا من قصائده لأتأكّد من شخصه على خجلٍ وحياء منه ففعل؛ لا رغبةً بالتّعريف عن نفسه، بل لأنّه بحاجةٍ لاسترداد ذاتهِ عبر تنفيسِ غضبهِ شعرًا؛ وبتقنيّتهِ الأدائيّة تمامًا مع ابتسامةٍ تكادُ تمزّق جلدَ وجهه المشوّه إن فكّر باستبقائها لثانيةٍ أخرى حين ترتسمُ خطفًا عليه.

- أنا من قرّائك، من عشّاقك، من المتيّمين بك، بل في الحقيقة أنا من أشدّ المعجبات والمولعات بك... أنا لا أكادُ أصدّق نفسي بأنّني في حضرتك الآن.

ورحتُ أتحسّس جسدي لأتأكّد من وجوده بجانبه.

قلتُها بثقّة مع أنَّ ملامحَه الجديدةَ الّتي خلَّفها انفجارٌ وحريق لا تدلّ على أنّه الشّاعر الّذي أعرفه... صوتُه قد يدلّ عليه. عيناه النّاعستان مَن الممكن أيضًا أن تدلّا عليه رغم أنّه لا يفتحُهما إلّا نادرًا، وكأنّه يومَ سُجن ارتضى أن يُحبسَ في ذاتهِ أوّلًا قبل جسده.

نعم، فالحرب العالميّة الرّابعة قد قلبَت أوراقنَا بالكامل. قلبت أوراقَ أوطاننا، وأوراقه، وأوراقي أيضًا حينَ أجبرتني على العملِ في مشفى الجزيرةِ القميء هذا. والحرب مَن أودعتني هذا المشفى الّذي استدعتني إدارتهُ على عجالةٍ؛ وأوكلت لي مهمّةَ العنايةِ بسجينٍ مسنٍّ يعاني من مرضٍ عضال قبل أن تكشف الفحوصات آنفًا أنّه مرض تيروم النّادر.

تسلحفتُ بمشيتي معتقدةً أنّ المريضَ سنباريّ حيث لا يكون هذا الاستدعاء الطارئُ والاهتمام إلّا بالمرضى السّنباريّين؛ حتّى إذا ولجتُ قسمَ استقبال المرضى فتُرَ هذا الاهتمام سريعًا وقيلَ لي دونَ اكتراثٍ بأنّ المريضَ لا يتحدّث، وأن أيّامه معدودة، وأنّه نُقل مِن سجن الجزيرة إلى مشفاها بناءً على ضغط من منظّماتٍ حقوقيّة لا أكثر... تعجّبتُ أكثر وأكثر من هذا الكرم المفاجئ لأنَّ هذا لا يحدث عادةً في مجتمعٍ لا يحترم الإنسان حيًّا ولا ميتًا، بينما أزاحت الصّدمةُ دهشتي بعد اكتشافي أن مريضي هو شاعري المفضّل الّذي لا يعرفُه ولا يعترفُ بشخصيّته الحقيقيّة أحدٌ هنا؛ رغم أنّه يومَ تمَّ القبض عليه في عرض البحر أقسم أنّه الشّاعر المشهور، دونَ أن يجدَ مّن يصدّقه ناعتينَ إيّاه بعد جوقةٍ من السّخريةِ بالمجنونِ الخَرف.

لماذا أنا تحديدًا؟ سؤالٌ يخطر لي فَرِحةً لحظةَ تذكّري بأنَّ الرّجل الّذي يُملي عليّ أفكاره مِن على فراشه هو الرّجل الّذي تمنيتُ لقاءه طوال عمري؛ غيرَ مصدّقةٍ أنّي أجلسُ بجانبِه كشاهدة أخيرة على حياته عبرَ نصوصٍ ورسائلَ طلبَ منّي أن أساعده بطباعتها وحفظها؛ لإغلاق الكتاب الأخير في مسيرة حياتهِ حسب وصفه.

- هل باستطاعتك المشي؟ **قلتها «بالسّنباريّة» ظنًّا منّي أنّه من سكّان الجزيرة فورَ استدعائي.**

- مريضُك عربيّ، بإمكانك أن تتحدّثي لهذا اللّعين بلغتك إن قبِلَ التحدّث إليكِ. **قالها الجندي السّنباريّ الّذي قاده إلى المشفى.** لقد اقتربَت القيامة فعلا.... عربيّ ويحظى باهتمامٍ من إدارة السّجن والمشفى! **وكاد أن يبصقَ عليه لولا أن تراجع في اللّحظة الأخيرة حين تذكّر أنّه محاط بطاقمٍ طبّي لا حرّاس السّجن.**

لم أتحدّث العربيّة هنا منذ جئت إلّا نادرًا مع الهندي ***«دن»***، إذ لم أقابل عربيًّا في مشفى الجزيرة، ممّا دفعني للتّساؤل بفرحة: «أنت عربيّ؟!» لم يُجب بدايةً لكنّ لمعةً في عينيه، وابتسامته الغامضة دفعتا بي أن أطيلَ النّظر إليه بفضولٍ أرعن... نظر إليَّ بعدها نظرةً تخلو من أيّ تعابير ودهشة، ثمَّ نقلها لوجهِ مسؤولةِ قسمنا ***«سيلا»*** قليلا قبل أن يصوّبها نحوي بهدوء ساحر. **{أعرفُ هذا الرّجل... التقيتهُ يومًا في مكان ما}.**

- هل أنتَ عربيّ؟

- ومِن موطنكِ أيضًا.

- مِن موطني؟! إذن تعرفني.

- بل أعرفُ وطني.

لم يستطع أن يقنعَ المحقّقين الّذين حقّقوا معه على عُجالة قبل إيداعه السّجن بتهمة ملفّقة؛ بأنّه ذاك الشّاعر الّذي اختفى في بداية الحرب دون أن يعرف أحدٌ مصيره، ولا اكترثَ المُترجم ضمن بروتوكولاتهم الكاذبةِ بهِ أو باعترافِه الواضح بكينونته كونه أحد المُطلوبين لدولتهم. وإذ لم يساوِ هذا المسنّ في وجهةِ نظرهم قيمةَ الملابسَ الّتي يرتديها فقد أجبروهُ أن يوقّعَ على ورقة التّحقيق الّتي كُتبت بلغةٍ لم يفهمها مقرًّا بتهمته الّتي تدينه للأبد دون أن يقومَ بها.

هذا وقد اعتبرته القلّة القليلةُ ممّن فهموا لغته العربيّة في السّجن أنّه مجنون يبحثُ عن أسرع طريقةٍ مضحكةٍ وغير منطقيّةٍ للموت كي يتخلّص من جحيمه؛ فطلبوا مَن السّجناء الآخرين أن يعترفوا أيضًا بمثل اعترافه، وينتحلوا شخصيّاتٍ مشهورة أيضًا لتكتمل الأحجية... لذا مارسَ الصّمت لسنتينِ تمامًا في زنزانته الواقعة في دولةٍ صغيرة كان لها الدّور الأكبر بتمديدِ فترة الحرب، وإشعالها كلما هدأت؛ فاقدًا اتّصاله _كجميع من قادهم حظّهم العاثر أن يكونوا على أرضها_ بالعالم الخارجيّ قسرًا.

انتظرَ الموتَ في زنزانته داخل سجنٍ يُعدّ أول منازل القبر قبل الموت، أو المرحلة الأهم الّتي يتمنّى فيها السّجين الموت لكي يتخلّص من عذاباته فيه، ثمَّ تقبّلَ أن ينادوه ب ***«معروف»***وفقَ الهُويّة الّتي وجدوها بحوزته ليلةَ القبض عليه في البحر.

لم يصدّقه أحدٌ أيضًا في هذا المشفى رغمَ إصراره على التّعريفِ بنفسهِ؛ واصفًا حجمَ الانفجارِ الّذي شوَّهه بالكامل طامسًا أغلب ملامح وجههِ وجسده.

- نعم، كانت تلكَ أمسيتي الأخيرة في بنغازي حين حدث الانفجار. **قالها متألّمًا مستحضرًا هذه الجملة من روحه لا من ذاكرته.**

- قبل ثلاث سنوات؟ **سألته لحثّهِ على الكلام فقط.**

- وجدتُ نفسي بعدها في مشفى بنغازي وقد راح طبيبٌ يسألُني عن اسمي فلمَّا عرَّفته بنفسي ضحك بشدّة ثمَّ تظاهرَ بأنّه يصدّقني قائلًا: «وبماذا تشعرُ الآن يا أستاذ أصلان؟». ولم أكن حينها قد اكتشفت أنّني نجوتُ بأعجوبةٍ من الموت، وأنَّ الانفجارَ شوَّه ملامحي بالكامل؛ فلم أعد أعرفني إن نظرتُ إليّ.

- ومعروف؟ **كسؤالِ مَن تعرف الإجابة.**

- أظنّه أحد ضحايا الانفجار، وقد تكرَّم عليّ مشكورًا بأن وضعَ قبل موته بطاقته في جيبي. **قالها ضاحكًا أو مخفيًا عنّي أشياءَ لا يريد لي فهمها كعادته.**

- ورضيتَ باسمهِ وببطاقته بعدها؟ **تساءلتُ مع أنّني لم أصدّق هذه الجزئيّة يومًا في حديثه؛ حيث إنّه أملى عليَّ مُسبقًا ما يؤكّد أنّه قابل معروفًا هذا، بيد أنّي لم أستطع الإفصاح عمَّا يجول في داخلي حينها.**

- لم يصدّقني أحدٌ سيما أنَّ بعضَ الأخبار الموثوقة _حسب زعمهم_ أكّدت هروبي قبل الانفجار بدقائق واختبائي خشيةَ تعرّضي للاغتيالِ مرّة أخرى؛ ناهيك عن الأخبار الموثوقةِ أيضًا الّتي تداولت خبرَ حرقي وقذفِ جثّتي في البحر وما شابهها من أكاذيب باطلة.

- كنتُ أشعر بأنّك حيّ.

- إن اعتبرتِ أنّني حيٌّ الآن فأنت صادقة. أظنّ أنّني متّ يومَ لم أستطع الحديثَ والتّعريفَ بهويّتي الحقيقيّة بدايةَ الأمر في مشفى بنغازي، ثمَّ يوم خشيتُ من الموتِ في تلك المدينةِ متنكّرًا لشخصيّتي ثلاثة أشهرٍ على الأقل؛ بعد تأكّدي بأنّني المُستهدف الرّئيس في ذاك التّفجير، وأنَّ الجناةَ ما زالوا يتوعّدون الشّاعر الزنديق لقتلِه، أو يومَ انتحلتُ الاسمَ والتزمت الصّمت منتظرًا شفائي والعودة إلى وطني، لكنّني وجدتُ نفسي بعدها صامتًا باسمٍ مستعار وفي قبضةِ مَن؟! في قبضةِ مَن يطالبون برأسي جهارًا نهارًا! أولئك الّذين ما إن وقعتُ في أيديهم حتّى رفضوا تصديقي أو فهمي، بل واعتبروني رجلًا مجذوبًا لا قيمة له.

لن أنكرَ أنَّ الخوفَ بدايةً مَن فرضَ نفسه، وأقنعني أن أتشبّثَ بالحياة مهما كانت مجّانيّة ودونما قيمة تذكر، لكنّ الأملَ وحده في النّهايةِ من جعلني أقبل بالتّستّر بشخصيّة معروف. هو جبنٌ لا مفرّ منه حتّى في جحيم السّجن، لأنّنا ورغم كلّ شيءٍ نتمسّك بوهم الأمل عندما نشعر بفقدانه.

- بينَ شاعرٍ معروف وبين معروف مفارقةٌ غريبة. **خرجت منّي كتنهيدة.**

- بين الإنسانِ الّذي يملُك أمرَه، وبينَ مَن تملكهُ الظّروف تمامًا مفارقةٌ أغرب.

ولأنّها فلسفةُ الحرب الّتي لم تنتهِ بعد مَن تحكمُ الزّمن والأمكنة حاليّا؛ ولا مناص من الرّضوخ بالكاملِ لها، ولأنَّ المشفى تابعٌ إداريًّا للسّجن فما إن وصلنا إليه من أوطاننا البعيدة المتفرّقة كموظّفين عبر الحيلة والخديعة؛ حتّى مُنعنا من الاتّصال الخارجيّ مع أيِّ جهةٍ ولأيّ سبب؛ ومِن الإدلاء بأيِّ معلومةٍ ولو تافهة عن حالةِ أيّ مريضٍ أو زميلٍ من كادرِ المشفى لجمعيّات حقوق الإنسان أو المنظّمات الدوليّة المنحازة كعادتها لنظام الدّكتاتور الّذي حكم الجزيرة؛ خشيةَ أن يكون بيننا عميلٌ أو جاسوس أو معادٍ للجزيرة

وسياساتها القمعيّة، لذا لم نتعجّب حينَ عُوملنا كمساجينَ بدرجةٍ مميّزة؛ لايُسمح لهم بالتنقّل بحرّيّةٍ إلّا بين المشفى ومبنى الموظّفين؛ كي ننتظرَ انقضاءَ مدّة العقد الّذي خدعنا يوم وقّعنا عليه فرادى؛ وفي أوطانٍ وأزمان وظروفٍ مختلفة لنيلنا حرّيتنا، في الوقت الّذي تمتَّع الموظّفون السنباريّون بحقوقهم الكاملة فيه داخلَ وخارج أسوار المشفى.

لم نتعجّب أيضًا حين اقتصرت معظم أسرّة القسمِ الّذي نحن فيه على أسرى الحرب، والقليل منها على سجناء الصّدفة من هنا وهنا، والّذين اتّهموا بُتهمٍ باطلة لسبب بسيط وهو: أنّهم ليسوا سنباريّين فقط... حتّى إذ قارنّا بين قسمنا وقسم الجنود السّنباريين وجدنا أنّنا نقارن بين الموتِ والحياة.

لم أستطع تقديمَ أيّ شيءٍ له بدايةً، لأنّني لم أستطع تقديمَ أيّ شيءٍ لي بالمقابل، فأنا سجينةٌ مثله برادءِ ممرّضة لا أكثر. سجينةٌ انقطعت عن ذويها وأهلها وعالمها البعيد في الوطن بالكامل ما إن حطَّت قدماها أرض هذه الجزيرة. سجينةٌ ربّما وضعتها أمّها وزوجها ***«جاد»*** على قائمة المفقودين أو المخطوفين في هذا العالم البائس.

{لا، لن يكترثا بك، ربّما منحا غرفتَك لأحدِ أبنائهما شاكرين الله أنّهما تخلّصا منك... ربّما لملمَ جادَ حاجيّاتك فورَ رحيلك وقذفَ بها إلى القبو تحت مباركة أمّك... ربّما همسَ في إذنها ناسجًا بعض الأكاذيب الّتي خشيَ من التّصريح بها وأنت بين ظهرانيهم؛ فشهقت أمّك ضاربةً على صدرها باصقةً على صورتك الّتي كانت آخرَ ما قذف به إلى القبو... لن ينتصرا عليّ مهما حاولا... سأعود يومًا وأبرهن له أنّه كاذب وأطرده من بيت أبي. نعم هذا بيت أبي الّذي لا يحقّ له أن يحيا فيه للحظة. كنتُ ضعيفةً حين صمتُّ عن وجوده وأولاده في منزل أبي، لكنّني الآن لن أسمح بذلك، ولن أسمحَ أن ينسجَ أكاذيبَ تتعلّق بتصرّفاتي معه... ريم... أنتِ تتحدّثين مع نفسكِ لا مع أمّك. أيّ أكاذيب تلك الّتي تريدين

دحضها أمامَك بأكاذيب أكثر افتراءً؟ تعلمينَ أنّهما لن يفعلا ذلك، وتعلمين جيّدًا أنّ جادًا يجيدُ الصّمت إجادتَه التّجاوز الذّكيّ عن تصرّفاتك وحماقاتك وإساءاتك الموجّهة له ولأولاده... أكرههُ. كيف لا أكرههُ وقد.... لا تكملي... أرجوك... لا تكملي}.

أشتاق لمنزلي بقدرِ اشتياقي للتنزّه بحريّة في شوارع وطني، أشتاق لنافذتي المطلّة على جرفٍ صخريّ تنثال منه نبعةٌ لا يكاد يُرى أو يجري ماؤها بين الحجارة والأتربة لشّحها؛ لكنّها بارعةٌ باستقطاب العصافير والحمائم البرّية والغربان للتّهافتِ عليها باستمرار.

- أتمنّى ألّا يطرأ أيّ تغيير على هذا المنظرِ حتّى عودتك. **قالها جاد وقد وضّبتُ حقائبي وتهيأت للرّحيل بعدما حانت منّي التفاتة إلى النّافذة.**

- لم يتغيّر شيءٌ هنا مذ ولدت إلّا حلول الدّخلاء في منزلِ أبي. **قلتها كمن نفذت رائحةٌ كريهة إلى أنفه فجأةً.**

- السيّارة بانتظارك. أتمنّى أن تتّصلي بنا فور وصولك للاطمئنان عليك. **تجاوز أسلوبي في الحديث كعادته بعدما كتمَ زفرةً كادت أن تنبثقَ عن صدره.**

- هذا أمرٌ لا يعنيك. أنت مصرٌّ على مضايقتي حتّى اللّحظة الأخيرة. لا يحقّ لك أن تمارسَ دورًا ليس لك. أرجو أن تفهمَ هذا جيّدًا.

- نعم أفهم وأتفهّم هذا. **ولم تشِ ملامحُه إلّا بالشّفقةِ على حماقتي.** لكنَّ والدتك تمارس دورها الّذي هو من حقّها فلا ضيرَ أيضًا مِن ممارستك لدورك كابنةٍ لها وتوديعها إن سمحَ بذلك قلبُك. **وندّت عن عينيهِ نظرة تحدٍّ واستهانةٍ بي.**

- ليتها مارست دورها الّذي تتحدّث عنه يومًا لكنّها لم تفعل... دورُها أن تعتني بابنتها لا أن تتزوّج بك يا سيّد... بإمكانك أن تنقلَ لها سلامي الفاتر على أملِ أن تبتلعني **«جنيف»** وتمنعني من رؤيتكما مجدّدًا.

انطلقتُ جارّةً حقائبي غيرَ ممانعةٍ أن يساعدني بهدوئه ورباطةِ جأشهِ على ذلك، هابطةً السّلالم ببطء مستسلمةً لعناقِ والدتي الّتي وجدتها بانتظاري عند الباب الخارجيّ.

ربّما لم أستحقّ وداعها الحارّ لأنني لا أحبّها لكنّني أستحقّ بالتّأكيد اللّقاء الأحرّ بشاعري؛ الّذي كثيرًا ما طالبني بحذف ما يمليهِ عليّ فورَ قراءتهِ بصوتي على مسامعه، لذا لم أحتفظ بنصٍّ واحد في حاسوبي خلالَ الأسابيع الأولى؛ غير أنّي رحتُ بعدها أحتفظُ سرًّا بجميع ما يقوله على اعتباره كنزًا قادما؛ في ملفٍّ يحملُ أيضًا بعض تفاهاتي الكتابيّة ومحاولاتي اليائسة الأدبيّة من خواطرَ ومذكّرات وأشعار رديئة؛ بعدما سمحت لي إدارة المشفى بالاحتفاظ بحاسوبي الشّخصيّ طالما أنّه لا يشكّل وسيلةً للاتّصال بعالمنا الخارجيّ، ناهيك أنّهم اعتبروا شاعري مشعوذًا قد يتحوّل غضبهُ منهم للعنةٍ قد تصيب أحدهم كما حصل مع زميلنا **«باف»** بعد فقدانِه لعينيه جرّاء استهزائه وإثارتِه لغضِب أصلان؛ الّذي انتقمَ منه وأحلَّ لعنتَه عليهِ في اليوم التّالي وفق مزاعمهم... أحيانًا كنتُ أشعرُ أنَّ الإدارة خصّت هذا الرّجل بشيء من الاهتمام الخفيّ لسببٍ ما، ثم يتبدّد هذا الشّعور حين يتجاهلونَ وجودَه غير عابئين بما يحتاجه من فحوصات ومتابعة؛ لكنّهم لم يمانعوا مطلقًا بأن يموتَ بشكلٍ طبيعيّ على غير عادتهم.

كثيرًا ما اعترض على علامتيْ التّنصيص هذه **{ }** حينما كنتُ أُكثِر من استعمالها لحديث النّفس أو الاستبطان الدّاخليّ؛ كجمل مهمّة تتخلّل

السّطور بعشوائيّة ضمن خربشاتي... لم أكن طبعا مقتنعة بما أكتبه وهذا أمر طبيعيّ؛ لكنَّ مِن غير الطّبيعيّ ألّا يقتنعَ هو بأسلوبهِ مردّدًا على الدّوام: «يبدو أنّني فقدت مهارتي في الكتابة، أو أنّ القلمَ شاخ مثلي». ثمَّ وبعد أن يصمت طويلًا باديًا عليه الحزن يسألني السّؤال ذاته: «كيفَ لقلمي أن يقتنع بأنّني أصلان ولست معروفًا؟».

أضحكني هذا السّؤال بادئ الأمر، لكنّني رحت أثنيه عن تكراره لِمَا ألمس من وجعٍ حقيقيّ فيه، قائلةً عقب هذه الجملةِ دومًا: «جميع ما تكتبهُ في غاية الرّقّة، لا أعلم لمَ تصرّ على أنّه لا يليق بك رغم جماليّته وعذوبته!».

كرّرتها كثيرًا مع أنّني كنتُ أحيانًا ألمس ركاكةً غريبة في بعضِ نصوصهِ، أو بعض التّناقض في الأحداث الّتي يستحضرها من ذاكرته؛ إضافةً إلى الطّلاسم الكلاميّة والحَدَثيّة غير المترابطة، لكنّني استمعتُ وكتبت فقط دون الالتفاتِ والتّعقيبِ على تناقضاتهِ هذه... أحيانًا كان يسألني عن المدّة الّتي قضاها في غيبوبته رغم أنّه لم يدخل في غيبوبةٍ أصلًا! وأحيانًا كان يتحدّث لي عن البارحة رغم أنّه دخل في غيبوبةٍ لأسبوع على الأقلّ... يتحدّث بعدها بعيون وطريقةٍ تُشعرك أنّه جاءَ من كهفٍ مظلم، أو من داخل بئرٍ لبثَ فيه بضعَ سنين.

لم أستطع مصارحتَه بأنّ العمر، والمرض، والذّاكرة، والأحداث، والحرب قد تلتهمُ الإنسان فكريًّا من الدّاخل كما التهمته تعبيريًّا من الخارج، وقد تشرب الحبرَ في القلمِ الفتيِّ قبل المسنِّ منه _إن أرادت_ تاركةً له بعضَ قطراتٍ ليبلّ بها حلق الورقِ الظّامئ المبحوح بحروف الرّثاء، فكيف به هو وقد تعرَّض للسّجن والتّشويه والطّمس؛ والتّنكير أيضًا؟!

كما لم أستطع إلّا كتم غيظي واستبداله بابتسامةٍ رغم أنّه لم يردّ على تحيّتي المسائيّة؛ محدِّقًا على غيرِ عادته بساعةِ الحائطِ الّتي توقّفت عند الثّانية عشرة، مذ طلبَ منّي أن أوقفها عند هذه السّاعة تحديدًا، وقد تساءلت إن كان ينظر فعلًا للسّاعةِ أم أنَّ عينيه تتّجهان نحوها بشكلٍ لا إراديّ؟

- الوقتُ هو ما نشعرُ به. السّاعات هذه وُجدت لكي يحتكِمَ النّاس إليها في معاملاتهم؛ لا لشعورهم الحقيقيّ بصدقها. يبدو هذا عادلًا ومجحفًا في آن واحد، ثمَّ إنّه تحتَّم عليهم ألّا يضعوا ساعةً أمام المريض في غرف المرضى كجزءٍ من جدرانها غصبًا بحيث لا يستطيع المريض قلعَها وقذفَها من النّافذة.

- أوافقك بالتّأكيد لكنّني قلتُ «مساء الخير» خمسَ مرّات ولم ترد.

- بل أربعا فقط.

- ولماذا لم ترد؟

- لأنّني لم أسمع.

هذه طريقته الّتي تدفعك للحيرةِ أو نعته بالغريب، وأسلوبه الّذي تتعجّب منه كلّما عاملك به بلا سبب، ولأنّني اعتدت على هذا فلم أعد أغضب منه.

- هل ستحذفُ نصّ البارحة أيضًا؟ **سألته بعد أن جلستُ في مقعدي بنشاطٍ وهيّأتُ حاسوبي للعمل بينما تردّدَ قليلا بالإجابة وتململَ في مكانه.**

- سأسمعه منك أوّلًا كيلا يعجبني؛ لأقول لك احذفيه ولنبدأ من جديد، هل تسمحين بالقراءة؟

- شعرتُ بتردّدك! **قلتُ هذا من باب المماحكة ليس إلّا.**

- لأنَّ الإجابةَ الّتي يتردّد صاحبها ويتململُ قبل البوح بها عقب سؤال بديهي إجابةٌ غير حقيقيّة.

- ولمَ لا تكون وأنتَ صاحب القرار في النّهاية؟ **رفعت حاجبيّ.**

- يحيا بنا نقيضان فلا نعرفُ برأي مَن نأخذ مِن بينهما.

- أنتَ تراوغ حتّى في الإجابة.

- التّناقض يجبرنا على هذا. **ضحك.** هل تسمحينَ بقراءة النّص؟ **قاطعًا عليّ الحوار.**

- شيءٌ ما يلتهمني من الدّاخل مصرًّا على التهامِ ذاكرتي أثناء تآكلي...

- يكفي، سأكرّر نفسي مجدّدًا من خلال هذا الموضوع. هي تحفظ وصيّتي أكثر منّي؛ ثمَّ من الجنون أن أوصي بشيءٍ لا أعتقد مطلقًا بحدوثهِ وتحقيقِ أبسط ما فيه، ناهيك أن جثمَاني سيصل إليهم مُتعفّنًا فلا حاجة لهم أن يضعوه في ثلّاجةٍ ولا خزانةٍ حينها.

- أعدكَ أن...

- لا تكملي، الظّلَمَة لا يُجبرون على شيء. **قاطَعني رغم حماسي.**

نعم لم يكن البرّ بالوعدِ سهلًا في جزيرةٍ يحكمها ديكتاتور ترَك لعصابته التحكّم برقاب النّاس... ديكتاتور أنفق مليارات الأموال على الجيش، والتّسلّح الضوئيّ، وبناء السّجون بكرمٍ باذخ بينما بدا بخيلًا دون ذلك.

لم يكن سهلًا لأنّني ككلِّ الأطبّاء والممرّضين نؤمن بحقيقةٍ لا يمكن الخلاص منها وهي: أننا عبيدٌ جُدد قِيدوا للعملِ خداعًا؛ بعدَ أن جُرّدوا من حقّ الرّفض، أو المغادرة، أو الاعتراض حتّى... كلّ ما علينا فعله هو أن نعمل وندَّخر رواتبنا حتّى تنتهي الحرب أو مدّة العقد، ثمّ العودة إلى أوطاننا إن سُمِحَ لنا بذلك أسوةً بأولئك الّذين انتهت عقودهم وغادروا.

شككتُ بأمر الخديعةِ قبل تأكّدي منها فقط في الطّائرة الّتي لم تهبط بعد ستّ ساعات في ***«جنيف»*** _كما قيل لي فورَ توقيعي للعقد أو الفخّ المتقن_ بل بعد أيّامٍ وعبر عدّةِ مطارات في جزيرةِ سنبار؛ الّتي اقتادني منها للمشفى ثمَّ سَكَّني جنودٌ مُرتزقة، ومترجمٌ عربيّ بالقوّةِ النّاعمة.

- هذه غرفتك... سيحضرُ المسؤول عنك بعد قليل لكي تستلمي مهامك في صباح الغد. **قالها لي أحدهم بلطافةٍ آمرة مقيتة كوجهه.**

لم أتحدّث لغتهم الهجينة من قبل، لكنّني تعلّمتها بسرعة بعد وقوفي على الحقيقة المؤلمةِ الّتي تقتضي بقائي هنا قسرًا حتّى انتهاء العقد أو ربّما الحرب. قناعاتي هذه ورضوخي للحيلة أمرٌ واقعيّ استسلمتُ له كجميعِ مَن تعرّضوا للمكيدة ذاتها .

استطاعوا بهذه الطّريقة صيدَ العقول الفذّة من جميعِ أنحاء العالم ثمَّ سجنهم بطريقةٍ حضاريّة، بل واستطاعوا إقناعَ المجتمع الدوليّ المنحاز لهم عندما رفضنا العمل فورَ وصولنا واكتشاف الخديعةِ أنّ عقود العمل سليمة، وأنّهم سيسمحون لنا بالمغادرة بعد انتهاء العقد فورًا، أي بعد ستّ سنوات بناء على عقدهم المزيّف.

- إذن كنتِ ممرّضةً بارعة في الوطن؟ **جاملني أصلان لا أكثر بهذا السّؤال.**

- أظنّهم كانوا واهمين حينها، لا أتذكّر أنّي برعتُ في شيءٍ يومًا إلّا في الحمق والسّذاجة، لو لم أكن كذلك لمَا خدعوني بهذه البساطة.

كنتُ أعلم أن سبب اختيارهم لي من بين مئةِ شخص تقدّم للوظيفةِ في الوطن جاء نتيجة براعتي في التّصوير ***«النّاني»*** وتعاملي مع جهازه الحديث بإتقان فريد، لكن حماقتي مَن أوقعتني في أسرهم الحضاري، وإذ رفضتُ العملَ مصرّةً ثائرةً على خداعهم أوكلوا لي مهمّة الاعتناء بالسّجناء شبه الموتى عقابًا لكرامتي كممرّضة عنيدة. **{نعم... تستطيع الاعتراض بدايةً لكنَّك لا تستطيع الاستمرار به بعد أيّام}.**

خدعوني بورقة تحملُ بنودًا مزوّرة على عكس العجّان الّذي خدعَني بكلماتٍ بسيطة؛ لأقرَّ ما بيني وبيني أنّني حمقاء متسرّعة مستذكرةً ما قاله لي أحدُ المارّة حينها: «هذا الرّجل كاذب فقد رمى بنفسه عامدًا متعمّدًا أمام سيّارتك، لقد شاهدته بأمِّ عيني، إيّاك أن تتركيه يستغلّك».

- لعن الله أمَّكَ على أمِّ عينكَ يا ابن الاستغلاليّة. **قالها العجّان وهو يرفسُ بقدميه من الألم الأرضَ والهواء كديكٍ مذبوح.**

بدا ممثلًا بارعًا فكذّبتُ عيني والقائل محاوِلةً إسعافه. كدتُ للحظةٍ وقد شعرت أنَّ أنفاسَه انقطعت أن أجري له تنفّسًا اصطناعيًّا؛ لكنّني جثوتُ بجانبه ورحتُ بخبرتي التّمريضيّة أفحصه بعناية مساعدةً إيّاهُ ببطء على النّهوض. عندما هدأ راح يتكلّم بلطفٍ وودٍّ كبيرين، ثمَّ اعتذر لي عن شتائمه وغضبه شاكرًا الله على أنّه لم يتعرّض لأذى بالغ يُقعده عن السّعي في عملِ الخير؛ والتّطوّع لخدمةِ النّاس الطيّبين.

- أتحمَّل مسؤوليّة هذا الخطأ، لقد أثقلتني الهموم يا ابنتي فلم أنتبه للطّريق. اعذريني لترويعك، أرجوكِ. **قالها بدفءٍ غريب جعلني بعدها أتعاطف مع ظروفه السيّئة الّتي راح يقصّها عليّ بالمجّان.** باركَ الله فيكم. بإمكانكم المغادرة. شكرًا. شكرًا. **وجّه كلامه للمتجمهرين من حولنا.**

تفرّقَ النّاس عنّا بين راثٍ ومشفقٍ لحالِه وبينَ متشكّكٍ بأمره، واستأنفَت الحركة المروريّة نشاطها فيما راحَ يتحدّث إليّ بدفءٍ أبويّ لا يُقاوم.

هذا الدّفء كلّ ما كنتُ أحتاجُه طوالَ عمري ولو خِداعًا، فمذ طار والدي على أكتافِ أولئك الرّجال إلى محطّته الأخيرة؛ وأنا أحيا في صحرائي الباردة. منذ ذاك الحين وأنا أعيش في تناقضات الأبوّة والرّجل، فتراني أكاد أتمنّى أن أحظى بعناقٍ من رجل مسنٍّ كي أشتمَّ عواطف أبوّته وحنوّه، ثم سرعان ما أشعرُ بالتقزّز من هذا الشّعور المريض... أردتُ احتضانه حينها والبكاء على صدره غيرَ أنّه تهاوى ببطءٍ على مقعد السيّارة متأوّهًا؛ لأنطلقَ بها نحو منزلِه عبرَ طريقٍ امتدّت لساعتين على الأقل؛ شعرتُ خلالها أنّ الحادثةَ أثّرت على تركيزه فأفقدته بوصلة الجهات الّتي أخذتنا يمينًا وشمالا ودورانًا ورجوعًا؛ لأكتشفَ بعد ذلك أنّه قادني لدهاليز مروريّة تمنعني _مهما تذكّرت وحاولت_ مِن معرفةِ النّقطة المركزيّة الّتي قادني إليها.

الدّفء... هذا ما كنتُ أحتاجه فخدعت به... وهذا ما نلتُ منه القليلَ في أحد مشافي الوطن حين غمرني مسؤولي المباشر ***«أبو سند»*** بهِ متغنّيًا بي كابنته. راحَ يُكثر لي من الدّعاء والهدايا مُشجّعًا إيّاي على تطوير نفسي وشهادتي حاثًّا باستمرار على هذا. لطالما خصَّني بلطفهِ رغم حزمهِ وقسوته مع الآخرين؛ إذ لم يكن متساهلًا مع أيّ هنةٍ بسيطة في العمل والسّلوك فتراه

يضخِّمُ الأمرَ معاقبًا ومحاسبًا بصرامةٍ جعلت منه رجلا مهابا ليس في مشفانا فقط؛ بل وفي جميع المشافي الّتي لم يدخلها يومًا.

المسؤولون عنه قبلَ المسؤولين منه كانوا يرتجفون من شخصيّته القويّة الحادّة وانضباطهِ المبالغ فيه، ووحدي مَن حظيت بودِّه نافيًا أن يكونَ سببَ هذا بداتي المفرطة الّتي تهامسَ البعضُ بأنّها السرُّ خلفَ تعامله معي دون غيري بهذه الطّريقة الأبويَّة، ليردَّ على همساتهم الخائفة بمنحي ما لا يمنحهُ غيري مِن محبّةٍ واحترام.

لكنَّ المحبّة والاحترام لم يشفعا له عندي عندما رأيته يعانق ابنتَهُ في حفلِ زواجها الّذي دعاني إليه... رقصَ معها وعانقها وقبَّلها ودمعت عيناه، بينما تجمّدت عيناي قبل أن ترخي العنان لدموعها بالجري على خدي؛ لأنّني لا أمتلك أبًا يحمل كلّ هذه العاطفة تجاه ابنته كما فعل في تلك اللّحظة.

أخرجتُ من حقيبتي _وكأنّني خطّطت لهذا مُسبقًا_ مادّةً سريعة الاشتعال أنظّف بها طلاء أظافري وسكبتها على شرشف الطّاولة؛ قبل أن أشعلَها من الأسفل دافعةً إيّاها لتلتصق بستائرِ صالة الأفراح الطويلة، وأنتقلَ سريعا لطاولةٍ أخرى... بعد دقيقةٍ فقط بدأ الصّياح والصّراخ يُعزف من أفواه الحمقاوات اللّائي يحاولن دومًا الظّهور بمظهر الخائفات الحسّاسات من أيّ شيء ولو لم يكن مخيفًا.

اندلعت النّيران بالطّاولة والسّتارة قبل أن يهرعَ موظفو الصّالة ويطفئوا الحريق بسرعة عجيبة؛ وكأنّهم رجال إطفاء لا موظفو صالة أفراح... شعرتُ بالحمق بعد أن هدأ الجميعُ متضاحكين لاعنين الأطفال على هذه الأفعال الشّيطانية مع أنَّ الجميعَ برَّؤوا أبناءهم من هذا العمل. **{فأبناؤنا دومًا على حق}.**

استأنفوا الحفلَ كأنَّ شيئًا لم يحدث قبل أن أذهب مبتسمةً مباركةً للعريسين وللأب متمنّية لهم السّعادة؛ لاهجةً بالدّعاء والثّناء كذبًا وزورًا مستردّةً أنفاسي الّتي كدتُ أختنقُ بها أثناء جلوسي بعدها بأيّام في القسم؛ مُشاهِدةً أبا سند يحدّث بعض الموظفين برزانته المعهودة عن ابنته وزوجها وحفل زفافهما، قبل أن يشيرَ نحوي: «هذه ابنتي أيضًا بثوبها الملائكيّ، هذه ابنتي صاحبةُ القلب الطيّب والحاني».

حتّى إذا تحدّثنا بخصوصيّةٍ اعتبرني ممرّضةً عاطفيّة تحتاجُ للحزم في كثير من الأحيان كي لا يستغلّها الآخرون.

هي صفةٌ راح ينعتني بها دن كلّما بكيتُ بحرارةٍ جرّاء موت أحد المرضى، محاولًا دومًا مواساتي برقّة لم أعهدها من زميل لي مسبقًا؛ متفهّمًا حالتي الّتي قد تعتريه أيضًا كإنسان حقيقيّ لا يمكن له أن يسخّف حالةَ تعاطفنا مع الآخرين، لذا ترقرقَت دمعاته حين أجهشتُ بالبكاء إثرَ بتر الأطبّاءِ لقدمِ مريضٍ _كان من الممكنِ علاجها_ بأمرٍ من كبير الأطبّاء الّذي صرّح بأنّ عمليّةً كهذه ستستغرقُ ساعاتٍ على حسابِ قسمِ الجنود السنباريّين الأولى بها إن حدث طارئ... حاولَ بعض الأطبّاء التّمرّد على قراره فاستدارَ ذاهبًا بصحبةِ سيلا المباركةِ لقراراتِه عبر اشمئزازها من تصرّفهم ونعتهم بالأطفال؛ تاركًا لأمن المشفى السّنباري مهمّة إقناعهم بالامتثال للأوامر... بضعُ لكزاتٍ وصفعات وصرخات كانت كفيلةً أن يسخروا من جهلِهم الطبّي الّذي خيّل لهم للحظةٍ أنَّه من الممكنِ المحافظةُ على قدمٍ لا يمكن علاجها فعليًا إلّا بالبتر.

- هذه وحشيّة لا يمكن لنا السّكوت عنها. لقد بتروا قدمَه كحشرة دون أن يغمض لهم جفن. **ووضعتُ يدي على رأسي كأنّي أريد دفنه في وحل الحزنِ هروبًا من سطح الواقع المرير من هول الصّدمة.**

- خوفُهم من سعار الوحشيّة ما دفعَ بهم إلى هذا. لم يكن أمامهم خيارٌ آخر ريم. **قالها دن هازًّا رأسه بأسى المتألمِ ممّا حدث.**

- هذا القذر ليس سنباريًّا ومع ذلك يتقاطرُ حقدًا وكرهًا للجميعِ متفوّقًا عليهم بعنصريّته واستخفافِه بحياةِ هؤلاء المساكين.

- لو لم يكن كذلك لما كان كبير الأطباء هنا. **قالها ساخرًا.**

راح يتحدّث إليّ مخفّفًا عنّي حتّى غرقتُ بالضّحكِ بعدَ تطرّقهِ مداعبًا لعلاقتي مع مريضي الشّاعر واصفًا إيّاها بالعلاقة العاطفيّة؛ منتظرًا أن أدعوه لحفلِ زفافي حين يتمّ الأمر كما يشتهي... تخيّلتُ الأمر مطلقةً بعض التّعليقات على كلامِه فاستغربَ ضاحكًا هو الآخر متعجّبًا من شطحاتي الكلاميّة الحمقاء.

كدتُ أسردُ ما دار بيني وبينه على أصلان ثم تذكّرتُ عدم احتمالِه دعاباتي المضحكة واصفًا إيّاها بسقطات اللّسان الثّقيلة؛ لذا غضبتُ حين لم يتفاعل مع طرفةٍ استعضتُ بها عن هذه الدّعابة.

- لعلّها تضحككِ وحدك فقط رافضةً الاعتراف بأنّها قد تزعج الآخرين.

- لكنَّ الجميع هنا يضحكون لمداخلاتي وخفّة ظلّي، باستثناء سيلا لأنّها لا تحبّني.

- لعلّهم يريدون ذلك، بالتّأكيد أنتِ أرحم من السّجن الّذي يحيون فيه. **قالها مُبتسمًا.**

- ولعلّك تمقتُ الابتسامة فتصمت عن الحركة فلا تشعر بالسّعادة مثلهم. **متحدّيةً إيّاه.**

- هو احتمال... لكنّني ما دمتُ أمقتُ شيئًا فهذا يعني أنّني أحبّ الضّدّ، وإن كان ضدُّ البسمةِ الصّمت فمعناه أن صمتي ما يمنحني السّعادة.

- هل تشعر بالسّعادة حقًّا؟

- أشعرُ بما هو أهم من السّعادة... أنَّ لديَّ ما أقومُ به كيلا أظلَّ فارغًا.

- هذا ما يمنحكَ الشّعور بالنّصر؟

- النّصرُ ألّا تهزمُك نفسُك وأن تراكَ بموضوعيّة بعيدًا عن ظنونٍ وآراء الآخرين.

- كثيرٌ من المهزومين يعتقدون هذا فيلمسون النّصر في داخلهم دون أن ينتصروا يومًا.

- الأضواء بالعادة تسلّط وتحتفي بالفائز من بينِ ألفِ عدّاءٍ فورَ تخطّيهِ خطّ النّهاية ليجيبَهم أنْ كيفَ فازَ بالسّباق وحصدَ المركز الأوّل، دون أن ينتظرَ أحدٌ ويكترث بالمتسابق الأخير ليُسألَ: لماذا خسرت؟ فلا تنخدعي بما حدث فربّما كان هذا الأخير هو المنتصر.

- أشعرُ أنني بحاجةٍ للفهم أكثر. **حككتُ رأسي.**

- أمّا أنا فأشعر برغبةٍ في الكتابة لا شيء آخر، هلّا كتبتِ من فضلك؟ أريد أن أُجهزَ على هذه الرّسالة سريعًا.

- حاضر. **هيّأت حاسوبي وجذبته إليّ كي أبدأ بالنّقر عليه.**

- عزيزتي ***«حنان»***.

- هل أكتبُ عزيزتي أم حنان؟

- قلتُ: عزيزتي حنان.

- أيّهما أكتب؟ **قلتُها للمداعبة فابتسم هذه المرّة.**

- ابدئي بما شئتِ، عزيزتي، حنان، زوجتي، حبيبتي، أيّ شيء.

- إذن سأكتب: مممممم عزيزتي فقط.

- ***اسمحي*** لي أن أجيبكَ الآن عن سؤالٍ لم تصدّقي يومًا إجابته رغم أنّني أقسمت كثيرًا؛ مُدركًا أنّك ستصدقين جوابي الآن قائلةً في نفسك: لا يُعقل أن يكذبَ الإنسان؛ أو يصرّ على كذبةٍ ما أثناء استسلامِه لفراش الموت... ستسألينَ: هل تُحبُّني؟

قبل أن أجيبَكِ لا بدّ لي من التّساؤل: ماذا لو اقتنعتِ الآن بعشقي إيّاك؟ ماذا لو قلتِ الآن كان ***«سيف»*** يحبّني فعلًا لكنّني لم أصدّقه كما ينبغي؟!

- لقد ذكرتَ اسمَ سيف عوضًا عن اسمك. **ضحكتُ رغما عنّي فضحك للخطأ الّذي وقع فيه.**

- قصصُك الّتي تكرّرينها على مسامعي ستنسيني اسمي فعلًا، وستدفعني للأخطاء دفعًا لأنّك كلّما ثرثرتِ تشاغلَ عقلي بتذكّر ما تقصّينه عليّ غصبًا، سيما كلما تباطأتِ بالكتابة أيضًا.

- إذن أحتلُّ عقلَك؟ **وطرقعت بلساني عبر سقفهِ وأسفل لثّتي صوتًا كنايةً عن الثّقة.**

- لستِ أنتِ، بل قصص حياتك الغريبة.

ابتسم وأشار لي أن أصمت ليكملَ رسالته بعد أن أخذ نفسًا عميقًا:

- ***ماذا*** لو قلتِ الآن بأنّ أصلان كان يحبّني فعلًا لكنّني لم أصدقه كما ينبغي؟! ما الّذي سيخلِّفه ذلك من سعادةٍ حزينة؟ هل سيهمّك الآن حقًّا التّأكّد من عشقي بينما لم أستطع إهداء هذا الشّعور من قبل لك؟ ما جدوى أن نصدِّق حبَّ مَن فقدنا بينما لم نشعر بذلك خلال تواجده في حياتنا؟ أجبتكِ عن هذا السّؤال ألف مرّة على الأقل، وفي المرّات الألف جميعها لم تصدّقي أنّني أحبّك حقًّا، أو أنّك الأنثى الأهمّ من بين جميع اللّائي عرفتُ ومَن لم أعرف.

لم تصدقي لأنّني لم أكن مثاليًّا من وجهة نظرك، فلطالما حاولتِ تغليفَ كلمة «كاذب» بعبارات مهذبةٍ مثل:«لا أصدّقك، أو أنت لا تقول الحقيقة». ليست غيرتُك السّبب بهذا بل وضوحي وصراحتي اللّذان لا يصلحان لأيّ عصرٍ من العصور؛ ناهيك أنّهما لا يصلحان تحديدًا مع امرأة عاشقة من أهمّ صفاتها الغيرة القاتلة والشّكّ المريب... أو تراني أنا مَن دفعك لتصبحي هكذا؟ قد يكونُ هذا السّبب، ربّما، بيد أنّي أتحدّث الآن عن النّتيجة.

ربّما لن أستطيعَ انتقادك أكثر، وذكرَ مساوئك وأنا على هذه الحالة، وأمام هذا الوجهِ البريء. **نظرَ في وجهي مُبتسمًا.** مع أنّني أودّ ذلك فمجرّد غضبك من ذكري لصفاتك الّتي لا أحبّها أمرٌ أحبّه فيك، وقد أحبّه أكثر وأنت تبتسمين باكيةً جرّاء كلامي هذا إن أرادَ لك القدر قراءته... لعلّي لم أخبرك قبل اليوم أنّني أحبّك بكاملِ مساوئك الّتي لا أحبّها فيك.

مشكلتي فقط بما يتعلّق في حبّك الّتي أعرفها جيّدًا هي أنّني أحببتُ يومًا غيرَك، رغم أنّني الآن أحبّك أنتِ بما تبقّى منّي دونَ أن تشاركِكِ بذلك تلكَ

الّتي أخفيتُها تمامًا في ذاكرتي كإخفائي لجميعِ الأدلّةِ في مسرح الجريمةِ آنذاك.... جريمة الحبّ.

رحتِ تبحثين عن خيانتي لك شابًا في عيون المعجبات والمصفّقات لشعري، سيما بعد تصوُّرك أنَّ الشّاعرَ يبحث عن الأنثى القصيدة تحديدًا دون معرفتك الحقيقةِ بكنهِ القصيدة، بل وتناسيتِ أنّك من أولئك الّذين لا يميلون للشّعر أساسًا، وأنَّ سببَ اهتمامك به هو ارتباطك بشاعرٍ مغمورٍ قفزَ للشّهرةِ والعالميّة مصادفةً بعد قصيدةٍ قديمة آنَ أوانها؛ أو لأنّ الحظَّ شاء لها ذلك فجأة في الثالثة والأربعين مِن عمره، فلم تصدّقي بأنّه لو التقى بك أيضًا بعدها لأحبّك وتزوّجك.

ما زلتُ أتذكّر اللّقاء الأوّل حين تحدّثتِ إليّ مأخوذةً بما استمعت إليهِ من قصائدي في أمسيّة خلت من الحضور تقريبًا لأنّني كنتُ نكرةً آنذاك. شعرتُ بأنّك تتنفّسين الشّعر قبل اكتشافي أنّها لم تكن إلّا ذريعةً للتقرّب منّي بعد أن رقتُ لك كشابٍ توسّمت فيه صفاتٍ ربّما ما لم تجديها بعد ذلك فيه.

هذا ما دفعَك للتطّوعِ بتسجيلِ رقم هاتفك على راحة يدي غيرَ واثقةٍ بذاكرتي الّتي لا يمكن لها أن تنساه لو لقّنتها إيّاه بصوتك الموسيقيّ. أردتُ أن ألقي نظرةً سريعةً عليه كي أحفظه لكنّني آثرتُ أن أُبقِي عينيَّ في عينيكِ كيلا أضيّع ثانيةً واحدةً من عمر هذا اللّقاء الخاطف... حين غادرتِ وغادرَ قلبي خلفكِ اختارَ طريقَ خروجه من بين ضلوعي عبر راحتي؛ إذ دهسَ بعجلتهِ الأرقامَ تاركًا إيّاها طللًا وأثرًا مشوّهًا لا يدلّ إلّا على جريمةِ الإهمال الّتي ارتكبتها بأقلّ من دقائق.

توجّستُ رعبًا من أن أكون قد فقدتك للأبد؛ لاعنًا الأقلام السّائلة الّتي لا تقوى على تحمّل رائحة العطر الّتي علقت بيدي سامحةً لخطوطها أن

تذوب شغفًا بمن لامستها؛ معتّقًا حيائي الأرعن الّذي منعني من سؤالك للمرّة الثّالثةِ عن اسمك بعد رفضك التّصريح به مشيرةً إلى راحةِ يدي؛ كإشارةٍ منك لضرورة الاتّصال الّذي بدوت متشكّكةً على غير وجهِ حقٍّ بحتميّة حدوثِه؛ معتقدةً أن رزانتي في الحديث حينها دليلٌ على عدمِ اكتراثي رغم أنّي كنتُ احترقُ داخليًّا من شدّة حرصي للتعرّف إليك.

حين عثرتُ عليكِ بعد جهودٍ مضنيةً وقفَ الحظّ بجانبي فيها تقصّدتِ أن تتجاهليني ثأرًا لنفسكِ من تجاهلي. لم تصدّقي أن وسيلةَ الاتّصال الوحيدة الّتي تصلني بك وتجعلني أعثر عليك وأقبض على صوتك اختفت عن راحتي جرّاء عطرك الّذي أذابها... لم تصدّقي أنَّ لقاءنا الثّاني كان أجمل ما حدث في حياتي على الإطلاق... لم تصدّقي أنّني لم أكن لأشعرَ بقيمتي أمامي يومًا لو لم تكوني على الدّوام أمامي.

ولأنّك لا تصدّقين أغلبَ ما أقوله فلم تتورّعي يومًا عن تذكيري بزوجتي الأولى الّتي لم أحبّها يومًا. شعرتِ بالغيرةِ من إنسانةٍ أخطأتُ باختيارها صغيرًا فكانت ضرّتك حيّةً وميتةً كشمّاعة تنوبِ لديك عن كلّ النّساء؛ مع أنّ مجرّد تذكّرها في عقلي يقذف بي فورًا للاكتئاب... هل أخبرتكِ أنّي أردتُ أن أطلّقها بعد يومين فقط مِن زواجنا؟ بالتّأكيد أخبرتك بهذا هادئًا وغاضبًا وصامتًا.... رفضَ والدي حينها الأمرَ وصفَعني بقوّة معتبرًا أنَّ ما تفوّهت به إهانة لا تغتفر، وغباء لا يحقّ لي تكراره، معلّلاً أنَّ الزّوجةَ الصّالحةَ لا تُطلّق بسببِ إشاعاتٍ ودسائس ممّن لا يخافون الله ويلوكون أعراض النّاس. هي فقط تخرجُ من بيتِ زوجها بهدوءٍ إلى قبرها الّذي سيحملها برفقٍ على متنه حتّى يرسو على ضفافِ الجنّة الّتي أعدّت للنّاسكاتِ أمثالها. لم أستطع إثباتَ شكوكي ومزاعمي أمامَه وسط كراهيّتي لها وشعوري الفارض عليَّ ذاته بأنّها تخونني وتخدعني، لكنَّ انتظار شابّةٍ أصغر منّي للخروج إلى قبرها أمرٌ مِن

خرافات العرب سيما حينما تكون منطقيًّا أقرب إليه منها! سألت نفسي حينها: هل عليَّ أن أنتظرَ موتها فعلًا بل وأتمنّاه _ دون شعورٍ منّي بالذّنبِ_ كي أتحرّر من خطأ وقعت فيه؟

بعدَ سنتين لم تُنجِب لي فاتّهمني والدي بأنّني السّبب. أقسمَ بأنّني لم أقترب منها، أو تقصَّدتُ عدم الإنجاب، فرحتُ أقسمُ كاذبًا أنّني لم أفعل حتّى أسدَت لي هي هذه الخدمة يومًا وطلبَت الطّلاق رغم جنون والدي لقرارِها وعدم استطاعته ثنيها عنه، لكنّها أصرَّت عليه كما لو أنّها تحيا في الجحيم.... لعلّها كانت تحياه دون أن أشعر بهذا طالما أنّه لا يهمني. وبين تظاهري بالوداعةِ والظّلم أمام والدي وبين فرحتي بمطلبها طلَّقتها أخيرًا، ليتحوّلَ الهواء الّذي استنشقته فور طلاقي من هواءٍ إلى أجمل ذكرياتي على الإطلاق، إذ امتلأت رئتاي بالحريّة أخيرًا، وتخلّصت من شبح النّميمة والتّهامس والغمزات واللّمزات الّتي ترشقني بها أعينُ النّاس ذهابًا وإيابًا، كأنّني الرّجلُ الوحيدُ بينهم الّذي بحثَ عن الدّليلِ كي يصلَ إلى الحلّ عوضًا مِن بحثهِ عن الحلِّ الّذي لا يحتاج إلى دليل... أمّا الزّواج بحدِّ ذاتهِ يا زوجتي العزيزة فجنةٌ للسّعداء وحبسٌ مرهقٌ شاقٌّ للتّعساء.

أجبَر والدي حينها والدتي أن تبحث عن زوجة لي بمواصفاتٍ تنطبقُ أغلبها على أمّي؛ سيما أنّني وحيدهُ الّذي تمنّى أن يرى ابنَه وبكره. قبلتُ بهذا وبصدرٍ رحب طالما أنَّ مطلّقتي لن تكون من بينهن، لكنَّ الحظَّ حالفني حينما لم تقبل أيُّ واحدةٍ ممّن طرقت أبوابهن الزّواج منّي، أو حتّى إعطائي فرصةً للتعرّف إلي.

- لا يمكنني التّصديق أنَّ فتاةً ما قد تخونك أو ترفضك. **قلتها متعجّبة لهول الأمر.**

- أمَّا الخيانة فلها شخوصُها بصفاتهم الكثيرة، أمّا الرّافضات فقد كنتُ نكرةً حينها وفقيرًا معدمًا لا أمتلك أيَّ ميّزةٍ لأكون فارسَ أحلامٍ لفتاة... أكملي لو تكرّمتِ:

كنتُ أتوسّل حينها لأيّ فتاةٍ عابرة مهما كانت صفاتها، أن تقبلَ بي رأفةً بوالدي الّذي صار ابني الّذي لم أنجبه أهمّ لديه منّي. فكّرتُ حينها أن أتّخذ من أيّ فتاةِ مهما كانت صفاتها ولو تشابهت مع طليقتي ***«نيران»***؛ حاضنةً لطفلي لا أكثر وبعدها فليحدث ما يحدث... كانت هذه الأفكار تراودني قبل أن أرى وجهَ طليقتي على شاشةِ التّلفازِ بصحبةِ ثريّ فاسد يُدعى ***«صقر»***مقسمةً لمن حضرَ عقد قرانها به أنّها رمَت فلسًا فوجَدت بعده دينارًا ذهبًا «عيار 14»، ووسط هذا الصّراع الدّاخلي الفاشل ماتَ والدي فجأة.

نعم، نامَ فمات، نام ولم يستيقظ، هكذا بكلٍّ بساطة... ندمتُ على كلّ ما فرطَ منّي حينها وتمنّيت لو أنّني بذرتُ طفلًا في أحشاء مطلّقتي؛ كي يراه والدي قبل موته، لكنّ هذا لم يحصل. أمّا ما حصل ولم أتوقعهُ يومًا فهو لقائي بك ثم الزّواج المُحال من امرأة تتقنُ الغيرة أكثر من إتقانها الحبّ... لا أدَّعي بالطّبعِ بأنّ شخصيّتك مهزوزة، أو أنّك لا تثقين بنفسك، بل هو اعترافٌ ضمنيّ منّي بأنّي لم أستطع ترسيخَ حبّي في دمك، ودحضَ شكوكك بإثبات أهميّة وجودك في حياتي، فتعاملتِ معي وارتضيت أن تعاملي كزوجةٍ وأمٍّ لأولادي أكثرَ من كونك حبيبةً تستحقّ على الأقلّ نصفَ ما حظيت به الحبيبة الأخرى يومًا، حتّى وإن كانت هذه الأخرى غادرت حياتي سريعًا، بل أسرع ممّا تخيّلته أنا بعدما فرضَت نفسها وحبّها وكرهها أيضًا في زمن قصير جدًّا.

ما زلتُ شرقيًّا رغم كلّ شيء، وما زالت دماءُ القبيلةِ تجري في عروقي، وقد يبدو مزاحنا في كثيرٍ من الأحيان وإن لم نقتنع به جزءًا لا يستهان به من جِبلَّتنَا الدّاخليّة حين نتساءل: «وهل هناك عاقلٌ يحبّ زوجته؟» بيد أنّك بحثتِ عن الأخرى في المكان الخطأ، فالشّاعرُ لا يحبّ من أحبّت وتحبّ شعره، ولا الأنثى الّتي تصلح للقصيدة فقط، بل تلك الّتي تحبّه رجلًا قبل كلّ شيءٍ وتفضّله كرجلٍ عمّن سواه.

لا زلتُ أذكرُ حديثَ نفسي بعد اللّقاء العاشرِ حينما نتجَ عنه وبالحجّةِ الدّامغة أنَّ علاقتنا مصيرُها الفشل. وضعتُ الأسئلةَ البديهيّة والأجوبةَ المنطقيّة لتسقطَ العلّاقة فورًا من حساباتِ الواقع، ووضعتُ نفسي وقلبي الّذي يكاد يتهشّم من الحزنِ ليلتَها في السيّارة وعدتُ للبيت عازمًا على قطعِ علاقتي بك.

ظلّت حواراتي الدّاخليّة وأسئلتي المحسومة تدورُ في ذهني طوال اللّيل، سيما وأنا أشاهدُ اتّصالاتك المتكرّرة على جدَارِ هاتفي الصّامت، أمّا رغبتي بك فكنت أتأكّد من استحالةِ حدوثها حينما أرى صورتَك على موقعِ التّواصل الاجتماعي المُنقرض، وأقرأ اسمَك الّذي يسبقه حرفُ الدّال وتتقدّمه تقطتينِ رأسيّتين؛ سيما أنَّ هاتفًا يحملُ أسواطَ الواقعِ داخلي ساطَني بأسئلته الماكرة دون رحمة: هل ستقول لوالدها أنّك حاصل على شهادة دبلوم بائسة؟ أم ستصارحه بإفلاسك ليطردَك كما يطردُ موظفيه وخدمِه حينما يغضب؟ أم تراهُ سيقبلُ من وجهةِ نظرك أن تنتقل ابنته من قصرٍ فاخر للعيش في شقّةٍ صغيرة تقع في حارةٍ ضيّقةٍ ضمن محيطِ حيٍّ شعبي؟ هل ستقول له بأنّ الحبّ سينتصر؟ بالطّبع كلا، فالفارق الاجتماعيّ بيننا بدا كبيرًا لدرجةٍ لا يمكن تخيّلها، لكنّني بدل أن أحدِّثَك عن حقيقتي، وعن فقري، وعن عزمي لإنهاء العلاقة التقيتكِ مجدّدًا؛ ورحتُ أحدّثك عن سيّارتي الفارهة الّتي

تركتها في الوكالةِ للصّيانةِ، وعن اضطراري لركوب سيّارةٍ قديمة لم أتخلّص منها كونها السيّارة الأولى الّتي اشتريتها صغيرًا.

حدّثتك عن مزرعتي الخاصّة، وشقّتي الفاخرة، وعملي الّذي أجني منه دخلًا كبيرًا، فلم تكن هذه الأكاذيب سوى جسرٍ ملحيّ آيل في أيّ لحظةٍ للذّوبان بيننا إن ضربته دمعة حرّى لحظة الحقيقة؛ موقنًا أن وجهي وصوتي لا يساعدان السّامعَ على التّفريق بين جدِّي وهزلي وصدقي وكذبي. **{وجهي أنا ما إن ضحكتُ، وإن تولّاني الأسى هو واحدٌ، وصدى تعابيري الصّمم}.**

لماذا كذبتُ؟ لا أعرف... لم أكن كاذبًا قبلها. ربّما لأنّني ظننتكِ كاذبةً بادئَ الأمر إذ لم يكن حديثك منطقيًّا بالنّسبة لي، فمن المحال أنّ دكتورة جامعيّة تدَّعِي أنّها ابنة مليونير لا تمتلك سيّارةً حديثةً بحجّةِ الاستقلاليّة والذاتيّة، قائلًا في نفسي عندما أوصلتك مرّةً لمكان قريبٍ من قصرِ والدك: «أظنّها ابنة الجنائنيّ، أو أحد الخدم لا محالة في هذا القصر»... جاريتُك لأنّني أحببتك منتظرًا أن تعترفي بأكاذيبك كي أعترف بأكاذيبي ونلتقي بعدها في منطقةِ الصّدق ضاحكينِ من سذاجتنا؛ قبل أن أصطدم بأنّني الكاذب الوحيد بيننا، وبأنّك مغرمةٌ بالإنسانَ الّذي في داخلي لا الإنسان الّذي أتحدّث عنه.

اعتقدتُ بعدها أنّ عدم اهتمامك بالجانب الماليّ والاجتماعيّ الطبقيّ ما هو إلّا نتيجة ظنِّك بمعرفةِ مَن يتناسب معك كتحصيل حاصل، وأنّ الجوانب الأخرى هي ما تهمّك كامرأة، ولكنّني صُدمت بحقيقةٍ ثانية حينما رحتِ تتحدّثين عن رفضك القاطعِ لقرار والدك بعدم تزويج أختك الصّغرى من شابٍ فقيرٍ أحبّها بحجّةِ الفقر؛ ثمَّ إجبارها على الزّواجِ بابنِ ثريٍّ تافه.

أحببتك أكثر لكنّني تورّطت أكثر. أحببتُك بالقدر الّذي جعلني كاذبًا محترفًا بشكلٍ لم أتصوره. أحببتُك بالقدر الّذي جعل من رجلٍ في الأربعين مراهقًا

ينتظرُ حبيبتَه أمام جامعتها بفارغِ الصّبر؛ وكأنّه ولدِ في الأمس، حتّى بات انتظاري عادةً وحبّي لك عادةً، ولعلّك تعلمينَ أن التعوّدَ على الشّخصِ لا يعني أنّنا نحبّه، وأنّنا قد نحبّه دونَ أن نعتادَ عليه، لكنَّ الشّعورَ الأمثل هو أن نعتادَ على حبّه، ونحبَّ اعتيادنا عليه.

دعيني أعترف الآن أنّني حينما قابلت والدَك لم أكن أملكُ دينارًا واحدًا في جيبي، بل كنتُ غارقًا بالدّيون حتّى الثمَّالة. كنتُ موظّفًا نكرةً في شركةٍ خاصّة أتقاضى راتبًا منها لا يكفي لسدِّ حاجاتي الشّخصيّة، بل لا يكفي لشراء الأعلافِ لدجاجاتِ والدتي الّتي تربّيها على سطح المنزل... لم أخبر أحدًا حتّى نفسي أنّني على علاقةٍ بك، وبالتّالي فلم أخبر عائلتي باللّقاء الأوّل بيني وبين والدك، ظنًّا منّي بأنّه اللّقاء الأخير لا محالة. **{سأخبره ببعضِ الأكاذيب الّتي تقمّصتها بالكامل لكثرة ما ردّدتها على مسامعِك، ثمَّ أُعرِّجُ على بعض الحقائق الّتي ستنسفُ فكرةَ احتمال قبولهِ الكارثيّ بي نهائيًّا ثم أعود بقلبي الكسير لأنتحبَ حزنًا في وحدتي الّتي لا مفرّ منها بعد ذلك}.**

- أعملُ مع قريبٍ لي في العطاءات الإنشائيّة، وأمتلك مغسلة سيّارات، ومطعما، وحافلتين تعملانِ في خدمة المُعتمرين والحجّاج، ومزرعةً ومنزلًا في ***«غور الأردن»*** وأستورد الكثيرَ من البضائع الصينيّة لأبيعها بالجملة، كما أمتلك سيّارةً فارهةً، وشقةً فارهةً، وعلى وشكِ شراء بيتٍ مستقل في إحدى ضواحي العاصمة الجديدة، كما أدرسُ افتتاحَ صيدليّةٍ ضخمة مع صديقٍ لي.

أعترفُ لك أنّ هذه السّيرة لا تمتّ للحقيقةِ حينها بِصِلة، وأنّني قلت ذلك ظنًّا منّي أنّ رجلًا من أباطرةِ المال سيرفضُ تزويج ابنته حتمًا من شخصٍ بهذه المواصفات، سيما أنّني ورغمَ ما زعمته ما زلتُ صفرًا أمامَ أراقمه الكثيرة؛ بل أنا المرادف للشّابِ الفقيرِ الّذي رفضَ تزويجه للصّغرى... انتظرتُ فقط التّوقيت المناسب لقول هذا الكلام أي تحديدًا أثناء ذهابكِ

خلفَ والدتك الّتي مارست فورًا دورَ الحماة تجاهي، كي يتمّ طردي _كما وصفتُ هذا لي خلال حواري مع نفسي_ دون أن تشاهدي هذا.

أدليتُ بدلوي دفعةً واحدة بلا اكتراث _كمتقدّم لوظيفةٍ لا يعرف الجواب المناسب في اختبارٍ شفهيٍّ يدرك مسبقًا أنّه فاشلٌ به_ وأنزلتُ قدمي عن الأخرى، وعدلّتُ من جلستي متقدّمًا لطرفِ الكنبة الفاخرة متأهّبًا للنّهوض بعد توقّعي أن يقول لي غاضبًا وبوجهٍ حانق: «لستَ مناسبًا لها، أنتَ مطرود، اغرب عن وجهي يا أنت».

انتظرتُ سبّابتهُ أن تظهرَ في تلك اللّحظة ويشيرَ بها إليّ طاردًا، لكنّه لم يشهر شيئًا من أصابعه قائلًا بابتسامة:

- قلتَ لي بأنّك شاعرٌ، وقد أخبرتني حنان نقلًا عن زملائها دكاترةِ النّقد والأدب في الجامعة أنّك شاعرٌ يُشهد لك بالتّميّز، رغم أنّك حاصل على شهادة الدبلوم بكهرباء البيوت كما أسلفت.

- كهرباء السّيارات.

- نعم، السيّارات. غريبٌ ربطك بين متناقضين.

كدتُ وقتها أن أفلسفَ الحياةَ، والموهبة، والعملَ، وأن أربط بين الماءِ والنّار بشكلٍّ مقنع، لكنّني لم أحضر للإقناع بل لسماع الرّفض؛ لذا اضطررتُ للابتسامِ والسّكوت، والسّماحِ لحمرةِ وجهي باحتلالِه بعد أن عاودتِ الجلوسَ قائلًا في نفسي: «سيطردُني ابن الكلب أمامها، لقد تقصَّد المماطلة ليهينني على مرأى ومسمعٍ منها لا غير».

أضمرتُ في نفسي أن أجيبَه بجوابٍ خطابيّ سيصعقه وإيّاكِ فورَ طرده لي. سأذكر السّارقين، والنّصّابين، والمحتالين، والسّاسة الّذين تاجروا بدمائنا، وأشتم سماسرةَ الأوطان والقتلة، ثمَّ سأركل المزهريّة الثمَّينة في ردهةِ القصر بقدمي لأحطِّمَها قبل خروجي مستدركًا شتائمي كي ترتطمَ بأصحاب الكروشِ الآكلةِ لأرغفةِ البسطاء، صارخًا كلّما حاولَ منعي: «من أين لك هذا؟ ها، من أينَ لك هذا؟ قل لي».

- قلتَ لي أن عائلتكَ تعيشُ في حيٍّ شعبيّ في ***جبل التّاج***؟

-***جبل النّصر*** سيّدي.

ضحكَت أمُّك فامتقعَ وجهُك حينها غضبًا خلفَ ابتسامةٍ صفراء جاهدتِ لرسمها على محيّاكِ. تزامنَ ذلك مع امتعاضِ والدك من ضحكتها وابتسامتي غصبًا بوجهها قائلًا: «نحن سيّدتي عائلة ما زالت متمسّكةً بجذورها وأصولها، وما زالت أمّي ترفضُ رغم إلحاحي عليها تركَ صويحباتها وعالمها الصّغير الطيّب، ولأنّني لا أستطيعُ فرض حياتي برًّا بها على شخصيّتها بدافعِ التقدّم فأجدني منصاعًا لرغبتها بالكامل؛ ناهيك أنّني شخصيًّا أنتمي لذاك المكان بكامل جوارحي، مفضّلًا إيّاه على الأمكنةِ الأخرى».

القليلُ من الصّدق ظننتُه دافعًا لإنهاء هذه المسرحيّة الفاشلة، لكنّه دفعَ بي على غير ما توقّعت وأردت لدور البطولة، فقد فسَّر والدك على ما يبدو حديثي وهدوئي وإدراكي الدّاخلي باستحالةِ تحقيقِ ما جئتُ من أجلهِ على أنّه ثقةٌ وقوّة شخصيّة... صمتَ طويلًا، بل صمتَ أطول من الصّمت ذاته وسط ترقُّبي قبل أن يملأ رئتيه بالهواء كملاكم على بُعدِ ثانيةٍ من خوضهِ الجولة الأخيرة من نزاله على اللّقب.

- تعلمُ يا أستاذ أصلان مَن أنا ومن أكون، ولا بدّ أنّك تعلم أيضًا مَن تكون ابنتي؛ وما تتحلّى به من صفاتٍ تجعل منها الزّوجةَ المُثلى لأيّ رجلٍ حالم...

حالمٌ هذه أوقفت قلبي وأشعرتني بالخوف فجأة فنبت قواي. حالمٌ هذه جعلتني أصرفُ النّظر عن كسر المزهريّة، والخطبة العصماء والسّؤال الأينيّ، ناظرًا لرجلٍ سيخرجُ بعد قليل كما يدخل الأذلّاء السّجن بأقدام خائرة.

- هما سؤالان لا غير... أجب عليهما بصراحة.

اندفعتِ حينها بحماسةٍ للحديث نيابةً عنّي: «إنّه أكثر الرّجالِ صراحةً في العالم. أصلان لا يكذب أبدًا».

ولأنَّ نظرةً من طرفِ عينيه أسكتتكِ تابعَ حديثه بعد أنّ صوّبها بحدّة نحو وجهي الغارقِ بالحيرة:

- لماذا تريد الزّواج بابنتي؟

ظننته فخًّا أرادَ لي أن أقع فيه، وأن أفضلَ جوابٍ بالتّأكيد للوقوعِ فيه القول: «لأنّني أحبّها»، فقلتها دون تردّد وبثقة، فابتسم،

أو تظاهرَ بذلك.

ثمَّ سألني كما تعلمين: «هل تستطيع أن توفّر ربع مستلزمات ابنتي مِن حياتها الّتي تحياها الآن؟». أقسمُ لك أنّني قلت: «لا» فورًا فاستبدلها لساني «بنعم» مخالفًا أوامري.

صحت بنفسي: «تبًّا لك، سيكتشفون أكاذيبَك، وسيركلون مؤخّرتك قريبًا دون أن تستطيع الدّفاع عن نفسك» تزامنًا مع ضحكةٍ أطلقها دونَ أن أتبيّنَ

الدّافعَ خلفها مصحوبةً بجملةٍ ضبابيّة لم يفهمها غيرُك وأمّك؛ حينَ رفعتِ رأسكِ للأعلى كمن توقّعتها منه متعجّبةً أن كيف تأخّر بإطلاقها فقط.... ابتسمتِ بمرارةٍ صفراء قضت على آخرِ ذرّة شجاعةٍ أمتلكُها مع إحساس غريبٍ راودني حينها وهو أنّك تشعرين بأنَّ والدكَ يسخرُ منك لا منّي بهذه الضّحكة أو الجملة الّتي أعادها مجدّدًا حين ودّعني باشًا: «أنتَ وحدَك من تناسبُه ابنتي ويناسبُها... أنتَ وحدك لا غير».

ريم كما يبدو متفاجئةٌ الآن جرّاء اعترافي بهذه الأحداث ظنًّا منها أنّ مثلي لا يكذب، فقد رأتني من خلال شعري، وسمعتني من خلال وقع حرفي، والقارئ المتعصّب محترفٌ بوضعِ أديبه المفضّل في المكان الّذي لا يستحقّه في أغلب الأوقات، لذا ما زالت مصرّة على استحضارِ أصلان من أعماقِ معروف مهما كلّفها ذلك من تحمّل مزاجي المُتعب. أمّا أنتِ فأظنّك لا زلتِ تحت تأثير الدّهشةِ، أو لعلّك تنتظرين شيئًا لتفهمي الحقائق لأوّل مرّة بشكلها الصّحيح.

خرجتُ بعدها من قصركم والخزيُ يحذّرني من سردِ ما حدث من حوارات وأكاذيب على أيٍّ كان...أعدتُ مرسيدسي المزيّفة الّتي استأجرتها بمبلغٍ اقترضتُه من أحدهم، وقفلتُ عائدًا بسيّارتي الجولف المتهالكةِ الّتي ورثها أبي عن جدّي لبيتي عازمًا على الاتّصال بك، والاعتراف بأنّني رجل كاذبٌ لم يستطع أن يعترفَ بفقره وغبائهِ الاستنتاجيّ أمامكِ؛ ممّا دفعه تلقائيًّا لعدم الاعتراف به أمامَ والدك أيضا.

لم أخجل يومًا من فقري، ولا من وضعي الأسريّ والاجتماعيّ، بل كنتُ في خضم كذبي شاعرًا بأفضليّتي وعائلتي على جميع النّاس. **{لماذا؟ لا أعرف! أو لعلّ هذا الشّعور هو المخدّر المثاليّ للفقراء المثّقفين عادة كي يستسيغوا**

شقاءهم} ولكنّني انقدتُ وراءَ كذبةٍ صغيرة أفضت بي إلى حقيقةٍ كاذبةٍ بالكامل، يلزمها فقط أن أتوقّف وأعترف، أو أن أنسحب من كلّ هذا عبر أيّ حجّة قد أختلقُها فقط، ولو كان ثمن ذلك شقائي القلبيّ مدى حياتي.

لم أستطع مواجهتك صوتيًّا فعزمتُ على إرسال رسالة نصيّة أعتذر فيها عن الزّواج بك مختلقًا بعض الأعذار الواهية. أردت أن أقول لك: «يبدو أنَّ خيانة زوجتي الأولى جعلت منّي رجلًا كاذبًا ومريضًا أرادَ الانتقام والثّأر منها عبرَ فتاةٍ أحبَّته بصدق؛ بينما لم يستحقّ هو هذا الحبّ يومًا... سامحيني أرجوك». أردت قول هذا لأجد منك رسالةً أعادتني إلى نقطة الصّفر: «كنتَ رائعًا هذه اللّيلة، والداي أحبّاك وأعجبا بك. سعيدةٌ أنّ والدي موافق على هذا الزّواج، أنا سعيدةٌ جدًّا، أكاد أحلّق لأنّني سأكون قريبًا زوجةَ أعظم رجلٍ في الدّنيا».

عن أيِّ عظيمٍ تتحدّث هذه؟! عن أيّ...؟ وفجأةً ماتت الأسئلة والأجوبةُ وهتف بي هاتفٌ هزّني بعنف مانعًا إيّاي من إكمالِ وصلةِ التّوبيخ والرّدح النّفسيّ الّتي كنتُ أنوي عزفها في داخلي؛ فقلتُ دونما اكتراث كردّ على معارضتي الدّاخليّة لي: «لماذا لا تستثمَر خيالَك الّذي أرهقتَه في الشّعر والأدبِ للحصول على ما تريد مِن واقعك الملموس مرّة واحدة في حياتك؟». هتف مرّةً أخرى حين رفضتُ هذه الفكرة بصوتٍ أوضح وأكثر إغراءً: «لقد أقنعتَه وانتهى الأمر، الجزءُ الصّعب بات يسيرًا الآن فلا تضخِّم السّهل أرجوك... أنتَ لا سواكَ مَن يستطيع إكمالَ هذه المسرحيّة ليصفّق لكَ الجمهور في نهايتها؛ وأنت وحدك من يستطيعُ أن يرشدَه حدسُه للمغامرةِ دون خسارة».

لن أقول بأنَّ الدّافعَ لما قمتُ به هو حبّي لك، رغم أنّني أحببتك أكثر ممّا توقعته، لكنّني سأعزوه إلى فشلي وفراغي العاطفيّ تحديدًا، أو إلى نقصٍ قد أتخلّص منه بزواجي من فتاةٍ حسناء صادقةٍ رقيقة مثلك؛ نكايةً بمن رفضني ناهيك عن طليقتي الخائنة الّتي تزوّجَت بآخر فور انتهاء عدَّتها بسهولة؛ لتتأكّد شكوكي وهمسات الآخرين، ويتأكّد لي غبائي وسذاجتي.

برودي الكلاميّ مع أبيكِ جعلني صادقًا غير مثيرٍ للشّكّ، فلم يبحث في دائرة الأراضي عن أراضٍ أو عقاراتٍ باسمي، إذ تعامل تمامًا مع ذاك الّذي رسمته أنا في خياله. شقّتي المستأجرة لم تثر شكّه. مزرعة صديقي الّذي سمح لي باستعمالها شهرًا شتائيًا لم تثر شكّه. سيّارتي المُستعارة، والبيت الفاخر الّذي ذهبنا للمساومة على ثمنه واختلفنا على ملاليمَ من وجهةِ نظره لم يثر شكّه.

موعدُنا الثّاني كان الأصعب والأخوف إذ اضطررتُ لاصطحابِ أفراد من أقاربي لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة للقاءِ عائلتك؛ لتتّسعَ دائرةُ الكذبِ حينَ تفاجأوا مِن سيّارتي الجديدة وهيئتي مضطرًّا حينها لنسجِ جملةٍ جديدة من الأكاذيبِ حولَ ابتياعي لها بالأقساط المريحة، وحصولي على وظيفةٍ مرموقة منتقّلًا لمواضيع أكثر أهميّة من سيّارتي الوهميّة ووظيفتي المُختلقة؛ موصيًا إيّاهم طوال الطّريقِ بين الدّقيقةِ والدّقيقةِ بإلحاحٍ مضحكٍ ألّا يخوضوا بأحاديثَ خاصّة عنّي أمامَ عائلتك مهما بدت صغيرة وتافهة من وجهةِ نظرهم... أمّا والدتي فقد رجوتها مقبّلا قدميها ويديها ورأسها وجبينها ألّا تمارس دورَ الحماةِ أبدًا، أو أن تحاولَ التودّد لأمّك بلطفها المعهود ولو حملتها الأخيرة على كتفيها وجالت بها مرحّبةً في أرجاء القصر.

- تريدُ منّي إذن أن أكون تمثالًا في الجلسة أو ديكورًا يكمّل صورتك مع أنسبائك؟ **قالتها وقد خلعَتْ غطاءَ رأسها وتوجّهت نحو غرفتها لخلع ثوبها اليافاويّ قاذفةً حماسها لمرافقتي في مكبِّ الشّكِّ والتوجّس من حديثي مصرّة على عدمِ اصطحابي لها.**

- يا بركتنا... يا أمي... هؤلاء يختلفون عنّا فقط... هذا ما أردتُ إيصاله لك.

- تشعرُ بالعارِ من أمّك؟ **وضربت على صدرها ممثلةً دورَ من صُدمت.**

- أطلبُ منك هذا لأنّ حرفًا واحدًا قد يوجّه إليك بعفويّة قد يضايقك منهم كفيلٌ أن يُدمّر أمر هذا الزّواج وأخسرَ حبّ حياتي انتصارًا لك. **قلتُ هذا بطريقة سينمائيّة حزينة لم تكن تنقصها إلّا موسيقا تصويريّة ليكتمل المشهد.** إن قبلتِ بهذا فافعلي ما تشائين وتحدّثي إليهم بما يروق لك.

- قلبي لا يكذب عليّ بشأنك وهو يعلمُ أنّك تخفي أمرًا عنّي.

- وما الّذي قد يخفيه مثلي عنك؟

- أنتَ... أنتَ مَن تخفيه عنّي.

لم أكن متيقّظًا لكلّ حرف أثناء التّعارفِ والحديثِ بين العائلتين فقط، بل لكلّ ابتسامةٍ ونظرةٍ وهمسةٍ في غيرِ مكانها.

أدرتُ الجلسةَ ومسارَ الحديثِ كما أشاء دون أن يشعروا بذلك، وسألتُ عن أشياءَ تبعث في والدك حبَّ الحديث عن نفسه والرّجوع لماضيه المكافح، وكلّما تعبَ استثرته، وكلّما تحدّث أكثر شعرتُ بالرّاحةِ أكثر، فإن استراحَ نقلتُ «المايك» لوالدتك كي تتحدّث عن كلبها «لولي» وقصّةِ حبّهِ الفاشلةِ المريرة.

رحتُ أتلقّفُ السّؤال من فمه فأجيبُه جوابًا لا يتبيّن معه حقيقتي أمام الطّرفين، ثمَّ أتلقفُ جوابًا من فمِ والدتك فأقلِعُ بالجميع نحو القمر؛ وأدور بهم حولَ زحل والمشتري قبل أن أهبطَ في المحيط الهادي وأعود بهم إلى مقاعدهم، دون أن يعرفَ أحدٌ أين كانت الرّحلة تلك، وما سبب الذّهاب إليها! حتّى غادرنا ولم يعرف أحدٌ عن الآخر شيئًا إلّا ما أردتُ لهم أن يعرفوه، كما لم يعرف أحدٌ منهم أنّني كاذبٌ متلاعبٌ بعقول الفريقين سوى والدتي على الأرجح؛ والتي فهمَت كلّ شيءٍ دون أن تفهمَ أيَّ شيء.

كان أمرًا مستحيلًا وسهلًا في آن واحدٍ بطريقةٍ لا تُصدَّق، فتقمّصتُ بعدها الدّور جيدًا حتّى صدَّقته بالكامل؛ لذا حين حذّرتني والدتي بعدها من هذه الخطوة مشيرةً للفرقِ الطبقيّ بيننا، وخشيتها من تبعات هذا الزّواج قبل الشّروع بتحضيراته تفاجأتُ من تحذيرها؛ لأنّني بدأت أرى نفسي ذاك الّذي حدّثتُ عائلتَك عنه.

- سيطلبون مهرًا فلكيًّا يا بنيّ ويشترطون شروطًا لن تستطيع تلبيتها، فلماذا تعلّق نفسَك بحبال الوهم وأنت مفلس؟

أرادت أن تقول لي حينها: «إنَّ المفلسَ ثريٌّ بالنّسبة لي، لكنّها سكتت عن هذا كي لا تجرحني فقط».

- لا تشغلي بالكِ بهذا يا بَرَكَتِي... أنا وحنان متّفقان على هذه التفاصيل.

فكَّرت بأدقّ التّفاصيل قبل عظيمها، وجهّزت نفسي لأكاذيب واحتيالات أخرى؛ شاعرًا بمتعةٍ عظيمة أثناء خداعي عائلتك. ولِمَ لا؟ وقد كرهتُ والديك بعدها لأنّني كنتُ أشعر _وإن لم تفصحي لي بذلك_ بأنّك لا تحبّين أيًّا منهما، وكرهتهما أكثر حينما راحا يتحدّثان بصفاقةٍ بعد أيّام من خطوبتنا

حولَ صفقةٍ خسرها والدك بعشراتِ الآلاف؛ رغم أنّها قائمةٌ بالكامل على المتاجرةِ بأرزاقِ الفقراء.

أردتُ الكلام أو الهجوم لكنَّ رنين الجوال قطع هذا سيما بعدما هتفَ والدك باهتمام بالغ وقد تغيّرت ملامحه: «هذا هو، لا بدّ أنّه فكَّر مجددًا بالعرض». راح يتحدث مع ***«سمير بيك»*** بودٍّ كبير تحت اهتمامِ أمّك وإخوتك، وانتظار النّتائج بفارغ الصّبر.

بدت المكالمة والّتي لا نستمع فيها للطّرف الآخر تسيرُ نحو الفشل، من خلال الرّدود واللّعنات العينيّة، لتبدأ أمّك بالحديث الجانبيّ عن غباء المقابل، وتسليمها بضياع الصّفقة مرّةً أخرى بعد تجدّد الأمل.

لا أحد يدري بعدها ما دار بيني وبين سمير بيك حينما قابلته سرًّا، وقد تقصّيت عنه وعن شركته، ولكنّني أستطيعُ القول أنَّ هذه المقابلة فتحت لي آفاقًا لم أكن أتوقعها... فقد ظنَّ الجميعُ ومِن بينهم أنتِ أنّه صديقي منذ أمدٍ بعيد جرّاء العلاقةِ الّتي أفضت إلى صداقةٍ سريعةٍ صادقة منذ اللّقاء الأوّل، والّتي لم أكن أتوقّعها بدوري لأنّه بدا رجلًا دقيقًا في كلّ شيء، على النّقيضِ من فوضويّتي وعبثيّتي.

تمازجنا كصديقين بفترةٍ قياسيّة فراح يحدّثني بعد أن تفاجأتُ من تشابهنا في الكثير من الخطوط العريضة المبادئيّة؛ أنّه سليل أسرةٍ فقيرة دفعته للعمل صغيرًا ليلبّي احتياجاتها... عملَ، وتعب، وكدَّ، ودرسَ، حتّى دخل الكليّة العسكريّة لتحقيق حلمه بارتداء تلك البذلةِ صغيرًا.

- إذن هذه الدّقةُ والصّرامة نابعةٌ من خلفيّتك العسكريّة.

- الجميع يقول هذا، والجميع يقول أن عبثيّتك وفوضويتّك نابعتان من خلفيّتك الشعريّة.

ضحكنا حينها وقد تلاشت الحواجزُ تمامًا ليحدّثني بعدها عن ثروته الّتي جمعها بفترة قياسيّة بعد إحالته للّتقاعد مُبكرًا؛ بسببِ بترِ أصبع قدمهِ جرَّاء حادثةٍ بسيطة، واتّجاهه للمغامرة في سوق المال والتّجارة، وعن شركته وفروعها النّاجحة في الوطن وخارجه.

حدّثني عن يتمهِ وعوزهِ كأنّه لا يريد أن ينسى ذاك الماضي البعيد أبدًا؛ حتّى إنّه كلّما ذكر ذاك الماضي أخرج من جيبه ورقةً نقديّةً مهترئةً من فئةِ العشرين وراح يقلِّبُها بين كفّيه قائلًا لي بعد أن ينتهي من جوقةِ ذكرياته: «هذه مَن قادتني إليَّ» .. يقولُها ولا يفسّرُ مقصدَه. .

يا عزيزتي:

لا أحد يدري أنّنا نُساق للأشياء الجميلةِ في حياتنا حين لا تُساق إلينا دون أن نشعرَ بهذا، كما لا أحد يدري أن بعض الأشياء الجميلة قد تستحيلُ كابوسًا حينما لا نحافظ عليها... نحن مَن يصنعُ الأشياء غالبًا لنكونَ صنيعتَها بعد ذلك.

(3)

فواصل

هذه المرّة أنا مَن طلبتُ إليه حذف هذه الرّسالة وكتابةَ أخرى محتفظةً سرًّا بها نافيةً أن يكونَ سبب ذلك ما أضمرته داخلي؛ من حيث الاستفادةُ ممّا حوته بين ظهرانيها.

{تعلمينَ أنّك كاذبة، تعلمين وتحاولينَ الهرب من حقيقةٍ اكتشفتِها مؤخّرًا عن نفسك، فنشرُ هذه الرّسائل وغيرها من نصوصه الأولى الّتي أملاها عليك سيجلبُ لك ثروةً سريعة يومًا بعد موتهِ. لا تحاولي أن تتظاهري أنّه من يهمّك فقط؛ وأنَّ علاقتك به لم تتعدّ كونها علاقة ممرّضةٍ وقارئةٍ بمريض أو شاعرٍ مشهور. لقد بدأتِ بحفظِ كلّ شيءٍ عنه كي تنتهزي الفرصةَ المناسبة للانقضاض على مصلحةٍ بحتة... لن تسألي نفسك الآن بحزنٍ سؤالك اللّماذيَّ فلم يعد مهمًّا اختيارهم لك تحديدًا من بين مئات الأشخاص لتعملي هنا؟! كما أنّك لن تسألي القدر عن اختيارهِ لك تحديدًا لتكوني الشّاهدةَ الأخيرة على حياةِ شاعرٍ مشهورٍ تُعدّ كلماتُه ثروةً قادمة... قد لا تستطيعين مساعدته ومساعدة نفسك الآن، لكنّك بالتّأكيد ستساعدين نفسك فقط حينما تعودين إلى الوطن من خلاله}.

حاولتُ نفيَ هذه الفكرة بدايةً كي لا أغرقَ بتأنيبِ الضّمير لكنّني رحتُ أخدّره بالتّبريراتِ المضادّة لهذه الأفكارِ الجشعة. أقنعتُ نفسي بعدم تصويبِ ألسنة الكراهيّة لذاتي لمجرّد أنّني بدأت أفكر بهذه الطّريقة. **{إذ سأبيعه يومًا بعد موتهِ ذارفةً الدّمعات الغزيرة على فراقه، معلّلةً أنَّ نشري لتلك الرّسائل سواء سمحَت لي عائلته أو لم تسمح يندرجُ تحتَ مفهوم الأمانة الأدبيّة، حزينةً عند**

إراقتي للكلمات المؤلمةِ من صوتٍ يجهشُ بالوفاء: إنّ الأديبَ ملكُ النّاس لا ملك نفسه أوّلًا وأخيرًا}.

سافرتُ من أجلِ المال فلا أستطيعَ التّنصّل من عشقي له بسهولة، أو ربّما هربًا من ليلةٍ لا أستطيعُ تذّكرها خَجَلًا من نفسي؛ تحولُ بيني وبين رؤيةِ وجه جاد مجدّدًا بعدما فعلتُ ما فعلت به... سافرتُ هربًا وارتضيتُ كما ارتضى الآخرون تقبّلَ الخديعة والعبوديّة تحتَ تأثيرِ المالِ وسطوةِ الفرار من الذّات.

جميعنا بدونا كاذبين، وعاندنا كاذبين، وتذمّرنا كاذبين، فبمجرّد مضاعفةِ الأجرِ المرتفعِ أصلا رحنا نتحدّث عن الإنسانيّة؛ وعن واجبنا كأطبّاء وممرّضين وفنّيّي أجهزةٍ وفحوصات تجاه مرضى لا ذنب لهم فيما تعرّضنا له.

لا يتركُ المرء وطنَه إلّا بحثًا عن المال، أو المجد، أو الحريّة، وكنت أنا من الصّنفِ الأوّل تقريبًا؛ فلمّا خُدعت بحثتُ عنهُ في ثوب الإنسانيّة رفضًا للحقيقة... أشعرُ أنّني لا أختلف عن العجّان وأبنائهِ الآن كثيرًا، فلعلّه قال أيضًا: «المرأة الجميلةُ ملكُ النّاس لا ملك الجميلةِ نفسها أوّلًا وأخيرًا، وطالمَا أنَّ الجميع يبحثون عن المال خارجَ أوطانهم فسوف أبحثُ عنه في وطني ضمن مفاهيمي».

يتفاوتُ القبحُ كما تتفاوتُ طريقتُنا بخلق المبرّرات الّتي نخدِّرُ بها ضمائرَنا، لكنّنا نشترك _في كثيرٍ من الأحيان_ مع مَن هم أكثر وأقل قبحًا منّا بخلق الذّرائع لممارسة القبح بوجوهٍ بريئة.

لا نجهلُ أنفسنَا لكنّنا نتجاهل بالتّأكيد لحظةَ الصّدق معها، ومعاملتها كما هي لا كما يريدها لنا الآخرون من زاويةِ آمالهم.

- تمنيتُ حقيقةً لو دهستِني لأستريح. «عمر الشّقِيْ بَقِيْ» لكنّ شقائي أطولُ منّي يا ابنتي. **قالها العجّان أثناء تحسّسه أطرافه في مقعد السيّارة؛ كمن يتأكّد أنّها ما زالت جزءًا من جسده.**

- أشعرُ بك وأتأسّفُ بألمٍ لفقدِ أولادك وزوجتك بذاك الحريق الّذي أخبرتَني به، لكنّها الأقدار الّتي تحتاج منّا للصّبر والاحتساب. **قلتُ هذا ردًّا منّي على حديث تناولَ فيه مآسيه الشّخصيّة والعائليّة.**

ذهبَ مستغفرًا ومهلّلًا مخطئًا بقراءة بعض الآيات السّهلة، شارحًا لي بين الحين والآخر ضرورةَ الصّفح والعفو عن المسيء.

- لو دهستِ غيري لكنتِ الآن خلفَ القضبان، ولاستغلّك بعدها ذووه، وابتزّوك في زمنٍ يخلو من الكرماء. احمدي الله يا ابنتي أنّك دهستِ رجلًا مثلي، عمُك الطيّب لا يطلبُ من الدّنيا إلّا السّتر وحسن الخاتمة. **وراح يلتفت لليمين واليسار كغزالٍ يرفعُ رأسه بسرعةٍ قاضمًا العشبَ متوجّسًا من مفترسٍ في الجوار.**

- الحمد لله.

- احمديه أكثر.

- الحمد لله.

- احمديه أكثر.

- الحمد لله.

- بصوتٍ مرتفع يا ابنتي... بصوتٍ مرتفع.

كدتُ أن أنفجرَ ضاحكةً حينها من سذاجته غير أنّي انفجرت باكيةً بعد ساعتينِ فقط من دهائهِ.

- ألم تجد صيدًا أفضل منها؟ حقيبتها كعقلِ ميمون تمامًا. **قالها أكبر أبناء العجّان قبل أن يتثاءب أو يتظاهر بذلك.**

- أولادُ الحلال لم يتركوا لأولادِ الحرامِ شيئًا يا «زفت».

- هذه ظاهرة خطيرة بدأت أخشى من تفشّيها في المجتمعِ في الآونة الأخيرة.

- سيّارتها لا تساوي المخاطرة بتفكيكها وبيعها خردة.

- الرّائحةُ أفضلُ من العدم.

- لكنَّ ميمونًا سعيدٌ بهذا الصّيد، أعشقُ اللّحمَ الأبيض المتكدّس الطّازج حين يكون مترهّلًا بهذا الشّكل. **قالها ميمون مشيرًا لعضوهِ الذّكري وغمزني بعينه تزامنًا مع حركةِ تلذّذ من شفتيهِ مما أودى بقلبي للاشمئزاز أكثر، والرّعب الصّامت أكثر.** أنا من سيبدأ.

- بارعٌ أنتَ بالكلام الفارغِ يا ابنَ أمّك الحالمة... سأشبعُ موتًا قبل أن تفعلَها.

- أكملوا عشاءَكم، ومِن ثمَّ نذهب إلى القرعةِ ترسيخًا للدّيمقراطيّة بيننا.

{القرعةُ على جسدي؟ لماذا أنا تحديدًا؟ آلاف السيّارات مرَّت من أمامه فلماذا أنا؟ تحديدًا أنا؟ أيُّ نحسٍ وحظٍّ عاثرٍ هذا؟!}.

- قرعة؟ مبروك عليك إذن يا ميمون. **قالها أحدهم ساخرًا.**

- بل قل: ملعونةٌ أمّك يا ميمون. **جاءت الشّتيمةُ قبل صاحبتها أو بالأحرى قبل أن تدخلَ مسرعةً عجوزٌ حمراء ممتلئٌ وجهها بالنّمش والنّدوب راكلةً باب الحجرةِ المتهالكِ بعصبيّة.**

- لعنها الله، لكن ما الّذي فعله هذا الغضيب؟ **قالها العجّان دون أن ينظر نحوها وفمهُ محشُوٌّ كما يديه بالطّعام.**

- لم يذهب لجامعتهِ مِن أسبوعٍ، أخبرني زميلُك فلا تنكر.

راحت تعنّفه وتضربه بيديها رغمَ إنكاره ذلك وسطَ شتائم إخوته ونعته بالفشل، نادبةً حظَّها وأقدارها الّتي لم تقف يومًا بصفّها.

- مذ تزوجتكَ والنّحسُ رفيقي. **قالتها وقد اتّجهت بحواسّها وبصرها للعجّان.**

- الأسطوانةُ ذاتها الّتي لا تملّين منها مطلقًا، كرّري، غنّي وأشجيني، هيّا... أقسمُ لكم أنّها ستقفُ يومًا على قبري كي تقول هذه الجملة كلّما سنح لها الوقت بذلك، واحتاجت روحُها لممارسةِ النّكد الفطريّ في دمائها.

لم تمثّل دورَها كما ظننتُ بادئَ الأمر فقد بدت منزعجةً فعلًا من ابنها الكسول، ورغمَ أنّني لم أستطع الرّبطَ حينها بين الشّهادةِ الجامعيّة والإجراميّة إلا أنّني ظننتُ أنّها صاحبةُ الكلمة الفصل بينهم؛ لذا زحفتُ أقبّلُ قدمَها كي تتركني وشأني متوسّلةً باكية مستجيرةً بها.

- أنا ممرّضة ولم أقصد دهسَه، أقسم على هذا، لم أفعل شيئًا صدّقيني.

ضحِكَت فضحكوا بعد أن دفعتني عن قدمِها بعنف على دفعتين.

- ألم تجد صيدًا أدسمَ من هذه؟ **قالتها بعد أن خلعت ثوبَها وحجابها وجلست لمشاركتهم العشاء.**

- هذه الّتي لا تُعجبك كادت تدهسني حقّا، يبدو أنّها نالت رخصة القيادة شريطةعدم استعمالها للفرامل... ثمَّ إن إحضارَ فيلة كهذه إلى هنا مغامرة بحدِّ ذاتها. لقد اضطررتُ أن أدورَ حول الأرضِ مرّتين كي أشتّت تركيزها، ناهيك عن بعض القصصِ الكاذبة الّتي اضطررتُ لسردها عليها كي لا تستشعرَ الخوف من طولِ المسافةِ الوهميّة... لقد كذبَ والدُكم الصّدوق هذه المرّة مضحّيًا باستقامته من أجلكم.

استغربوا ضاحكين دلالة أنّها جملةٌ مبتكرة لم يسمعوها منه من قبل؛ ملتفتينَ نحوي لائمينَ إيّاي على دفعهِ للكذبِ عبر صراخاتٍ وتدافعٍ كلامي اختلط بعضه ببعض.

- لعلَّك خفتَ أن تصرعَك. **بدت ساخرةً متفحّصةً بنصف عينيها بداتني بعد أن هدأ الجميع.**

- بل لأنّني شعرتُ أن أحدَهم يلاحقني... سيّارةٌ فارهة. **قالها وهو يكتكتُ يديهِ ويمسحهما بثيابه رغم أنّه عاد وتناول الطّعام مرّة أخرى.** شككتُ بعض الوقتِ أنّها تسيرُ خلفنَا قبلَ اختفائها فجأةً، ثمَّ لا بدّ أنّك على دراية تامّة أنَّ أحدًا لا يصرع العجّان يا بنت الكِيس. **{لعنة الله عليك وعلى آل الكيس الّذين وافقوا على أن تكوني زوجتي}.**

- لا تغضِب أمّك مِن جديد. **قالها كبيرهم موجِّهًا الحديث لميمون قاطعًا بهذا نقاش والديه.**

- أعدكِ ألّا أكرّرها ثانية.

أمّا أنا فلطالما كرّرتُ أشياء أغضَبت ذاتي مع حرصي أن أكون فتاةً صالحة في المجتمع... أغضبتُ ذاتي حين سمحت لنفسي بالوشاية كذبًا بأبي سند لإدارة المشفى حيثُ اتّصلتُ بهم من هاتفٍ عموميّ؛ لأخبرهم أنّ حقيبته

الخاصّة مليئة بالأدوية المُخدِّرة المسروقة... تلك الأدوية الّتي قمت أنا بوضعها فيها.... وجدَ نفسَه بعدَ التّحقيق السّريع مطرودًا شرَّ طردة، لكنّه ظلَّ صامتًا مبتسمًا متجاهلًا نظراتِ الشّامتين قبل أن يسيرَ نحوي شامخًا وكأنّه تقلدَّ للتّو جائزة نوبل في الطبّ... تحامل وكابر حتّى استطاع وجهه نفيَ أيّ ملامح ضعفٍ أو خجلٍ فيه؛ مقتربًا منّي دون أن تفصحَ عيناه عن شيء، ليصافحني طالبًا منّي عدم تصديق هذه التّهمة الباطلة الّتي دُبّرت له من حيث لا يدري... رأيتُ حينها جبًلا يتصدّع ببطء ثم يدّك صعقًا فيتساوى بالقاع.

رحت أبكي بحرقة حتّى كدتُ أعترفُ أمامَه بأنّني مَن حاكَ هذه المكيدة. ووسط خوفي وندمي على ما فعلت استحلَفني أن أكفكف دمعي، وألّا أبكي مجدّدًا رحمةً بنفسِ ابنته الّتي لا يقدر على تحمّل ألمها... هي الدّموع ذاتها الّتي انهمرت بحرقةٍ أمام ميمون خوفًا فتلذّذ بها وكأنّه يتوّج انتصاراتِه عبرها، أو عبر مراسم خوفي وذعري.

وقد أتبنّى الآن ما قاله لي أصلان بخصوص ميمون فقد رأى أنّه لا يختلفُ كثيرًا عن أولئك الّذين نصادفهم على مقاعد الدّراسة، فلا فرقَ بين ابنِ سارقٍ ومحتالٍ بسيط، وبين ابن سارقٍ ومحتالٍ عريق، فهذا يخرجُ ظانًّا أنَّ الدّنيا له، وذاك ظنًّا منه أنَّ الدّنيا ذهبت لغيره، فيمارسُ كلّ منهما البحث عنها أو تملُّكَها بطريقته.

- العجّان أو زوجته أرادا للابن أن يصبحَ لصًّا متحضّرًا فقط، تأسيّا بمن سبقَهم، فلا تستغربي من هذا. **قالها أصلان غيرَ مكترثٍ بما يسمع.**

- كان قذرًا رغم أناقةِ ملبسه خلافًا لهم.

- هذا ما شاهدتهِ أنتِ من خارجه، لكنَّ قذارةَ الدّاخل هي الأسوأ.

- باعتقادكَ هل أكمل دراسته؟

- لا. **ضحكَ كثيراً ثمَّ راح يسعل جرَّاء هذه الضّحكة.**

- لا! وما أدراك؟

- لأنّه لم يعد بعدها للجامعةِ بتاتًا.

- ألأنّهم ألقوا عليه القبضَ ليلتها؟! ربّما عادَ للدّراسةِ بعد خروجهِ مِن السّجن!

- لا، لم يفعل. **صمتَ قليلًا.** هكذا يقول لي حدسي.

- أمّا حدسي فيقول لي بأنّك ستوجّه رسالةً أخرى لابنك البكر **«جودت»**.

- ليس حدسك مَن أخبرَك بهذا، بل أنا.

- كلّا.

- نعم.

- كلا، ولنبدأ من جديد لو تكرَّمتَ، وإيّاك أن تقاطعَني كعادتك.

ابتسمَ مغمضًا عينيه مُعيدًا ظهره للوراء قليلًا.

- أريد منك أن تكتبي هذه الرّسالة بخطّ يديك لا الحاسوب.

- شريطةَ أن توقّع عليها، فقد فعلتَها برسالتنا الأولى لابنك الآخر ***«نزار»*** لكنّك مزَّقتها بعد ذلك، بحجّة أن لغتَها لا تليق بشاعرٍ مثلك.

- وقد نمزّقُ هذه أيضًا.

- لن أمزِّقها مهما حدث.

قاطعًا عليَّ الكلام وسادًّا الطّريق أمام ثرثرتي تنحنحَ قبل أن يقول بسرعة:

- ***صديقي،*** أوشكتُ على كتابةِ رسالةٍ تقليديّة كالّتي يبعثُها الآباء للأبناء، ثمَّ صرفتُ النّظر عن هذا هروبًا من مكرورِ الأساليب والمشاعر الباهتة... فكّرتُ بكتابة النّصائح والمواعظ الموجَّهة على غرار وصايا ***«لقمان»*** لابنه، لكنّني إن فعلتُ فهذا معناه إقرارٌ بفشلي أمامك كوالدٍ لم يستطع تربية ابنه وتوجيههُ كما يجبّ، ثمَّ تذكّرَ مستدركًا في الدّقائق الأخيرة أن يفعل. والمتأخّرون عن أيّ شيءٍ لا يدركونَ ما فاتهم مهما حاولوا.

كان بإمكاني تقديم الكثير لك في حياتي طالما قبلتُ أن أقطفَ ثمَار الزّواج. وبما أنّك الثّمرة الأولى فقد وجب عليَّ فعلُ ما أستطيع فعله للحفاظ عليك عبر خضوعي لغريزة أبٍ حديث عهدٍ بأبوّته آنذاك. أمَّا مَن يقرّر نجاحي من فشلي كأبٍ فهو أنتَ لا أنا.

حاولت أن أتفلسف قليلًا وأبدأ رسالّتي بـ: «ما دمت تقرأ الرّسالة الآن فهذا يعني أنّها قد وصلتك» كنوعٍ من إظهار الذّكاء الغبيّ الّذي نراه في أفلام «الضّوء»، بينما أُملي هذه الرّسالة على الرّقيقة ريم ولا أجد في نفسي ذرّة أملٍ واحدة أن تقع يومًا بين يديك لتقرأها بعد موتي؛ لكنّني عموما وبعد أن صمتُّ طويلًا انتبهت إلى أنّني بدأت الرّسالة بكلمة «صديقي» بدلًا من ولدي

رغم عدم تعمّدي هذا... هذه الكلمة تختصرُ الكثيرَ علينا، وتجبرني أن أخاطبَك ضمن مفهومها لا ضمن مفهوم الدّماء الواحدة، والتّسلسل الوراثيّ.

أكتبُ لك الآن لأنّني بحاجةٍ للكتابة أكثر من حاجتي لأن تقرأني؛ وتفهم ما أريده، وأفعلُ هذا لأنَّ الشّاعر لا يصفّف أفكارَه إلّا بصوتٍ مرتفع، فإن صَمَت فهذا لأنّه بانتظار نوارسِ أفكار قادمة إلى شواطئ حبره من بعيد.

ثلاثُ سنوات قد مرّت دون أن أكتبَ بيتَ شعرٍ واحد، أو عبارة ركيكة؛ ثمَّ بعث الله لي ريم كي تنقذَني من الصّمت المطبق فأنفجر بالثّرثرة؛ سيما وقد حرمت في السّجن من الحديثِ بالعربيّة إلّا نادرًا وعبر داخلي فقط.

في أيّامِ السّجن الأولى قابلتُ عربًا قلائل أضاعوا ذاكرتهم قبل لغتهم؛ فصمتوا مدركين أنَّ الياءات الّتي أطلقوها عبثًا في أوطانهم هي الّتي دفعت بهم إلى هذا المكان، فحذفوا من أصواتهم ياءاتِ النّداء بالرّجاء وتحوَّلوا لسواهم، فانتبذتُ زاويةَ زنزانتي كي أبقى أنا، أو ذلك الشّخص الّذي أراه داخلي إن كنتُ محقًّا فيما أراه منّي، مع أنّني تائهٌ أكثر ممّا يظنُّ المحدّقُ إليَّ؛ إذ أشعرُ مُذ أُسرت في هذه الجزيرة أنّني أنتشلُ نفسي وشخصيّتي من براثن آخر يقبع في المجهول منّي.

يحاولُ جاهدًا انتزاعي إليه، فأقاومه بكلّ ما أمتلكُ من طاقةٍ حتّى إذا تكلّمت هزمني في هذا الصّراع؛ فأراني بعدها أنتصرُ بالصّمت... فالصّمتُ مَن يخرسُ الغضبَ في أحلك المواقف، ومَن يساعدك على الانتصارِ ودحضِ ضدّك وغريمك في الشّرّ والخير لحظة الصّدق.

ركبنا البحر هربًا من بنغازي بعد الانفجار بثلاثةِ أشهر متوجّهين إلى الوطن، ولم نكن ندري أنّنا سلّمنا أنفسنا لقراصنة البحر وقطّاع طرقه. القاربُ لم

يتّسع للهواء لكنّ قلوبنا لم تتّسع حينها للموت. الرّكاب تشبّثوا بالأمل الّذي لا أمل فيه للهروب، وكنت منهم ومعهم قلبًا وقالبًا، فالحربُ تلهثُ خلفنا، والوجوهُ الغاضبةُ بلا سببٍ وجيهٍ تلاحقُ الأبرياء قبل غيرهم. وإذ مضينا مودِّعين الشّاطئ لبحرٍ لا نعرفُ عنه سوى أنّه الطّريق للهرب؛ وجدنا أنّنا هربنا للهروب ذاته دون أن ندركَ ذلك... مضحكٌ أن تفرَّ بكلِّ ما فيك للفرار، ثمَّ لا يقتنعُ الفرارُ أنّك بين يديه.

أحاطوا بنا بعد أيّامٍ في البحر واقتادونا للشّاطئ ثمَّ السّجن بتهمةِ المتاجرةِ بالعبيد... العبيدُ هم الأطفال والحسناوات الّذين لم نرهم بعدها، أمّا التّجارُ فهم البؤساء الّذين نجوا من القتل تحت نير مزاجِ القاتل.... صوَّب الجندي السّنباريّ سلاحَه الضّوئي فور وصولنا الشّاطئ نحو رأسي مُطلقًا الضّوءَ الشّعاعي على آخر، ثمَّ صوَّبه لرأسي وقتلَ آخر، ثمَّ آخر، ثمَّ آخر.

هي التّسليةُ بدماء البشر لا أكثر، ثمَّ قالَ كلامًا بلغةٍ لم أفهمها ليضعوني وآخرين على «بغال ميكانيكيّة» مردّدين لحنًا رديئًا لا يخضع لقافيةٍ أو وزن... ولا بدّ أن أستطرد هنا بجملة مهمّة يهمّني أن تنقلها عنّي: «موسيقا اللّغة العربيّة تشبهُ إلى حدٍّ كبير موسيقا الطّبيعة ذاتها. تأكّدت من هذا بالدّليل الّذي يصعب إثباته بعد سنةٍ في السّجن سمعتُ خلالها أغلبَ اللّغات البشريّة».

- ألم تُحاكموا؟ **لم أستطع منعَ نفسي من طرح هذا السّؤال عليه رغم استرساله.**

- قضاءُ الظّالمين يبدأ في الطّريقِ إلى المحاكمةِ والعودةِ منها لا في أروقتها.

- سمعتُ أن أحدَ مَن كانوا على متن ذاك القارب حصل على براءته، وعاد إلى وطنه.

- لأنّه لم يكن بريئًا.

(4)

المناشير

كنتُ أتبادل الحديث مع دِن حين توجَّهت نحوي سيلا بغضب مخيف، طالبةً منّي أن أفسّر سبب طلبي من الإدارة فحصَ الحمض الأنويّ لمريضي.

- مَن سمح لك بتجاوزي؟ ثمَّ ما الّذي يدفعك للاهتمام بسجينٍ ميتٍ مثله؟ ما الّذي تريدين إثباته بخصوص هذا العربيّ الوضيع؟

لم أكن أمتلك القوّة حينها للدّفاع عن نفسي؛ لكنّني حاولت أن أبرّر موقفي خوفًا منها فقلت: «هو يدَّعي أنّه ليس معروفًا، بل الشّاعر أصلان الّذي كنتُ أترجمُ لكم الكثيرَ مِن أشعارِه، تعرفينه أنت بالتّأكيد!».

- وهل علينا تصديق مجنون مثله؟ ثمَّ لنفترض أن هذا الغبيّ يدعى أصلان، ما علاقتنا نحنُ بهذه التّفاهات؟ ليحمدَ ربّه أنّه استرعى اهتمام منظّمة غبيّة وإلّا لكان الآن متعفّنًا في قبره... نحن ممرّضون لا ساسة ولا محقّقون كي نتعرّف على هُويّته وجذوره اللّعينة... وظيفتنا أن نقدّم له العلاج كرمًا من حكومتنا، ثمَّ ليذهب هو وشعره وشخصه إلى الجحيم... هل فهمت؟

بعد أن هدَّأَ دن من غضبها، وطلبت إليها إدارة المشفى عدم التعرّض لمريضي خوفًا من شعوذته؛ لم تنفك تسخرُ من اهتمامي بهِ رافضةً تصديقَ تبريراتي الإنسانيّة بشأنه، كنوعٍ من التّنفيس وقد أُجبِرَت على تركي وإيّاه وشأننا.

- لعلّك تعوّضين من خلاله الأب الّذي حُرمتِ منه يومًا. **قالتها سيلا بحنقها المعهود.**

- لم أره كذلك.

- لأنّه عربيّ مثلك إذن، أو ربمّا لأنّه من وطنك كما زَعم... هذا هو الاحتمال الأقرب لفهمِ سرّ اهتمامِك المبالغِ بجثّته الحيّة.

سمعتُ الجملةَ بقالبٍ مختلفٍ من أصلان أيضًا عند لقائنا الأوّل، وبعد سؤالي عن موطنِه، فهل قرّبني الوطنُ البعيدُ منه؟ أم أنّني فرضتُ نفسي عليه لأنّني أعلم من هو؟

{سَمحوا لكِ بعدَ ذلك بما لا يُسمحُ به من أجلِ الإعلام الكاذب، فرحتِ تروّجين كلّما زارَ غرفتَه وفدٌ وعدسةٌ للحقوقِ الّتي يحظى بها السّجناء ضمن الشّروط المسبقة؛ رغمَ أنّك تعلمين بأنّها الغرفةُ الوحيدةُ الّتي شاء لها القدر أن تكونَ غرفةَ مشفى لا مقصلة}.

- عليه أن يتحدّثَ إليهم عوضًا عن صمتهِ المُقرف. عليهم أن يقتنعوا بأنّنا نعامل السّجناء القتلة أمثاله برأفة وإنسانيّة عزّ نظيرها. **قالتها سيلا وقد رفض الحديث للجنةٍ تابعةٍ لجمعيّة تُعنى بحقوق الإنسان حسبَ زعمهم.**

- لن يتحدّث، لقد تحدّثَ ولم يصدّقه أحد... الإدارة وأنتِ ترفضون أن يعرِّفَ بنفسه دونَ سببٍ وجيهٍ لهذا.

ابتسمَت كأنّها لم تستمع لكلامي مخفيةً كرهها له. هذا الكره المجّاني الّذي تحملُه للجميع لا نحوه فقط بقسوةٍ غريبة.

أمّا هو فقد كرهه الجميعُ علانيّةً لكنّهم لم يقتربوا يومًا منه أو من لغتهِ تحديدًا خشيةَ أن يشيرَ بإصبعه نحو أحدهم قائلًا له: «سأقتلعُ عينيك قريبًا» كما قالَ ل باف وقد استفزَّه عبرَ ترديده أغنيةً عربيّةً محرّفة.

- هو ساحر، لا يعقلُ أن يكونَ الأمرُ مصادفةً!! **قالها لي مدير المشفى شاردَ الذهن كمن يستحضر صوراً تأتي من الماضي البعيد بشقّ الأنفس.**

- لا أظن، هو رجلٌ لا حولَ له أو قوّة.

- وهذا هو الدّليلُ تحديدًا على شعوذته وقدراته الخارقة... أيعقلُ أنّ رجلًا هزيلًا منهكَ القوى مثلهُ يجرؤ على تهديد شابٍّ سنباريّ باقتلاعِ عينيهِ هراءً؟ لو لم يكن على ثقةٍ بقدرته لمَا جاهرَ بهذا صدّقيني... هذا مؤكّد... ألم يقل له: «سأقتلعُ عينيكَ قريبًا».

- نعم لقد ترجمتُ ما سمعته حرفيًّا دون زيادةٍ أو نقصان.

- وها هو باف قد فقد عينيه، ليست مصادفة، الأمر ليس مصادفة... وجودهُ هنا ليس مصادفة...

ظلَّ يردّدها قلقًا قبل أن يأمرَ موظفي المشفى بأن يدعوه لي بالكامل، ويصدرَ قرارًا يخوّلني أن أعتني به وحدي، وكما أريد حتّى موته المُتوقّع سريعًا.

- لن يموت. **ختمَ بها أحد الموظّفين حديثه العابر معي.**

- الأطبّاء.

- الأطبّاءُ لا يعترفونَ بالسّحرة، هذا ساحرٌ لعين، ها قد مرَّت أربعةُ أشهرٍ عليهِ هنا ولم يمت.

- ألا تخشى أن يسمعكَ فيذهب بصرُك أيضًا؟

أضحكتني هذه الأحاديثُ المتفرّقة وسرَّتني كونها جعلت منه رجلا مُهابًا، وجعلتني مثارَ شكٍّ للحمقاوات اللّائي ذهبن يتودّدن لي خشيةَ أن أحرّضه على ما يكرهن.

- ولماذا لم تصدقي بأنّني السّبب بما جرى لباف هذا؟ **مبتسمًا كان أصلان حينها.**

- لأنّك لستَ ساحرًا.

- مشعوذٌ إذن؟!

- لا.

- قد أكون، ما أدراك؟

- إذن اسحرني أرجوك، وحوّلني لفتاةٍ تزنُ ستينَ كيلو غراما فقط.

- أخشى إن فعلت أن تختاري مريضًا وسيمًا غيري فلا أجد من أملي عليهِ رسائلي.

- استغلاليّ. **كدت أتظاهرُ بالغضب ثمَّ عدلت عن ذلك وابتسمت.**

- دعيني أستغلّك أكثر.

- هيا. **ورحت أَخطُّ ما أراد لي كتابته.**

-*البارحةُ* أمليتُ على ريم رسالةً طويلةً نويتُ توجيهها لوالدتك، لكنّني أحجمتُ عن إكمالها، وتوقّفتُ فجأةً مستسلمًا للنّوم؛ مقتنعًا برأي ريم

وكلامها حولَ الاعترافات المجّانيّة الّتي لا تفيدُ أحدًا، في حينِ أنّها قد تجرحُ المقابلَ فقط تاركةً غصّتها في قلب محبّيك.

قالت مُقنعَةً بما لا يدعُ مجالًا للرّفض: «ما دامَت لا تعرف هذه الحقائق فلا تنزع منها حزنَها عليك بكمّاشةِ التّساؤلاتِ الحديثة والحيرة القاتلة. لو كنتُ مكانَها لغضبت وشتمتُك، ثمَّ لأصابتني حسرةٌ لن أبرأ منها يومًا لأنّني لن أقف على أجوبةٍ تشفي غليلي؛ بعد أكاذيبَ مات صاحبُها إثرَ قذفها في حجري دون الاكتراث بمشاعري».

الفيلسوفة البدينةُ تزعم أنّها اكتسبت ذلك منّي، وتقمّصت دوري في هذه الملاحظة، ولكنّني لا أصدّقها رغم تسليمي بأنّنا مهما شرحنا للآخر حقيقةً ما، وفصّلنا فيها عبرَ رسالةٍ أو حتّى مكالمةٍ صوتيّة بالشّرح المملّ، إلَّا أنَّ المقابل سيصرّ على مقابلتنا وسؤالنا مجدّدًا وقراءةِ ملامحنا بعنايةٍ تامّة، وكأنّنا نُقرأ ويُستمع لنا من ملامحنا لا من خلال حروفنا وأصواتنا.

قلتُ لها ما لن أبعثَ بهِ إليها، وما تعرفهُ أنتَ دونَ غيرِك عن علاقتي بعائلتها وخداعي لهم، بل كنت على وشك أن أقول لها ما لا تعرفه أنتَ وهي عنّي... أمّا ريم فما زالت مصرّة على أنَّ لغتي لا تشبهني في تلك الرّسالة، ولا تليقُ برجلٍ على مشارف السّادسةِ والثمّانين، لكنّها تمتعضُ أيضًا حين أقول لها: «كيف لي أن أقنعَ قلمي بأنّني أصلان ولستُ معروفًا» ظنًّا منها أنّني أتفوّه بهذا مجازًا... قد يكونُ هذا بسبب قراءتها أعمالي السّابقة، ومقارنتها بما كتبتُ لوالدتكَ على شكلِ رسالة فلم تفرّق بين لغةِ القصيدة، والرّواية، والقصّة، والرّسالة فظنَّتها ركاكةً... بيد أنّي أكاد أُسلِّمُ فعلًا أنّي فقدت مهارتي الكتابيّة فتلبّسَني معروفٌ هذا بالكامل.

حتّى لو تلبَّسني فعلًا فهو لا يعلمُ أنّي حينما بُشِّرت بك قفزتُ كالأطفال في المشفى... ضممتُ القابلةَ وقبَّلتها ونقدتُها خمسينَ دينارًا وسط دهشةِ الجميع مِن رفضها واستنكارها لمَا قمت به، وتكرارها بعصبية: «أستغفر الله، أستغفر الله». رحتُ أدور في ممرّات المشفى دون هدى، ودونَ أن أقول شيئًا رغم أن لديَّ الكثير. اتّصلتُ بوالدتي صائحًا بصوتٍ تحشرجت به الدّموع قبل المسرّة: «لقد حضرَ أخيرًا يا أمي، حضَرَ من زوجتي العفيفةِ القدِّيسة».

انتظرتكَ طويلًا فلمَّا حضَرت، وقد حضرتَ متأخّرًا _والذّنبُ يقعُ على عاتقِ والدتك الّتي لم تلتقِ بي مبكّرًا من عمري_ لم تسعني الأرض، وما إن ضممتك لصدري حتّى شممتُ رائحةَ والدي من خلالك... كنتُ أبكي ثمَّ أتوقف، ثمَّ أبكي، ثمَّ أتوقف، ثمَّ أبكي، كأنّ أحدًا لم ينجب ابنًا قبلي. ورغم إصرار المشفى على مبيتك فيه تلك اللّيلة إلّا أنّني رفضت ذلك منطلقًا بك نحو مقبرةِ ***«سحاب»*** في ***«عمّان»*** على وجهِ السّرعة.

جنَّ الحارسُ من هذا المجنون الّذي أصرَّ على دخولِ المقبرةِ في الثّالثةِ صباحًا تصحبهُ ثلاثينيّة حسناء وطفل رضيع... لكنَّ خوفه مَن سمحَ لي بالدخول، ومن حرَّضه بعدها على الاستنجاد بالشّرطة... حملتك رغم معارضةِ والدتك وخوفها عليك إلى قبر جدِّك. جثوتُ على ركبتي صائحًا: «لقد حضر جودت يا أبي. انظر، أعدكَ أن يكونَ أديبًا رغمًا عن أنفه... سأجبره على حفظ أضعاف ما حشوتَ ذاكرتي به. أعدك بذلك».

لعلَّك تتمنّى الآن لو كنتَ أديبًا، وتقول في نفسك: «لقد خيَّبتُ ظنّه»... لم تفعل. ولا يحقّ لك أمام نفسك أن تكونَ ما أردتُ منك أن تكونَه، فقدرُ

الآباء أن يحلموا بشكلٍ ومسارٍ وواقعِ أبنائهم كما يحلو لهم، ثمَّ للأبناء الحقّ أن يرفضوا أحلامنَا، ويصنعوا بعيدًا عنّا واقعهم.

لقد خيّبتَ ظنّي فقط لأنَّ والدي لم يرَك ولم يضممك بين يديه. بل أكثرُ ما يغيظني في الحياة حتّى اللّحظة ويؤلمني هو أنّني لم أضعك بأحضانهِ، ولم أسمعه شاتمًا إيّاك... اسمح لي يا بني أن ألومَك على هذه النّقطة تحديدًا؛ لأنّني إن سلَّمت بفلسفةِ الموت والولادة سألوم نفسي، وحينها قد تفقدُ الكثيرَ من أهميّتك لدي.

رجال الأمن لم يقتنعوا بكلامي حينما أخبرتهم أن ولدي لن يمرضَ من هواءِ المقبرة البارد، فتمتموا بعباراتٍ تنعتني بالجنون والخبل أكثر من مرّةٍ فيما بينهم. صحتُ بهم محتقنًا بالعجب: «والدُه قاومَ المرض بعدما نزفَ دمه كاملًا في أوّل ساعات ولادتِه ولم يمت، نحن من سلالةٍ نقاوم المرضَ والموتَ صغارًا، ولا نموتُ إلّا على صدر القصيدة».

- يا إلهي، هذه الجملةُ معبِّرة ومؤلمة جدًّا، أنتَ أنتَ أستاذ أصلان.

- لو تحترفينَ السّكوتَ احترافَك المداخلة المزعجة لَـ....

- سأصمت. **وضعتُ يدي على فمي فوراً.**

- ستمنحينني السّعادةَ إن أغلقته باستمرار.

- مممممم.

- ***وثقتُ*** بك منذ اليوم الأوّل. تصوَّر أنّني وثقت بك رغم أنّني لم أقابلك حينها إلّا مِن بضع ساعات فقط، وأصدقُ الثّقة هي ثقةُ الأب بابنه

والعكس. فنحن نثق بأبنائنا لأنّنا نرى أفضل ما فينا من خلالهم، ويثقون بنا لأنّهم يأخذون عادةً منّا ما ينقصُ اكتمالهم. ووثقتُ بقيمتكِ أكثر حينَ وجدنا جدَّتك أمام البيت جالسةً على عتبتهِ بانتظارنا... وقعَ قلبي حينها ولم يخطر أبدًا في خاطري أنّها تترقّبُ قدومَنا، نهضَت سريعًا وتلقّفتكَ بلهفةٍ من يدي دون أن تجيبَ عن أسئلةٍ نسيتُ فحواها الآن موبّخةً إيّاي وقد حملتْك إلى الدّاخل على طيشي. لم أعر غضبها الممزوجَ باللّهفةِ عليكَ بالًا إذ رحتُ أتأمّلُ ساعةَ الحائط متمنّيًا لو أنّها تسيرُ بسرعة أكثر لأراك وقد كبرت... هذه العبارات عادةً تتفوّه بها النّساء لا الرّجال في أغلب الأحيان، لكنّني شعرتُ بها لعظم محبّتك في قلبي.

{هي آثارُ صراعٍ بينَ حاجتكَ قديمًا لابنٍ مِن أيّ امرأةٍ ولو كانت على شاكلةِ نيران إرضاءً لمن تحبّ _بعدما تمرّغت الحسرةُ على وجهِ والديكَ وفي أصواتهم إثر طلاقِكَ وعدم قدرتكَ على الاقترانِ بغيرها؛ رائيًا أذرعًا يابسةً تمتدُّ لاحتضانِ غصنَك الّذي لا يورق_ وبين حاجتكِ لابنٍ يمثّلك بما فيك، وترى فيهِ مرحلةً من عمركِ لا نتيجةً على شكلِ انتصارٍ وهمي}.

لم تكن ابنًا فقط، كنتَ وجعًا أحاولُ أن أخفيه من خلالك يا بنيّ؛ مدركًا فورَ قدومِك أنّك الأملُ الّذي سينسي والدَك فشَله السّابق في علاقاتٍ كارثيّة، والتفاؤلُ الّذي انتظرتْهُ جدّتُك ليرتسمَ على شفاهي... انتظرتنَا أمام المنزل لا لأنّك المولود الّذي سيغيّر الكون وقد أتى بعد رؤيا صالحةٍ مِن مسنّةٍ عابدةٍ أو ودرويشةٍ، بل لأنّها أرادت أن تُشعرني بأهميّةِ سعادتي من خلالها.

إنّها الأمّ وقلبها يا ولدي، الأمّ الّتي تختلفُ عن الجميع، وتعرف ما لا يعرفُه أحد، الأمّ يا ولدي الّتي لا يمكن لقلبها أن يخونَها مهما خانها... الأمّ يا ولدي الّتي لا يمكن للوقتِ أن يضيعَ في حضورها أو يُحتسبَ عندَ غيابها.

«الشّمسُ والبدرُ منذ الخلقِ ما اجتمعا...ووجه أمِّك بالضوءين يجتمعُ». لم يكن هذا البيتُ يومًا يا بني مبالغةً منّي بوصفِ جدَّتك مطلقًا، لم يكن مجازًا أردتُ له أن يزيِّنها في القصيدة، لكنّه الوصفُ الّذي يتماشى مع الرؤية المنبثقةِ من الأعماق، فالأمُّ الّتي تنفصلُ عنك جسديًّا بقطعِ الحبل السّريّ، هي تلك الّتي تتوحّدُ فيك عبر حبلٍ روحيّ أسمى لا ينقطعُ مطلقًا ولو كان بُمديةِ ومبضعِ الموت.

تتميّز الأمّهات عن الآباءِ بضعفهن في العلاقة الأسريّة السويّة، وهذا تحديدًا ما يمنحهن القوّة لاحتلالِ قلوبِ الأبناء، لذا قد تجدُ _وإن كان قليلًا_ من يحبّ أباه أكثر من أمّه في الوقتِ الّذي لن يفضّلَه عليها، فتفّاحةُ آدم لا تنتصرُ بتاتًا على رمّانتي الصّدر فوقَ مائدة المشاعر مهما كان.

أمّا أنتَ فقد ورثتَ حظَّ والدتك مِن الحياة وحظّي من النّساء.. قد لا تعلم مدى سعادتي برؤيتك رضيعًا نهمًا للقبضِ على أيِّ ثدي ومحاولتك الرّضاعة منه، وتذوّق لبنه... لم تنجح بهذا نجاحَ والدك الّذي رضعَ من جميع جارات وقريبات جدّتك بحجّة تعويض الدّم الّذي فقده... الغريب أن تأتي والدتُك وجدَّتُك بعد كلّ هذا وتتساءلا بحدّة عن سبب عشقي للنّساء؟! بيد أنّك عوضًا عن التّفاخرِ بما ورثتَه من صفاتي رحتَ تنعتني جزافًا بالأبِ الظّالم بعدما رفضتُ زواجكَ ب حبيبتك ***«هند»*** ، وبالرّجلِ الحجريّ حين لم أبرر سبب رفضي ذلك، ثم تقبّلي ببرود فكرة رحيلك عن المنزل للأبد.

كلانا أدرك وقتها بأنّك لن تفعل، فلم تفعل، ووحدي من احتفظ بسرِّ الرّفض دون أن أفشيه لأحد.

- منعتهُ من حبيبته؟ **خرَجَت دون قصدٍ مني لائمةً نفسي بضرب يدي على فمي دون توقف.**

صَمتَ طويلًا، مغمضًا عينيه هذه المرّة لأنعتَ نفسي بالحمقاء طوال صمته قاطعةً على نفسي وعدًا حنثته ألفَ مرّة بألّا أقاطعه بتاتًا؛ قبل أن يتنهّدَ ويسترسلَ من جديد:

- ***الحبُّ*** يا صديقي ليس كافيًا للارتباط، ولكنَّ الثّقةَ القطعيّة بمن نحبّ تكفي لإنجاحه وديمومته... هنا فقط عليك أن تتساءل عن تلك الثّقة بمن أحببت، وهل كانت ثقةً ناضجة أم مجرّد وهم.

«إبراهيم» عليه السّلام أحبَّ الله بعد أن عرَّفَه على نفسه، وصرفَ فطرَتَه قبل عينيه عن الشّمس والقمر، لكنّه ظلَّ متوجّسًا حتّى أراه الطّيرَ وآليةَ بعثه... لم يعنِّفه حين لم يتردّد بسؤاله، فالسّؤال بابُ المعرفة الأهم؛ وإذ وثقَ بما وقفَ عليه لم يبالِ بعدها بمكيدةِ النّار واثقًا بمن يحبّ، فكانت حينها البردَ والسّلام.

بينما وثقتَ أنتَ بمن لا يستحقّ، وقدَّمت قلبَك على طبقٍ من غباء لمن فاقتكَ ذكاءً، وشاهدتَ ما أرادَ قلبُك أن تشاهدَه متجاهلًا أنّ علينا الثّقةَ بقلبنا بعد أن ندركَ حقيقتَه لا قبل ذلك، فالقلب كالآلة الّتي يجب أن تتأكّد من عملها ودقّتها مرارًا وتكرارًا كي تثقَ بالنّتائج.

يؤسفني أن أقولَ لك أنَّ عاهرةً صغيرة استطاعت التّلاعبَ بك كيفما شاءت... لم أستطع إثبات وجهةِ نظري حينها بطالبةٍ جامعيّةٍ رقيقةٍ خجولة أحبّها ابني وأراد الزّواج بها، فكلُّ ما كنت أملكه من أسبابٍ لرفضي هو إحساسي وخبرتي الطّويلة في الحياة عمومًا والنّساء خصوصًا.

تتقاربُ الأشياء المتشابهة حدَّ الغرابة، ولو أسقطتَ الآن خبرتكَ على مَن قابلتَهم لعرفت مَن يشبه منهم مَن؛ رغم أن أغلبهم لم يلتقوا أبدًا. وكلمَّا

تقدَّمتَ بالعمر قابلت الطّبائع الّتي لم تقابلها من قبل وأشباههم بعد ذلك، فالخيرُ له وجوهٌ قليلة ظاهرةٌ للعيان، أمَّا الشّر فله وجوهٌ يصعُبُ حصرُها، لذا فإنَّ استخراجَ القليل من ذهنك يعرِضُ لك الكثيرَ فورًا.

هند يا بني لم تكن سوى نسخةٍ حداثيّة عن طليقتي ***«نيران»*** فكيف لي أن أحدثَّك في العشرين من عمرك عن النّسخة القديمة بينما كنَّا حديثي عهدٍ في الصّداقة؟ كيف لي أن أحدّثك وأسرّ لك بجرحِ والدك وغبائهِ وسذاجتهِ قبل أن يلتقي والدتَك بسنواتٍ؟ بل كيف لي وقتها أن أبرهنَ لك أشياء لا يعرفها إلّا مَن لا ترى أنّني قد أكون أحدَهم؟

ثق تمامًا أنّ عدمَ تبرير الأب أو الأمّ لتصرّفٍ ما وإصرارهما على الرّفض أو القبول بشأنه ما هو إلّا كلامٌ صادق لم يقل، أو لم يحن الوقت لقوله بعد، وقد تفعلُ الشّيء ذاته مع ابنك يومًا فيراك ظالمًا أو متساهلًا؛ رغم أنّك لن تتّخذَ قرارًا ترتاحُ له إلّا لتريحَه ممّا كان بانتظاره....كثيرًا ما يعترينا السّكوت بانتظارِ الوقتِ المناسب حتّى إذا حان ضاع منّا الكلام المناسب، لنتساءل نادمين: «لمَ لا يكون الكلام المناسب مَن يخلق الوقت المناسب دون حرفيّة الانتظار؟».

أسوأ ما يحدثُ في صراعِ الأجيال أنَّ كلا الجيلين المتناحرين يصف الآخر بالجاهل دون أن يبرهنَ آنيًّا على كلامه، حتّى إذا حانت لحظةُ الحقيقةِ لإثبات صحّة أو خطأِ الشّيء المتنازع عليه وجد الأحدثُ بينهما نفسَه وحيدًا إلّا من جيل صاعدٍ تجهّزَ لدخول حلبةِ صراعٍ جديدة معه ناعتًا إيّاه بما نعتَ به هو سلفه من قبل.

لو زرتَ قنّ دجاجات جدّتك ووقعت عيناك على ديك فتيّ يتبختر تيهًا بينهم قافزًا على السّور دونهن؛ عائدًا إلى مغازلتهن بين الفينةِ والفينة وأعجبتك

ألوانه وفتوّته فانتظر حتّى يشتدّ عود الصّيصان الّتي سيخرجُ من بين ظهرانيها ديك صغير يحاولُ القضاء على الأوّل... سيخسرُ في المرّة الأولى والثّانية لكنّه إن نجا من سكينةٍ جدّتك فسيفوز في المرّة الثّالثة أو العاشرة. ستشعرُ حينها بالحزن على الدّيك الأوّل وترثي حاله وما آل إليه من ضعف حين يهرب من أمام الأفتى والأقوى لائذًا بزاويةٍ بعيدةٍ خشية أن يُرى ذليلًا على هذا النّحو من الدّجاجات اللائي كنّ على ذمّته؛ منتظرًا بفارغ الصّبر أن تُوارى سوءتُه في القدر... عليكَ الانتظار بعدها لترى ديكًا طائشًا من جيل آخر يقضي على هذا الدّيك ويتربّع على عرشِ السّلطة مزيحًا المنتصر من عرشهِ نحو القدر ذاته...

نحن لسنا كالدّيكة لكن موروثاتنا وأفكارنا الّتي تبيض وتفقّس وتتصارع في قنّ الحياة كذلك يا صديقي.

دفعني حدسي وخبرتي للرّفض، وأكدَّهما رائحةُ عطرِها الياسمينيّ على جسدها، فالعطرُ هو الفاضحُ الأوّل لمكنون النّساء، والدّليلُ القاطع على أناقةِ الرّجل... بعد عامين من رفضي فقط قابلتُ هندكَ في المحكمةِ برفقةِ رجلٍ مسنّ ظننته والدها بادئ الأمر، ثمَّ عرفتُ من صديقي المحامي أنّه صديقها.

- كيف لحسناءَ مثلها أن ترافق رجلًا كهذا. **سألت المحامي مستغربًا.**

- المال يا صديقي مَن يُجمِّلُ ويذلل ويدلل و...**ومارس سخريته من سؤالي بتعداد كلمات كثيرة أخرى على هذه الشّاكلة.**

- يكفي.

الدّنيا حجرة صغيرة في منزل الكون نعيشُ فيها؛ وتصيرُ أصغر ممّا نظنّ حين نلتقي بمن لا نتوقع لقائهم فيها، أو حين نجتمع بمن يجيبنا عن أسئلةٍ لم

نتوقّع أنّ أحدًا قد يعرف إجاباتها؛ كما جمعتني بعدها بشابٍّ يشبهك تمامًا قال لي: «تزوّجتُها ثمَّ تفاجأت في صباح اليوم الأوّل وقد غادَرت إلى منزلِ ذويها ثمّ إلى القضاءِ بشكايةٍ أخجلُ من ذكرِها». قال لي والده حينها والّذي بدا أنه يشبهني كثيرًا: «أحاول فقط الخروج بأقلّ الخسائر والفضائح يا أستاذي».

رأيتها بعد ذلك في فيلا خاصّة ضمن حفلٍ مخصّص لأحد أدباء الجهاز الهضمي، وقد رقصَت مع أحدهم حتّى لم يعتب على جهود خواصرها الجبّارة أحد.

نيران فعلت ذلك بي يومًا، خدعتني ببراءتها فتزوّجتها ليقذف أحدُهم في أذني جملةً قاتلة: «أو لم يخبرك أحدٌ بماضيها العريق يا صديق؟». لم أمتلك دليلًا واحدًا على صدق كلامِه رغم محاولاتي الكثيرة؛ بل إحساسًا بدا اليد اليمنى لجسدِ تلك الجملةِ الّتي تجلدني كلّما تجاهلتُها أكثر من تذكّرها... منعتها أن تعمل، منعتها من الخروج، منعتها أن تتحدّث للنّساء قبل الرّجال لكنّني لم أستطع منعَ إحساسي أن يتعاظمَ داخلي، وعبثًا نشدتُ الرّاحة في عشّ الدّبابير الظنّية... لم ترقص بالطّبع شبهَ عاريةٍ في مجتمع قميء كمجتمع حبيبتك، لكنّها فور طلاقِها عملت مباشرةً متقصّدةً في الشّركةِ الّتي بدأت حياتي بالعمل فيها؛ فقفزَت من موظّفةٍ تعملُ براتبٍ زهيد في قسم الاستقبال إلى مديرةٍ اعتبرت الشّخص الثّاني في شركة عملاقة.

قال يومها أحدُهم لنا بخباثةٍ دمويّة فيه: «ليتني أمتلكُ عجيزَتها؛ لقدّمتها فورًا إلى مديرنا الفاسق على طبقٍ من الغنجِ، وارتحت من عناء الحسابات، والجرد، ومناكفةِ هذه الصّناديق الورقيّة... رفعُ القدمين أسهلُ عندي مِن أن يرفعَ قضيّة عليّ بسببِ اختلاسٍ شيطانيٍّ صغير». ضحكوا وامتعضتُ، ثمَّ

تابعوا ضحكاتهم حين علّقَ على أمنيته آخر: «عليكَ ألّا تظلمها، إنّه قذفٌ للمحصنات يا رجل، أظنّ أنّ الأمر اقتصر فقط على الجنس الفمويّ، ولم يتجاوزهُ لأبعد من ذلك، هو فاسقٌ فعلا لكنّه ابن أصول عريقة لا تقبل بالخطيئةِ الكبرى!».

سكرتيرة ذلك المدير هي الشّاهدة الوحيدة على الحقيقة، وهي مَن قالت لي بأن نيرانَ دخلت باكيةً مرتميةً في أحضان ذاك الفاسق رغم استنكارِه تصرفها بدايةً؛ شاكيةً مديرَها المباشر، مقسمةً بأنّه ظلمَها. وهي أيضًا من أقسمت لي _أي السّكرتيرة_ أن نيران وقفت تفوح منها رائحة عطرٍ نازيَّةٍ وإيّاه أمام باب مكتبه صباحًا حين أشار لمكتبه الداخليّ قائلًا لها: «هذا الباب لا غيره من سيقودك إلى المجد والقمّة مُختصِرًا عليك الأميال... خطوتان للأمام وعشر خطواتٍ لليسارِ، ثمَّ ثلاث لليمن فقط وتكونينَ قطعًا في المكان الّذي يناسبُ امرأة استثنائيّة مثلك».

- عشرةُ أعوام كاملة وأنا أتحايلُ عليه ممارسةً أقذر أساليب الإغراء باللّباس، والصّوت، والعطر، والصّدفةِ، ولم يحرّك ساكنًا. كلّ ما فعله أن صفعني يومًا على عجيزتي ثمَّ اعتذر عن هذا، وكأنَّ اللّعينَ رفضَ حتّى إشعاري بلذّة الخطيئة العابرة، أمَّا هذه اللّعينة فبغضون شهرٍ فقط حصلَت على جميع ما تريده. **هذا ما راحت تفضفضُ لي به السّكرتيرة.**

- كان عليهِ أن يصرفَ لك مكافأةً مجزيةً مقابل تلك الصّفعة، لا أن يعتذر.

- الجميع قالَ لي هذا، تصوّر أنَّ تلك السّمراء. **وأشارت لإحداهن.** والّتي تملَّصت من بين يديه بعدَ ألف قبلةٍ وضمّة، كان في كلّ مرّةٍ يبعث لها بمكافأة عن جهودها العمليّة رغم فشلهِ معها!!

- مع أنّك أجمل منهن حقيقةً.

- الجميع يقول هذا، حظُّ الجميلات دائما سيئ.

قد يكونُ مِن المُستهلك أن أقولَ لك بأنّ هذه السّكرتيرة كانت تتحدّث إليّ وهي تمضغ اللّبان؛ وتنظرُ بين الفينة والفينة للمرآة معدّلةً خصلاتِ شعرها، وتصبغُ أظافرها بلون فاقع بأناةٍ بعد أن تنفخَ على كلّ واحد تنتهي منه كعدوٍّ لها تريد قلعه من جذوره، بيد أنّها في الحقيقة كانت تفعل ذلك، بينما لا زلت حتّى اللّحظة أجهلُ ما هو الرّابط العجيب بين هذه المهنة وبين اللّبان، وطلاء الأظافر، والنّظر في المرآة!

لم تكن جميلةً لكن يتحتّم عليك لأخذ أيّ معلومةٍ مجّانيّة سريعة أن تتغنّى بجمال ورقّة المرأة قبل أناقتها، فإن كانت ممّن يعرفن قيمةَ جمالهن من عدمه فهؤلاء تحديدًا امتدح جمالهن الدّاخليّ فقط وكرّر جملة: «الجمال جمالُ الرّوح» كلّ خمس دقائق على مسامعها.

بالطّبع تركتُ العمل فورًا كأمرٍ متوقّع لكن الّذي لم أتوقّعه أن نيرانَ وبعد أن وصلت للقمّةِ الّتي طمحت إليها، والتهمت ما التهمته من أموال؛ تحوَّلت للعمل سريعًا عند صقر قبل أن تتزوّجَه. صقر الّذي كانت شركاته تنافس بأموالٍ مشبوهةٍ شركاتِ سمير وبكلِّ الطّرق المشروعةِ وغير المشروعةِ، أمَّا الأعجب من أن يتزوّج صقر طليقتي وتحظى هي بما أرادت من الحياة، أن يحاولَ شرائي بعدها بسنواتٍ بالمال لمحاولةِ الإيقاع بصديقي سمير.

وضمن خطّةٍ بسيطة اتّفقت عليها أنا وسمير جعلنا منه _بعد تجرُّعهِ للخديعةِ الّتي أوقعناهُ فيها بدل أن يوقعَ هو فيها سميرًا كمَّا ظنَّ_ أضحوكةً

في مجتمع الأثرياء حتّى ضُرب به المثل في الغباء والسّذاجة، ليقالَ بعدها في وصف كلّ أحمقٍ: «أغبى من صقر».

يتشابهون يا صديقي ولا تتشابه الظّروف والحظوظ فقط، فكلٌّ ينتهزُ فرصتَه المتاحة له أو الّتي يستلِبُها من غيرِه.

يتشابهون يا صديقي سيما حين يظنّون أنفسهم أذكى من غيرهم، وهذا ما حدث تمامًا مع عائلة أمّك فقد أخطؤوا بقراءتي صادقًا بعد أن أخطؤوا بقراءتي كاذبًا. ربّما كانت تلكَ مشكلة الذكيّ حينما يرى أنّ ذكاءه كفيلٌ بالحكم على الأشخاص المقرّبين منه، إذ إنَّ أغلبهم يتناسى فكرةَ التطوّر الفكريّ لدى المقابل مبقيًا الانطباع الأوّل أمامه طوال الوقت لا مَن أمامَه حقيقةً. المشكلة ذاتُها يواجهها السّفلةُ حين يظنّون بأنّه لا يقترب منهم إلّا مَن يشبهُهم.

لم أكن قد تزوّجت والدتك حين وجدتُ أن بضعَ كلماتٍ قليلة قالها جدُّك أمامي مصادفةً كان نقلُها حرفيًّا للمنافسِ يعني مبلغًا دسمًا يكفي لمصاريفِ الفندق، ودفعِ إيجار الشقّة المفروشةِ، واستئجارِ سيّارةٍ فاخرة أخرى، وشراء بعضِ البذلات والملابس الأنيقة.

أمّا الهدايا الثمّينة فهي تمامًا كحليٍّ والدتك يومَ زفافنا، لم تكن إلّا هدايا مُزيَّفة.

(5)

حين تسقطُ الواو

مرَّ يومان من عمر هذا الحديث الّذي توقّف عند هذه النّقطة. يومان لم يفعل فيهما شيئًا سوى التّحديق في اللّا شيء مذهولًا، ثمَّ النّظر نحو النّافذة مُسرِّحًا بصره في البعيد. تجاهل كلامي بالكامل فلم يعد يحدّثني إلّا باقتضابٍ شديد، بل بدا وكأنّه نسيَ تماما ما أملاه عليَّ من يومين رغم محاولاتي وإلحاحي الشّديد أن يواصلَ السّرد.

صمته المفاجئ وشروده يدفعانني نحو التّأمّل بكلِّ شيءٍ حولي لأجدَ الكثيرَ من الأشياء المزيّفةِ حولنا. لعلَّها تبدأ بالابتسامةِ مرورًا بكلامنا وملامحنا منتهيةً في الملموسِ من الأشياء.

{لو استطعتُ فقط تزويرَ بدانتي بعد فشلي الذّريعِ بأن أخسرَ كيلوغراما واحدا لكنتُ الآن سعيدة جدًّا... نستطيعُ تزويرَ المشاعر والكلمات وتزييف الكثير من الحقائق، وارتداء أقنعةٍ مختلفةٍ وخلعها باستمرار لكنّ أحجامنا لا تتغيّر إلّا عند ميقاتها}.

أجدني أستعيد صورًا متتاليةً لوجوهٍ كثيرةٍ آذتني أو آذيتها ثم تختار ذاكرتي حصريًّا ملامحِ مَن جلسَت بجانبي في طائرة الرّحلة الأخيرة، وقد ارتسمت عليها الدّهشةَ من بدانتي رغمَ بدانتها الواضحة. أظنُّها تساءلت أن كيفَ سنطيرُ بوجودِ فيلينِ على متن هذه الطّائرة؟ راحت بعدها تمارسُ قداسها بخشوعٍ ممتع. راقبتُ تمتماتِها محاولةً فهمَ ما تقوله أو فهمَ اللّغة الّتي تتحدّث بها؛ بعدما شعرتُ بيدي تتسلّلُ في اللّاوعي لتمسكَ يدَها. لم تكن

يدًا ناعمةً حين أجهشَت بالبكاء، ولا جسدها كان دافئًا حينما احتضنتُها بحرارةٍ منصاعةً لرغبةٍ لم أستطع مقاومتها على الإطلاق... لماذا قمتُ بهذا؟ وما الدّافع الّذي حرّضني على القيام به؟ هي مشاعرُ لا تفسّر.

شعرتُ حينها برعشةٍ تدبُّ في أوصالي، ورائحةِ عطر قويّةٍ تتدفّق إلى رئتي، وكأنَّ روحَ هذه المرأة تنتقل عبر مساماتي. حاولت أن أتركَ يدها بيد أنّها ضغطت على كفِّي بشدّة وراحت ترتعش بدورها كأنّها في ملكوتٍ آخر. أردت طلبَ النّجدةِ وقد تملّكني الخوف لكنّني تشجّعت محاولةً الإلمام بحالتها أو حالتي.

أنفاسي المتقطّعة أشواكٌ تخترقُ شراييني؛ وانعدامُ الهواء في رئتي يدفعني للتّحرّر مِن قبضتها بكلِّ ما أوتيتُ من قوّةٍ لأجلسَ في مقعدٍ آخر والجهد ينزفُ من رعشاتي.

أعودُ لاستردادي من الهذيان الواقعيّ الّذي عايشته بسببها متحسّسةً جسدي للتّأكّد بأنّني ما زلتُ أمتلكه. ألملمني كما ألملمُ ثيابي عليّ، وألتقطني بعدها كما ألتقطُ حقيبتي غير قادرةٍ على التخّلص من فضولي الّذي قبضَ على عينيّ وسلّطهما عليها بَعد هبوط الطّائرةِ؛ لأجدها تنزعُ عن رأسِها شعرًا مستعارًا، وعن عينيها رموشًا اصطناعيةِ، متأمّلةً طلاءَ أظافرِها قبل أن تنزعَ بهدوءٍ عن وجهِها وجهًا آخر قد التصقَ به أو ألصقته به... تبدّلَ جلدُ وجهها كالحرباء ببطءٍ مخيف فتسمّرت عيناي في مكانها رافضةً الانصياع لوجهي الّذي استدار هربًا منها وقد تملّكني الاشمئزاز من هذا التّحول.

لوَّحَت لي ببقاياها، أو لوَّحَ لي، لا أعرفُ تحديدًا ما هويّة الملّوح! لكنّني لم أشعر أنّني خدعت، أو أنّني حمقاء حينها، رغم أنَّ الموقفَ بدا غريبًا ولا يُصدّق.

- لأنّكِ فعلتِ ذلك من أجلكِ أنت. **علّق بها أصلان على حديثي بعد أن دبَّ فيه النّشاط متفاعلًا معي بحنانٍ أبويّ فجأة.**

- أظنّ ذلك.

- بل هو ذلك، نحنُ نبحثُ عن حقيقتنا الضّائعة في عيون الغرباء الدّافئة.

- لم أنظر لعينيها أو لعينيه حينها.

- عين قلبك لا عينك.

- «أمَّا الهدايا الثمَّينة فهي تمامًا كحليٍّ والدتك يومَ زفافنا، لم تكن إلّا هدايا مُزيَّفة». وصلنا إلى هنا. **والتقطتُ الورقةَ والقلمَ مرّةً أخرى منتظرةً أن يبدأ.**

سرَّح بصرَه في أرجاء الغرفة ثمَّ حطّت نظراتُه النّعسى على السّاعة متنهّدًا:

- ***لطالما*** استوقفني طعمُ الماس الّذي تلبسُه والدتك. قد لا تصدّق أنّني اشتريته حينها بألف دينار، في زمنٍ كان الدّينار يشتري يا بنيّ ساندويشة شاورما رديئة... قلّده جواهريّ أرمنيّ في سوق اللّصوص فبدا مطابقًا للّذي انتقتهُ والدتُك من أفخر محلّات المجوهرات في الوطن... ألبستُها إيّاه وسط دهشةِ الحضور إذ دارت العيون كما دارت الأسئلة حولي وعلى مقربة منّي بهمساتٍ متفجّرة: «من أينَ له هذا؟».

لم أجب على هذا السّؤال يومًا في الوقتِ الّذي لم يجب عليهِ سمير بيك؛ كونه الوحيد الّذي وقفَ على الحقيقةِ منذ بداياتها، غير أنّه نصحني حينها أن أصدّق أكاذيبي طالما مضيتُ وغامرتُ بها واهمًا وموهومًا.

- عليك إذن أن تتقمّصَ الدّورَ بالكامل حتّى النّهاية وتصدّق أنّك مَن أقنَعتهم وتقنعهم به. كن الآخر حتّى معنا، علمًا أنَّ عاقبتَك كما يقولُ لي حدسي ستكونُ وخيمةً يا صديقي.

نصيحتهُ الثّمينة تلك لم تمنعه أن يستغربَ ضاحكًا من أحاديثي حولَ ما فعلته وما سأفعله لاحقًا، محتفظًا بالكثير من آرائه لنفسه، متحفّظًا على وجهةِ نظره في المسألةِ بالعموم، رافعًا يديه كلّما استشرته بخطوةٍ ما دلالةً على حيرتِه ونأيِهِ عن مشاركتي الأمر الّذي تحقّقَ كما أردتُ لا كما تيقّنَ حدسُه بفشله.

بعد عشرينَ عامًا من زواجي اشتريتُ طقمَ ماسٍ حقيقيّ من قلبِ المتجر الّذي رأتْه حنان فيه تحديدًا، لكنّني كثيرًا ما كنتُ أضعهُ مكانَ المُزيّف على غفلةٍ منها بعدَ إخفائه؛ قبل أن أعيدَ المزّيف لمكانه مخفيًا الأصل لترتديهِ عند حاجتها لذلك، وفي كلتا الحالّتين لم تعلم أنّها امتلكَت طقمين توأمين مِن الماس شكليًّا؛ ولا علمت أنّها تلبسُ تارةً هذا وتارةً ذاك... فالجمادات لا تنطقُ يا صديقي إلّا لنبيّ، خلافًا للنّفوس الّتي نستطيع تمييزَ أصيلها من مزيَّفها إن سعينا لذلك متجرّدينَ من المشاعر.

طقمُ الماس كقصيدةٍ شعريّةٍ قلَّد صاحبُها قصيدةً جزلةً مشهورة فرفض القارئ أن يرى التّزييف، ورفضَ الحافظُ لها أن يرى التّقليد، ورفضَ النّاقد أن يرى المسروقات المعروضةِ على رفوفِ هذه أو تلك، أمّا المُعارِضُ لهما فنصيبُه ضحكاتُ الآخرين وسخريّتهم منه... ذاك لأنّنا مقلّدون بالفطرة.

قيمةُ هذا الماس لم تكن بقيمته المادّيّة، بل بقيمته الّتي أشعَرَنا صاحبُه بها؛ على الرّغمِ أنّني كرجلٍ لم أدرك يومًا سرَّ فتنةِ النّساء بالحليّ، أو سرّ القيمةِ لمعادنَ دون أخرى وتفاضِلها رغم تشابهها الواضح؛ وتعايشها في بيئات

متجانسة... مَن الّذي أفتى باختلافِ الأحجارِ الكريمةِ عن أحجار البحر؟ أو مَن الّذي قرّرَ أنَّ الماس والذّهبَ وما شابه ينحدرون من أصولٍ نبيلةٍ بينما النّحاس والفضّة من عامّة الشّعب؟ مِن هنا وِلدَ الخبراءُ للتّفريقِ بينَ المتشابهاتِ ليتنطّعَ مالكُ الشّيء بما يقرّره الخبراءُ لا ما تراه عيناه وتستشعرُهُ حواسّه، لذا أجدُ أنَّ التّفريقَ بين الأصل والتّقليدِ دلالةٌ على سطحيّةِ النّفس المتعالية، وقصورِ النّظرةِ الخارجيّة عن رؤيةِ الحقائق.

الشّعوب قاطبة متآمرة بهذا الشّأن بما هو أسوأ من ذلك؛ فلا تكادُ تخلو أمّة من التّفاضل الطّبقيّ والعرقيّ بحججٍ مريضة أنتجت لنا مجتمعَ السّادة والأشراف والنّبلاء مقابلَ مجتمع العبيد والعامّة، حتّى إذا اغترّ الأبيضُ بلونِه محتقرًا الأسودَ ثارت القوانين الوضعيّة لإنصافِ والذّود عن كرامة الأخير، رغمَ أنّها من حاربت وتحاربُ الشّرائع الّتي ساوت بين الجميع لحظةَ الولادة.

المؤلمُ بعيدًا عن الأسبابِ والنّتائج أن يطالبَ إنسانٌ بأشياءَ يراهَا حقوقًا بينما هي مسلّمات عند آخر؛ حتّى إذا نالَها ظنَّ أنّه انتصر متجاهلًا أنَّ النّصر لنيلِ ما هو له أساسًا هزيمةٌ للإنسانيّة الّتي ينتمي إليها؛ حيثُ إنَّ مجتمعًا _متشرّبًا للسّطحيّة البغيضة_ أصرّ على دونيّتكَ يومًا بلا وجهِ حقّ رغم انتمائك له؛ سيصرّ على دونيّة غيركَ بشكلٍ أو بآخر طالما أنّه لا ينتمي إليه؛ مجبرًا إيّاك أن تتماهى بشتّى الطّرق والمغرياتِ مع تعاليه وجبروتِه واستلاب حقوقِ مَن كنتَ في مثل حالِهم دونَ أن تنبسَ بحرفٍ معارض؛ خشيةَ أن يتّهمك من استعبدَك يومًا بعدمِ احترامك وانصياعك للمجتمعِ الّذي حرّركَ لتستعبدَ معه غيرك، وحقنَ دماءكَ كي تمتصَّ دماءَ سواك.

نحن نتصارعُ منذ أمدٍ بعيدٍ من أجلِ كلّ شيء لننالَ اللاّشيء، نحنُ ننساقُ للمضيّ إلى الكثير من الأشياء الّتي لسنا بحاجةٍ إليها، أو لن تضيفَ لعالمنا

شيئًا مُهِمًّا قد يغيّر من شكلِ يومنا ولو الشّيء اليسير.. تأمّل جيّدًا بكلّ ما يحيط بك ستجدُ أنَّ القَصر مهما عظُمَت عمارتُه لا نشغلُ منه إلّا ما يلزمنا، وأنّنَا لا نلبسُ إلّا ما نستطيع حمله على أجسادنا أو ما يناسب ذوقنا، وأنَّ المكانَ الّذي نقصده كمسافرين لا نتمتّعُ إلّا بما رأينا منه، والبحرَ الّذي نسبحُ فيه لا يصيبُ موجُه إلّا ما ارتطم بنا... نحنُ نفسٌ واحدة، وجرمٌ واحد، ومحالٌ أن نتعدّد في ذات اللّحظة والمكانِ إلّا كنسخٍ إلكترونيّة لا يمكن لها أن تحصلَ على القليل مما نلامسُه وقتيًّا بأجسادنا، أو ترى ما تراهُ أعيننا غيرَ القادرة على رؤيةِ الكثير مهما حاولت؛ وإن حيزَت لنا الدّنيا بحذافيرها.

لم أحُزْها بالطّبع رغمَ مجاملتها إيّاي كثيرًا وبشاشتها في وجهِ الأقدار الّتي شاءت أن أتسلّم جائزةً عن روايةٍ لي أثناء خطبتي والدتك تزامنًا مع ثمن المعلومةِ الّتي أدليتُ بها لأحدهم. لم أكن بعد قد تعرّفت إلى سمير الّذي أقنعني بالعمل لديه براتب لم أحلم به من قبل؛ محيلًا ذلك إلى تشابهنا في الكثير من الأمور، ناهيكَ عن محبّته للشّعر والأدب، وكرههِ للطّبقة المخمليّة الّتي اقتحمها من القاع كما كان يخبرني، وعبر مجهود خرافيّ من العمل والكدّ.

ربّما تتعجّب الآن إن قلتُ لك بأنّي ورغم زواجي بوالدتك وحملها بك، وعدم اكتشاف أمري حينها إلّا أنّني انتظرت اللّحظة الّتي سيكتشف العالم لا هم فقط بها كذِبي وخداعي... كثيرًا ما ردّدتُ بداخلي الجملَ الّتي سأقولها لوالدتك وذويها عند اكتشافهم حقيقتي. كثيرًا ما تخيَّلتُ طريقتي في الحديث والإحداثيّات للموقف وكلّ ما يتعلّق بتفاصيله القادمة. كثيرًا ما فكّرت بما لم يحصل يومًا، وكثيرًا ما ادّخرتُ مبرّراتٍ لم أحتج لإنفاقها على شيء؛ سيما بعد أن تخلّت عائلةُ والدتك عنها بالكامل بعد حفلِ زفافنا.

خيَّروها بعد المشاجرة الّتي حدثت يوم الزّفاف بيني وبينهم فاختارتني؛ وانقطَعت عنهم كأنّها لم تكن ابنتهم يومًا... قد لا تصدّق أنّها لم تكترث لموت جدَّيك، ولم تحضر جنازةَ أيٍّ منهما. قلتُ في نفسي: «لعلَّ سببَ ذلك هو حرمانها من الميراث، أو بسبب تجاهلهم لها بالكامل بعد زفافنا وصدودهم عنها وعدم مسامحتها على اختياري دونهم». قلت هذا محاولًا فهم التّضاد بين رقّتها والقسوة الّتي كانت تظهرها نحوهم سرًّا، أو عبر ردودها الجافّة فيما يخصّهم.

- من العجيب أن تنقطعَ العلاقة بين فتاةٍ وذويها بهذا الشّكل. **قلتها بصوتٍ منخفض رغم تقصُّدي إسماعه هذا ورغم معرفتي بهذه القصّة من قبل بيد أنّه تجاهلني كعادته وأكمل حديثه كأن لم يسمعني.**

- ***ديواني*** الأوّل حقّق مبيعاتٍ هائلة وشهرةً غريبة، وعليك تصديقي إن قلتُ لكَ الآن: لم أكن أستحقّ هذا مطلقًا.... كنتُ مبدعًا ولا زلت ولن أنتقص من قدري بهذا الشّأن، ولكنّني شُهرتُ بسببِ خطأ جميل لا أعلمُ تحديدًا مَن وقعَ فيه لأشكرَه عليه؛ حيث استيقظت على محادثةٍ هاتفيّة حملت صوتًا نسائيًا رتيبًا قذفَ جملًا متّزنة؛ أجملُها هذه الكلمات:«أستاذ ***«أوصلان»*** أنت مدعو للمشاركةِ في مهرجان ***«الحمامة»*** الدّوليّ، نرجو منك تزويدنا بصورةٍ عن جوازك وسيرتك الذّاتيّة كي يتسنّى لنا التشرّف باستضافتك».

كنتُ سأصحّح كلمة ***أوصلان بأصلان***. إلّا أنّني تجاهلت هذا الخلط بين الاسمين ولم أعرهُ اهتمامًا، ظنّا منّي أنَّ الجائزة الّتي حصلت عليها تكرّمَت بفتح أوّل بابٍ على مصراعيهِ من أبوابٍ كثيرةٍ قادمة نحو الشّهرة؛ متشوّقًا للمشاركةِ في مهرجانٍ ضخمٍ كهذا.

هالني بعد ذلك الاستقبال الحارّ الّذي حظينا به كشعراء وأدباء في فندق ***«البترو»،*** متعجّبًا من كمّ المشاركينَ من كافّةِ أرجاء العالم؛ والذينَ كنتُ أتمنّى أن أحظى مِن بعضهم بالتقاطِ صورةٍ بجانبهِم وتوقيعٍ ليس إلّا.

حتّى ذاك الوقت كنت أتساءل بغرابةٍ كيف وجِدتُ أنا بين هؤلاء؟! لم تخطر ببالي دعوةُ جدّتك المُستجابةُ قطّ، بل هو الحدسُ الّذي راح يحدّثني بوجود خطأ ما وسط كلّ هؤلاء، ووسط هذه التّحضيرات، والكاميرات، والإعلاميّين، سيما أنّني لم أجد من بين الشّعراء المشاركين الشّاعر ***«أوصلان حميد»***... رميتُ حدسي في سلّة اللّامبالاة خشيةَ أن يكونَ صادقًا؛ ووضعتُ قدمًا على أخرى ساخرًا من هواجسي الّتي بدّدها وجهُ المطربة الهابطة ***«ليدا»*** شخصيًّا؛ وقد جلسَت بجانبي متأمّلةً شرودي الّذي منعها من قراءةِ الإعجاب المتوقّع على نظراتي ككلّ الرّجال بها.

لعنتُه بدوري منتقمًا منه بأن تطفّلتُ عليها والتقطتُ صورةً بجانبها مقبّلًا إيّاها أربع مرّات مستدركًا وقد ابتسمت: «هذه القبل فقط كي أخبر أبنائي يومًا بأنَّ والدَهم قبَّل أجمل امرأة في العالم». هذه القصّة لا تخبر بها أمّك ولا إخوتك الّذين قبّلتها من أجلهم لأنّني عدت بعدها وقبّلتها أربعَ قبلات أخرى قائلا: «هذه من أجلِ والدهم فقط». ضحكت باستغراب حينها قائلةً: «لم أكن أعرف أن الشّعراء خفيفو الظّلِّ إلى هذا الحدّ».

هل تساءلتَ عن سرّ الرّقم أربعة المتعلّقِ بعدد القبلات؟ تساءلتُ قبلك عن هذا الأمر، وحتّى هذه اللّحظة لا أعرف لماذا توقّفت عند الرّقم أربعة، ولماذا لم يكن خمسة أو عشرة مثلا؟ وهنا يتوجّب عليّ أن أسدي نصيحةً لك في غاية الأهمية «إذا هبَّت رياحُك فاغتنمها».كلا... لا تغتنمها. اعتذر عن هذه

النّصيحة الّتي زورتني ريم من أجلها بنظرةٍ حادّة كادت أن توقفَ بقايا قلبي عن العمل. **قال هذا بعد أن رفعت حاجبيّ مندهشةً من نصيحته.**

ربّما يتوجّب عليَّ أن أضيفَ أمرًا غاية في الأهمية هنا، وهو أنّ ليدا طلبت منّي بعدما حظيتُ بالشّهرة الكبيرة السّماحَ أن تغنّي قصيدةً لي جازمةً قبولي بذلك.... رفضتُ ووبّختها بقسوةٍ على هذا الطّلب الوقح، مع أنّني كنتُ داخليًّا أتمنّى لو أهديتها ديواني كلّه سرًّا. ليس ذنبي يا بنيّ بل ذنب دمائي الّتي فقدتُها وعوَّضتُها بدماء جميعِ أصناف النّساء اللّائي رضعت منهن. وعودةً إلى القبلِ وأعدادها سنكتشفُ أنَّ الأمورَ الجميلة هي تلك الّتي لا نعرفُ تواريخها وأرقامها وحساباتِها، فالرّياضيات علمٌ جاف لا يصلُح أن تُخضعَه لقانون الجمال مهما حاول عاشقوه تشظيته في الطّبيعة...

(6)

قيود

- ***حالتهُ*** غريبة... وفقَ هذه الفحوصات كانَ عليهِ أن يموتَ منذ عشرين سنة على الأقلّ، بل قبلَ أن يولد أصلا، والأغرب من هذا كلّه أن يستطيع السّير أيضًا. هذا الرّجل معجزةٌ متحرّكة. **قالها دن ضاربًا يده بجبهته من هول المفاجأة، وقد أصدر بانقباضِ فمِه صفيرًا متقطّعًا.**

دنّ الهنديّ هو أقربُ الزّملاء لي في هذا المشفى، وهو الشّخص الوحيد الّذي أخبرته بقصّتي مع أبي سند في مشفى الوطن، ومَن شعرَ بندمي الحقيقيّ على ما اقترفتهُ يداي ونفسي الشّريرة، بل هو الّذي اقترحَ مرارًا أن أتّصل به فورَ عودتي إلى الوطن وأعترف له معتذرةً عمّا أجرمتُ في حقّه؛ كي أريحَ نفسي من عناء الذّنب.

- اتّصلي به فقط، أنا علي يقينٍ بأنّه سيغفر لك ويتفّهم حالتك النّفسيّة الّتي دفعت بك للقيامِ بهذا. **قال هذه الجملة بالعربيّة لا السّنباريّة إذ كان من عادته أن يخاطبني بها بطلاقة متودّدًا لي بذلك ليشعرني بقربهِ مني وحنوِّهِ عليّ.**

- هل تريدُ منّي إخبارَه أنّني كنتُ السّبب بالخزي الّذي لحق به لأنّني غرت من ابنته، وشعرتُ أنّه ليس من حقّها أن تمتلكَ أبًا مثله؟ ذاك الرّجلُ عاملني مثلها لكنّني لم أحترم هذا الشّيء، وعوضًا من أن أعامله كابنةٍ بارّة رحتُ أنتقم مِن خلاله من أبي الّذي مات تاركًا إيّاي بين أنانيّة أمّي وزوجها جاد دون ذنب اقترفَه. أنتَ لا تصدّقني يا دن. أنا فتاةٌ مريضة أساءت لمن عطفَ عليها وقرّبها منه فكانت النّتيجة أن قذفَت به نحو الهاويةِ بدماء باردة.

- سيسامحك، صدّقيني.

- لا أمتلكُ الجرأة للقيامِ بهذا يومًا، لا أمتلك الشّجاعة الكافية لأن أعترف بهذه الخطيئة حتّى لو سنحت الظّروف بذلك... **هربًا من نظراتهِ العاتبة الّتي لا أجد مبرّرًا لها سارعتُ إلى القول قاطعةً بذلك النّقاش.** ثم لعلَّ أبا سند قد واراه التّراب، إن لم يكن نسيَ من أكون وما حدث له حينها. **{لا أستطيع أن أخبرَه بما أخفيهِ حتّى عن نفسي، ولا أن أسرّ له بما حدثَ له بعدها بسببي... لا أستطيع هذا مطلقًا}.**

- قلتُ لكم بأنّه ساحر. **قطَعت سيلّا حديثنا الخفيت السّريّ وراحت تحدِّقُ بشاشةٍ زرقاء بعنايةٍ بالغة.**

لطالما شعرتُ أنّها تميلُ للحديثِ عنهُ مختلقةً المواضيع لأثرثرَ عنه وعن حواراتِنا معا رغمَ مقتِها الواضح له، لكنّه ظلَّ محضَ شعورٍ لأنّ الموتَ المجانيّ أحاطَ بنا من جميعِ الجهاتِ سواءً عبر ضحايا الحرب الهائلة أو ضحايا المشفى ذاته، فلم نعد نفرِّق بين عملِنا الحقيقيّ مع المرضى _وإن بدونا قساةً_ وبين تعاطفنا مع حالةٍ خاصّة وسط هذا الكمّ الهائل من الموت.

كان بإمكانها قبل يومينِ حقن أحد المرضى الّذين تشرف على حالتهم بعقارٍ قد ينجيهِ من الموت أو يخفّف من وطأتِه... راحت تنظرُ إليهِ بعيونٍ باردة حتّى تشنَّجت عضلاته ومات دون أن يغمض لها جفن... بقَيَت الحقنةُ في يدها أمامَ الجثّةِ السّاخنةِ للحظات وسط ذهول دن الّذي همس بها خوفًا لتنبيهها لا توبيخها:

- لقد مات.

- لقد مات فعلًا. **نظرَت إليهِ نظرةً لا معنى لها.**

- لماذا لم تحقنيه؟ **والخوفُ يتخلّل صوته.**

- نسيت... كثيرةٌ هي الأمور الّتي علينا نسيانها. **ببرود قاتل.**

حقَنَتهُ ميتًا رغبةً بالتّبذيرِ بعد أن تبسَّمت مرخيةً عليهِ غطاءً تخضّب بآلامِه ولعابِهِ ودمِهِ وما جفّ من دموعهِ؛ آمرةً دن أن يبلّغَ عن حالةِ الوفاة، ثمَّ غادرت كأنَّ شيئا لم يحدث.

- لقد قتلَتهُ بسعادةٍ مريضة، أعلمُ أنّها ليست المرة الأولى لكنّها الأقسى. **اتّسعت حدقتا دن حينها.**

- مَن ينجُ من العقاب مرارًا يغرقْ في الذّنب.

- ألا تخافينَ على ذاك العربيّ منها؟ أنا أرتعبُ من وجودِها حقيقة.

- تخافهُ أكثرَ من خوفِكَ منها، إذ لم تجرؤ على الاقترابِ منه مذ حادثةِ باف، وربّما قبل ذلك أيضًا.

راح حينها دن يرتعشُ وقد جلسَ في مكتبه الصّغيرِ لساعةٍ على الأقلّ خوفًا منها، بل وتفاجأتُ منه حين راح يحدّث نفسَه بصوتٍ مرتفع وهو يهتزّ في مقعده دون توقّف... يسألُها بصوتِه الخشن الصّادرِ مِن جوفه ثمَّ يردُّ على نفسه بصوتٍ ناعم كطفلٍ يلاعبُ الدّمى المتحرّكة؛ بلغتهِ الهنديّة الّتي لا أفقهها، لكنّني خمّنتُ أنّه ربّما ينتهجُ طريقةَ العلاجِ بالسّؤالِ والجوابِ بناءً على نصيحةِ طبيبٍ نفسيّ، أو أنّه ينتقلُ بين عالمين مختلفين بينهما داء الضّرائر.

{هؤلاء الهنود لديهم طقوسٌ أقرب لحالاتِ الجنون منها لممارسة الشّعائر}.

للحظةٍ كدتُ أضحك وأنا أراقب بطنه الكبيرة ترتطمُ بطرفِ الطّاولةِ؛ فيكادُ يقتلعُها من مكانها قبل أن تمتدَّ يدي مسرعةً لتثبيتِ المقعدِ المتأرجحِ تحت وزنه الثّقيل على قوائمهِ الخلفيّة، ثم وجدتني بحاجةٍ ماسّة للبكاء لأنَّ حالتَه بالعمومِ أنستني أنّني أبدنُ منه، فرحتُ أعنّفُ نفسي على سخافتي الّتي تفرضُ إيقاعها دوما في غير مكانها على نوتةِ المتناقضات.

رجوته أن يهدأ ويستفيقَ من حالته الغريبة هذه، فالتقطَ قلمًا وورقةً وراح يرسمُ وجوهًا غريبة بتقنيّة مذهلة... لم أعلم مُسبقًا أنّه يمتلك هذه الموهبة رغمَ أنَّ أحدَ موظّفي الإدارة أسرَّ لي واصفًا براعته الغريبةَ في عمليّات التّجميل، ورتقِ الجروح وإخفاءِ كوارث الحروق.

- قاعدةُ بياناتهِ مَن تؤكّد لا أنا أنّه حاز على جائزةٍ عالميّة قبل سنواتٍ عديدة؛ بعد أن طلب إليه مخرجٌ ما في فيلم _وقد سمع ببراعته_ أن يقومَ بعملِ فنيّي التّجميلِ لصعوبة الأمور الموكلة إليهم، والّتي لم يستطيعوا إتقانها جرّاء دقّة وغرابةِ الوجوه المزيّفة الّتي ابتكرها المخرج آنذاك.

- دن؟

- هو بعينه... كيفَ لم يخبرك بهذا وأنتما أقربُ إلى بعضكما البعض من حبل الوريد.

تجاهلت يومَها تلميحات الموظّف، واحترمتُ رغبةَ دن بالاحتفاظِ بما يشاءُ من حياته وأسراره بعيدًا عن مسامعي، وهو ما لم أستطع فعله أثناء تراقص جملة «تخافهُ أكثرَ من خوفكِ منها» في مخيّلتي على إيقاعِ هواجس نشازٍ لم يتوقّف عن الضّجيج طوالَ ليلةٍ طويلةٍ مؤرّقة؛ استطاعت نزعَ ثقتي بهذه

الجملة سيما حين أخبرني دن أنّه شاهدَ سيلا جالسةً بجانبِ أصلان واضعةً قدميها على طرفِ السّرير.

ركضتُ باتجاههما مسرعةً خوفًا عليه. رأيتهما يتحدّثان دون أن أستمعَ لأصواتِهما لأنَّ الخوف منعني من كلّ شيء حينها. **{ كيف ذلك؟ هي لا تتكلّم العربيّة وهو لا يتكّلم السنباريّة، لكنّهما يتحدّثان!}**.أنزَلَت قدميها ثمَّ وقفَت أمامَه وما زالا يتحدّثان. انتبها لوجودي فصمتا وقد أشارَ للحائطِ فنظرَت لمَا أشارَ إليه... كلا... أشارَ للسّاعة الحائطيّة.

- وتقولينَ إنّنا تحدَّثنَا أيضًا؟ **سألني أصلان مُستغربًا.**

- نعم، رأيتكَ تحدِّثها بأمِّ عيني، اعترفْ بذلك.

- كلّا لم أفعل. **ضحك حتّى بانت نواجذه فأرداني في الحيرة وكأنَّ ما رأيته كان حلمًا.**

أنكرَت ذلك أيضًا غير مكترثةٍ بما وجهتهُ لها... لم أعد أخافها فجأةً، بل استشعرتُ حذرها الجبنيِّ منّي.

- أنتِ تتحدّثين العربيّة، أعلم ذلك.

- كلّ ما أعرفهُ عن كلام العرب هو الأشعار المترجمة الّتي سمعتُها وغيري منك.

- رأيتكِ يا سيلا، لقد رأيتك. **صِحتُ بها.**

- واهمةٌ أنتِ يا عزيزتي ريم. كلّ ما هناك أنّني سأقوم بإجراءِ الفحوصات الّتي تقدّمتِ بها للإدارة لإثباتِ ما لن يُثبت... يبدو أنّ مريضَك الخرِف أصابَك بالعدوى.

لم يصدّق دن ما قلته عن تبادلهما الحديث ناعتًا إيّاي بالمجنونة.

- ولماذا وافقَت على إجراءِ الفحوصات؟ **سألتهُ بغضب.** هذا أمرٌ آخر يحيّرني.

- من الممكن أن يكون شيءٌ ما حدثَ في الخارج بخصوص ذلك الشّاعر المفقود، فأرادوا التّأكّد من أقواله أو أقوالك. فحوصات كهذه لا يُسمح بها إلّا بقرار من أمن الدّولة في هذه الجزيرة، لا بقرار إدارة مشفى يا صديقتي.

تنقّلتُ بين وهم عيني ووهمِ ما رفضا الإفصاح عنه، فما هو الوهم؟ أهو ما لا نراه؟ أم ما لا يتحقّق؟ أم ما لا يصدّقه الآخرون؟ إن كان الوهمُ هو اللاموجود، ففي العقول المفكّرةِ وجودٌ لأشياءَ لا نراها، فكيف للأذهانِ تصوّرُ شيءٍ لا تعرفه راسمةً أو مُجسّمةً إيّاه إن أرادت تصويره؟!. ثمَّ إنّنا قد ننقلُ اللّاوجودَ إلى الوجود ماديًّا عبرَ حرفٍ ونغمٍ وخطٍّ وملمس؛ لكنّنا لن نستطيع نقل الحدث الّذي نراهُ للوجودِ مرّةً أخرى. ما نراه على الشّاشات الضوئيّة، ما حدث يومًا، لكنَّ أصل الشّيء في ما نراهُ موجودًا غيرَ موجود في الحقيقةِ لحظتها.

كثيرةٌ هي الأشياء الّتي في الأذهان لا الأعيان... منها صورة أبي سند وهو يخرج جارًّا انكسارَه بسببي، والّتي أطلقتني كرصاصةٍ من باغةِ ندمها نحو الإدارة للاعتراف بذنبي. وقفتُ أمام مديري بيد أنّه رفض أن يستمعَ لأيّ شيءٍ يخصّه ناعتًا إيّاه بالسّارق المحتال.

- هو لم يسرق، أنا مَن سَ..

- أنتِ أو سواكِ، لا يهمّني ما حدث، ما يهمّني هي الأدلّة الّتي وضعنا يدنا عليها.

عندما صرَّح مديري بهذا تيقّنت أنّهم كانوا ينتظرون شيئًا يدينه ليتخلّصوا منه جمعًا حيث لم يستطيعوا مواجهته فرادى.

«أنتِ أو سواك»... هذه جملةٌ اختصرها من أصل جملة طويلة هي: «سواء أنتِ أو سواك مَن كان خلف هذه الحيلة فقد أسديتم لنا معروفًا بطرده، لأنّنا انتظرنا هذا بفارغِ الصّبر... شكرًا لكم على ما قدمتموه».

وجدتُ نفسي بعدها قد نُقلت لقسم آخر كإجراء غير مبرّر وسط دهشةِ الجميع، ومعرفتي الحقيقيّة بالسّبب وراء ذلك.

إنّها أشياء تجعلني أغضب شاعرةً بالخزي لمجرّد تذكّرها؛ محرضةً إيّاي على العصبيّة والتّوتر الدّائمين، لذا وجدتني أصيح فور تذكّرها بأصلان:

- أنا لا أصدّقك. **صحت به كزوجةٍ مخدوعةٍ اكتشفت خيانة زوجها للتوّ.**

- لكنّنا لا نكذبُ على فراش الموت.

- كذبتَ كثيرًا، ولن يمنعك الفِراشُ الأخير من ذلك، أنتَ تكذب، لقد رأيتُ سيلا تتحدّث إليك أيّها المخادع. **ورحت أحرّك يديّ بالهواء من فرط الغضب، بينما راح جسدي يرتعش ويتحرّك بحثًا عن أيّ شيءٍ لا أراه.**

هي جملةٌ جعلتهُ يصمتُ أسبوعًا كاملًا دونَ أن يتحدّث إليّ، وموقفُ غضبٍ جعلني ألعن نفسي ألف مرّة بالدّقيقة لأنّني قمت بتّصرف أرعن كهذا.

لم أرَ عينيه خلال هذا الأسبوع إلّا مصادفةً، أو إن نظرَ إلى الحائط، إلى السّاعة دون أن يشعر بوجودي. تجاهلني فلم يعد يتحدّث مكتفيًا بتقديمِ

جسدهِ للفحوصات والعقاقير ليسيرَ بعدها ببطءٍ بين النّافذة والجدار صامتًا؛ كي يعودَ بعد دقائقَ منهكًا إلى سريره مغمضًا عينيه من جديد.

- أعتذر منك أستاذي، آسفة، سامحني أرجوك، أنتَ تعرف أنّني فتاة حمقاء. أنا ريمُك يا أستاذي فلا تعذّبني وتعاقبني بسبب غبائي...

رحتُ أبكي بحرقة على صدره دون أن يحرّك ساكنًا. رحتُ أنتحب وأصيحُ به بين الفينة والفينة بأنّني أكرهه، وأتمنّى موته أو موتي كي أرتاح.

ظلّ صامتًا كأن لم يسمعني. والدي أيضًا لم يسمعني حين جاؤوا به لنودّعَ جثمانه في البيت... هززتهُ كطفلةٍ لا تعرف أنَّ للموتِ صمتًا باردًا مزعجًا لا يروي فضولًا.

- متى سيعود؟

سألتُ والدتي ببراءة طفلةٍ لا تعرف عن الموت سوى تهجئة حروفه... ضمَّتني إليها باكيةً بقوّةٍ منتحبةً على يتمي المبكّر، وعلى زوجها الشّاب الّذي فقدته في ريعان شبابِها أيضا؛ قبل أن تضمَّ جادًا الّذي تزوجت به ضمّةً أقوى بعد مرورِ أشهرٍ فقط باسمةً فرحةً لكلِّ وبكلِّ شيء، متناسيةً بسهولةٍ ذلك الرّجل الرّاقد في قبره كأنّه لم يكن يومًا حبيبها وزوجها.

لم أفرِّق بين مصطلحينِ مهمّين في صغري، فالعمّ وزوج الأمّ الدّخيل هو الأب الجديد المجانيّ والأبُ القسريّ الّذي أخذ منّي والدتي، أمّا ذاك الّذي حملوه ميتًا فهو الرّجل المنسيّ الّذي بذرَني في أرضٍ امتلكها غيره.

- هؤلاء إخوتك. **قالها جاد متفاخرًا وكأنّه يهديني سيّارة «جيرنو الشمسيّة» بعد نجاحي في الثّانوية.**

هكذا قدَّم لي أولاده من زوجته السّابقة فارضًا عليَّ تقبّل هذه الحقيقة الصّادمة بوجهٍ مبتسم وبقلب حانٍ؛ فعرفتُ بعدها أنّ المصطلحَ الجديد هذا يختلفُ في مفهومه مِن عائلةٍ لأخرى، فهناك عائلةُ الفجأة بمصطلحها الخاص، وهناك عائلةُ الامتداد الطّبيعيّ... فميمون مثلًا امتلكَ عائلةً طبيعيّةً وحياةً على نقيضها، بينما امتلكتُ حياةً طبيعيةً وعائلةً فجائيّةً على نقيضها. عائلةٌ كعائلته لا تنجبُ الفتيات كثيرًا، وكأنَّ من خصائصها أن تبدو ذكوريّةً بأسوأ ما في الذّكور من صفات، لكنّ عائلة العجّان امتلكت فتاةً لا تشبهُ بملامحها الفاتنة أحدًا منهم. قيلَ لي في «مركز البوليس» أنّها تعمل موظّفةَ بنك، ولا ذنب لها بما حدث من اختطافٍ وسرقة.

عفوتُ عن والدتها العجوز الدّاهية وعنها؛ رغم أنّها هي الفتاة ذاتها الّتي حدّثتهم أمامي بمتعةٍ بالغةٍ عن الشّابِ الّذي استدرَجتهُ لمرآبٍ خاص _قبل ساعات فقط من وصولها إلينا بعد مجيء والدتِها ومشاركتهم بقايا العشاء_ مهدّدةً إيّاه بالفضيحةِ إن رفضَ ابتزازَها له... راحت توجّه كلامها دون أن يتفاعلوا معها، وكأنّها معتادة على سرد مثل هذه القصص بقدرِ اعتيادهِم على سماعها... بدا الحديثُ بعد ذلك كأنّه يقال على سبيل الواجب لا الأنس.

- رميتُ ملابسَ ذاك الأرعن من السيّارة فظلَّ تحتَ نير بلاهتهِ ودهشتهِ عالقًا بين سيارةٍ يجلسُ فيها عاريًا، وبين ملابس وُضِعت تحت عدسةِ الكاميرا في المرآب. **استحقّت هنا ابتسامة عريضة من العجّان الّذي راح يوزّع نظراتٍ حانقةٍ باتّجاه أولادِه الّذين قاموا بدورهم بالتّهرب منها.**

تحدّثوا لساعتين على الأقلّ بعدها دون أن يشعروا بوجودي، أو دونَ أن أُشعرَهم به، وتبادلوا الشّتائم، والنّكاتِ، والقصص الوضيعةَ بحميميّةٍ بالغة.

- لو رزقتُ بثلاث منكِ فقط، لكان والدك الآن أسعد رجلٍ في الكون. **وراح العجّان يُدني كتفَ ابنته شهد لصدره، ممرِّرًا يدَه على رأسها وشعرها بفخر.**

- رزقةُ البنات بركةٌ وخير. **وراحت العجوز تنظرُ نحوي باشمئزاز غريب بعد تفوهها بهذه الجملة.**

- الحقيقة بأنّها تتعب، لا أحد ينكرُ ذلك. **قالها أكبرهم.**

- رزقُها من عرقٍ، عرقٍ... **أراد ميمون أن يكمل لكنّه سكت فجأة.**

- جبينها.

- أفخاذها. **دفعها كبيرُهم من فمه ضاحكًا لإغاظتها.**

- إخرس يا زوج الفاعلة. **ونهَضَت شهد ظنًّا منّي بأنّها غضبت لكنّها عادت ورمت على وجهِ أكبرهم ورقةً صغيرة تناولتها من حقيبةٍ معلّقة في الغرفةِ المقابلةِ لنا.**

- اتّصل بهذا الرّقم، ستعمل لديه مشرفًا براتبٍ لم تحلم فيه أختك يومًا...

{ما الضّيرُ أن أنتمي لعائلةٍ كهذه؟ الشّتائمُ نسمعها في كلّ مكان ولا ضيرَ أن نسمعَها من مسافةٍ أقرب، أو أن توجّه إلينا مباشرة. أمًّا الرّداءة والانحطاط فنخفيهما عادةً خلفَ وجوهٍ مستعارة، لكنّهم يملكونَ ما لا أملكه. قد أكون طرفًا فيه لكنّني لن أكونَ داخِلَه مثلها بتاتًا... لا يحترمون أنفسَهم ولا يحترمونها لكنّهم عائلة حقيقة، بينما أجدُ أنا ذلك الاحترام دونَ امتلاكي للعائلة... لو كنتُ فإنّني سأقبل بهذه الشّتائم وهذه القذارة في المكان، سأقبل أن ينعتني أخي بالعاهرة والسّافلة، سأتقبّل أن يضربني إن عاد مخمورًا يومًا شريطةَ أن أجلسَ على مائدةِ عشاءٍ تضمُّ أبًا وأمًّا وأخوة حقيقيّن... ولأذهَب بعدها إلى الجحيم}.

- ستمارسين الرّذيلةَ حينها. **تعجّب أصلان آنذاك من حديث نفسي حين صرّحت بجملتي الأخيرة أمامه.**

- لن أراها رذيلةً طالما نشأتُ عليها ضمنَ حياة واقعيّة.

- لكنّها رذيلة.

- خذ بوذيًّا من أبويه وضعه في أحضانِ عائلةٍ سنباريّة.

- سيصبح سنباريًّا.

- وسينظرُ للبوذيّ بأنّه الكافر الأوّل على وجه الأرض.

- والعقيدة؟

- سيفصّلُها الآباء على مقاس أخلاقهم وقناعاتهم فقط وإن لم تناسب عقولنا. قد نتحرّر نعم، لكن بنسبةٍ ضئيلة.

- قد أتفق، لكنَّ عصرَ المعجزاتِ لم ينتهِ بعد.

لم أفهم معنى هذه العبارة جيّدًا لكنّني تناولتُ قلمي مجدّدًا وقد أغمضَ عينيه لأكتبَ ما شاء لي كتابته.

- أسمَعُك أستاذي، تفضّل.

- **رحتُ** أشتري المزرعةَ تلو المزرعة، والفللَ الفاخرة، والسيّارات الفارهة، أو لأكون دقيقًا: رحتُ أستأجر كلّ هذه الأشياء من دخلي الجيّد، مُقنعًا والدتك أنّها ملكي مُستبدلًا ما شئت، ومعيدًا ما شئت، كيلا تشعرَ

بالفروق الماديّة والطّبقيّة بيني وبين ذويها، وإن كانت فروقًا واضحةً لا يمكن تجاهلها، فكثيرًا ما أفلستُ بسببٍ سفرٍ لم أستطع التنصّل منه، وكثيرًا ما وقعتُ في حيرةٍ من أمري حينما لم أجد الحلَّ المناسب لتبرير كذبةٍ ما، لكنّها رغم ذلك لم تشاهد إلّا ما أرادت تصديقه.

أجدُني الآن قد استطردت كثيرًا وأسهبتُ؛ فابتعدت عن موضوعي الأهمّ الّذي كنتُ أحدّثك به... سأعود للحديث عن مهرجان الحمامة فقد اقترب منّي أحدهم قائلًا: «أستاذ أصلان، إدارة المهرجان بانتظارك». حتّى ذاك الوقت لم أكن قد قابلت منظّمي المهرجان وإدارته، فكلّ مَن قابلتهم قبلها كانوا منظّمينَ ثانويّينَ فقط، وظيفتهم منحصرة على ما قبل الشّروع بالمهرجان.

ما إن دلفت لمكتبٍ أنيق في جناحِ الفندق حتّى توقّفَ أحدُ الجالسين الثّلاثةِ عن الصّراخ للحظةٍ متقطّعة ثمَّ حشاه بالشّتائم وأطلقه مجدّدًا ضاربًا ظهرَ المكتب بقبضتهِ غير عابئ بي؛ رغم أنّه أشار نحوي حالَ رؤيتي قائلًا: «هذه مهزلةُ المهازلِ حقًّا، كيف لكم ألّا تفرّقوا بين شاعرٍ وشويعر بسببِ واوٍ لعينة؟!».

حاولوا تهدئته قبل أن يطلب منّي كائنٌ بشريّ من خلف مكتبه أن أجلس.

مشكلةُ الأثرياءِ شبيهةٌ تمامًا بمشكلة الدّخلاءِ على الأدب إن صار الأمرُ إليهم؛ فالاثنان ينظران لمن يجهلانه على أنّه نكرة، أو أنّه سينصاعُ لا محالة لأوامرهما ومزاجهما إن شعرَا بحاجتهِ إليهما، والاثنان يتعاملان مع هذا الشّخص كما نتعامل مع أبنائنا العاقّين حين نغضبُ منهم.

- تفضّل أستاذ بالجلوس... يبدو أنّك لم تسمعني. **قالها أحد الجالسين بعصبيّة.**

- في الحقيقةِ لا، لم أسمعك ولم أسمعه. **أشرت نحو من أشار إلي.** وفي هذه اللّحظة حقيقةً لا أستطيع رؤيتكم، أين أنتم؟

رحتُ أبحث بعدها عنهم خلف الباب. «أين أنتم؟» وتحت طاولةِ الاجتماعات، وخلف المقاعد. «أين أنتم؟» حتّى أمسكتُ ***سلّةَ النفايات*** بيدي ورحت أصيحُ بداخلها بصوت يضيعُ في بئرٍ عميقة: «هل أنتم هنا؟». ***المتنبّي*** وحده لا والدك من يستطيع وصفَ وجوههم الذّاهلة من تصرّفي هذا... قذفتُ السلّةَ في وجه كبيرهم بحركةٍ دراميّة مضحكة، وخرجت أصفِّرُ مردّدًا أغنيةً لليدا: «ما تشرب المي المي وروح اشرب المويا يا خي» بصوتٍ عالٍ جلبَ أنظارَ جميع نزلاء الفندق، مادًّا الحرفَ الأخير في هذا المقطع التّافه الجميل.

تركتُ حقيبتي بما فيها في الفندق وقصدت مكتبَ سفرٍ فارًّا قاصدًا العودة إلى وطني؛ مدركًا أنَّ موقفًا كهذا لا يمرّ بسهولة؛ لأجدَ يد أحدهم تمسك بيدي بمجرّد جلوسي في سيّارة الأجرة الّتي أوقفوها قسرًا؛ طالبًا منّي الخروجَ معه كالطّفل الوديع يحيط به عدّة رجالٍ من نفس الفصيلة. لم أبدِ أدنى مقاومةً جرّاء الخوف الّذي تملّكني ساعة وقعت عيناي على جثّته وعينيه الحادّة.

- ستشاركُ في المهرجان... هيّا.

- يشرّفني هذا بالطّبع لكنّني على موعدٍ هام مع إحداهن. أودّ المغادرة إن سمحت لي وتركتَ ذراعي قبل أن تُكسرَ بين يديك. **خلت هذه الكلمات من روح الدّعابة رغم أنّني حاولت أن تتحلّى بها.**

- ستشارك أوّلا في المهرجان، ومن ثمَّ سأصطحبك لجهنّم إن أردت.

- أريدُ منك اصطحابي للجنّةِ إن كان بمقدورك هذا.

- جهنّمُنا أفضل من جنّتك الّتي تحلم بها... صدّقني.

- حتّى للجنّة وجهنّم فلسفةٌ خاصّة في كلام أصحابِ النّفوذ.

- سأتّفق معك.

- لستُ ذا أهميّة لأحد ولا بدّ أنّك على درايةٍ بتشابهِ الأسماء هذا.

وجدتُني جالسًا مع الثلاثةِ قسرًا وقَدَمُ أحد حرّاسهم على فخذي ويده على رقبتي؛ فالتزمتُ الصّمت خوفًا من صفعاته الّتي عاجلني بها حين حاولتُ التخلّص منه حين أهانني أمامَ المارّة بشكل لا أستطيع نسيانه ما حييت، في الوقت الّذي لم أدافع فيه عن نفسي.... لم أقم بأيّ ردّةِ فعلٍ للذّود عن كرامتي الّتي أهدرها ومساعدوه؛ وقد أبرحوني ضربًا قبل أن يدوسوا على رأسي... أعادوني بعد ذلك بكلّ هدوءٍ إلى المكتبِ إثر سماحهم لي بتغيير ثيابي؛ فبدوتُ آلةً تسيرُ بأزرار كلماتهم المقتضبةِ الآمرة... لم أبكِ، ولكنّني تمنيتُ أن أفعل، فالبكاءُ يشعرك أحيانا بإنسانيّتك رغم كلّ شيء، ويزيح عنك شبحَ الحيوانيّة والبلادة أمام إهاناتٍ متتاليةٍ كهذه... على الرّجل أن يبكي جهرًا كي يفرّغَ آلامه لأنّه حين لا يفعل سيجد كامل جسده مستودعًا للكبت والقهر؛ حتّى إذا تكدّس دون القدرة على إيداع ذرّة حزن جديدة انفجرَ دمًا؛ أو سقطَ بعضُه صريعًا ليُجرَّ ببعض ما نجا بأعجوبةٍ منه إلى ما تبقّى من حياة... لا يتساوى الباكون بالطبع فالبكاءُ على يختلفُ عن البكاء مِن كما يختلفُ عن البكاء عن، فإن تلبّستك حالةٌ من هذه ومارست البكاء ثم وجدتَ يدًا حانيةً تربت على كتفك، وصدرًا يحتضنك، وأصواتًا من مسافةِ

الصّفرِ تخفّفُ عنك فاضحك بملءِ فمكَ وروحك لأنّ هناك من يبكي في مكان ما وحيدًا دون أن يشعرَ به أو يراه أحد.

الرّمزُ أو القدوةُ يا بنيّ ليس كما نتصوّره، فالكثيرات من البطلات تعرضن للاغتصاب، والقهر،والشّتائم، والكثير من الأبطال مُورس في حقّهم اللّواط، والضّرب، والشّتم كسرًا لعزائمهم؛ أو ليتخلّوا عن مبادئهم... لا أعرف إن استسلموا مثلي سريعًا أو قاوموا جلَّادهم، لكنّني قلت هذا حتّى لا تسقط بفخِّ الانعزاليّةِ، والانغلاق، أو الجنون مثلًا إن حدث موقفٌ مشابه لك، فالضّعف أن تقبلَ الإهانة بصدرٍ رحب وذلّة في دمائك لا أن تُجبرَ عليها قسرًا، فقوّتنا محدودة، وطاقتنا محدودة مهما ادَّعينا غير ذلك. مِن هنا جاءت فكرةُ الجماعةُ كي تحتضنَ الفرد وتحميه، فلمَّا تحوّلت لسحقه ضاع الفرد الّذي لا ينتهي إلّا بانتهاء كرامته، فإن نافحَ عنها هزَّ كيان الجموعِ المتآمرة عليه وخلخلَ بنيانها الواهي، إذ لا يمكن _وتأكّد من هذا_ أن ينتصرَ الجمعُ الغارقُ في ثقافةِ القطيعِ خشيةَ العقاب؛ على فردٍ واحدٍ يرى انتماءه لهذه الجموع الخائفةِ أقسى ما يتعرّض له من عقاب.

- ستشاركُ رغمًا عن أنفك،لا لأنّك تستحقّ، فأنتَ في جميع الأحوالِ نكرة، بل لرفضكَ وتطاولك رغمَ قِصرِك بعنجهيّة العظماء يا لُكيع... مثلك لا يقرّرُ ما يريد، ولا يحقّ له الرّفض أو القبول، مثلك يأتمرُ ويقول ملءَ فمه برأسٍ محنيّة: حاضر سيّدي.

- خطأ بالاسم يا سادة... بإمكانكم استثنائي ما دام أنّه خطأ. جميلٌ بالمناسبةِ ما وصفتني به، أشكرك عليه. **وابتسمت بدوري ببلاهة.** لكيع.... يا سلام... هذا دليلٌ على سعةِ ثقافتك وتبحّرك في اللّغةِ وعلومها. **أظهرتُ نوعًا من الجدّية الّتي مكّنتني من القبض على قهقهةٍ تتفجّرُ في داخلي.**

- كلّا، أريد أن أستمعَ لشعركَ وأنتَ تنشده ذليلًا بين يدي. **تجاهل تعليقي.** نحتاج لشويعر مثلك _بناء على رغبة الأصدقاء_ **مشيرًا للجالسين.** كي يضفي جوًّا من المرح على المسرح حين يبدو مهرّجًا مضحكًا بين الشّعراء.

- برأيي أن نضعه بين أفضل شاعرين كيلا تقوم له بعد ذلك قائمة. **قالها أحدهم فانفجروا ضاحكين بعدها.**

المسرحُ الّذي دلفته بعدها بدا مخيفًا كأصوات الجماهير وهمهماتهم الّتي بدت كطنين صاخبٍ رهيب... لم أكن أحلم يومًا أن أقف أمام جمهور بهذا العدد، فالشّاعر يا بنيّ بحاجة للكمّ الكبير من الجمهور، حتّى وإن لم يفقهوا شيئًا من شعره، بل حتّى لو جلسوا في خرابة موحشة على براميل بلاستيكيّة، مفضّلًا إيّاهم على نخبة قليلة من عشّاق الشّعر تحيط بهم مقاعد فارغة، لأنَّ نجاح الشّاعر يتجلّى بعدِد جمهوره رغم أنف المُدَّعين الّذين يريدون إيهامنا أنَّ الشّعر للخاصّةِ دون العامّة.

جلستُ في مقاعد الشّعراءِ منتظرًا دوري، مستمعًا للشّاعرِ الرّابعِ الّذي راح ينادي بالإنسانيّةِ والسّلام عمومًا، ثمَّ التّطبيع مع الكيان الصّهيونيّ على وجهِ الخصوص، وقد صفّق الجميعُ له بحرارة... استرقتُ النّظرَ إلى القصيدةِ الّتي بين يدي، والّتي اختارها جلّادي من بين جميع القصائد حيثُ كانت تتحدّث على لسانِ امرأة تشكو شرقيّتنا، وتهزأ بكل أكاذيبنا ومفاخرنا وتاريخنا المزوّر.

لطالما فعلتُ هذا وانتقدتُ أولئك المفاخرين بتاريخ أجدادنا وحضارتهم الإنسانيّة والعلميّة؛ كارهًا ورافضًا كلّ الدّعوات الّتي تعيدنا دومًا إلى الخلف دون الاستفادة منه في واقعنا المرير، إذ بدت لا تتعدّى كونها إبرَ تخدير، وجلساتِ تنويم مغناطيسيّ بلا فائدة. لطالما قرأتُ هذه القصيدة على منابر وطني وصدحتُ بها أملًا بالتّغيير فلم يلتفت إليها وإلى ما فيها أحد.

اللّائذون بالماضي والمتحدّثون عنه على الدّوام إن أحسنّا الظّنّ بهم صنفان يا بنيّ: الأوّل يفعل هذا هربًا ورفضًا لضعفه وشحذًا لآماله المُتعبة من جديد كلّما استكانت عزيمتُه، والثّاني لأنّه يخشى الحديث عن الآتي. يخشاه لأنّه على درايةٍ بتطوّرِهِ وتطوّر أفكاره، وأحكامه، وفلسفته... تراه يتجنّب أن يتحدّث فيُؤخذ عليه بعد سنواتٍ حديثه الّذي بات جزءًا من الماضي؛ ويُحاسب عليه دون مراعاة أنّه قيل مُسبقًا في لحظةٍ ما، ضمن ظرف ما، بعقليّةٍ أو ثقافةٍ ما، بمزاجٍ وأحاسيس وحالة نفسيّة ما.

تصوَّر أن تمتدحَ شخصًا بإخلاص ونقاء وبعد سنواتٍ تكتشف أنّه قد غرّر بك؟! أو تدلي بدلوك في مسألة ما وتتعصّب لها مجاهرًا بآرائك ثم تصطدمُ بحقيقةٍ تنسفُ يقينَك وتضعك في خانةِ البلهاء مهما بزّرتَ للآخرين موقفك آنذاك، أو اعترفتَ بخطئك.

إن تكرّر الأمر فلا بد أن تلتزمَ الصّمت بما يتعلّق بالكثير من الأشياء والأشخاص في المستقبل أو الحاضر المستمرّ، وتتمركز في الماضي للانطلاقِ بحديثك وفلسفتك وأحكامك لأنّه الأوضح والأميز دون خوفٍ من النّتائج والمفاجآت... قلّة من يستطيعون قراءة المستقبل بناءً على معطيات الماضي والحاضر، وقلّة القلّة من يوحي إليهم إلهامُهم الصّادق بما قد يتحوّل _على أغلب الاحتمالات_ من الآتي؛ فتراهم يواكبونه قبل حضورِهِ دونَ أن يتناقضوا مع حاضرهم أو يُؤخذ عليهم ما اعتقدوه واعتقد به النّاس بسببهم.

كتبتُ تلك القصيدة الّتي تهاجم الشّرقيَّ مقتنعًا ولا زلتُ بما فيها لكنّها بدت لا تشبُهني في تلك اللّحظة، ولا تعبّر عنّي مطلقًا وسط جمهورٍ يصفّق لمطبِّع وعميل، ولا في مهرجان خُصصَ لتزوير الحقائق والمسلّمات، فأنا الآن ذاك الشّرقيّ، والبدويّ، والصّحراويّ، والعربيّ بكلِّ ذرّةٍ في جسدي... أنا كلّ

أجدادي، كلّ الأجلافِ والقساة والصّعاليك... أنا ظلُّ الكرام والنّوابغ والعقلاء والشّجعان الصّناديد.... ثارت نعراتُ القبيلة وحميّتها في دمائي، ثار ابن عباد وعروة وابن سنان وابن مروان والرّشيد على ورقي بمنابرهم، وخيماتهم، وخيولهم، وأغاروا على صوتي يتداخلون بنبراتي وشعوري حتّى كنتُهم جميعا في تلك اللّحظة.

نوديتُ فاستلمتُ المنبرَ واضعًا قصيدتي في جيبي، ثمَّ هدرتُ بمقطعٍ اقتطعته ذهنيًّا من قصيدة تناولَ لعنتي الّتي صببتها على بقايا الولايات الأمريكيّة بنظرةٍ استشرافيّة آنذاك والكيان الصّهيونيّ ومن والاهم.

صفّقوا بحرارةٍ أيضًا... لماذا يصفّقون لمَا يتعارض مع ما صفّقوا له قبل قليل؟ سألتُ نفسي فضحكتُ ضحكةً أضحكَت الجمهور. هي ضحكةٌ يا ولدي لن تجدها اليوم مهما بحثتَ عنها لأنّهم قتلوها إلكترونيًّا بعد دقائق من حدوثها، فلم يسمعها إلّا من رآها وخشيَ من سردها للغير.

هم لا يخافونَ البكاءَ صدّقني، بل من ضحكةٍ صدرت مِن شفاهنا رغمَ أنف البكاء.

اتّجهتُ نحوَ الباب الرئيسيّ هاربًا بعد هذه الضّحكة لا ألوي على شيء.

(7)

أطراف يابسة

وقد يهربُ المرءُ خوفًا مِن أو على شيءٍ ما... من ماضيهِ أو حاضره، من شبحِ فكرةٍ أو جرم، من نفسهِ إن لم يطاردها وقد هرَبَت منه. وللهاربِ لحظةُ حقيقةٍ تسمّى الاستسلام تجبرُ المطارِدَ والطّريدة أن يقفا وجهًا لوجه، ليتساءلا تباعا حينها: لماذا هرَبتُ؟ ولماذا لحقتُ به؟

هربت من نفسي كثيرًا، هربت من واقعي أكثر من مرّة عبر التّحصيل الأكاديميّ أحيانا، وعبر الانتقال إلى مشافٍ أخرى في الوطن أحيانًا أخرى... شبحُ أبي سند تراءى لي دوما على غلاف عُلب الأدوية الّتي لم تنفكّ تذكّرني بما قمت به، كلّ علبةٍ كانت تصيح بي: «أنتِ السّارقة لا هو». جملة دفعتني أن أتّجه للتّعامل مع الأجهزة لا الأدوية، لكنّها لم تكن أرحم منها حينما تفاجأتُ بأنَّ عليها تصوير رجلٍ فقدَ عقله جرّاء صدمة عنيفةٍ تعرّض لها سابقًا.

- كان يحبّك كثيرًا ويفتخرُ بدأبك الغريب بالتّحصيل العلميّ، لكنّه للأسف لم يستطع تحمّل التّهمة الّتي قذفوه بها، ورفضِه من المستشفيات الّتي تقدّم للعمل فيها بعد ذلك.

ضممتُ ابنته دامعةً متعاطفةً كذبًا معها ناظرةً نحو أبي سند الّذي بدا كأنّه وُلدِ في الأمس، فتراه يضحك ويصرخ ويتحرّك بعشوائيّة مبكية. ضممتها ولم تكن تدري بأنّني المجرمة الّتي طعنته في عقلهِ ليفقده، أو أنّها هي الدّافع

الأهم لارتكابي هذه الجريمة المروّعة... كدت أن أقذفها عنّي وأصيح بها قائلة: «أنتِ السّبب، أنتِ من امتلكتِ أبًا لا يحقّ لك امتلاكه، بينما لم أمتلك أنا هذا الأب».

هل كلّ ما كنتُ أحتاجُه لأكونَ إنسانةً سويّة هو الأب؟ كثيرًا ما قطعتُ رأس هذا السّؤال كي يموتَ على لساني لكنّه قفزَ دون وعي منّي؛ واستقرّ في أذن أصلان الّذي لم يفهم الدّافع منه أو سببَ استحضاري له وهو يحدّثني عن أبنائه وبناته.

- وما الّذي جعلك تعتقدين أنّك لست سويّةً؟ **سألَ معاتبًا محاولاً بهذا السّؤال الإقرار بأنّني أجلدُ روحي بوساوسي مجّانًا.**

- لأنّ النّقصَ ينهشُ روحي كلّما رأيتُ فتاةً تنعم بوجود أبيها.

- النّقص جزءٌ من اكتمالنا والاكتمالُ جزءٌ من نقصنا... هذا الإنسانُ كونٌ كبير لا يحيط به إلّا خالقُه، فمبجردِ أن يتأمّل بما فيهِ وما يحيط به يبدأ بالاتّساع لتتحرّك أجرامه بتناسقٍ وميكانيكيّةٍ روحيّة لا تخطئ... لن ترتطمَ الأجرامُ ببعضها البعض جرّاء أعنف صدمةٍ واهتزازٍ يتعرّض له، لكنّه قد يلتفتُ إلى الضّخم أو ما ضخّمه من هذه الأجرام على اعتبارها مركزيّته الأهم والأجمل طامسًا بذلك تواجد الصغيرة منها لتتلاشى في عتمةٍ لم يكن لها وجود من قبل في فضائه.

- لم يكن في فضائي غير جرم واحد تلاشى للأبد.

- تلاشيه يعني فراغك بالكامل. عتمةٌ دائمة. طمسُك أنتِ فيك. موتُك... لكنّ ذلك لم يحدث... لم يحدث لأنّك ما زلت تتحسّسين ما تواجد فيك وينتظر لحظةَ شروقك فقط... كلّ ما هناك أنّك ترينَ جرمًا لم يعد موجودًا.

تشعرين به فيخيّل لك أنّك رأيتِ وجودَه ثم عاصرتِ انطماسه فسادت العتمة... هي عتمةٌ كاذبة داخل محيط ضوئيّ ساطع أشبه بتلك الّتي نفتعلها حين نغمض أعيننا. أشبه بتلك الّتي نفرضها في مكان حجبنا عنه كلّ منفذ للضّوء في يوم مشمس؛ حتّى إذا سمحنا للضّوء بالعبور رأينا من مكاننا الشّمس وما أضاءت داخل وخارج المكان.

- لكنّني لم أفعل.

- فعلتِ وما زلتِ مصرّة على ذلك.

- كيف؟

- التعلّق... حين ترينَ شيئًا دون سواه، وتقرنين حياتك بوجودِه فهذا يدفعك إلى الانطفاء حالما يختفي هذا الشّيء... تعدّدي دوما. تعدّدي بمنحك الاهتمام للآخرين. تعدّدي بمواهبك، بأحلامك، بخططك، بأماكنك المفضلّة. تأمّلي جميع أجرامك في فضائك فلعلَّ صغيرها هو مركز سعادتك لا ضخمها.... هذا لا يعني أنّك لن تخسري كما يخسر الجميع، لكنّك ستخسرينَ بعضًا من كلّ ليتبقّى البعض الآخر، أمّا إذا تشبّثت بشيء واحدٍ ككلٍّ فتسخسرين الكلّ البعضيّ دون أن تستطيعي تعويضه بما لم يعد موجودًا من البعض الّذي جرفته سنينُ عمرك ونظرتك القاصرة للأشياء.

ليتني استطعتُ أن أعترفَ لأصلان بما فعلته بأبي سند؛ أو ليتني استطعت ذلك على أقلّ تقدير لدن معترفةً أنّه فقدَ عقلَه بعد شهرين من تلك الحادثة بسببي. لقد قصصتُ له الجزءَ البشع فقط من الحقيقة، وأخفيت الأبشعَ لأنّني لو علمتُ الغيب لمَا قمت بالبشع أصلا. **{قد نستهين**

بالتّصرفات والإساءات الصّغيرة غير مدركين أنَّ الكثير منها تخالف قانون الفيزياء فيأتي ردُّها أقوى بكثير من فعلها}.

بعد أن انتهيتُ من تصويره باكيةً، وقد ظنّت ابنته بأنّني أبكيه جاهلةً أنّي أبكي نفسي؛ أمسكَ بيدي محدِّقًا بعيني. اقترب ليوشوشني فأملت رأسي ناحيته ليقول: «لقد رأيتكِ يومها».

- رأيتَ ماذا؟

- رأيتكِ تحرقينَ السّتارة. **قال ذلك بصوت طفل كبير شاخت نبرته.**

وقع قلبي فأردتُ تخليص يدي من قبضته، وقد ابتعدت بجسدي عنه؛ بيد أنّه جذبني أكثر مبتسما، وهمس بي مرّةً أخرى: «لقد أسديت لي خدمة العمر، أنا سعيدٌ يا ابنتي، سعيدٌ أن بدينةً مثلك تصرّفت كالأطفال يومها».

لم أرد سماعَ المزيد منه فقد كانت كلّ كلمة خنجرا يزرعه في روحي، لذا أردت الهروب... أردتُ الهروب دومًا لكنّني لم أفلح.

لم أفلح أيضًا قبلها في الهروب من قبضة العجّان... لكن بابَ العجّان تحديدًا لم يمنع المطارِدَ أيضا من الدّخول، ولا الطّريدة من الهروب بعد طرقاتٍ تحولَت لخلعه أثناء محاولتهم الفرار من رجال الشّرطة الّذينَ داهموا المكان. لم أصدق أنَّ المكان اكتظَّ بهم بعدَ الجلبةِ السّريعةِ؛ وإغلاقِ منافذ الهرب للوكرِ الّذي كنت فيه... بكيتُ حينها كما لم أبكِ من قبل، سجدتُ شكرًا لله على القيودِ الّتي وُضعت بأيديهم، وعلى تحوُّلِ الوجوهِ الّتي نُزِعت مخالبُها من شيطنتها إلى بشريّةٍ حملِيّةٍ وادعة.

تحتَ وجومِ الأمّ وابنتها فرَّ ميمون بلحظةٍ كالقردِ من بينهم بينما ارتمى أربعةٌ منهم ووالدهم على الأرض دونَ حراك، وعلى وقعِ صوتِ سيف الّذي تناهى لمسامعي كسمفونيّة حينها وهو يقول: «الفتاةُ في الدّاخل، نعم هي في الدّاخل، ***رضا العجّان*** جاءَ بها إلى هنا». رحتُ متحسّسةً جسدي كأنّني ألمسه لأوّل مرّة في حياتي. **{سيف ابن العجّان من جاء بهم، سيف الّذي سمعتُ صوته ولم أرَ وجهه أبدًا... لقد أنقذني من الهلاك من حيث لم أتوقّع}.**

- دعوه يذهب، وفتّشوا المكان، تفضّلي سيّدتي سيصحبك الأمنُ إلى المركز.

قالها المحقّق الّذي ترأّس عمليّة المداهمة للقبض عليهم فورَ النّظر إليّ متفاجئًا؛ بعد أن قطعَ شكّه باليقينِ فور تأكّده من شخصي ومَن أكون، بيد أنّه عاملني كشخصٍ لم يلتقِ به يومًا، أو كشخص لا يريدُ له أن يذكّره بأشياءَ لا يريد أن يتذكرها... فقد ظنَّ أنّه عندما جاء إلى المشفى غاضبًا ومهدّدًا مُقسمًا بشرفِ أمّه وأبيه الّذي لطّخته إدارةُ المشفى بوحل السّرقة أنّهم سيخافون منه؛ وسيقبّلون قدميه كي يصفحَ عنهم وعن التّهمة الباطلة الّتي ألصقوها بوالده، أو أنّهم سيحاولون التوسّل إليه بعدم تنفيذ تهديداته بمحاسبة المتورّطين والمسؤولين عن هذه التّهمة، بل وإغلاق المشفى إرضاءً لكرامةِ والده.

لم يفهم حينها أن سلطةَ مدير المشفى وعلاقاته المتغلغلةِ في الدّولة أقوى من سلطةِ محقّق بسيط مثله، وأنَّ سلطةَ هذا المدير لا تنظر بعين الرّأفةِ لموظّفٍ مسنّ يمقته الجميع، ولا تكترث ببراءته أو عدَمها. كان عليه التيقّن أنَّ والده جملٌ وقَعَ أمامَ سكاكينَ انتظرت لحظة النّحر هذه بفارغ الصّبر لا غير.

لم يفهم بادئَ الأمر هذا الشّيء، لكنّه فهم بعد أن تلقّى اتّصالًا لم يتجاوز الثّواني القليلة الأمر برمّته وكما أرادت إدارة المشفى ذلك. صمتَ محدّقًا -وكأنَّ على رأسه الطّير- برجال الإدارة وموظّفي الأمن الّذين أحاطوا به؛ صمتَ كأنَّ غيمة ما أهرقت مياهها دفعةً واحدة عليه فاعتذرَ من المدير الإداريّ للمشفى عن حماقته ورعونته الطّائشة وقبَّل رأسه وكتفَه، وغادر دونما عودة.

وها نحن نلتقي مجدّدًا لكنَّ الموقفَ هذه المرّة مختلفٌ بالكامل إذ سُمِحَ له أن يصرخَ، ويشتمَ، ويأمرَ، وينهى، لذا حين التقت عيني بعين العجّان أثناء خروجي وقد نظرَ إلى الأرضِ قبل أن ينظرَ إليَّ مجدّدًا قائلًا:

- بإمكانك أن تقولي لهم بأنّك ضيفتنا. **قالها بنبرة الدّفء ذاتها الّتي استخدمها كطعمٍ لي.**

- اخرس. **صرخَ بهِ وضربَه على صدره فارتطم بالحائط.**

راح يتوعّده وهو يجرّه مكبّلًا للخّارج وسط حراسةٍ مشدّدة غير أنَّ العجّان ظلَّ يصرخُ موجّهًا كلامه لي قائلًا:

- مصيرُنا بين يديكِ يا ابنتي.

ثمَّ يلتفت ليخاطب زوجته غاضبًا وقد ارتسمت على وجهها كلّ معالم البؤس والحزن:

- لقد فعلها سيف، فعلها اللّعين سيف بنا... هذا جزاء من يستقبل ابنه بعد غياب طويل في بيته... هذا جزاء الأب الحاني على ابنه العاقّ.

لقد نعتني بابنتهِ ظنًّا منه أنَّ الأمرَ هيِّنٌ بادئ الأمر، وأنَّ جريمته اقتصرت عليّ. لم يفكر أنّه مُطاردٌ مذ بدأ، وملاحقٌ كمجهولٍ جاءت لحظته. الجميعُ بمن فيهم مَن يصغرني ينادوني بابنتهم هربًا مِن مناداتي بكلمات أستشفّ منها أنوثتي في حروفها، ولم لا؟ ثمَّ لماذا أنزعجُ من كونِه ناداني بابنته؟ ربّما كان والدي الّذي لم يعد من موته يحمل الكثير من صفات العجّان وأجهل ذلك... ماذا لو تبادلتُ وابنته الأدوار يوم ولدت؟ فكانت ابنةَ أمّي وزوجِها جاد وكنتُ أنا ابنته شهد؟ شهد الّتي قالت لي بعد أن جلسَت بجانبي في المركز الأمنيّ بعد أن فرضَت نفسها أو فرضوها عليَّ لغايةٍ في نفوسهم:

- كلّ ما هناك هو أنّني وجدتُ نفسي منبوذةً مِن قريناتي قبل عائلاتهم. مجرّد أن تقولي بأنّ اسمكِ شهد العجّان فهذا كفيل بأن تكرهكِ البشريّةُ جمعاء. لن تراك معلمّتك إلّا كمتسوّلة مصيرها الشّارع، ولا زميلتك إلّا كسارقةٍ مؤجَّلة... أما صاحبُ المتجر فلا يراك إلّا نهدًا جامحًا سيفتك بالأتقياء يومًا رغمَ رغبته الجامحةِ المشتعلةِ في عينيه أن ينقضَّ عليه فاتكًا به.

أولئك الّذين يستغفرون لرؤيتكِ كأنّهم شاهدوا شيطانًا بعينٍ ثالثة لا تصلح لغضّ البصر؛ ذاتهم مَن يلاحقونكَ كي يحظوا بك كجاريةٍ تصوَّروا أنَّ الحصولَ عليها أمرٌ هيّن، فما إن ترفضي حتّى تغتالك الأقاويل والإشاعات الّتي لا تمتّ للحقيقةِ بِصلة. هي اللّعنةُ منذ جئتُ إلى هذه الدّنيا كابنته، فلاحقتني في أزقّة الحارة، ومقاعد الدّراسة، وشهواتِ الرّجال الّذين يرفضون أن تكوني زوجةَ أحدهم متوسّلين لك بشرفك أن تكوني عاهرتهم ضمن مفهومهم الأخلاقيّ الحقير.

الشّاب الّذي أخبرتُ عائلتي عنه أمامكِ مثلًا لاحقني دون أن يعرفني، فكلّما صددتُه حاولَ أكثر، وفي اللّحظة الّتي أرادني بها مقابل أيِّ شيءٍ على السّرير

افترستُ مالَه وذكورته بذات الشّخصيّةِ الّتي صوّرني من خلالها. بدا خائفًا من الفضيحةِ رغمَ أنّه من سعى إليها أكثر من خوفهِ على ذكورته المهدورة بسبب فتاةٍ ضعيفةٍ سلبت ماله وكرامته، وعند نزولي من سيّارته راح يشتُمني كمن تذكّر فجأةً أنّني فتاةٌ لا وحش.

شتمني وقد منعتُ نفسي من سؤاله: «وهل ظننتَ أنَّ مثلي ستتحلّى بأخلاق قدّيسةٍ بصفاتٍ ما، وعاهرةٍ بصفاتٍ أخرى ضمن مقاييسك؟! أنا جزءٌ لا يتجزّأ من صورتك الّتي رسمتها عنّي. كان عليك فقط أن ترسم صورةً شموليّة أكثر دقّةً لي».

وقعتُ فريسةً أحيانا، وأوقعتُ نفسي إن دفعَتني لذلك، وأجملُ الفرائس للرّجالِ مَن ترتضي أن تقدِّمَ لحمَها بعد مطاردات مضنية. الثمَّنُ حينها سيبدو كبيرًا ليرضى المفترس باللّحمِ المشويّ على نارٍ هادئة، وترضى الفريسةُ أن تُطهى كما أُرِيدَ لها.

- وما ذنبُ الضّحايا؟ ذنبي أنا؟ ذنبُ مَن لم يلتقِ بكم يومًا؟ **صحتُ بها.**

- ما ذنبُ الخروف أن يولدَ ليُرعى ثمَّ يُذبح؟

- بدونا خرافًا ضمن منطقِ انتقامك من واقعك.

- ألم تظلمي أحدًا من قبل؟

لم يصفعني سؤالُها على ذاكرتي لتتناثرَ بسببه بعضُ الحكايا أمام ناظري، فلطالما تناثرَت عبر جلداتِ الضّمير المتفاوتة. **{لقد سرقتِ ممحاةَ زميلتك يومًا بدماءٍ باردة، وخنقتِ صوصًا بدماءٍ أبرد. لقد مارستِ العادةَ السّريّة صغيرةً**

حتّى مللتِ وملّكِ هذا الشّيء، وقبّلت البدينَ الوحيد الّذي لاحقك عائدةً من المدرسة}.

هذا ما قد أذكرهُ يومًا لصديقةٍ قريبة، وما قد أكتبه في مذكّراتي إن شابَ رأسي ووهن العظمُ منّي، لكنّني لن أذكرَ بأنّني كنتُ السّبب بطردِ أحدهم شرّ طردة من مشفى الوطن ليفقد عقله بعدها، ولن أذكر أنّني راودتُ مريضًا ستينيًّا عن نفسه، وأردتُ تغليقَ الأبوابِ فلمًّا همَّ واستعدتُ رشدي مستغفرةً صرختُ به معنّفةً إيّاه على وقاحته؛ صافعةً إيّاه بكل ما أوتيتُ من قوّة على وجهه.

لحق بي يومها مرعوبًا نحو باب الغرفةِ صائحًا راجيًا خشية الفضيحة:

- لم أقصد يا ابنتي، خلتكِ قد أُصبتِ بالدّوار فأسرعتُ لمساعدتك، أرجو ألّا تضخّمي الأمر، وتفسّريه على غيرِ مقصدِه... أرجوك يا ابنتي.

- ابنتك؟! أنتَ وضيع.

- أعتذر يا ابنتي، أعتذر.

- لو لم تكن مسنًّا فقط.

غضبتُ لأيّامٍ وأيّام مقنعةً نفسي بأنّه مَن حاولَ جرّي للخطيئة رغمَ عفّتي، فصددته ووبّخته بما يستحقّ. تجاهلتُ منذ اللّحظة الأولى بأنّني من أغويته... **{كان عليك أن تفعلي... وحده من حدَّق بنهديك مشعلًا خطّهما الفاصل بنظراتِه الجوعى كّلما اقتربتِ منه، كان عليكِ أن تشعري مرّةً بخشونةِ كفٍّ تمتدّ إليهما على غيرِ وجهِ حق، لتفرّقي بين عدّة أشياء لم تحدث}.**

لا نجهلُ أنفسنا لكنّنا نزوّر الحقائق كي نرضيها، فلا نعتبُ بعدها إلّا على الغير...

{لقد رأيتِ مديرك وقد فرغَ من ملاطفة إحداهن متوجّهًا لتلك العجوز. أنتِ من طالبتهِ بالتدخّل حينَ عرفتِ أنّها لا تملكُ من المال ما يكفي لأن تستخدمَ جهاز «التبخيرة». خفتِ اللّحاقَ بأبي سند فرحت تتملّقين له لإثبات إخلاصك المطلق لمبادئه وطريقته القذرة في الإدارة قبل الحياة... الشّتاءُ لا اللّيل فقط من دفعها لقسم الطوارئ، وحينَ تخلّيتِ عن إنسانيّتك وتقمّصتِ دورَ المحاسب إرضاءً لمديرك طردَها بلطفِ القاتلين... ألم يخطر ببالك أنّك ممرّضة وظيفتُها تقتضي أن تساعدَ وتخفّف من معاناة الآخرين لا أن تحاسبهم؟ هل أردتِ الانتقام من الأمّهات أيضًا من خلال هذه العجوز؟ مِمّن ستنتقمين بعدها طالما أنّ كلّ الرّجال والنّساء آباء وأمّهات؟

كان بإمكانكِ أن تضمِّيها بطريقةٍ أو أخرى لقائمةِ الخصم، وكان بإمكانك أن تدفعي حاجتها، لكنّك مثلهم تمامًا وقفتِ تراقبين الانكسار في خطواتِ مريضةِ ربوٍ عجوز؛ لتسمعي في صباحِ اليوم ذاته أن عاملَ النّظافةِ كنسَ أوراقًا وأكياسًا كبيرةً مِن على الرّصيفِ، ليجد تحته جثّةً هامدةً لامرأةٍ لم تساوِ حياتُها إلّا ما نقص من مالها... لمِ فعلتِ ذلك؟ خشيةَ الطّرد؟ لقد رحلتِ طوعًا عن المشفى بعدها والتحقت بآخر وآخر... كراهيّة بالأمّهات؟ كلا، هي أقرب للجدّات اللائي لا تربطك بهنّ أيّ علاقة قلقة... لا يوجدُ تفسيرٌ سوى أنّك تكرهين الجميع بسببٍ ودون سبب، أنّك تمقتين الجميع لأنّك تمقتين نفسَك مدركةً أن لن تحبّيها إلّا إذا أحبّك أحدهم دون أن تقرئي الشّفقةَ في عينيه، والرّثاء لحالكِ في صوته... ما حدثَ مع هذه العجوز كان قتلًا دون أداةٍ وشهود، دون أصابع اتّهام توجّه إليك، ودون محاكمةٍ تُقام للقصاصِ منك}.

- إذن لم يضربوك رغم واقعةِ الاختطاف والسّلب؟ **أيقظني من حديث النّفس المحقّق سند وهو على دراية بالجواب أكثر منّي.**

- كلّا سيّدي. ما حدث لي في ذاك الوكر هو ما أخبرتك به فقط.

- هل أشهرَ سلاحًا أثناء إجبارك على الدّخول؟

- فقط أمسكَ رضا العجّان هذا بيدي وجرَّني عنوةً للدّاخل. كنتُ مرعوبةً فانقدتُ له.

اصطدمتُ حينها بصفيحٍ وأكياسٍ بلاستيكية وأخشاب بناء، ثمَّ تعثّرتُ بالسّلالم الّتي تهبط وتلتفُ وتصعدُ بذات الوقت، ثمَّ وجدتني في غرفةٍ يجلسُ فيها شبابٌ خمسة لم يكترثوا لرؤيتي أو صراخي.

- يا والدي الجيران لديهم آذان وأعين. **قالها أوسطُهم.**

- وقعَ المخدِّر من جيبي أثناء وقوعي على ما يبدو فاضطررتُ لهذا. **أجابه العجّان بغير اكتراث.**

- فيل بهذا الحجم لا يُخدّر بسهولةِ عمومًا، هذه البدينةُ تحتاجُ لأن تضربَ على رأسها بعصا هاون ألف مرة كي تفقدَ وعيها، هذا إن أجدى نفعًا معها، ومِن ثمَّ جرِّها إلى هنا.

- تذكِّرُني بضيفتنا العام الماضي.

- تلك لن تنسى.

- كلّا هذه أنحف قليلًا، هذه فيلة أمّا تلكَ فمن فصيلة الحيتان. **عارضهم بهذا ميمون فضحكوا جميعا على تعليقه حتّى ظننتُ أنّهم لن يتوقّفوا عن الضّحك.**

{لا تصرخي، ولا تتساءلي: لماذا أنا تحديدًا؟ عليكِ مقاومتهم بكلِّ ما أوتيتِ من قوّة... لكنّهم لم يقتربوا منك! ولماذا يقتربون من فيلٍ بشريّ لم يقترب منه أحدٌ يومًا؟}.

لم تقرئي اللّهفةَ في عيونِ رجلٍ من قبل. لم تغتصب كلمةٌ وقحة واحدة أذنك يومًا. لم ترفضي الّذي لن تقبليه لو حدث لكنّه رغم ذلك لم يحدث. ميمون أرادَ إخافتك لا أكثر، أراد أن يرى الخوفَ الّذي قد يشعرُ به عندما يلتقطه البوليس كجرذ؛ فرآه في عينيك لتشاهدي ما رآه في عينيكِ من خلال عينيه بعدها... سلاحهُ قضيبه في تلك اللّحظة، سلاحُه الّذي لم يستعمله معك، ولا مع غيرك أساسًا لأنّه كان يتسلّى على عكسهم فقط، وجسدك الهدف الّذي لن يصوّبه نحوه لتستسلمي أو ترفضي، أمّا أنتِ فسلاحك بدانتك، حتّى قرعتُهم الكاذبة على جسدك كانت لترويعك والتّسلية لا لاغتصابك، فالاغتصابُ من نصيبِ المرغوبات، أمَّا أنتِ فلا حاجةَ للإثم بك.

- للبدانةِ إذن فوائدها. **ضحك أصلان ضحكة متقطّعة أعقبها سعالٌ خفيف.**

- بدوتُ بدينةً في كلّ شيءٍ حتّى عقلي.

- الخوفُ عمومًا يغلق منافذ التّفكير، هذا واقع.

- هروبكَ من المسرحِ كان جرَّاء فكرةٍ سريعة، الخوف من فتحَ لك منفذًا للهروب... أمّا أنا فلم أفعل شيئًا.

- لكنّني منحتُ وقتًا للتّفكير فاستلهمتُ من فكرةٍ خائفة فكرةً شجاعةً تراءت لي على شكلِ مغامرة، وهذا ما لم يحدث معك.

- لكنّ الهروب بحدّ ذاته لا يندرجُ تحت قائمة الشّجاعة.

- ولا الجبن أيضًا.

- بل هو كذلك.

- كّلا فالهروب الّذي يعقبه رجوعٌ يختلف عن الهروب الّذي يتبعه هروب دائم.

- وهل رجعتَ من هروبك؟

- ربّما... كلّ ما أعرفُه الآن هو أنّ بقائي في ذلك المكان يعني تعرّضي للكثيرِ من الإهاناتِ والصّفعات والرّكلات والإذلال، لذا كان الهروب حلّا وإن لم أكن واثقًا بنجاحه في تلك الظّروف... تناولي قلمَك فما سأقوله الآن قد يجيبك على تساؤلاتك وفضولك.

- كلّي آذان صاغية.

- ***ركضتُ*** حدَّ الطّيران في الهواء بمستواه المنخفض مندفعًا خارج المسرح؛ هائمًا على وجهي في شوارع لم تعتد أن ترى رجلًا ببذلةٍ أنيقةٍ يطويها بهذه السّرعة، بيدَ أني توقّفتُ لاهثًا فجأةً لشجاعةٍ دبّت في أوصالي حين تذكّرتُ موطنين يفصل بينهما ***نهر الأردن***، متسائلًا: لماذا أهرب؟ ممّن أهرب؟ إلى أين أهرب؟... سرت بعدها بسلحفائية تعجّبتُ منها في نفسي متّجهًا نحو مقهى تراءى لي طالبًا من النّادل فنجان قهوة مخاطبًا إياه بثقة:

- قهوة حلوة من فضلك و«بِوَجْه». ضع أكبر قدر من السّكر عليها، ثمَّ قم بتحريكها ثمَّ ضع ملعقتين من السّكر، ثمَّ قبل أن تسكبها في الفنجان ضع ملعقتين من السّكر، ثمَّ ضع ملعقتينِ أُخريين في الفنجان واسكب القهوةَ

عليهما، ولا يضيرني لو وضعت بجانب الفنجان القليل من السّكر.. ضحك النّادل قائلًا: «كان من الأسهل عليك طلبُ فنجان سكّرٍ برشّتين من القهوة». صفّقتُ له كما صفّق البؤساء قبل قليل للشّيءِ ونقيضه في المسرح.

نيرون المجنون من أوائل منظّري التّصفيق، ومن أوائل الّذين صُفّق لهم بعد قتلهم الأبرياء، أمَّا المصفّقون فهم أشدّ خطرًا علينا وعلى كرامتنا الحضاريّة من الجبابرةِ، ناهيكَ عن المتبارين بالذِّلّ وخفضِ الجناحِ لمن لا يطالبُهم بذلك... هؤلاء باعتقادي جنسٌ ثالث ليس إلّا.

بعضُ النّفوسِ جُبلت على العبوديّة، فتراهم يتذلّلون فرحين لمن يرأسهم أو من يملك المال، لتراهم وهم يهجمون على النّجوم الورقيّة متبرّكينَ بسخافتهم... أتذكّر يومَ حضر صقر في عزاءِ أحدهم وقد احتلَّ كرسيَّ النّيابةِ لعدّةِ دورات متتالية بسبب مالهِ وفساده، فقامت إليه الجموعُ مرحّبةً ومهلّلة. شاءت الأقدار أن يجلس بجانبي وسطَ ترحيبِ الأذناب به، لم يكترث حينها لهم بل راح يرمقني بنظرةِ الكاره.

هؤلاء هم الأقدر على تمييز الصّادق من الكاذب، وتمييز الآنفِ من الذّليل. تشاغلت عنه ولم أنظر لوجههِ، غيرَ أنَّ أحدهم راح يعرّفه بالبعضِ فذكرَ اسمي من جملةِ من ذكرهم، فأوقفَه ووجّهَ لي كلامه:

-أظن بأنّنا التقينا سابقًا في مهرجانٍ شعريّ. **قالها مع أنّه يعرفني أكثر من طليقتي.**

لإغاظةِ هذه النّفوس تحديدًا تكلَّف بابتسامة ثمَّ أجب باقتضاب شديد، وإن استطعت أن تجيبَهم بنصف اقتضاب فافعل.

- ممكن... ربّما.

تشاغلت ثانيةً بالهاتف، ثمَّ نهضتُ بعد أن تظاهرتُ بإجراء اتّصالٍ هاتفيّ:

- آهٍ يا أبا ليلى، لقد اشتقتك أيّها الماجن النّبيل.

- من يكون أبو ليلى؟ **تجرّأتُ على مقاطعته لأنّه ضحك حين قال ذلك ومثّل دورَه منتشيًا بأن وضع يده على أذنه كمن تلقّى محادثة حقيقيّة.**

- لم يكن هناك أبو ليلى من أساسه.. لا تقاطعيني ... هكذا، وبهذا الأسلوب فقط سيحترمكَ من هم على شاكلته. فاحترامه لنفسه أو احترام النّاس له مقترنٌ بمدى جودة الصّمغِ الّذي سيُثبّت عجيزته بكرسيّه فقط... يدرك هو هذا، ويدرك أن قيمتَه لا تشبه قيمتك إلّا إذا امتلكَ ذاتَه لا كرسيّه. ولأجل هذا رفضَ الإمام ***الشّعراوي*** الجلوسَ على كرسيّ الوزارة في عهد ***السّادات*** واستبدله بالأرض قائلًا: «متى قلتم لي ارحل فسأرحل دون أن أصاب بذاك الدّاء... حينها فقط لن أشعرَ بالإهانة».

متطوّعو التّذلّل لا يمكن وصفُ شخصيّاتهم وثقافتهم ولا حتّى أساليبهم، فكأنّهم شذّوا عن قاعدة الوصف، لكنَّ موقفًا واحدًا كفيلٌ أن يعرّفك بأحدهم ويساعدك للغور في سبر أعماقه، سيما حينما ترى المتعةَ في الحديث عن عبوديّتهم وخوفهم الكاذب والمبالغِ فيه من الطّبقة العليا، أو السّلطة، فمن الطّبيعيّ أن ينتشي أحدُهم برجفةٍ أو رعشةٍ سببها ممارسة الحبّ؛ لكنّني ما زلت أتعجّب من تلك الرّجفات والرّعشات الّتي سببها عشقُ الخضوع المصطنع لأرباب العمل والقرار.

شربتُ قهوتي الحلوة بلذّة متناهية مبذّرًا الكثيرَ من الوقت الّذي بدا كافيًا للصّحافةِ الإلكترونيّة أن تتسابقَ فيما بينها وتنشرَ صورتي مرفقةً معها خبرًا

عن شاعرٍ أرعن؛ هاجمَ أهداف المهرجان السّامية؛ ليتبارى المعلِّقون على الخبر فيما بينهم ويساعدوا على تضخيمِه ثمَّ الدّخول في جدالاتٍ بين مؤيّدٍ ومعارض.

المعارضون لي هم أنفسهم من صفّقوا لي بعد أن تدخَّلت الحكومة بإعادتي للوطن بعد أسبوعٍ من السّجن بتهمٍ ملفّقةٍ لا علاقة لها بما قمت به، فتخبّطوا كعادتهم تخبّطَ الجبناء الذين لا يحاكمون الكلمةَ الحرّة مباشرةً ضمن تهمتها الحقيقيّةِ أمامهم كي يتمَّ عقابها أو سجنها بناء على ذلك، بل يلفِّقون لها التّهمة الكاذبة كُرهًا بذكر كلمات كحرٍّ وأحرارٍ وحرّيةٍ وما شابه ذلك من ألفاظ أخرى... لا يتقبّلونَ تهمتها، ولا يمنحونها البراءةَ إن حوكِمت.

أغلبيّةُ الزّعماء والسّاسة الكاذبين، بل والصّادقين أيضًا منهم لديهم حساسيّة من حروف الحريّة لا معطياتها فقط، لذا لا يُمكنكَ سماعها في خطاباتهم أو حواراتهم لأنّهم لا يتناولونها إلّا إذا تحدّثوا بمفهومها عبرَ لغةِ أعدائهم لا لغةِ شعوبهم، فالحريّةُ يا صديقي من تنفي وجودهم كأفراد، وتجذِّر وجودنا كجموع ضمن ثقافة الحقوق المتساوية والعادلة.

اتّهمتُ بالتّحرشِ بفتاةٍ عوضًا عن اتّهامي بالإساءة والتّشهيرِ ضمنَ قصيدتي، ومن الغباءِ أن تتّهمَ شاعرًا وُجِّهت له الأنظارُ كمعارضٍ شرس فجأةً باغتصاب فتاةٍ مُشَّهرًا به، ناسجًا تفاصيل قصّة ركيكةٍ لا ترقى أن تضحكَ الآخرين لا أن يصدّقوها؛ رغم أنّ الجميع يعلم علمَ اليقينَ أسباب القبض عليه... لم أعترضَ على التّهمة بقدر اعتراضي على الفتاةِ الّتي حضرت للتّعرف إليّ من بين عدّة متّهمين.

- سيّدي المحقّق... هداك الله... إن أردتَ أن أعترفَ بجرم الاغتصاب فسأفعل، لستُ من أولئك الّذين يُطيقونَ العذاب والتنكيل بهم، ولكنّني

أرفض رفضًا قاطعًا الاعتراف باغتصابي هذه الفتاة تحديدًا. أرجو منكم استبدالها بفتاةٍ جميلة، وأقسم أنّني سأعترف باغتصابها وأروي لكم تفاصيلَ اغتصاب عائلتها بعد ذلك، أمَّا إذا أردتَ أن تقدّم لي معروفًا لن أنساه طيلةَ حياتي، فلتتّهموني باغتصاب المطربة ليدا.

لم يضربني أحد حتّى مَن توقّعت أن يفعلها مجدّدًا، لم يضربني لأنّه هذه المرّة لم يشعر بخوفي، ولم يشعر بأنّني أراه كما أراد لي أن أراه... حملتُ حينها ضفّتين يفصلُ بينهما نهرٌ في عزيمتي بينما لم يحمل في عزيمته إلّا التبعيّة، وعليهِ فإنّنا قد نُظلمُ في أوطاننا بالتّأكيد فنقبل بذلك لكنّنا لن نقبلَ أن نُظلمَ بسببِ أوطاننا.

يتملّكنا الخوفُ ويتشعّب في كثيرٍ من الأحيان بسبب فراغ يومِنا مِن مُهم، وخلوِّ أحلامنا من أهدافٍ سامية، وعدم إيماننا الكافي بمبادئنا وبما نعتقد بحقِّه الأبلج في معتقداتنا، لكنّه يتلاشى أمامَ موقف عظيم لا خيار لنا أمامه إلّا الرّفض؛ لذا حين ثأرتُ لنفسي الّتي لم أكن أثق بها يا صديقي هُزِمت وتعرّضتُ للإهانةِ خائفًا، وعندما ثأرتُ لقدسيّةِ الأوطان والشّعوبِ وجدانيًّا انتصرت، حتّى وإن كان ذلك في نفسي الّتي آمنت بها متأخّرًا.

رأيت المحقّق حينها صغيرًا أكثرَ ممّا يجب، ورآني أكبرَ ممّا أنا عليه، فلم ترعبني بعدها تحذيراتهم ولا تهديداتهم... كلّ ما استطاع فعله هو أن ضربَ الطّاولةَ مرارًا كي أتحدّث عن أيّ شيءٍ يدينني. أراد لي أن أكذب بصدقٍ مقنع، أرادَ أن أختلقَ موقفًا يستطيع إثباتَه رغم تكراري لجملةٍ كنتُ أقولها بأريحيّة وهدوء: «هاتوا ورقةً كي أوقّع على ما تشاؤون من اعترافاتي... الأمر لا يحتاج برمّته للعناد... أنتم أناسٌ لطفاء لا تستحقّون إلّا اللّطف وقبلة على جبينكم».

حين يئسوا منّي سألني ألطفُ القساةِ عن سببِ تلك القصيدة الثّائرة؟

- أمّا هذا السّؤال فدعني أجيبكَ عليه لأنّه يستحقّ؛ لكنّكم الآن بحاجةٍ لاستدعاء جميعِ كتّابكم كي أملي عليهم أسبابي، كاتبُ القلمِ المسكين هذا لا يمكنه تدوين ما سأقوله من دوافعَ ومحرّضات أدّت إلى ذلك. **وأشرت لكاتبهم الّذي يدوّن أقوالي.**

إنّها أسبابٌ توارثناها عبرَ أجيالٍ وأجيال دون أن تتلاشى بنصفِ حلٍّ من حلولِهم الثّعلبيّة، وعليهِ فقد نزلتُ أرضَ الوطنِ بطلًا قوميًّا ورمزًا وطنيًّا، وأديبًا مشهورًا همّشه سابقًا العملاء على حدّ وصف الجماهير؛ الّتي وُفّقت في وصفي وتغنّت بموقفي... لقد صنعوا منّي بطلًا جدليًّا أو مشهورًا خلالَ أسبوعٍ فقط عند الطّرفينِ، وكأنَّ كلّ ما كنتُ أحتاجه دون أن أدري للشّهرةِ هو موقف بسيط وقصيدةٌ ثائرةٌ وفضيحةٌ جنسيّة لم أرتكبها.

تلقّفت الفضائيّات سيرة حياتي وكفاحي الكاذب الّذي لم أعلم من أين جاؤوا به، وتناوَلت الفضائيّات المأجورة المعارضة لي فضائحَ تمنّيتُ لو قمتُ بها فعلًا، فرأيتُ صورًا لي مع حسناوات شقراوات وسمراوات لطالما راق لي لو التقيت بهن حقًّا... ذكروا أبسط الأشياء قبل كبيرها وعظيمَها قبل تافهها بدءًا من لباسي الدّاخلي حتّى ساعة يدي لاعنينَ شاتمين ***واو*** الخطأ الّتي كانت السّبب الرّئيس بكلّ ما حدث؛ بيد أنّهم ولا أدري ما السّبب لم يتطرّقوا لقُبل ليدا المربَّعة مطلقًا، مع أنّها الذّنب الوحيد الّذي ارتكبته هناك.

أسبوعٌ واحد بدا كفيلًا لنقلةٍ نوعيّة لم أتوقعها من قبل، بل كفيلًا بقلب حياتي رأسًا على عقب؛ لأجدني ملاحقًا من الفضوليّين والقرّاء والصّحافيين بطريقةٍ مزعجة... للشّهرةِ ضريبةٌ قاسية يا بنيّ رغم أنّها لذيذة حيث تمنحكَ حصانةً مجتمعيّة في كثيرٍ من الأحيان، لكنّها في المقابل تحدّ من حريّتك

وطبيعيّتك وتقولبُك شئتَ أو أبيتَ بقالبها الرسميّ؛ لأنَّ خطأكَ عند كارهيك كصوابك عند محبّيك يُضَخّمُ على غير وجه حقّ.

في أوّلِ ظهورٍ لي قلت الحقيقة... قلتُ ما حدث معي تحديدًا باستثناء الضّرب والإهانة اللّذين تعرّضتُ لهما؛ تحرّجًا من أولئك الّذين حملوني على أكتافهم في قاعة استقبال المطار وخارجه؛ بصفتي البطل الّذي لا يُقهر ولا يحقّ لأحد المساس بهيبته وجبروته... بعد هذا اللّقاء خطرَ لي سؤال لم يخطر منذ وصولي الوطن: «ألم تسجّل الكاميرات لحظةَ فراري لا ألوي على شيء بخطواتي الخائفة؟».

كنتُ قد شاهدتُ بعضَ المقاطعِ الّتي احتفظَت بخطواتي نحو المِنصّة وجزءٍ يسيرٍ من مقطعي الّذي لم يكتمل؛ لكنّني لم أشاهد لحظةَ توقّفي أو انفجاري بالضّحك أو هروبي؛ لأكتشفَ بعد السّؤال والتّحرّي أنّ البثَّ المباشر انقطعَ بعد الكلمةِ الخامسةِ من المقطع المحفوظ في ذاكرتي من القصيدةِ الّتي حينَ أدركتُ ألّا أحدَ يعرفُ ما فيها جيّدًا؛ ركبتُ الموج طالما واتى مشيئتي مضيفًا لها الكثيرَ من المقاطعِ لتظهرَ أنّها موجودة في الأصل؛ معزّزًا أيّاها بمواقفَ غير مسبوقة وهجومًا مباشرًا لم أكن أجرؤ على التّصريح به سابقًا بهذا الشّكل.

بعد شهرٍ على ما أعتقد كانت أغلب قصائدي حتّى الغزليّة منها ملهمةً للرّافضين الذلّ، والقهر، والكيان الصّهيونيّ، لذا حين راحت تنتشرُ لي مقاطع مصوّرة تظهر لحظة هروبي كتسريباتٍ من هواتف شخصيّة بدا الأمر للمحبّين بأنّني على عجلة من أمري لمغادرة مكان يعجُّ بالمطبّعين والسّماسرة.

بيعَت روايتي وديواني بعدها كأكثرِ الكتبِ مبيعًا في العالم العربيّ، وتفرَّغ النّقاد لدراسةِ الرّمزيّة والانزياحات والبلاغة في شعري، ناهيك عن وصفهم سردي الرّوائيّ بأنّه مُبتكرٌ وشاذٌ عن السّرب.

حمَّلوا شعري ما لا يُحتمل وشرحوه بطرقٍ جعلتني أكتشف بأنّني لم أكن أفهمُ ما أرمي إليه في قصائدي... لقد فهِموا نصوصي أكثر منّي، وجعلوا منّي عبقريًّا وفيلسوفًا لم تنجب بطونُ العربيّات مثله، فأصبح نصّي جميلا لأنّني من قلته ونص غير رديئًا لأنّني لم أقله... أكبر مآسينا الثّقافيّة أنّنا بارعون بصناعة الأصنامِ لتقديسها، وليِّ أعناق النّص ببراعة غريبة؛ ناهيك عن تحميل ما لا يُحتمل الحملَ الجماليّ المشوَّه. وقد لا يبدو هذا غريبًا لكثرةِ ما حدث ويحدث؛ إنمَّا الغريب أن تجد مَن يصدّق هذه الأكاذيب ويدافع عنها كحقائق ومسلَّمات.

- لكنّك عبقري. **عقَّبتُ على ملاحظتهِ، وقد تعبت يداي من الكتابة، فرحتُ أنفضهما في الهواء.**

- لم أصنع عقارًا ولا اخترعتُ آلةً لأنعتَ بهذا، الكلام وحده لا يدلّ على العبقريّة.

- وتحريك الأمواج الهادئة، والضّمائر، والقلوب؟

- كثيرون باستطاعتهم أن يفعلوا هذا إن أمِنوا العقاب بدعم هائل من الجماهير، أو أعطوا الفرصة لذلك.

- لكنّك عوقبت، وكدت أن تدفعَ ثمن موقفك بشكلٍ باهض سواء في السّجن، أو ربّما الأسوأ من هذا.

- وعوقب وسُجِنَ غيري الكثيرُ، هي معادلةٌ يصعب وصفها، لكنّ الكلام مهما كانَ مهمّا لا يقارن بالفعل.

كانت هذه من أواخر الجملِ الّتي سمعتها منه قبل أن يقاطعني بعد أن نعتُّه بالكاذب، ليقتصرَ عملي بعدها على برنامج الدّواء وشتم سيلا الّتي لم تنفكّ تنكرُ ما شاهدتُه من حديثهما.

- ولنفرض أنّني تحدّثتُ إليه، ما الّذي يزعجك بهذا؟

- إذن تحدّثتِ؟

- لنفترض، ولنفترض أن أحدَنا على دراية بلغةِ الآخر، ما الّذي يغيظك أنتِ؟

- أنت كاذبة، وقاتلة أيضًا، هذا ما يزعجني.

- وأنتِ أيضًا.

- سأكون إن اقتربتِ منه مرّةً أخرى.

- لا يهمّني هذا الخَرِف لأنّني لستُ حمقاء مثلك، قد أتعاطف معك حقيقةً؛ لأنّه على ما يبدو الرّجل الوحيد الّذي لا يراك بدينةً بعينيهِ المغمضتين.

فكرتُ بالانقضاضِ عليها لكنّها بعد أن همَّت بالمغادرة استدارت فجأةً فألقمتني جملةً خدَّرت قواي:«بالمناسبة: مريضك لم يتجاوز السّتين بعد، هو أصغر بكثيرٍ من ملامحه الذّائبة... الفحوصات تقول هذا لا أنا». **غمزتني بعينٍ جامدة باردةٍ ومضت.**

أعرفُ أنّها أرادت شيئًا ما بهذه الجملة. أعرفُ أنّها كاذبة لكنّها أكّدت لي اهتمامها الخفيَّ غير المبرّر به.

لعلّنا نبرع بالاهتمام الخفيّ أكثر من اهتمامنا الواضح خجلًا وحياءً، ثم نبرعُ بالجفاء الظّاهر ذودًا عن كرامتنا أو لتسجيلِ موقفٍ أبديّ لا نريد له أن يتغيّر كموقفي ضدّ جاد الّذي تقمّص دور الأب حين اغتاظَ من أسلوب أحد المحقّقينَ معي، ودخل في نقاشٍ حادٍّ معه بسببي.

- يا أخي ما علاقتك بي؟ أنا لم أغتظ من أسلوبِه فلمَ أقحمتَ نفسَك بالأمر؟ ألا تمل من تطفّلك على حياتي؟

- ألا يمكنك التّخلّص من أحقادك لدقائق؟ أنتِ هيكلٌ بشريّ ممتلئ بالغباء والحقد. **قالَ هذا بصوتٍ مخنوق كاد يتفجّر صراخًا.**

- أنتَ وقح!

صحتُ بها بأعلى صوتي فبدت هذه الجملة ضربة صنّاجة في قاعةٍ فارغةٍ غارقة في اللّيل البهيم؛ مما أحدث شبه انفجار في المركز الّذي تدافع أفراده _وسط تهامسِ المراقبين للمشهد_ للوقوفِ على مصدر الصّوت أو الحدث.

لم يتوقّع أحدٌ منهم كما أنا أن ترتفع يد جاد وتهوي على وجهي بصفعةٍ نافست بتأثير صوتها صرختي؛ حتّى إذا صارت واقعًا وماضيًا بأقلّ من ثانيتين لم يتوقّعوا كما أنا أنّه حين أرفع رأسي غاضبةً مضمرةً الصّراخ والولولة في وجههِ أو الهجوم عليه؛ أن يعاجلني بصفعة أخرى من جذعٍ منتصبٍ كنخلةٍ شمّاء.

شعرتُ آنذاك برياحِ الصّفعةِ تزيح أوراق الخريف وتحملها قسرًا بعيدًا عن بحيرةِ دموع جاهدتُ ألّا تطفو على كامل مساحات مشاعري وإحساسي وكلماتي يومًا... توقّف كلّ شيء لدقيقةٍ قبل أن يصارعني شعورٌ ويصرعني مرارًا لأنْ ألقي نفسي بين ذراعيه باكية مستجديةً صفحه وغفرانه... أردتُ ذلك لكنّه استدارَ منصاعًا لأمر أحدهم حين أشار له أن يتبعَه إلى الدّاخل؛ تاركًا إيّاي كطاحونةِ هواء لم تطحن يومًا سوى سخافاتها.

تجاهلني بعدَ ذلك حتّى كدتُ أقسم أنّه لم يعد يراني مطلقًا. نأى بقدر ما نأت أمّي عنّي لأرتاحَ من مواعظهما وأغتاظَ من برودهما الّذي أشعرني ألّا قيمةَ لي عند أحدٍ على سطح الأرض سواء كان ذلك حبًّا أو كرهًا.

وها هو أصلان يمنحني الشّعورَ ذاته بتجاهله إذ لم يعد يتكلّم بتاتًا كما لم أعد أرى عينيه إلّا نادرًا. انتظرتُ طويًلا قبل أن أدخل غاضبةً لغرفته واضعةً يدي على أزرار ساعةِ الحائط مشغلّةً إيّاها بعد أن ضبطتُها من جديد صائحة به: «الآن سنبدأ باحتساب وقتِ هذه القطيعة».

لا أعلم لماذا فعلتُ أو خطرَ لي ذلك، وما الّذي دفعني له! لكنّ تصرّفي أجدى نفعًا معه إذ سرعانَ ما حدَّقَ إليّ بذهول قبل أن يهزَّ رأسَه بالنّفي.

- سامحني.

-...

- سامحني أرجوك.

- اجلسي، أريدُ أن أبعثَ برسالةٍ لنزار... أوقفي السّاعةَ أوّلًا. **قال ذلك مخفيًا ابتسامة عريضةً لم تكن لتظهر لو أراد لها ذلك بسببِ تشوّهات وجهه.**

- قبَّاني؟!! **تساءلت وأنا أعيدها لحالتها الأولى بعدما قفزت كالكنغر باتّجاهها.**

- ابني. **ولوَّح في الهواء مودِّعًا الوقت.**

- لكنّك لم تنهِ رسالة جودت!

- تجاهليها، مزِّقيها، فلم أعد أرغب بإرسال رسالة له، أريد فقط أن أبعث برسالةٍ لنزار.

- لقد كتبتَ له من قبل، كتبتَ رسالّتين، وستحذفُ هذه أيضًا. أعرف ذلك.

- لم أكن صادقًا كما ينبغي فيهما، أريد أن أكتب رسالةً أخرى، أريدُ للقلمِ أن يطاوعنَي كـ أصلان لا معروف، آن لقلمي أن يقتنع بهذا.

- سأجنّ عمومًا إن لم يقتنع، لكنّني سأفعل، لا خيارَ أمامي، جاهزة. **جلستُ بثقة والفرحةُ تكادُ أن تمنحني زعانف كي أسبح في بحر الغرفة الهادئ.** تفضّلْ.

لم يتريّث كعادته أو يغمضَ عينه بل حدَّق بي بنظراتٍ هادئة كمن يعرف تمامًا ما يريدُ قوله. بنبرةٍ هادئة راح ينثال الكلام من شفتيه:

- ***بُنيّ***، خشيتُ أن أموتَ دون أن أكتبَ لك، جلدني هذا الشّعور بسياطِ النّدم؛ ولو وقفتُ على أسرارِ الموت وتنبَّأت ببرزخهِ مُختارًا ما أتمنّى حصولَه فيه حينها، لقلت لك: «كنت سأشعرُ بالذّنبِ طوال موتي لأنّني لم أخصّك بحديثٍ أخير يُشعرك بأفضليّتك عندي».

تقول لي ريم بأنَّ الموتَ أحكَم سيطرته عليَّ جادًّا هذه المرّة فقاومتهُ مُمدّدًا في غيبوبةٍ استمرّت عشرين يومًا على الأقل بكلِّ ما أوتيتُ من عمرٍ باقٍ لي.

- هل أكتبُ بأنّك دخلتَ في غيبوبة؟

- بالتّأكيد، أريدُ أن أكونَ صادقًا.

- حاضر. **قلتُها متعجبةً من ذكره لغيبوبةٍ حدثت منذ شهرين على الأقل وليس من أيّام كما ذكر برسالته هذه، ولكنّني كتبتُ ما قاله حائرةً بمقصده. {لعلّه اختلط عليه الوقت والزّمن، أو ظنَّ بأنَّ فترة انزعاجه منّي غيبوبةٌ أفاق منها}.**

- ***تعبتُ*** فجأة أثناءَ كتابةِ رسالة طويلة لأخيكَ لم تكتمل، وكنتُ قد كتبتُ قبلها ما يشابهها ولم أُكمل، وها أنا أعود كي أكتب غيرَ تلك الّتي أردت إرسالَها... هذه الغيبوبة شتّتني بالكامل. عشرون يومًا من جمود العقلِ بدت كافية لجمودِ أفكاري وقلمي عدا عن جمود جسدي الميكانيكيّ.

أكتب لك لأنّني رأيتكَ قائلًا في نفسك وقد قدَّمَت ريم رسالتي لأخيك: «ها هو يفضّل أكبرَنا على الجميعِ مرّةً أخرى، حتّى بعدَ موته».

هذه الجملةُ الّتي زارت غيبوبتي وأوّل لحظاتِ صحوي، فقرّرت أن أفضّلك أنت، وأراسلك وحدكَ أنت؛ لا خوفًا من محكمةِ العدلِ الباطلة بين الأبناء، بل خشيةَ أن تصدِّقَ وهمًا ما أردتَ له أن يحتلَّك جرَّاء غيرتك من أخيك؛ كأكذوبةِ تفضيلي له الّتي لا يحقّ لك رفضها إن اعتبرناها حقيقة وواقعا ظاهرًا.

من حقِّي أن أفضِّلَ بين أبنائي مَن يُفضّلني، ومن حقّه أن يُفضِّلَني حالَ فضّلته، فالحبُّ لا يخضع إلّا لقانون واحد، هو قانون اللّا أدري.

ولأنّك قد ورثتَ طبعًا سيِّئًا من جدَّيك لأمِّك وأخوالكَ وهو الأنانيّة؛ فقد أردتَ أن يكونَ كلّ شيء من نصيبك من اللّحظة الأولى... لعلّي لم أخبرك سابقًا أنَّ صوتَ بكائك رضيعًا أوّل ما نبَّهني إلى أنّك لا تشبُهني.

- هذا المولود لا يبكي بكاءَ أطفالنا. **هذا ما وشوشت به سميرًا بعد ولادتك.**

- هل هو مريض؟

- كلَّا، نغمةُ صوتِ بكائهِ وتهدّجهِ تختلفُ عن صوتِ إخوتِه.

انفجرَ سمير ضاحكًا من هواجسي هذه آنذاك، ولم أستطع أن أشرح له أنّني بسبب كرهي لبكاءِ الأطفال تحديدًا كنت أفرِّق بين بكاءِ رضيعٍ وآخر مهما حالت المسافة من سماعِه جيّدًا... الشّعراءُ يمتلكون حسًّا صوتيًّا في قلوبهم أدقَّ من الحسّ الموسيقيّ لدى موسيقيّي الصّوت... حينَ أخبرت والدتي بهذا أطرقَت طويلًا قبل أن توافقني على الأمر متأمّلةً بأحفادها الصّغار القابلين للزّيادةِ سنةً تلو أخرى، مشجّعةً إيّاي على ذلك غاضبةً من حنان إن أبدت رفضًا أو تمنّعًا تجاه إنجابهم بهذه الطّريقة التّقليديّة.

الأسوأ من الأنانيّة في طباعك كان الذّكاء التّمثيليّ ثمَّ تطوُّرُه للذّكاء الذّنْبِيّ... ما الّذي أقصدُه بهذا؟ سأجيبك بالطّبع: هندُ الّتي تعرف تماما أنَّ أخاك كان يحبّها؛ وأنَّ علاقتَك بها خيانة له، هي من أوكلت فاعلة خيرٍ لتخبرني بأنّك تنام في شقتِّها تلك اللّيلة، وبأنّك تهدّدها بالقتلِ إن لم تفعل لك كذا وكذا....

- أظنّ أنّها العمارة الخمسون بعد المنعطف الثّاني -الطّابق الأرضيّ.

تلاعَبت بك كما تلاعبَت به، ثمَّ أحبَّت أن تنهي مسيرتَها الاحترافيّة بمبلغٍ ضخم أودعوه في حسابها وبطريقة الأفلامِ الملَّونة.

عرفتُ صوتَ نيران من أوّل كلمة، لكنّني لم أعرف أنّها خالتها إلّا بعدها بساعة، بيد أنّي تظاهرت بعدمِ معرفةِ صوتِ فاعل الخير الّذي لا يجلب الخيرَ أبدًا.

صدَّقتُها لأنّني أعرفك، لا لأنّي أعرفها مُسبقًا، لذا حين فتحَتْ لي هند البابَ بقميص نومها الّذي لم يستر شبرًا من جسدها؛ تراءت لي نيران القديمة بكلِّ ما فيها كأنّما استنسخت شكلها خلال هذه الأعوام البعيدة.

- إذن فاعلة الخير أمّك؟! **قلت هذا ودخلت الشّقة دون أن تأذن لي.**

- كلّا، لكن يمكنك القول أنّها اعتنت بتربيتي، باعتبارها خالتي...

لم أركَ بعد أن دفعَت البابَ خلفي موصدةً إحكامه بالقفل تلو الآخر؛ لكنَّ قلبي رآكَ في غرفةٍ ما عاريًا نائمًا في سرير الخديعة.

لم أناقشكَ بعدَها بما يخصّ تلك اللّيلة الّتي لا بد أنّك لم تنسها يومًا... ولم أقل لك بأنَّ أمرَ الدّخول والبقاء والخروج أحياءً مغامرة مدروسة احتاجت للكثير من الحظّ، لكن لم يكن هناك مِن خيارٍ أمامي... ولربّما ظننتَ طويلًا أنَّ صمتي عن موقفٍ كهذا عقابٌ دائمٌ لك.

في الحقيقةِ كان هذا في بادئ الأمر، ثمَّ تحوَّل لقناعةٍ راسخةٍ تقضي بأنَّ الحديثَ معك ما هو إلّا مضيعة وقت، فلن تتغيّر، ولن أغيّرك مهما قلت؛ فالنّاصحُ الّذي لا يلمسُ تغيّرًا مباشرًا في المقابل فليدرك أنَّ كلامه ذاهب أدراج الرّيح، أمّا إن لمسَ تغيًّرا لحظيًّا ويوميًّا بسيطًا، ثمَّ عاد المقابل لتكرار الخطأ فليتمسك بالأمل وليلزمْ التّكرار فالتّكرار... هذا لا يعني بالضّرورة استحالة تبدّل حالاتِ الإنسان وطبائِعه؛ بل قناعةً منّي أنَّ تغيّر الأغلبيّة ينبعُ

من الدّاخل عبر عاملٍ خارجيّ؛ لا من خلال النّصائح والمواعظ الّتي ترتطم بجدار العقل وترتدّ بعيدًا عن الدّاخل... يحتاج البعض لصفعةٍ قويّة أو صدمة تعرّيه من عناده أو خموله، وتقذف به ليقفَ أمامَ المرآة كي يرى نفسَه جيّدًا دون مساحيق التّسويف واللاّمبالاة الّتي يزّين بها رغباته.

لكنّني لم أستطع تركَك لهذه الصّدمة طالما تيقّنتُ بحدوثها لأنّني ببساطةٍ أبٌ؛ يخضعُ بكامل جوارحهِ لقلبه الّذي أمرَه على الفورِ بتخليصك منها، مدركًا أن صدمةً مجانيّةً أقل وطأةً منها كفيلةٌ أن تساعدَك على التّعافي من أمراضك، أو هكذا رحتُ أبرّر لنفسي كي لا تتعرّض لها.

تظاهَرتُ بالصّدمة في تلك الشّقة، وتظاهرتُ بوقوعي في الفخِّ الّذي نُصِبَ لي بعد أن جعلوكَ طعمًا لاصطيادي؛ ثم تظاهرتُ بالقلق والخوف متسائلًا متقدّمًا خطوات للبحث عنك.

- لقد غادرَ قبل وصولك... فعلَ ما فعلَ وغادرَ.

قالت ذلك محاولةً إهراق أكبر كمّ من الوقاحة من فمها ونظراتها؛ الّتي بدا القلقُ واضحًا فيهما قبل أن ينتقل ليحتلَّ معالمَها وحركاتها.

أدركتُ لحظتها أنَّ خللًا ما حدث فيما خطّطَت له سيما حين التفتُّ وإيّاها لتقفَ أمامنَا مصدومًا؛ ثم ترتدُّ إلى الدّاخل لترتدي ثيابك أو تهربَ من وجهي.

- حاولتُ إخفاءه لكنّه غبيّ كأخيه... الغباء وراثة على ما يبدو في عائلتكم.
وراحت تتلفّت حولها مصوّبة نظرها نحو غرفةٍ بعينها كمن تنتظرُ حدوث شيء تكاد تفقد الأمل بحدوثه.

- هل قلتُ لك سابقًا أنّ خالتَك أبرع منك بأداء أدوارها؟

- أتّفقُ معك... لكنّني أنتقي الدّور الّذي يروق لي طالما أنَّ المسرحَ وجمهورَه من ممتلكاتي.

الجمهورُ الّذي قصدته كان شابًّا وحيدًا يجلسُ في غرفتهِ الّتي أحرقَت بابَها الخشبيَّ بنظراتِها نحوه؛ منتظرةً اندفاعَه كما كان مقرّرًا نحوي بيد أنّه لم يفعل، لأقتحمَ أنا الغرفةَ بعد ذلك ممسكًا إيّاه من تلابيبه دونَ أن يُبدي مقاومة تُذكر.

- أنتِ لا تملكين سوى دماء قذرة.

سبقت جملتي هذه أصوات رجال الشّرطة بنصف دقيقة على الأقل؛ أتاحت لي تأمّلَ وجه هند ويأسها من نجاح خطّتها، وتأمّلَ معالمِ وجهكَ الّذي يتقاطرُ عارًا وقد طأطأتَه مداراةً لعينيكَ بعد أن سرتَ نحونا بخطواتٍ ذليلة.

لم تُستجوَب من قبل رجال التّحقيق، بل وأقفلَ ملفُ هذه القضيّةِ، وأتلفت المقاطعُ المصوّرة الّتي سُجّلت لك مع هند، لا لأنّك بريء ولست طرفًا بجريمةٍ أخلاقيّة تستحقّ العقاب عليها حتّى وإن بدت مدبّرة، بل لأنَّ والدَك كان الشّاعر الأشهر فاستغلَّ علاقاته داخل الدّولة لتبرّأَ فورًا من جريمةِ الزّنا وإفساد علاقة زوجيّة وهميّة، وجريمةِ مخدّرات ضُبطت في سيّارتك.

عليكَ أن تدركَ هنا أنّني فضّلتك على الجميع، على نفسي، على إخوتك، فضَّلتك على نفسك أنت، فقد أصبحتُ فاسدًا بسببك، وعملتُ بخلاف قولي، وحملتُ ذنبًا ما كنت أحمله لولاك، فالخطأ إمَّا أن يُقسَّمَ على طرفيهِ طالما اتّفقا عليه، أو أن يُمنحَ الطرفان فيه البراءة طالما أنّه عملٌ مشترك بينهما؛ مهما كانت نوايا الأطراف.

العبارات الطّائشة أشدّ خطورةً من الرّصاصات الطّائشة، لكنّ الأفعالَ الطّائشة أشدّ ألمًا من الرصّاصة الموجّهة، وقد تسنّى لي أن أختبرَ الأمر بعدما نجوتُ من براثن الرّصاصة المجهولة الّتي أطلقت عليَّ في ***قصر المعارف*** في وطني أملًا باغتيالي.

مَن أطلق النّار عليَّ هو جدُّك لكن بيدِ رجلٍ آخر. لم يقبضوا على هذا الرّجل ليعترف عمّن حرَّضه، لكنّني عرفتُه فيما بعد، وعرفتُ أن جدَّك ظلَّ ناقمًا على الإهانةِ الّتي وجهتُها له في مشاجرةِ الزّفاف؛ ناهيك عن تفضيل والدتك لي، إضافةً إلى عملي مع سمير الّذي أثار حنقه وكراهيّته بالكامل، لكن ما شجَّعه على القيام بهذا هو أنَّ موتي كان صفقةً مجزيةً بالنّسبة إليه لا أكثر.

«شيك مفتوح» إن سهَّلَ لهم هذا الأمر أو قامَ به نيابةً عنهم.

رجلُ سلَّةِ القمامةِ وغيره من أعدائي لم يستطيعوا تقبُّلَ وجودي على كوكبِ الأرضِ الّتي يظن هو وأشباهه بأنّهم يمتلكونها؛ فما إن امتلك نفوذًا في هرم سلطةِ دولته حتّى راح يُفتّش في دفاتره القديمة عن أعدائه على ما أظنّ، أو ربّما قرأ أحدهم على مسامعه قصيدتي ***سلّة القمامة*** الطّازجة آنذاك فظنَّها موجهةً له مع أنّها في الحقيقة موجّهة له ولأمثالهِ.

قيل لي بعدها أنَّ صقرًا يعمل مستشارًا لديه بعد فراره من الوطن بسببِ قضايا فساد ودعارةٍ وجّهت له؛ وقد سقطَت ورقتُه السّياسيّة والأخلاقيّة في المجتمع، ليقعَ بدوره كالطّير على أشباهه. كتبتُ مقالًا صغيرًا _سيما وقد شدَّدتُ حراستي_ عن الصّقر الّذي لا يهبط على الأرضِ بتاتًا قاتلًا نفسَه إن استطاع بعد صيده بسبب أنَفَته... هنا يضع المروِّضُ قماشةً سوداء على رأسِهِ كيلا يرى نفسه ضمن فترةٍ معيَّنة ليتحوّل هذا الصّقرُ مأمورًا عند آمره... هذا قد ينطبق علينا أيضا، على الرّافضين والثّائرين إن جاءوا.

الصّقرُ الآخر من تتركُه بين الدّجاج، فيعتاد الأرض، ولا يقبلُ مُرتَفعًا وإن رفعته.

أجملُ وأسوأ ما في تلكِ الحادثة أنّني قابلتُ بسببها حبيبتي، أو خطيئتي الكبرى.

- أشتهي الآن أن أعتذرَ للمجرمِ وأمدحه بقصيدةٍ عصماء على تلك الرّصاصة الّتي أحضرتني إلى هذا المشفى. **وشوشتُ بها الممرّضة الحسناء الّتي فُتنتُ بها فور رؤيتها في مشفى الوطن الّذي نقلت له بعد إسعافي.**

- ستجعلني من الغاوين رغم أنفي على ما يبدو. **قالت ذلك والحمرةُ تتقافزُ من وجهها السّاحر.**

عشقتُ مرّتين، ولن تعارضني بنظريّات الحبّ والعشق القديمةِ وما شابهها، فقد ارتضيتُ حينها بالنّسبة لواقعي أن أكون شاذًّا قلبيًّا ومغرِّدًا خارج السّرب، مع أنّني لم أصدّق حينها أولئك الرّجال الّذين تحدّثوا عن الحبّ الواحد أو الحبّ طويل الأمد... الحبُّ الواحد لا يكون إلّا للخالق الواحد فقط يا بنيّ، وسوى ذلك فنحن متعدّدو الوجهات والجهات.

لقد ورّثنا ما توارثناه من قوانينِ الحبِّ الّتي جاءت على أفواهِ المجانين، والخونة، والنّساك، فلا أدري كيف يُنظِّرُ للحبِّ أضدادٌ فيتّفقُ العقلاء عليه، متجاهلين ما أرادوا تجاهله... أمّا أنا فقد عشتُ حقبتين انتقاليّتين كما ستحيا أنت وغيرك لتبدأ بالمقارنةِ بين حاضرك وماضيك، فجدّتي لم تمانع زواج جدّي من غيرها ومجتمعها كذلك، لكنَّ جيلي الّذي مات أغلبُه جمَّد هذه الفكرة ليصبحَ التّعدّد تراثًا.

جيلُكم الآن لا يتزوّج إلّا متأخرًا وعبر زواجٍ هشٍّ ينهار عند أوّل ريحٍ عابرة تضربه؛ طالما أنَّ أبواب الحضارة المتآكلة انفتحت على غاربها لنا.

بسببِ رفضِ المرأة التعدّد آنذاك، ومشاركةِ زوجها بأخرى، ومع انتشار الفقرِ وتزايد الأصواتِ المطالبةِ بالمساواةِ الكاملةِ، وتحت ضغطِ صندوقِ النقد الدّولي الّذي انهار عام ***2075م*** جاء القرار الّذي يمنع أن يجمعَ الرّجل بين زوجتين أو أكثر في معظم دولِ المشرق، ومن المضحك الآن أن تعود المرأةُ ذاتها وبعد أعوامٍ من تحرّرها المزعوم ومساواتها قانونيًّا مع الرّجل؛ وبعد نيلها ما أرادته وتاقت إليه للمطالبةِ بفرضِ اللّباس المحتشم والزّواج التعدّدي، وأن تتعالى الأصوات مطالبةً بتدخّل القانون لفرض هذا ولو بالقوّة.

المرأة في عشرينيّات الألفيّة الثّانية كانت تميل للرّجل الشرقيّ، والقويّ، والمستبدّ، وصاحب الأفكار الغريبة وتفضّله في حياتها وسريرها، مع أنَّ الكثيراتِ كنَّ يفضّلنه بحياتهن، ويشعرن بالأمان بعشقهِ وصداقته شريطة ألّا يكون زوجَ إحداهن، لكنّها ومع ذلك ظلَّت تنادي بعكس هذا حتّى خسرت قيمتها الحقيقيّة فعادت تطالبنا في سبيعنيّات الألفيّة الثّانية بالعودة للنّقطةِ الأولى من جديد، حتّى إنّه من الطّرائف أنَّ إحدى الجمعيّات النّسويّة العريقة رفعت شعارًا بعد ذلك؛ يحتوي على جملةٍ واحدة تلخّص الكثير مما جرى ويجري: «اقمعونا أرجوكم». ومن المضحك يا بنيّ أن يفهمَ الرّجلُ المرأة في جميع العصورِ أكثر من فهمِ المرأة لنفسها.

(8)

ابنُ الكئيبة

تساءلتُ بعد تلك الجملةِ إن كان الرّجلُ فعلًا على درايةٍ بالمرأة إلى هذا الحدّ؟ لا يمكنُ له قطعًا أن يفهمَها أكثر من نفسها كما يدّعي، أو أن يتفوّقَ عليها ذكاءً وعاطفة. هو نفسه لا يعلم أنّني تحوّلتُ من معجبةٍ قارئةٍ لشعره لتاجرةٍ تحاول كتابةَ وتسجيل كلّ موقف وحدثٍ وحرف يصدر منه؛ كي تتاجرَ بها يومًا... منذ التقينا وهو يحدّثني بالأسلوب ذاته، وينظر إليّ النّظرة الحانية ذاتها معتقدًا أنّني تلك البلهاء الّتي كادت تسقطُ مغشيًّا عليها بعد أن تعرّفت على شخصه في قسم الدّخول.

لم يلاحظ أيًّا من تحولّاتي النّفسيّة والفكريّة، وجشعي الّذي لا ينفكّ يحرّضه على ذكرِ أيّ فضيحةٍ وأكاذيب سابقة؛ قد تساعد على ترويجِ ما نويتُ تدوينه في كتاب، حتّى إنّه لم يلاحظ أنّ وزني بدأ بالتّناقص لدرجةٍ كبيرة بعد أن عزمتُ أن أتحوّلَ من فيلٍ لفقمة. ما زال يراني كما أراد، هو من أشار إلى هذه الفلسفة لكنّه لم يستفد منها.

{انظري كيف تحوّلتِ خلال بضع شهورٍ من فتاةٍ لطالما دعت الله أن يُشفي مريضَها الشّاعر إلى فتاةٍ ترجو فقط ألّا يموت قبل أن يدلو بدلوه؛ من فتاةٍ أرادت إثباتَ شخصه عبر فحوصات حاربت للموافقةِ عليها، وبين فتاةٍ لا تريد لهذه الفحوصات الآن أن تظهر للعيان. ليس خوفًا عليه، بل خوفًا من أن تخسر الكنز الّذي بين يديها... موته لم يعد مُتعلّقًا بحزنك عليه، بل بحرصك

على ما تريدينه منه، فليكن هذا، لقد نالَ من الشّهرةِ والمال ما لم ينله شاعرٌ قبله، ألا يحقّ لي وأنا القارئةُ الأولى له أن أمصَّ إصبعي من بقايا ثرائه؟}.

كلا، لن يفهمنَا الرّجل رغم حيرتي الّتي أستشعرها حين يلامسنا بكلماته على لساننا ببراعةٍ مدهشة. لن يفهمنا طالما أنّنا نتغيّر ونتقلّب أكثر منه. ننضجُ سريعًا، ونتأنّثُ سريعًا، ونعشقُ سريعًا، ونكره سريعًا، بينما يسيرُ في أفقيّته بخطواتٍ ثابتة لا تمكّنه مِن اللّحاق بنا؛ أو سبر أغوار تلك المنعرجات والمتاهات النفسيّة الّتي نخوضها بسببٍ وبلا سبب... الثّياب تحديدًا مَن تدلّك على الفروقات الشّاسعة بين النّساء أنفسهن: فروقات الذّوق، واللّون، والإحساس، والشّخصيّة، فمن النّادر الّذي لا حكمَ له أن تجدَ تشابهًا بأبسط الأشياء بيننا، في حين ترى التّشابه المملّ بين الرّجل والآخر في الملبس رغم فروقاته البسيطة، لكنّه ما زال رغم مساواة العصر بينهما مصرًّا على أنّه يفهم المرأة؛ يلازمُه الشّعورُ بأفضليّته عليها منذ القدم، لذا تغيَّرت أفعالُه ظاهريًّا ولم تتغيّر أفكاره.

لا يختلف شعورُ المثقّف عن الجاهل بهذا. هم متشابهون في دواخلهم ونظرتهم مهما حاولوا التنصّل منها... ميمون نفسه، ورغمَ كلّ شيءٍ ظنَّ بأنّه فهِمني أكثرَ من نفسي دونَ مرجعيّة تخوّله تصديق ذلك؛ حيث إنّي لم أوجّه له حرفًا في الوكر لأقولَ ربّما تمكّن من قراءتي... بكائي واستجدائي ثمَّ صمتي المطبق، ثمَّ نظرات الرّجاء الّتي وجّهتها لوالدِه، ثمَّ الحديث الّذي دارَ بيني وبين شهد ربّما دفعه لهذا التّفكير.

توسَّلَ للمحقّقينَ أن يحدّثني لدقائق. بدا غبيًّا حين لم يدرك أنّهم أرادوا ذلك ليستخلصوا منه معلوماتٍ مجّانيّة من خلالي بسلاسة... لم أستطع الرّفضَ بعد أن أجبرتني والدتي وآثار صفعتيْ جاد أن أساعدهم خدمةً للعدالةِ

والمجتمع. أضحكتني كلمة العدالة، هذه الكلمة الفضفاضة الّتي تكتنزُ الظّلم في معانيها، والكثيرَ من الوجوه المتناقضة داخل أحشائها.

العدالةُ أن يسجنَ طاقمُ المشفى الّذي طردَ مريضةَ الرّبو من قسم الطّوارئ. العدالةُ أن يسجن المدراءُ والشّاهدون على ذلك. العدالة أن أشعر بالخزيِّ طوالَ عمري وأطردَ ذليلةً مهانةً تحتَ أنظارِ أبي سند... العدالةُ ألّا تُعاقَب شهد العجّان طفلةً لأنّها ابنة أبيها، وألّا يُرَحّب بابنةِ الإمامِ والعالمِ والوجيهِ وما شابه لأنّها ابنة أحدهم، متجاهلينَ أنّ الجدران تخفي قبل وجوهنا حقائقَ النّفس ومقاصدَ الأعمال.

ماتَ والدي مرّتين، مرّةً عند موته، ومرّةً حين تزوّجَت أمّي بآخر... العدالةُ أن تحظى بزوجٍ جديد، والعدالةُ أن يعودَ لي أبي، وما بين العدلين وجدتُ نفسي أميلُ فقط للطّعام. أردتُ التهامَ أيّ شيء من أجل لا شيء، أو لعلّي أردتُ تخزينَ الماءِ والطّعام والشّراب داخلي؛ لأنّني قد أجوعُ يومًا لا محالة. أكثر شيءٍ حرّكته في حياتي بدل عقلي وأطرافي هو فمي.

لم أنزعج من بدانتي أو وصفي بها بالقدر الّذي ادّعيته. انزعجتُ من أبٍ يمسك يدَ ابنته، من أبٍ يوبِّخُ أولاده، من أبٍ سافر ولم يعد تحت رجاءِ أبنائه بالعودةِ لهم، من أبٍ مُقعدٍ، وعاجزٍ، ومريضٍ، وتافهٍ، ووضيع، من أيّ أبٍ ومهما كانت صفاته وطباعه.

فرَّغتُ أحقادي يومًا بأبي سند رغمَ حنوِّه وتشجعيه الدّائم لي، فلّما ندمت على ما فعلت؛ عاد لي مجنونًا مُتهمًا إيّاي بإحراقِ الطّاولة والسّتارة... دفعته عني ولم أسمح له أن يكمل كلامه... لم أرد حينها تصديق أنّه رآني فعلًا، ولم أرد أن أستمع للمزيد من الكلام؛ فقد كنت أخشى أن يقولَ لي أيضًا: «وأعلمُ أنّك مَن وضعَ الأدوية في حقيبتي... أنتِ لا سواك من فعلَ هذا».

لو قال هذه الجملة لأكَّد لي بأنّه تعامل معي كفتاة مريضة نفسيًّا لا أكثر. فتاة يلزمها أن تعطف عليها، ولا تغضب منها مهما فعلت لأنّها ليست عاقلة ولا متّزنة.

عقله الباطن من استخرجَ كلمة «بدينة» الّتي لم يقلها لي سابقًا، وهي بالتّأكيد السّبب الرئيس لعطفه عليّ، فلمّا فقد عقله وصفني بها دون تردّد.

ليته لم يقل لي هذا، وليتَ مردَّ عطفه كان لأنّه رآني ابنته فعلًا الّتي لم ينجبها لا شفقةً عليّ. ليتني لم أعرف أنّه كان ينظر لي داخليًّا كما ينظر نحوي الآخرون، حتّى وإن كان يتصرّف بعكسِ ما يبطنه.

لا فرقَ إذن، لا فرق بين من يحتفظ بنظرته لك في داخله، وبين من يصرّح بها... كلاهما يصلان لنقاط متشابهة في النّهاية.

طردوه وطلبوا من رجالِ الأمنِ تفتيشَه، فجاء موظفٌ كارهٌ له وحاول النّيلَ منه أثناء ذلك. شعرتُ بأنّه سيهوي كلوحٍ خشبيّ على الأرض من شدّة القهر لكنّه تحامل، ووسط العيون الشّامتة ووسط العبارات الّتي تتهامس متفاجئة كذبًا بأن كيفَ لمسنٍّ مثله أن يسرق؟! راح يسير إلى الخارج مطرودًا ومنبوذا... ولأنّني كنت منبوذة أمام نفسي فقد أردتُ بدايةً أن أنكرَ حادثةَ اختطاف العجَّان بمجملها وأدَّعي أنّني صديقة لشهد. وددتُ بشدّةٍ أن أفعلَ وأصرّ على هذا أمام المحقّق سند قبل أن يتجاهل أمانيَّ بالكامل.

- لن يؤذوك، صدّقيني، لا تخافي منهم، لدينا من الدّلائل الآن ما يكفي لشنقهم.

- لكنّهم لم يختطفوني، كنتُ ضيفةً عليهم.

- لا زلتِ خائفةً إذن، عليكِ قول الحقيقة دون التّفكير بانتقامهم أو تهديداتهم... أكرّر مرة أخرى: ستكونين في مأمن وأمان. صدّقيني.

- هم عائلة طيّ...

- عصابة وقتلة، وشبكة دعارة، لقد بحثنا عنهم طويلًا. **قاطعني آمرًا مُلقّنًا إيّاي ما علي قوله عنهم.**

- سيف؟

- سيف؟!!!

- هو مَن أرشدكم للمكان... لم أره.

- من؟

- سيف.

- غريبةٌ أنتِ حقًا.

- هو ابن العجّان، أليسَ هذا صحيحًا؟

- سنتبادلُ الأدوار، بإمكانك الجلوسُ مكاني.

سند أيضًا لم يفهمني فقد ظنَّ أنّ إنكاري لحادثةِ الخطفِ بدايةً، وفضولي للحديث عمَّن انقذني رغم أنّه ابن العجّان سببه الخوف، لذا فقد تمسَّك بهذه النّقطة وراح ينسجُ عليها مسارَه القادم بما يتعلّق بالتّحقيقات... لم يفكّر بتاتًا إلّا بما اقتضتهُ الضّرورةُ والمنطق وروتنيّة الأحداث المتشابهة.

قد أبعثُ له يومًا برسالةٍ كما يفعل أصلان أدحضُ فيها قناعاته هذه رغم أنّني لم أفكر بهذا مسبقًا. من الجميلِ حقًّا أن ترسلَ لأحدهم رسالةً بعد أعوامٍ طويلة لتبيّنَ له كم كان مخطئًا عندما فكّر وقرّر وتحدّث بلسانك!

سأقول له: سيّدي المحقّق سند المحترم، أنا ريم، لا بدّ أنّك تتذكّر ريم هذه بالتّأكيد فهي أبدن ضحيّةٍ أنقذتَها في حياتك، وهي الّتي ظننتَ بأنّها يومَ أرادت أن تبرِّئ العجّان وأولاده كانَ بسببِ خوفها منهم. ريم الّتي لفَّقتْ تهمةَ والدك ومَن فقدَ عقله بسببها، وهي الشّاهدة على تغيير موقفك بأقلّ من دقيقة، والمستذكرة بوضوح تقاطيعَ وجهك حين ارتضيت الاحتفاظ بعملك على حساب كرامة والدك... ريم يا سيّدي الّتي رأتك توبّخ إدارة صالة الأفراحِ على ستائرهم الطّويلة بأنفاسِ طاووسٍ وغمزةِ نسر، ومَن رأتكَ تغادر المشفى كصوصٍ دهسته قدم طفلٍ أثناء فرارهِ منه.

أمّا العجّان فلا يمكن لكَ نسيانه بالتّأكيد فهو رئيس العصابة الّتي قبَضتَ عليها وأودعتَ أفرادَها السّجن؛ فارتقيتَ رتبتينَ بسبب هذه القضيّة وأصبحت بطلًا جرّاء القبض عليه. هو الرّجل الّذي راحَ يبكي بحرقةٍ لأنَّ ابنَه مَن وشى به لديكم صارخًا: «لولاه، لولا ابن الكئيبة لما عرفتم طريقي يومًا، لا تتفاخروا بتحقيقاتكم الواهنة، وتبنوا بطولاتٍ كاذبةٍ على ظهورنا. لولاه لما استطعتم اكتشافَ جحر فأرٍ قرضَ مؤخّراتكم على الدّوام»... وهو والد شهد، تلك السّمراء الجميلة الطّازجة كخوخةٍ على غصنٍ أخضر. تلك الّتي حقّقتَ معها طويلًا، ثمَّ طويلًا، ثمَّ اقتنعتَ ببراءتها دونهم بقلبك الكبير الحاني...

- لا ذنبَ للفتاة. **قالها بثقةٍ آمرةٍ دون أن يرفع رأسه عن أوراقه.**

- ولا لأمِّها أيضًا.

- لكنّها!!

- ولا لأمّها أيضًا. **مستمتعةً بهذا التحدّي الواضح الواثق.** وهذا ما ستدلي به الأخريات أيضًا بناءً على تحقيقاتك الشّفيفة، وإلّا فشهد طرفٌ رئيس في هذه العصابة، بل هي من اختطفتني لا أبوها.. ربّما يصدّقني الإعلام إن لم تصدّقني أنت. **وتقمّصت هيئة طفلةٍ تلعب بجديلتها ببراءة فور قولي هذا.**

حدَّقتَ بي، أقرُّ بأنّك فهمتَ مقصدي عندما فهمتُ مقصدك تمامًا، لذا فقد سبقتك بخطوةٍ لم أقرّرها سوى لإغاظتك، فأنا لا أحبُّ الأمّهات بتاتًا يا سيّدي سيما حين يتزوجن بآخر. لذا تمّت الصّفقة كما شئنا، وكما شاءت العدالةُ الظالمةُ أن تكون.

لم أخبرك حينها عن مشيئتي بتبرئتهم جميعا. ولو كنتُ الدّليلَ الوحيدَ لبراءتهم لفعلت وصمّمت على ضيافتهم لا اختطافهم، لكنَّ وجوهَ الضّحايا الّتي اكتظّت بها غرف التّحقيق، وحالةَ الجَلبةِ والسّرعةِ والفرحةِ في وجوهِ أهالي الضّحايا، والدّلائلَ الماديّة المضبوطةِ من سلاحٍ، ومخدّراتٍ، وحاجيّاتٍ مسروقة؛ جعلتني أسيرُ مع الجموعِ لأنّني الشّعرةُ الّتي لن تقصمَ ظهرَ بعير عدالتكم.

أردتُ عكسَ ما أدليتُ به لأنّها المرّةُ الوحيدة الّتي تساءلت فيها عن حقيقتي وماهيتها، لأنّها المرّة الوحيدة الّتي رأيتُ التّشابه الغريبَ بين أراذل النّاس ومَن دفعوهم لهذا... قل لي سيّدي: بماذا تختلف عنهم أنت؟ لقد برَّأت شهد لقوامها وأنوثتها ولوعدٍ قطَعَتْهُ على نفسها يقتضي أن تكون طوعَ أمركَ وبين يديك متى أردت لها ذلك.

لا ألومك حقيقة فالفتاة جميلة جدًّا، لكنّني ألومك على الزّج بميمون في السّجن رغمَ أنَّ دورَه اقتصر على التّهريج في ذاك الوكر وبشهادة الضّحايا جميعهم، فبماذا أختلفُ أنا عنكَ وأنتَ عنهم؟ بماذا أختلف وقد ماتت العجوز بسببي؟ وفقدَ أبوك وظيفته وعقلَه بسببي حينَ تجنّيتُ عليه؟ وبسببكَ حين ارتضيتَ ألّا تدافعَ عنه وتثبتَ براءته خوفًا ممّن لا أعرف... والدُك وبراءته وعقله وُضِعت في كفّة، ووُضعتَ أنتَ ورتبتُك في كفّة؛ فرجحتَ أنتَ يومَ تخلّيتَ عنه.

الحياة الآثمة أيّها المحقّق قد تقرضُنا أشياءَ ثمَّ تستردّها عبر نظام الرّبا؛ فلعلّها أقرضتْك حالةَ التّخلي عن حقّ والدك لتستردَّ دينها منك بعدها بفراشِ شهد. ولعلّها أقرضَت شهد فراشك كي تستردَّ دينها منها في مكان آخر أو حالةٍ أخرى... قد تسقط هذه الدّيون والقروض فجأةً فقط إن عدنا لفطرتنا السّليمة، ومَحَقنا الشّرّ الّذي يراودنا بين الفرصة والفرصة المواتية للظّفر بها.

بماذا يختلفُ عنّا أكثرُنا استقامةً حين يمارسُ الصّمت؟ أو حينَ لا يغضبُ إلّا لنفسه؟ بماذا يختلفُ حين لا يتوجّه للأراذلِ كي يثنيهم نصيحةً وإقناعًا عن أعمالهم المشينة؟ قل لي: ما هو الفرق بين وجهٍ لم يتقعَّر نصرًا للفضيلةِ وبين وجهٍ غارقٍ في الرّذيلة؟ لا فرق أيّها السّند الّذي لم يسند والده عندما احتاج للسّند.

نمارسُ الظّلم حسبَ قناعاتنا وما نبرّره لأنفسنا لنشرِّعَه حلالًا وتعاطفًا، ونرفضُ الظّلم الواقعَ علينا وإن مارسنَاه بأساليبَ أخرى على الغير... **{أمَّا «ليس لها ذنب» فوحدكِ مَن تعلمينَ أنّها جملةٌ لقِّنَت لجميعِ الضّحايا ثمَّ تردّدت على ألسنِ غيره، لكن لا بد لك من موافقته عليها بالكامل، فالحقيقة**

هي: ألّا ذنب لها. بل لا ذنبَ لهم جميعًا طالما أنّ الّذي يفصلُ بيننا أخلاقيًا هو جالدنا متى أراد}.

لعلَّه الآن بالطّبعِ لا يريدُ أن يتذكّر شيئًا ممّا أودُّ قوله، فإن قرأَ نفى وأنكرَ مقسمًا على عدالته وموازينه الدّقيقة، ثمَّ ثارَ يعدّد بطولاتِه أمام أبنائه متناسيًا صمته وانكساره أمام والده، لذا لن أتركَ له رسالةً لن توقظ في نفسه ما أماته مذ قرّر أنَّ من حقّه ممارسة الصّمت، وتبرئة واتّهامَ المتشابهين لاختلاف نوعيّة أجسادهم. فعند هؤلاء تنتصرُ إجاصتنا الأنثى على تفّاحة الرّجل في كلّ شيء وظرف ومكان.

- الوحيدُ الّذي لم يَتعرّف عليهِ أحد هو ميمون، بإمكانك مساعدتنا.

- لديكم أدلّتكم.

- لا تكفي لسجنهِ طويلًا، هذا إن لم يبرَّأ بالكامل لحملِ والدهِ أوزاره.

جلسَ ميمون أمامي مكبَّلا مشدودًا بالكامل إلى مقعدٍ في غرفةٍ خلَت من سوانا... بدا غبيًّا أو يائسًا حين راح يعتذر لي عن تصرّفه المشين معي.

- لستُ غاضبة الآن، لم يعد هناك شيءٌ يغضبني.

- أنا لم أفعل شيئًا، كلّ ما فعلته أنّني ولدتُ لهم فراقبتُ ما يفعلون دون القدرة على الرّفض أو ثنيهم عن ذلك... أنا أختلفُ عنهم. صدّقيني.

- سيف راقبهم، وفعلَ أمرًا آخرَ.

- لا أعرفه ولم أره قطّ... لقد تركنَا صغيرًا، قبل أن أولد أنا، تحرّرَ مبّكرًا... والدي فقط مَن قد يتعرّف عليه. حتّى أمّي نسيته بالكامل.

{لم أره أيضًا لكنّني سمعتُ صوته الشّبيهَ بصوتِ أصلان}.

-«هذه طرقاتُ ضيف لا اللّعين سيف»؟ **نظراتي تزامنت مع السّؤال كمترقّبة للجواب بلهفة.**

- يقولها دومًا عندما يُطرق الباب لأنّه لا يُطرق إلّا نادرًا، فأبوابنا لا تُطرق لا من ضيفٍ ولا من أخ.

- من البوليس إذن؟

- كلّا، هذه المرّة الأولى الّتي يداهمنا فيها رجال الشرطة، بالعادة تُطرقُ من عابرٍ ضلَّ سبيله ليس إلّا.

- لماذا وشى بكم؟

- لا أعرف. كلّ ما أعرفه أنّه حاولَ كثيرًا ثنيَ والديَّ عن عالمهما قديمًا؛ قبل أن يختفي ويعودَ قبل شهرٍ فقط بجوازٍ آخر لا يحمل اسمه ولا اسم عائلة العجّان... لم يلتقِ أحدٌ به منّا سوى والدي الّذي فتح له الباب متفاجئًا وقد شُبِّه له.

- نعم، أنا سيف. **قالها سيف والعجّان يحدّق به غير مصدّق ما يراه.**

- هذّه المرّة الوحيدة الّتي لم أقل فيها «هذهِ طرقات ضيف لا سيف». لو كنتُ أعلم أنّ عدم قولها سيأتي بك لأعرضتُ عنها قديمًا.

- هل ستحتضنُني؟ **وقد راحت وجنتاه تتحرّكان بسرعةٍ جرّاء الانفعال والتردّد الّذي يعصفُ بمشاعره.**

- هل أنتَ بحاجةِ حقّا لاحتضانك من قِبَلِ سافلٍ مثلي؟

صمتَ وظلَّ متردّدًا بين العودةِ أو اللّحاق بوالدي إلى الدّاخل لكنّه دخلَ أخيرًا، لتبتلعَه الدّهشة بعد رؤيته لفتاةٍ عاريةٍ مقيّدة إلى السّرير وقد نال من جسدها وملامحها التّعب والخوف ما نال.

- مَن هذه؟ **ولم يتخلّص من صدمته بعد.**

- بإمكانك أن تسألها... أو أن تتعرّف إليها. إن أحببتَ أن تضاجعها فلكَ ذلك بل وأنصحك بشدّة بهذا فهي شهيّة بطريقة غريبة.

تشجّعت الفتاة للاستنجاد به باكيةً متوسّلةً لكنّه لم يستطع أن يفعلَ لها شيئًا؛ بعدما ثارَ والدي في وجههِ مقسمًا أن يقتلَه إن تدخّل فيما لا يعنيه، وبعد حديثٍ قصير خرج ولم يعد إلّا تلك اللّيلة بصحبةِ البوليس... لعلَّه كان أحد الواقفين في الخارج أو في المركز.. لا أعرف.

- لقد أنقذني عمومًا.

- أنقذكِ منهم، أقسم بأنّني لم أقترب يومًا من فتاة. كلّ ما أفعله هو المراقبة، وأحيانا إخافتهن، لم أمسَسك كما لم أمسس غيرك.

المسكين ظنَّ أن براءته بين يديّ. ليتها كانت كذلك، وليت أنّ براءتي كانت بين يديْ أبي سند بدل أن تكون براءته في يديّ. كان على الأقلّ سيفعل شيئًا لإنقاذي عوضًا عن مراقبتي وأنا أطرد خارجًا لا حول لي ولا قوّة كما راقبته أنا.

لكنّني لا أملك شيئًا حتّى هذه اللّحظة إلّا قلقي وحيرتي. حيرتي الّتي تنظر من خلالي إلى أصلان الغارق في غيبوبته المفاجئة؛ إذ تركني كعادتهِ وحيدةً ومضى في فراشهِ نحو غيبوبةٍ حيث لا أدري إلى أين ستأخذه.

سيلا تصرُّ بأنّها أنفاسه الأخيرة، أشعرُ أنّها تقول ذلك بحزن ثمَّ تتصنّعُ القسوة، وكلمَّا شعرت بهذا الشّعور تناقَضتُ ولم أعد قادرةً على فهمها؛ أو فهم حالتها هذه.

- لقد تآكل من الدّاخل، عليكِ أن تجهِّزي كفنَه كي تدعو لك روحُه بأن تنحفي أكثر.

- سخيفة.

- سيموت.

- وأنتِ كذلك.

- لكنّني سأجد حينها مَن يبكي عليّ، أمّا هو فلا أظنّ.

هل سأبكي عليه إن مات؟ سؤالٌ أثارته هذه اللّعينة فأعادني لتناقضٍ داخليّ أحياه. قد أبكيه بحرقة كشاعرٍ تأثّرتُ بكلِّ ما فيه، وقد أبكيه فرحةً من الدّاخل إن حصلتُ على جميعِ ما لديه، وقد أصمتُ لأنّ الصّمت هنا أصدق ما قد أفعله أمام نفسي.

رحت أتنقّلُ بين ملفّات حاسوبي لأجد ملفًّا هو من أوائل الملفّات الّتي أملاها عليَّ في الشّهرِ الأوّل حينما أقنعته بضرورةِ كتابةِ ملخّصٍ لحياته، وقبل أن يتوقّف ثمَّ ينتقل بعدها ويدفعهُ الحنين لكتابةِ رسائلَ لذويهِ بدلًا عنها.

رحت أقرأ بصوتٍ منخفض كسرًا للملل الّذي أحياه بسبب غيبوبته؛ مبحرةً في كتاباته متنقّلة بين جملهِ وقد شعرتُ بانفصالي عن محيطي وعالمي بالكامل. قادتني جملةُ «التّنازلُ الأخير ليسَ لقيطًا، بل هو الابن الشّرعيّ

للتّنازل الأوّل» وقد تفكّرتُ بها عميقًا؛ إلى قراءةِ النّص الّذي أعقبَها كتمهيدٍ لما يريدُ الانتقال إليه؛ كأنّي أقرؤه لأوّل مرة:

«لم أكتب يومًا من أجلِ الكتابة، ولا امتهنتُ الفضفضةَ من خلالها، إذ لستُ من أولئك المردّدين للجملةِ الغربية «أكتب كي أعبّر عن نفسي». فقد عبَّرتُ عن مشاعر مَن لا مشاعرَ له، ولو تسنّى لي لعبَّرت عن مشاعر الكائنات الفضائيّة الّتي يحاولُ العلماء جاهدين التوصّل للغةِ خطابٍ معها بدل الرّسومات والإشارات المتداولة بيننا منذ مراسلتها لنا إلى هذه اللّحظة.

لا أنكر أن كتابةَ الرّسائل أحيانا وتوجيهها يندرجُ تحت الكتابة المباشرة الصّادقة في أغلبها بين مُتجاذِبَين، بيد أنّها حينما تخلو من الإخبار والنّصيحة، وبثّ الأشواق، ستكون أقرب للحديث الحقيقيّ بين اثنين يشكو أحدُهما ظرفًا ما للآخر... الغاية من حديثنا الموجّه عن معضلة أو حيرة ما تؤرّقنا _في الأغلب_ سببُها أنّنا حينما نتحدّث نبدأ من الصّفر... نرتّب أفكارنا ونتسلسلُ بالحديث مِن نقطة البداية بصوتٍ واضح مفسّرين وشارحين؛ غير تاركينَ شاردةً ولا واردة إلّا وذكرناها كي يفهم المقابل ما نريد له أن يفهمَه، أو ليفهمَ الأمرَ كما نفهمه نحن... بعد أن نقوم بهذا نجدُ أنّنا وقفنا على السّرّ الّذي نجهله، وأدركنا الحلّ لمعضلتنا المعقّدة المستعصيّة؛ وأزحنا الحيرة بقرار اليقين الّذي سنتّخذه بعد هذا الحديث؛ رغمَ أنَّ المقابل لم يتفوّه بعد بأيّ حرف ردًّا على ما سمعه منّا، بل وقد يبدو كلامه ونصحه ثقيلا على النّفس لأنّنا سنسمع منه ما اكتشفناه وما نتوقّع أن يقولَه... يحدثُ هذا لأنّنا عندما شرحنا الأمرَ كاملًا وبحيثيّاته ودقائقه؛ شرحناه لأنفسنا قبل شرحه للآخر، فوجدنا الحلَّ مختبئًا بين السّطور الصّوتيّة، غيرَ مدركين أنّ ترتيبَ الفوضى الّتي تحيط بالغاية؛ ووضعَ كلّ شيءٍ في مكانه كفيلٌ أن يمكّننا مِن

رؤية الأشياء على حقيقتها بمقاساتها وأبعادها وأحجامها وكنهها ضمن واقعها لا ضمن ما ضخّمه أو قزّمه الخيال فينا.

لكنّني ما زلتُ أحاولَ إقناع هذا القلم مذ وصولي لهذه الجزيرة اللّعينة بأنّني أصلان لا معروف فيأبى أن يقتنع.

يختلف هذا الأمر بين مُتَناقِشين يتمسّك كلّ برأيه. أنتَ هنا أمام هدر للوقت بسماع الحقيقة وعكسها في الدّقيقة الواحدة وعلى لسان الاثنين، فالنّقاش مضيعةٌ للوقت إلّا إن كان طرفاه قد جلسا بحثًا عن الحقيقة لا التفرّد ودحض حجّة المقابل، وهذا ما لا يحدث إلّا نادرًا، وها أنا الآن أجد نفسي في خريف السّادسةِ والثّمانين غيرَ قادرٍ على كتابةِ شيء الآن إلّا نفسي. لقد أفلستُ تمامًا وعجزتُ عن التّفكير؛ مجرّد التّفكير بقصيدة، أو قصّةٍ، أو روايةٍ لا تشبه ما كتبت يومًا. ولا تكرّر نفسها وتكرّرني، ناهيك ألّا جدوى من كتابة أشياء لا تهمُّنا شخصيًّا في الوقت الضّائع.

عضلاتُ العقل الفكريّة كعضلات الجسد وإن كان عمرها الفتيّ أطول قليلًا. عضلاتنا تدفعُنا للرّكض والقفز بحيوية ثمَّ تبدأ بالتّناقص العزميّ وتبطئُ حركتها الميكانيكيّة؛ فنستسلمُ لواقع الحذَرِ مِن القفز من على الأسوار العالية أو حمل الأشياء الثّقيلة بما لا يتناسبُ مع عمرنا... نلمسُ ذلك فنخضع لواقعه، أمّا عضلات العقل فلا نلمس ضعفها إلّا عند نقطةِ الصّدق والتّسليمِ بأنّنا لم نعد نُقدّم شيئًا ذا أهميّة فعليّة؛ وهذا ما يحدث فجأة لا بالتّدريج.

أشعرُ الآن بتأنيبٍ ضميريٍّ لانتقادي أدباءَ كبار تراجعَ مستواهم في أواخر حياتهم فبدوا وكأنّهم بدؤوا من جديد... أشعرُ بهم حينَ أدمنوا الكتابةَ فلم

يستطيعوا هجرَها ولا استطاعوا مجاراتِها، فلا هم استراحوا إن صمتوا، ولا استراحوا إن كتبوا.

الجميعُ يسعى للقمّة مدركينَ تمامًا أنَّ القمّةَ هي النّهاية.

لم أصلها بل توقّفتُ على مسافةِ أميالٍ منها. رأيتُ الكثيرَ ممّن يستحقّ ولا يستحقّ أمامي فلم أستطع اللّحاق بهم، فكانت قمّتي البعيدة أشبهَ بنقطةِ البداية، كلتاهما ما أرى ولا أستطيعُ الوصول أو الرّجوع إليهما.

ربّما لم أرد الوصولَ إلى القمّة في لحظاتِ ما قبل الوصول إليها؛ فعدت أدراجي حين رأيتُ أنَّ معظمَ من عليها كان من الأنانيّين والانتهازيّين والمتسلّقين الكذبة؛ وغيرهم ممّن صنعتهم قوى الشّر، فأحببت القاع أكثر لأنَّ ساكنيه من البسطاء والطيّبين الّذين تمنّيت أن أكون بينهم ولم أنجح بذلك.

الطيّبون لا يحتاجون بالعادةِ إلى إظهار طيبتهم، ولا يحتاجون منّا أن نتحدّث عن مزاياهم، فإن تفاخروا بذلك أو قبلوا المدح فلخللٍ قد حدث في طبيعتهم وتحوُّلٍ طرأ عليهم، فالصّورةُ النّمطيّة للطيّب أو الخبيث لا تتغيّر مهما سعى الآخرون لتزويرها... لقد أُنتُجت آلاف الأفلام لتحسين صورة ***الفأر*** في أعين الأطفال واليافعين وإظهاره بمظهر الذكيّ المسالم والمرح، لكنَّ ذلك لم يحدث، فالفأر لم يزل هو الفأر القميء المقرف في أعين الجميع.

لذا عليَّ أن أبدأ من النّهاية الأهم لأنّها الأقرب، ولأنّني أحياها الآن بكامل وعيي وصدقي، سيما وأنَّ الزّمن لم يلتهم أدقَّ تفاصيلها بعد. سأبدأ لأنّها المرّةُ الأولى الّتي أستمعُ فيها لرأيٍّ مخالفٍ وأقتنع به رغم أنّه جاءَ على لسان ريمي الصّغيرة... لعلّي شختُ كثيرًا أو أصابني الخرف فانقدتُ

لرأيها بكتابةِ سيرتي كما أشارَت عليَّ مذ ولدتُ وحتّى اللّحظة، عوضًا عن تلك السّيرة الّتي ضاعت منّي في بنغازي.

كنتُ قد بدأتها يومًا بهذه العبارات: «ماتَ أعزُّ أصدقائي، مات مسمومًا فلم أستطع الثّأرَ له». وها أنا أبدأ بها مجدّدًا.

عانقني ابنه فورَ وصولي المشفى، وراحَ يبكي على كتفي بحرارة، حاولتُ أن أقولَ الكثير ممّا اعتلجَ في صدري حينها لكنّني توجّهتُ نحو سمير المُسجّى على طاولة الموتى مغلقًا الباب خلفي؛ واقفًا أمامه دون أن أقول شيئًا مهمًّا رغمَ أنّي تكلّمتُ معه كثيرًا، وعاتبته على رحيلهِ الصّادمِ كثيرًا، وبكيتُ كثيرًا... وقفتُ بعدها على قبرهِ أحدّث النّاس عن فلسفةِ الحياة والموت الّتي تحيّرني، وعن الإنسان الّذي يحضرُ فجأةً ويحيا دفعةً ويموت خلسةً، عن الأماني الّتي لا تتحققُ في كثيرٍ من الأحيان إلّا عند الموت.

اصطحبتهُ يومًا ***لميونخ***، تجوّلنا في مدنِها وأرصفتها الإلكترونيّة، وركبنا السيّارات النفّاذة، والغواصّات المكّوكيّة قبل أن نرتدي البذلات الطّائرة متوجّهينَ إلى مسرح ***السّينود*** مدركينَ أنَّ قهقهاتنا الّتي لم تتوقّف لا تتوافق مع الرّسمية الّتي علينا التّحلي بها تجهيزًا لأمسيتي المقامة على خشبته.

كان أمامي حينَ بدأتُ بالقراءةِ لكنّني لم أجده بعد دقائق، وتابعت القراءة رغم أنّه لم يعد، وشارفتُ على النّهاية، وأنهيتُ، وصفّقَ لي الجمهور، ولم يعد... رأيتني أثناء ذلك جالسًا في مكانه حيثُ يفترضُ به الجلوس، لقد رأيتني جالسًا بينما كنتُ ألقي شعري مِن على المِنبر. للحظةٍ شعرتُ أنّه تنكّر بهيئتي ممازحًا، ثمَّ عدتُ واختفيت مِن أمامي دون أن أعرف مَن اختفى مِن على ذلك الكرسيّ، أنا أم هو؟

خرجتُ أبحثُ عنه في أرجاء وخارج المسرح يصحبُني بعضُهم فلم نجده، اتّصلنا بالفندق وأخبرنا البوليس عن رجلٍ مضى على اختفائه يومٌ كامل فلم يجدوه ولم أجده.

كنتُ في الخامسةِ والسّبعين حين اختفى مَن يصغرني بأعوام، وقد عادَ طفلًا تاه في صخبِ المدينة، بينما عدتُ طفلًا لا يفكر، ولا يقرّر، ولا يعبّر... قضيتُ شهرًا في استراحةِ الفندق منتظرًا أيَّ شيء، دون أن أفكّر بشيءٍ سوى أنّني لا أريد سماعَ أفكار صادمة.

ثمَّ دخلَ فجأةً مبتسمًا وهو يدورُ ويحرّكُ يديه كمن يطير متّجهًا نحوي.

- صديقي أصلان.

فتحَ ذراعيه وراح يضحك بتصاعديّة جهوريّة وينادي: «يا صديقي، يا أصلان».

وقفَ أمامي فلم أنهض. الحقيقةُ أنّني نسيتُ أمرَ اختفائه وقلقي؛ كلّ قلقي عليه، فرحتُ أبتسم كأنّه عاد بعد دقائق من غيابه. تحسّس وجهي وقد أمسكه من جهتيه محدّقًا بي.

- أنتَ بخير؟ **قالها مُتلهّفًا.**

- بخير.

سحبني من يديَّ ورحنَا نرقصُ سويًّا كمجنونين في القاعة بينما راح يدندنُ لحنًا ***شُروقِيًا*** قديمًا.

- أين كنت؟

- هناك. **وأشار بشكل دائري للجهات.**

- أين هناك؟

- في مكانٍ ما.

وقفتُ فتوقّف ثمَّ تذكّرتُ غضبي منه فصحت به:

- أين كنت؟ لقد...

- هسسسسسسس يكفي أرجوك.

نظرَ باحثًا عن شيءٍ ما ثمَّ صاح:

- أنت، أنتَ أنتَ نعم، أحضر لي فنجانَ قهوة سادة، ولصديقي الجميل فنجان قهوة حلوة من فضلك و«بوجه»... ضع أكبر قدر من السّكر عليها، ثمَّ قم بتحريكها ثمَّ ضع ملعقتين من السّكر، ثمَّ وقبل أن تسكبها في الفنجان ضع ملعقتين من السّكر، ثمَّ ضع ملعقتينِ أُخريين في الفنجان واسكب القهوةَ عليهما، ولا يضيرهُ لو وضعت بجانب الفنجان القليل من السّكر.

- لستَ في عمَّان. **وأتبعتها بضحكةٍ طويلة.**

- آه، فعلا، مشكلة هؤلاء أنّهم أتقنوا كلّ شيءٍ إلّا العربيّة، قد يموت العربيّ هنا دون أن يفهمَه أحد. **مشيرًا للنّادل الّذي لم يفهم كلمة ممّا قاله.**

صاحَ في القاعة بعد صمت قصير:

- هل من مبارز؟ لا.. لا، أقصد: هل من مترجم؟

ظننتهُ مخمورًا بادئ الأمر لكنّه لم يكن كذلك، أقسمَ لي أنّه لم يضعها يومًا في فمه، ثمَّ أقسمَ ألّا يقول لي رغمَ تحايلي عليه سبب اختفائه المفاجئ.

- ولن أخبرك مهما حييت عن الأمر.

- إذن هي امرأة.

- هذا ضمن اختصاصك أنت.

- واختصاصك؟

- الغياب يا صديقي، الغياب.

التقينا في منزلهِ المتواضعِ بين أحياء فقيرةٍ بعد عودتنا وكأنَّ شيئًا لم يكن. وبعد حديثٍ عابر سألني فجأة:

- مَن سيحملُ الآخرَ لقبره برأيك، أنا أم أنت؟

- لمَ لا نموتُ سويًّا ونتركُ الآخرين يتولّون هذه المهمّة؟

ضحكتُ بينما دمَعت عيناه فجأةً ثمَّ قال بصوتٍ حزين.

- حدّثني عن أيّ شيء، عن أيّ شيء لا أعرفه عنك، أو لا تريد لي أن أعرفه.
أراد منّي أن أقول شيئًا ما تحديدًا حينها بيد أنّي لم أعرف مقصده.

- كتبتُ قصيدةً جديدة.

- لا... لا أريد شعرًا، حدّثني عن شيءٍ لم تتحدّث به، أيّ شيء.

- أتذكرُ حين دبَّ الشّجارُ بين عائلتي وعائلةِ زوجتي يوم زفافي في الفندق؟

- نعم بالتأكيد. **لم يظهر عليه أنّه يتذكّر الأمر أو سمعَ عنه شيئًا لكنّه قال ذلك مجاراةً لي وسط تعجّبي من ذاكرته الضّعيفة.**

- أنا من دبَّر الأمر.

ضحكَ معتدلًا في جلسته: «أنت؟».

- آخر ما كان في حوزتي حينها مِن نقود دفعتها للفندق، وأيُّ علاقةٍ جيّدة بيني وبين عائلتها أو علاقةٍ شبه جيّدة بين عائلتينا تعني اكتشافهم لحقيقتي فورًا، لذا وجبَت القطيعة فكانت بشكلٍ لم أحلم به وأتوقّعه، وكأنَّ الحظَّ يقول لي: أنا معك ورهن أمرك...«تستطيعُ أن تكذب على كلّ النّاس بعضَ الوقت، ولكنّك لن تستطيع أن تكذب كلّ الوقتِ على بعض النّساء».

- لكنّك كذَبت على زوجتك أعوامًا طوال قبل أن تصبح أكاذيبك حقيقة.

- لأنّها تختلف عن ذويها. هي لم تهتم لأمر المال يومًا، ولا تنتمي لجشعهم... كان يكفيها أن أحبّها لا أن تتفاخر بما أملك، فكلّ ما أرادت أن تملكه هو قلبي فقط، وقد امتَلكته.

- وكيف اختلقتَ ذاك الشّجار؟

- فهمُك للمقابل يعني وقوفَك على ما يغضبه، وأكثر ما يغضبُ الأثرياء السّلطويّين أن تتجاهلَهم في الوقت الّذي عليكَ فيه احترامهم، أو أن تعاملهم بإنسانيّة حين يَتَطَوَّسُونَ تحت الأضواء. لكنَّ الشّعرة القاصمة لظهر العلاقة

كانت بسبب مبارزةٍ رقصيّة بين أمي وأمِّها. لعلَّك لا تعلم أنَّ حلبةَ الرّقص أحيانًا تثيرُ النّعرات والكراهيّة بين الأقوام!

- ويبدو أيضًا أن ليلتك الأولى كان حلبةً للشّجار. **قالها على شكل استنتاج لما سمع وأردف ذلك بالضّحك.**

- بَكَت طوالَ اللّيل دون توقّف، لاعنةً حظَّها وكلّما حاولت الكلام صرخت بي: كنتَ تستطيع إيقافَ تلك المهزلة، قد كنتَ راضيًا عن إفساد أمِّك وعائلتها بعد ذلك حفل الزّفاف، أشعرُ لكنّني لا أعرف السّبب، قل لي ما هو السّبب؟

- وطَلبَت الطّلاق؟

- بل وأصرّت عليهِ بكامل قوّتها مستبدلةً ثيابها بعد أن قرّرت العودة لمنزل ذويها.

- لم تقل لي هذا مسبقًا.

- أنت طلبتَ أن أحدّثك عن شيء لا تعرفه.

- نعم. هو ذلك. **ضحك مجدّدًا.**

- كنتُ عازمًا ألّا أكذب مجدّدًا عليها طالما أنّني لن أضطر لبناء عالمٍ وهميّ من جديد وقد تزوّجت بها، لكنّني بعد أن يئستُ من إقناعها قلت في نفسي: «هذه المرّة فقط ثمَّ عد صادقًا».

الغريب يا صديقي أنّني كرّرت هذه الجملة في نفسي ألف مرّة، آخرها البارحة.

نسجتُ لها طبعا حينها قصةً خياليّةً عن سببِ الشّجار مُدَّعيًا توقّعي لها منذ البداية فلم أتفاجأ ممّا حدث، ولأنّها تحبّني، ولأنَّ المرأة إن أحبّت بصدق تصدّق كلّ ما قيل لها، وحيثُ إنَّ الكلام ظلَّ دافئًا فقد صدّقتني، واعدًا إيَّاها ألَّا أغضبها ما حييت بعد أن اختارتني بدلًا عن عائلتها... لكنّني أغضبتها مرارًا وقرأت بعينيها مرارًا تلك الجملة الّتي لم تتفوّه بها: «قاطعتُ أهلي واخترتكَ أنت، فلم تصن ودًّا ولا وفيتَ بعهدٍ قطعته لي». أو ربّما تحدّثت نظراتها بحديث أكثر عمقًا وتقريعًا فلم أفهمها.

تمنّيت أحيانًا أن تتفوّه بها كي أوضّحَ لها بأنّها تنحدرُ من عائلة تمتلك قلوبًا حجريّة، وددت مرارًا أن أسألها: هل أستحقّ فعلًا أن تقاطعي عائلتك بالكامل لأجلي؟ ألا تشتاقين لهم بعد مرور هذه السّنوات؟ ألم يشتاقوا هم لابنتهم؟ تمنّيت لكنّني كنت أخشى أن أرى رقَّتها تتحجّرُ يومًا أمامي إن فتحت بابًا كنَّا قد أغلقناه بعد حفل الزّواج مباشرة، فلم يُفتح من يومها.

تفاجأتُ بها يومًا وقد جلستْ على طاولتي بهدوء، وكأنّها هبطت من السّقف ملقيةً تحيّةً عابرةً بلطف على صديقتي الحسناء الّتي تجلسُ في حضرتي.

- لم أستطع فراقك فاضطررتُ أن ألحقَ بك لدمشق يا عزيزي. **قالتها وقبّلتني على خدّي.**

- لكنّني عدتُ من دمشق قبل قليل لألتقي مصادفةً مع صديقتي هذه في عمَّان. **والدّهشةُ تغمرني.**

- هل نحن في عمَّان الآن؟ غريب! **وجَّهت كلامها لصديقتي راسمةً الدهشةَ على ملامحها.**

طلبتُ لها فنجان قهوةٍ شاعرًا بالخزي، وحمرة وجهي تأبى أن تنزاح من سمائه، لتنسحبَ صديقتي بهدوء ململمةً أغراضها دون أن تنبسَ بحرف واحد؛ حاملةً صدمتها فوق كتفيها مما أخلّ بتوازنِ خطواتها مِن ثقلِ ما تحمل.

- هل هذه الفتاة العاشرة أم العشرون أم المئة الّتي خنتني معها؟

كنتُ سأكذب لكنّني للحظةٍ تراجعت، وأطرقتُ مليًّا.

- لم أخنك جسديًّا ولا خيالًا مع إحداهن، أنا أتحدّث فقط.

- ألا أصلحُ لحديثك؟

- لا. **قلتُها بعصبيّة وتوتّر.**

- لماذا؟ **وتكاد دمعةٌ تفرّ من عينيها وقد ابتلَعت غصّة تخنقها.**

- لأنّك لم تصدّقي إلّا أكاذيبي.

هذه أصدق كلمة قلتها لحنان مذ أحببتها، وكأنّني حينما تفوّهت بها كنتُ أشعرُ بوقعِ كلّ حرف فيها، فقد كانت تصدّق ما تراه بعينها لا قلبها، وما تُريد أن يقالَ لها، فكأنّها الرّغبة بإجبار المقابل أن يُرضينا، لأنّنا نريد ذلك، فإن تملّكنا الشّك ونفينا أفكارَ المقابل لم يصدّقنا لأنّنا لم نقل ما يتناسب مع تقييمه للموقف، أو ما يريده تحديدًا.

أمّا تلك الصّديقةُ فقد جلستُ معها لأنّني أريد من يمدُحني كما أريد، إذ كنت مغمورًا أبحث عمّن يتحيّز لي ولقلمي، لا من يعاملني بإنصاف المستوردِين لآرائهم عبر الغير.

- هذه صديقة فقط. **أتبَعتُ هذه الجملة بما سبقها بعد صمتٍ قصير استطاعت فيه أن تتمالكَ أعصابها وتستردّ رباطة جأشها.**

- هل تقبل أن أصادق؟

- لا.

- هل تسمح أن تطلّقني؟

- لا.

- لم؟

- لأنّني أحبّك.

قاطعني بعدها سمير باكيًا دونَ أن أدركَ ما الّذي يفكّر به، فقد بدا غريبًا أثناء رجوعنا، وأغربَ حين التقينا. لا أعرفُ ما السّبب وراء تغيَّر ملامحِ سمير حينها! بل وتغيّر صوته فكأنّه بدا رجلًا آخر! قد أقولُ بأنّه أصبح يشبهني أكثر مما يشبهُ نفسه، كدتُ أن أسألَه أو أقولَ له شيئًا، بيد أنّه سبقني قائلًا:

- هل أنت بخير؟

- أشعرُ أنّني كذلك إن لم أكن مخطئًا، لكنّني الآن أشعرُ أنّك أنت لست بخير.

- صديقي أصلان.

- قل. **صمتَ ولم يتحدّث بعدها»...**

(9)

كواليس

هذا النّص غير المكتمل حيّرني بدايةً لأنَّ أصلان عندما وصف بيت سمير وصفه بالمتواضع والقابع بين أحياء شعبيّة؛ بينما هو ذاته مَن حدّثني قبلها وبعدها عن سمير الثّريّ السّاكن في قصرٍ ما، لكنّني كعادتي كنتُ أحيلُ السّبب لهذه التّناقضات أو الأشياء غير المترابطة والمنطقيّة للحالةِ النّفسيّة والفكريّة له، خاصّة أنّني لطالما تجنّبتُ مقاطعتَه أو تنبيهَه لنقطةٍ غير منطقيّة خشيةَ أن يغضب أو يصمت ويرفض متابعةَ السّرد كعادته؛ رغم فشلي بهذا كثيرًا وندمي على تدخّلي وتطفّلي.

توقّف ذلك النّص عند جملة «صمتَ ولم يتحدّث بعدها» وهي الجملة ذاتها الّتي قالتها لي سيلا إذ وجدتُها أمامي فجأة؛ وقد تسمَّرت بعينينِ حزينتين واقفةً بوجهها السّتيني الّذي لفظَ تجاعيدَه للخارجِ دفعةً واحدةً بين ليلةٍ وضحاها.

- قلتِ: لن يتحدّث؟

نَظَرَت إليهِ طويلًا قبل أن تلتفتَ نحوَ ساعةِ الحائطِ الواقفة ثمَّ نحوي، قائلةً بصوتٍ حزين:

- لعلّها توقّفت للأبد.

تحدّثَت بالعربيّةِ وسط دهشةِ مخاوفي الّتي احتلّت جميع أطرافي، فلم أجرؤ أن أنظرَ نحوها خشيةَ أن تلتهمَني.

مرَّت صورةُ باف من أمامي، مرَّت بعينيه الوقحتين مرّةً، وعينيه المعصوبتين مرّةً أخرى. مرَّت بصوته مستهزئًا وبنبرةٍ وقحة، وبصوته مستغيثًا وقد راح يتخبّط في ممرّات المشفى فاقدًا عينيه بحالته الجزعة الفظيعة.

- كنتِ وراءَ ذلك؟ **قلتها وقد ابتلعتُ رجفتي عبر مساماتي وجاهدت والعرقُ يتصبّب منّي كي أبدو طبيعيّة.**

- وراء ماذا؟

- ما حصل لباف؟!

- أفعالهُ من كانت وراءَه لا أنا.

- أنتِ من حرَّضه على الاستهزاء به.

- بل مَن حذَّره أن يفعل. **رافعةً كتِفيها بتعجّب.**

لم أكترث لما حدث مع باف قبل هذا. لم تشغلني الأقاويل بربط حادثةِ الاستهزاء بفقدهِ لعينيه، وإحالتها للسّحر والسّحرة في اليوم التّالي. لم أكترث منذ إقامتي في مسكني والمشفى لشيءٍ قبلها أو بعدها إلّا لهذا الممدّد أمامي، و ها قد دخلَ في غيبوبةٍ قد تكون الأخيرة.

مرَّ بجانبي يومًا مُكبَّلا، وقد نقل من السّجن لمشفى الجزيرة قبلَ يومٍ واحد مِن ترجمتي لقصيدةٍ له على مسامع دن، وباف، وسيلا. مرَّ بجانبي ولم أحفل بملامحهِ الضّائعة أثناء اقتيادِه أو جرّه في عربةٍ متحرّكة إلى غرفةِ الإدخال.

- تعجبني هذه القصيدة، أشعرُ أن قائلها يمتلك أجنحةً يحلّق بها في أوطانكم. **قالتها سيلا منتشية آنذاك.**

- لعلّه يمتلكُ كلّ شيء.

- لا أعتقد... من يعادي الجزيرةَ وحاكمها لا يمكن له امتلاكُ كلّ شيء. **انقلب حالها فجأة كمن تذكّرت أنّه لا يحقّ لها أن تعجبَ بشاعر مثله.**

- ربّما.

أجبتُ بهذه حين كنتُ أرتعب من تفوّهي بحرفٍ قد لا يروقُ لها، وحرصتُ في اليومِ التّالي أن أتحدّث بما يروق لها فقط قبل أن يشيرَ دن إلى أصلان الّذي لم أنتبه أنّه مرّ من خلفي.

- سجين آخر؟

- قل: ميتٌ آخر. **صرّحَت بهذا سيلا.**

- ما الهدفُ من علاجِ قتلةٍ ثمَّ إعدامهم؟ **ربّما حاول هنا دن مجاملة سيلا.**

- ليموتوا بصحّةٍ جيدة. **قالها ضاحكًا باف.**

- أتراهنون بأنّ هذا الرّجل ليسَ جنديًّا؟

لم يكن جنديًّا، بل شاعرًا وجدتُه جالسًا في المقعدِ المتحرّك مغمضَ العينين شارد الذّهن... استوقفتني عيناه بالكامل لحظةَ أن نظرَ لي مصرًّا أنّني من وطنه. **{أعرفُ هذا الرّجل، لقد التقيته من قبل في مكان ما}.**

كان يعرفني، نظراته لي توحي بذلك، ثقتُه بعد صمتٍ طويلٍ بكلمات وجّهها إليّ توحي بذلك. دهشةُ حارسه الّذي اقتاده للمشفى، والّذي أقسمَ أنّه لم يتحدّث يومًا توحي بذلك. **{أعرف هاتين العينين، وهذا الصّوت كما أعرف نفسي}.**

راح ينقل بصره بيني وبين سيلا بغرابةٍ ودهشة بعد نظرات برودٍ عابرة تظاهرَ بها، لكنّني لم أكترث لهذا، ولم تسترد مخيّلتي هذه النّظرات إلّا بعد أن شعرتُ باهتمام سيلا المفاجئ به.

جاؤوا به من البحر، اقتادوه للسّجنِ مباشرةً كتاجرٍ بشريّ، فاستسلمَ لواقعهِ الجديد ثائرًا بالصّمت بين جدرانه الأربعة.

وجدَ نفسه معروفًا دونَ أن يعلم من معروف هذا؛ وقبلَ أن يجدَ وجهًا تلبَّسَ وجهه دون أن يراه، حتّى إنّه راح يقنع قلمه بأنّه ليسَ معروفًا كلَّما التجَّ عليه، أو خانته العبارات. أمَّا ما مرَّ من أعوامهِ الكثيرةِ أو مرضهِ فلم يشفعا له بالإفراج عنه أو حتّى إعدامه في جزيرةٍ يعدُّ الموت أسهلَ ما يحدثُ فيها.

نشبت الحرب بسبب المياه، والطّاقة الشّمسيّة والهوائيّة، ثمَّ تحوّلت لتصفيةِ حساباتٍ بين دولٍ منهارةٍ وعلى وشك الانهيارِ ودولٍ نهضويّة، ليجيء دورُ الدّكتاتور الّذي أطالَ عمرَها بغيةَ تفريغِ بعضِ البلادِ المهزومةِ من سكّانها لاحتلالها يومًا... قيلَ بأنّه جُهِّزَ للسّلطةِ مِن قبلِ ولادته؛ ثمَّ نقل للجزيرة طفلًا حتّى غدا الحاكمَ لها دون منازع.

سألتُ سيلا يومًا: هل تحبّون زعيمَكم؟

قالت ضاحكةً: مع أنّه ليس زعيمنا لكنّنا خُلقنا لنحبَّه.

لم أفهم مقصدَها من هذه الجملةِ بصفتها سنباريّة، سيما وقد استمعتُ كثيرًا لأحاديثها مع باف شاتمةً زعيمَها كارهةً دفاعَ الآخر عنه؛ متعجّبةً بيني وبين نفسي كثيرًا من قاتلٍ ينتقدُ قاتلًا يشابههُ بالهواية ذاتها: هوايةِ القتل المجّاني.

- ألم يقتلوا أبناءنا؟

- وهل كان عليهم أن يشكروكم لقتلكم أبناءهم؟

هذا هو الجواب الّذي كان يُخرسها بعد كلّ حديثٍ بيننا؛ أي إن انتقدتُ قسوتها مع أسرى الحرب المرضى، قبل أن يبدو الجفاءُ الشّجاعُ ظاهرًا بيننا فورَ تيقّني أنّها وراء موت الكثيرين منهم.

تيقّنتُ بحتميّةِ إجرامها حين راح يحدّثني دن عن الحقنةِ الّتي ماتَ صاحبُها وهو بانتظارها، فحصلَ عليها بعد موته... ظننّا أنّها القسوةُ والكراهيةُ فقط دون أن تترجمَ اليدان ما تبديه النّفس، لنجدَ بأنّنا نجهلُ ما يعلمه الجميع، ويصمت عنه الجميع، ويرتضيه الجميع. فاليدان هما نقشُ النّفس المحبوسِ على الملموس من الأشياء.

حدّثتني بالعربيّةِ وسط دهشتي وحيرتي ووجومي، وغادرَت المشفى دون أن يعرفَ أحد سبب اختفائها المفاجئ.

لم يعرف أحدٌ إلى أين ذهبت دونما عودة؟ أو أينَ اختفت؟ لكنّها رحلَت يومها بألفِ سؤالٍ وحيرةٍ قاتلة، تاركةً كلّ شيءٍ خلفها بما في ذلك حقيبتها الفارغة.

{حمقاء أنتِ حين تجاهلتِ اهتمامها به من خلفِ الكواليس، إذ لطالما وقع بصرك على فحوصاتهِ وحالته بين يديها لشهرين على الأقل. لطالما وقفَت خلف بابِ غرفته بعد ذلك، ولطالما صادفتِها أمام ذات الباب. حرصتِ عليه منها خوفًا أن تقتله، لكنّك تجاهلتِ بأنّها لم تفعل وكان باستطاعتها ذلك. لقد وقَفت بجانبك حين حادثكِ أوّل مرّةٍ بعينينِ ساخرتين قبل أن تتحوّلا لعينينِ فضوليّتينِ ثمَّ حزينتين... صدَّقتِ نفيَه للحديثِ معها رغم أنّ عينيك رأتا كلّ شيء، ثمَّ تناسيتِ الأمر كأنّ شيئًا لم يكن، وها هي الآن تغادرُ وكأنّها جاءت من أجله لتضعَك في غيبوبة الحيرة؛ مزامنةً مع غيبوبته الّتي قد لا ينهض منها}.

سيلا تحبُّ الشّعر، بل وتهتم بأشعارهِ المترجمةِ دون غيره حتّى إنّها كانت تحفظ الكثير منها قبل مجيئي. تلطّفها معي بدايةً كان بسبب اهتمامنا المشترك بالشّعر... أيعقلُ أن يكونَ قد عرَّفها على نفسهِ حينها وصدَّقته فأحبّت أن تستمعَ لشعره؟ لكنّها تتحدّث العربيّة! كيف ذلك؟ أكاد أجنّ ممّا حدث بقدر جنوني من حماقتي.

{انهض، قل شيئًا، أيَّ شيء... ما هو الرّابط بينكما؟ ما السّرُّ الّذي لا أعرفه عنكما؟ سرَّكما؟ كيف لقاتلةٍ مثلها أن تقتربَ من شاعرٍ مثلك؟ لماذا حزنت عليك؟ لماذا غضبت بسببك؟ لماذا غضبت منك؟ لمَ زرعَت متقصّدةً حقلًا من الشكِّ في صدري قبل لحظاتٍ من رحيلها؟ لمَ أرادت لي أن أعرف أنّها تعرفك جيّدًا؟ وأنّها تتحدّث العربيّة بطلاقة؟}.

المشفى كساعةِ الحائطِ في غرفته لا حركةَ فيه رغم ما فيهِ من شخوصٍ تتحرّك، لكنّه الخواء الّذي يسكنني مجدّدًا، وكأنّني وصلتُ إليه الآن من سفري حائرةً خائفة. وحده دن من يجالسني سائلًا عن مريضي الغارقِ في غيبوبته، أو عَن سيلا الغائبة مُقسمًا أنّها لا بدّ قد قُتلت على يد أحد أقرباء الضّحايا بطريقةٍ ما.

- جميع فحوصاته سلبيّة، معجزةٌ أن يستمرّ.

- استمرّ سابقًا، فما أدراك؟ هل كنتَ تعلم أنّها تتحدّث العربيّة؟

- كلا، ولم أشاهدها في غرفته إلّا تلك اللّيلة الّتي أخبرتك بها... كرّرت هذا ألف مرّة يا صديقتي.

- أكاد أجنّ.

- تضخّمين الأمور بغرائبيّة. هوّني على نفسك.

- وأنتَ بارعٌ بتقزيمِ أيّ شيء.

- ربّما... ومع ذلك أعتقد أنَّ مريضَك ساحرٌ استطاعَ أن يسحرَ سيلا بشكلٍ أو آخر كما سحرَكِ.

- سحرني؟

- جلوسك بجانبه طوال الوقت... كتابتكِ لتفاهاته وهذيانه... ما الّذي يمتلكُه معروف هذا كي يخبر النّاس عنه إن لم يكن مشعوذًا؟

- ليس معروفا، هو أصلان... دعكَ منه وقل لي: هل تمتلك أنتَ شيئًا قد تُحدّث النّاس عنه يومًا؟

- لا أظن. **قالها بعد تفكير عميق.** هل يمتلك هو؟

- جميعنا نمتلك، لكنّنا في الغالبِ لا نبرعُ بتقديم ما نملكه لمن يستحقّ.

- تقولين هذا تأثّرًا بعربيّته على ما أعتقد.

- وسيلا؟

- لأنّه سحرها.

- سحرَها مجدّدًا؟!!

- تمتلكُ قلبًا صخريًّا، بل لا تمتلك قلبًا البتّة... ثم فجأةً ينبلجُ عن صدرها قلبٌ تتفجّرُ فيه الدّماء والنّبضات؛ لتغادرَ المشفى باكيةً _كما وصفتِ أنتِ لي_ وتظلّ مختفيّةً لا يعرفُ مكانها أحد حتّى اللّحظة.. لقد سحرها يا صديقتي ونفاها من المشفى... هذا الرّجل يمتلكُ قدراتٍ خارقة بدليلِ فحوصاتهِ الّتي لا تتوافق مع حالته الصّحيّة.

- ليس مشعوذًا يا دن ولا ساحرًا.. أقسم على هذا. **وقد تملّكني الضّيق وعزمت أن أغادر المكان.**

- وما السّرّ في تغيّرها إذن؟ لقد توقّعتُ أن تقتلَه كما قتلت غيرَه حين أبدت من اللّحظة الأولى نفورها منه، وفجأةً تغيّر هذا الحال فرحنا نراقبُ اهتمامها بفحوصاته ودراسةِ حالته. أنتِ لم تسمعي شتائمها البذيئة حين راحت توجّهها لأجهزة الخلايا الّتي تزيدُ من حيرتها كلّما أرادت تحديد سِنّه.

- سِنّه؟

- لا أعلم ما الّذي يغضبها في كونه ناهزَ السّتّين من عمره؛ مؤكّدةً أنَّ الفحوصات تثبتُ ذلك... قلتُ لها: «وهويّته أيضًا، ما الجديد بذلك؟». حينها ضربت على الطّاولةِ وشتمتنا جميعًا بمعيّة الأجهزة.

قالت لي هذه الجملة سابقًا فلم أعرها اهتمامًا لعدمِ ثقتي بها، وبأيٍّ مِن موظّفي هذه الجزيرة ومَن عليها؛ وتكذيبًا لعلمٍ حديثٍ _مهما كان دقيقًا_ يصدرُ من مسلخٍ بشريّ على هيئة مشفى كهذا لإثباتِ أو نفيِّ عمرِ شخصٍ أعرفُه أكثرَ من نفسي. هي محاولات بائسة لم تسفر عن نتيجة حقيقيّة.

الجميع يكذبون لأسبابهم الكثيرة، ولأعذارٍ اختلقوها مبرّرين تزوير الحقائق، والجميع يحاولون منذ القدم الميلَ للخرافاتِ إن تعلّق الأمر بشيء لم يفهموه، واستعصى على عقولهم.

ما يحيّرني في حديث دن أنّه حدّثني باللّهجة والنّبرة ذاتها الّتي كنتُ ألمسها في حديثِ سيلا عن شاعري، أي نبرة الكراهيّة والفضول، نبرة الحبّ والحقد في آن واحد، نبرة الخوف منه وعليه.

لولا بدانتي وعدم انجذاب الرّجال لي لقلت بأنَّ دن يغار عليّ من أصلان، ويكره وجودي المستمرّ بجانبه، واهتمامي به، لكنَّ كراهيّته الواضحة قذفَت أمام عقلي ألفَ سؤال بلا إجابة أيضًا! **{لعلّه يغارُ على البديناتِ فقط لأنّه بدين أيضًا؟}.** طردتُ هذه الأفكار السّخيفة من داخلي بعد أن قفزَت إلى ذاكرتي صورتُه وهو يقفُ يومًا أمامَه مُحدِّقًا به بكافّة جوارحه. لم ينتبه لوجودي حينها إلّا بعد أن ناديته لأكثر من مرّة ووخزته بسبّابتي في خاصرته آنذاك لينتبه. وضع يدَه فزِعًا على قلبه جرّاء خوفه الّذي برّرَه بأنّه خالني سيلا؛ فصدّقته دون أن أعيرَ الأمر اهتمامًا، لكنّني لا أصدّقه الآن جازمةً أنَّ سيلا ودن أخفيا شيئًا مشتركًا عنّي، أو أنّهما احتفظا بأشياء لا أعرفها لسببٍ ما، سيما أنَّه لطالما رفضَ رغم فضولي الشّديد أن يُطلعني على سرّ علاقته مع مدير المشفى الّذي يجتمعُ به دون غيرِه في مكتبهِ لساعاتٍ أحيانًا.

- ولمَ تظنّين أنّني الوحيد الّذي يجلسُ معه ويستشيره في أمور المشفى؟

- لأنّك الوحيد فعلا.

- كلّا. أرى أنّه يستدعي الجميع ويجلس معهم على الدّوام.

- يجتمع معهم بشكلٍ جماعيّ لا على انفراد.

- هذا تحقيق؟ **ضحكَ بعفويّة.**

- هذا فضول ترفض أنتَ أن تقضي عليهِ في داخلي.

رحتُ أتقلّب في سريري أكاد أجنُّ والتّساؤلات تجلدني بقسوة: مَن سيلا وما علاقتها بأصلان؟ بل ومَن دن؟

مَن دن الّذي يكره أصلان لهذا الحدِّ ويتلذّذ بتكذيبه ونعته بالسّاحر؛ وشيطنته رغم تسامحهِ فطريًّا مع أرذل المخلوقات على وجه الأرض؟ من بينها الصّراصير! كيف لهم أن يعرفوا أشياءَ عن شاعرٍ تائه لا أعرفها أنا؟ بل ما هي الأشياء الّتي يعرفونها؟ ولماذا يعرفونها؟ وما هو الرّابط بين ثلاثة شخوصٍ عاشَ كلّ منهم في وطن مختلف بأزمان وأمكنةٍ وظروف مختلفة ومتباعدة؟!

لم أعد أفهمُ شيئًا... أم تراني فهمتُ الكثيرَ من الأشياء أهمّها بأنّني لست أنثى مرغوبة من الرّجال، وبأنّ حجمي لا يتناسب مع قلبي بتاتًا، عدا أنّه لا يتناسب مع مَن هم في حجمي أيضًا.

المرّةُ الوحيدة الّتي رأيتُ فيها نظرةَ رجلٍ تحاصرني كانت من ستينيّ يرقدُ على سريرٍ في مشفى الوطن. تحاشيتُ نظراتِه الأولى الوقحة متمنّيةً أن تتلوها نظرةٌ ثانية، ورابعة، وعاشرة، ثمَّ سمحتُ له بتفحّصي بالكامل، سمحت

لعينيه بالتهامي بالكامل، ثمَّ رحتُ ألامسه بنهدي أثناء الفحص سامحةً له أن يقترِبَ ويبتعد، ثمَّ أن يمرّر أصابعَه على يديّ وذراعيّ ورقبتي.

تمنّيتُ أن أرقصَ عاريةً أمامه، أردتُ ذلك بشدّة، فكّرت بالأمر كثيرًا، وانتقيتُ الموسيقا اللاّزمة، والسّاعة المناسبة غير أنّي لم أفعل... وددتُ ذلك ولو عرف جميعُ أهل الأرض بما قمت به، بل لطالما حلمتُ أن أحظى بهذه الفضيحة على الملأ؛ لذا أضمرتُ أن ألقمَه نهديّ ليشربَ من سراب حلمتين غير مرغوبٍ بهما، مُعيدًا لهما الصّبا وقد ذبلتا من الإعراض والصّدود عنهما.

أشتاقُ لتلك الدّماء الّتي كانت تنتشرُ في مستنقعات جلدي حين أرى لهفته وشبق نظراته، أشتاق للحَيرةِ بين الفضيلةِ والرّذيلةِ، وصراعي بين قتلي لأنوثتي، وقتلي لأخلاقي... لكنّه حين شدَّني إليه دفعته رافضةً صافعةً صارخة... رحتُ مولولةً بين ردهات المشفى خائفةً من مريضٍ مسن أراد التّحرش بي... **{حمقاء، أنتِ حمقاء... ما الّذي تفعلينه؟ ما الّذي جرى لك؟}**. فعلتُ هذا لأنّني بحاجةٍ لأن أقول للجميع بأنّني أنثى. أردتهم أن يعلموا بالدّليل القاطع أنّ رجلًا ما اشتهاني، أنّ رجلًا أرادَ ممارسة الحبّ معي لأنّني أستحقّ ممارسة الحبّ، أنّ رجلًا ثارت غرائزه بسببي.

فضَّلتُ الخبرَ على الحدثِ نفسه، فلم يكترث أحدٌ بالخبرِ أو الحدث... فضّلتُ الأصابع الّتي قد تشير نحوي بأنّ هذه مَن تعرّضت للتّحرش؛ على الأصابع المتحرّقة للعزف على جسد يتحرّق شوقًا لهما؛ فلم أظفر بأيٍّ منهم.

غادرَ المشفى تاركًا سريرَه الّذي لم يشهد عناقًا ولا قبلةً كجثّةٍ هامدةٍ أحملها على ظهرِ عينيّ دون أن أتمكّن من تشييعها إلى قبر رغباتي، غادرَ بعد أن رفضَ الجميع تناقلَ تلك الفضيحة وكأنّها خبرٌ عابر لا يستحقّ السّخرية منه

على أقلّ تقدير أو حتّى التنّمر على طرفيه، وكأنّهم لم يصدقوا أنّني أنثى قد يشتهيها رجلٌ ما يومًا.

هذا ما قام به سند أيضًا حينَ لم يسألني إن كان العجّان وأولاده قد اغتصبوني، مع أنّه سألَ جميعَ الضّحايا هذا السّؤال الجميل.

ماذا لو قلتُ هذا في التّحقيق؟ كان عليّ أن أقولَه لأثبتَ للجميعِ بأنّني محطّ اشتهاء أيضًا... ليتهم فعلوا ذلك، ليتهم فعلوها لأتساوى في دور الضّحيةِ مع الضّحايا في يدِ من لا يرحم كي أبدو ضحيّةً طبيعيّة.

العجّان كان ضخمًا، طويلًا، شعره الأبيضُ النّاعم أبرز ما فيه، لكنّه بدا أضخم مما كان عليهِ في قاعةِ المحكمة الّتي حوكم على جرائمه فيها؛ خاصّة إن تمسّك بقضبان القفص أو تحرّك بلهوجته المقصودة مصرًّا على أنّه الوحيد المسؤول عن ارتكابِ تلك الجرائم الّتي وُجّهت لأولاده.

- اغتصبتُ، وخطفتُ، وسرقتُ وحدي. وتاجرت بكلِّ شيء وحدي، كلّ شيء سيّدي وحدي، ولو كان باستطاعتي الآن أن أسرقَ المطرقة الّتي بين يديك وأبيعها لفعلت، أنا أعترف بأنّني الشّيطان نفسه. **وجّه كلامه للقاضي حينها.**

أُخرِسَ مرارًا كما أُخرسَ الحضورُ المتفاعل مع تعليقاته وتصريحاته الغريبة بين شاتم وضاحك.

- أنتَ متّهم بتشكيل عصابة وظيفتها... **وجّهَ له القاضي هذه الجملة الّتي لم تكتمل بسبب مقاطعة العجّان له.**

- وهل العائلةُ عصابة يا سيدي؟ إذن نحن في بلدِ العصابات الكبيرة، إنّهم أولادي، جاؤوا من هذه التّعيسة. **وأشار لزوجته الجالسة في القاعة غير متبيّن من**

مكانها جيّدًا. عبرَ عقد زواجٍ شرعيّ، وعلى سنّة الله ورسوله حضرهُ مأذون وشاهدان فاسقان.

- أنَّا أحذِّرك من...

- حذِّرني من الآن حتّى يوم القيامة فلن أحظى ببراءتي لأدبي، ولن تصفح عنّي لو رقصتُ لك في هذا القفص. **وحرَّك يديه وخصره رافعًا قدمه اليمنى قليلا عن الأرض ببراعةٍ متناهية متناسقة كمن يرقص.**

كثيرًا ما أجِّلت القضيّةُ جرّاء هذه الحوارات والشّهادات المشابهة، وعدم القدرة على ضبط لسان العجّان سيما حين تنثال البذاءةُ من منه بتلقائيّةِ عمليّة تنفّسِه. وكثيرا ما عُقدت تلك المحاكمات بسريّةٍ حفاظًا على هيبةِ القضاء غير أنّ أهالي الضّحايا والرّأي العام مَن ضغطا على القضاءِ لتكون المحاكمة أمام الملأ الغاضب.

- هو اعترافٌ إذن؟

- لم أنكر مذ قبضتم عليّ شيئًا، لكنّني لم أقتل أحدًا.

- هذا ما ستقرّره هيئة المحكمة.

- بل هذا ما أقرّره أنا، أنا أعلمُ بنفسي منكم، أنا المتّهم وأعترف بأنّني فعلتُ كلّ شيءٍ باستثناء القتل، أنتم تُلصقونَ بي جريمتيْ قتل لم أقم بهما... أنتم تشوّهون عمدًا سمعتي وتنالون بعنجهيّة الجاهل من تاريخي... لماذا أقتلُ يا سيّدي نسوةً قدّمن لي المال والجسد والاهتمام؟

- الاهتمام؟

- طالما أنّك الأقوى فأنتَ صاحب القرار.

تابعتُ أغلبَ جلساتِ المحاكمة. وتلاقَت عيناي بعيني العجّان وميمون كثيرًا... قابلت شهد وجلستُ بقربها في كثير من المرّات دون أن نتحدّث. لم تبدِ حزنًا أو مشاعرَ رقيقة أثناء شهادتها الّتي تساعدُ على إثباتِ أكبر كمّ مِنَ التّهمِ على ذويها بعد أن عقدت ووالدتها صفقة مع المحقّقين لذلك... فعلت ذلك الأمّ أيضًا معترفةً عليهِ وعلى أولاده... صرخَ بها العجّان حينها: منحوسة، تزوّجَت بمنحوسٍ وأنجبت مناحيس.

قيل إنّ الشّهادات السّريّة للضّحايا برَّأت ميمونًا الّذي لم يخرج من السّجن رغمَ تبرئتهم له من حوادث الخطفِ والاغتصاب، إذ اقتصرَ دورُه في كلّ ما حدث على السّكوت، أمّا المحاكمات العلنيّة فبدت أنّها لن تنتهي بعد أن تشجّع الصّامتون بتقديم شكاوى جديدة بحقِّ تلك العصابة.

- وأولادك؟

- خيرُ خلفٍ لخيرِ سلف.

ضحكَ الحضور من جوابِ العجّان الّذي راحَ ممسكًا بالقضبان كمن يريد الخروج منها.

- وأولادك؟ **بحديّة الآمر المشمئز.**

- لا ذنبَ لهم.

- في القتلِ؟ أم الاغتصاب؟ أم الخطف؟ أم السّرقةِ؟ لا ذنب لهم بماذا تحديدًا. **قالها مدّعي النّيابة مستهزئًا.**

- لا ذنبَ لهم وقد ولِدوا لرجلٍ اسمه رضا العجّان وامرأة تسمّى ***صفيّة الكيس***... لو ولدوا لأبيك لكانَ أحدهم مكانك الآن. **أشارَ للقاضي حينها.** حتّى الكئيبة. **أشار لزوجته.** فقد كان بإمكانها أن تتزوّج من سافلٍ غيري، سافلٍ أقلّ سوءًا وشرًّا، لكنّها مُنيت بي فجاءَ هؤلاء نتيجةً لالتقاء التّعساء والسّفلةِ على ظهرِ هذه الأرض... أليسَ «لكلِّ فعلٍ ردّة فعل تساويه بالفعل؟».

ندّت عن أحد الحضور جملة «في المقدار» همسًا كمن يصحّح له فأشاحَ بيدِه أن اخرس قبل أن تقاطعه مطرقة القاضي الّتي أتبعها قائلا:

- أنتم متّهمون..

- أعرف ما تهمتي تمامًا، لكنّني لم أقتل أحدًا. **قاطعه العجّان فابتلع الضّجيج بضع كلمات من القاضي فتدخّل حرّاس القفص لإسكاته.**

- كلّ الأدلّةِ...

- كلُّها طاردتني أعوامًا وأعوامًا وأكثر دون أن تحصلوا عليها، وها هي الآن بين أيديكم بسبب سيف اللّعين. **استطاع أن يقولَ هذه الكلمات رغم تضييق الخناق عليه من قبل الحرّاس.**

كثيرًا ما ذكر سيفًا في المحاكمة، وكثيرًا ما راح ينظرُ باتّجاه الحضور كلّما ذكره كمن يتوقع مجيئه، ثمَّ يضرب على القضبان برأسه أو يديه مستأنفًا حديثَه.

قبل المحاكمةِ الأخيرة جلستُ بجانب شهد الّتي بدت مبتسمةً بغرابة... نظرت إليّ كمن تفاجأت من جلوسي بجانبها ثمَّ قالت:

- غريبٌ عالم الرّجال هذا.

- والنّساء أيضًا.

- والنّساء أيضًا نعم، لكن عليَّ ألّا أقول هذا، مَن هي مثلي كان عليها أن تفهمَ كلّ شيءٍ عنهم فلا تتعجّب بعد ذاك من تصرّفاتهم.

- رجالُ القانون قساة.

- لا أتحدّث عنهم، بل عن هذا. **وأشارت لشابٍ يجلس أمامنا في قاعة المحكمة.**

- ما غريبه؟

- يريد الاقتصاصَ لنفسه من خلال والدي. حضرَ ظنًّا منه أنّ هذه المحاكمة مَن ستنصفه. **ضحكت فاستدار الجميع نحوها إلّاه.**

- أحدُ ضحاياكِ أم ضحاياهم؟ **قلتها ببرودٍ استغربتُ منه ذاتيًّا.**

- آخر ضحايّاي.

- آخرهم؟

- بدأت أشعر أنّك صديقتي. **ضحِكت ثمَّ تابعت.** لقد أخبرتكِ عنه.

- أخبرتِ الجميعَ عنه.

- وفصَّلتُ لك. **قالتها بنوعٍ من السّخرية لم أفهم مغزاها.**

- نعم فصَّلتِ لي على ما أعتقد. **قلتها من باب المجاراة.**

- لم أفصِّل، قلتُ ما قلته لك استدرارًا لعطفكِ أيّتها البلهاء.

- لكنكِ لم تفعلي، بل أثرت اشمئزازي حينها... أنتِ الآن خارجَ تلك القضبان لأنَّ جسدك من استدرّ عطف المحقّقين لا عطفي.

ضحِكت مجددًا ثمَّ مالت على أذني قائلة:

- هل أخبرك أحد يومًا بأنّك شجاعة؟

- وهل أنا كذلك؟

- نعم، قد رأيتك في البيت، وفي المركز، ولم تكوني خائفة.

- هل كان عليّ أن أفعل؟

- فتاةٌ مخطوفة كان عليها أن تخاف. **قالتها بنبرة جديّة.** بل وألّا تجلسَ بجانبي الآن، عليكِ أن تخافي منّي، فأنا ابنة الأشرار. **وكوّرت كفّيها حولَ فمها نافخةً الهواء في وجهي مصدرةً عواءً طفوليًّا.**

- هل ضاجعكِ بعنف؟ **أشرتُ نحوه.**

لم يصدمها السّؤال بقدرِ طريقتي بطرح السّؤال الّتي بدت تذكيرًا بحقيقتها... نَظَرت لظاهرِ كفّها بتمعّن وقد راحت تقلِّبُه ثمَّ لعيني مباشرةً بحدّةٍ قائلة:

- أمَّا هذا فلا.

- رقمٌ زائد أو ناقص لن يضيرك بالتأكيد. **حاولتُ إغاظتها بذلك.**

- أنا من كنتُ أختار.

- المُشتري أم الضحيّة؟

- أن أكونَ فَريسةً أو مُفترِسَة.

لا أعلم ما الّذي دفعني لأن أحادثَها بهذه الطّريقة بالرّغم من أنّي لم أكِنّ لها أيّ مشاعرَ سيّئة، سيما وأنّني لم أخف منها مطلقًا. لا أعلمُ ما الّذي دفعني لاستفزازها أحيانًا وتذكيرها بحقيقتها بين الجملةِ والجملة... لعلّها متعةُ البذاءة حين ندلي بها فقط من دواخلنا عبر لسانِنا بلا هدف!

قبل أن تُستأنفَ المحاكمة بوقتٍ قصير عادت للجلوسِ بجانبي؛ إثر مرورها وتحديقها المبالغ به بعينيْ الشّاب الجالسِ في مكانٍ قريبٍ من القفص، وقد طأطأ رأسَه في النّهايةِ هروبًا من نظراتها.

- غبيّ، كم أودُّ أن أصفعه.

- بماذا يختلف عن الآخرين؟ الجميع هنا للاقتصاص منكم، هو ليس الوحيد الّذي جاء للتّشفي وإحقاق العدل.

- لكنّه أغبى مَن قابلت. لعلّه يقول في نفسه الآن أنَّ ما حدث لنا لم يكن إلّا عقابًا إلهيًا بسببه.

- ولم لا؟

- لا يختلفُ عنّا كثيرًا، لقد رآني في البنك لأوّل مرّة، فراح يتحدّث عن أعمالهِ ومشاريعه الكاذبة بغيةَ إثارة اهتمامي. أعرف هذا الصّنف من الرّجال جيّدًا حين يحاولون اصطيادي بصنارة المال... حاولَ كثيرًا، وأغدقَ عليَّ الهدايا والعطايا تحت مسمّيات كاذبة، لكنّه لم يرق لي بتاتًا، مدركةً أنّه لا يملك إلّا ما سأجده في محفظته يومًا حين أقرّرُ اصطيادَه، لذا أخذت ما فيها عندما حان الوقتُ لذلك دون أن يأخذ منّي إلّا أحلامَه الضّائعات.

استدار نحونا ناظرًا إليها بعينينِ مُشفقتين لا كارهتين. أعلم شكل هذه النّظرات جيّدًا، أحفظها عن ظهرِ قلب، رأيتها في عيونِ الآخرين كثيرًا؛ في عيونِ زملائي حين رحتُ أقصّ عليهم نبأ التّحرش بي، في عيونِ السّتينيّ وهو يلقي على عذريّتي الكاذبة نظرةَ الوداع الأخيرة، في عيونِ سيلا حين رحلت ولم تعد، في عيون أصلان قبل أن تحتلّه الغيبوبة.

سألتُ نفسي حينها: هل رأى العجّان نظراتِ الشّفقةِ في عيني أم أنّه لم يرَ إلّا حبل المشنقة يتدلّى أمامه؟

- رضا العجّان. **قالها القاضي بصوتٍ منحَ للصّمتِ بعده رهبوتًا عظيما.**

- حاضر.

- حكَمت عليكَ المحكمةُ...

- لا تكمل...

لسببٍ ما صمت القاضي، لسببٍ، لدهشةٍ، لشيءٍ أراده القدر صمت القاضي رغم أنّه حاولَ النّطق بالحكم وقوطِع مجدّدًا ومرارًا من العجّان الّذي في النّهاية توسّل إليه متفلّتًا من حرسِه بكلِّ ما هو مقدّس أن يسمح له ببضعِ كلمات.

- لا ضيرَ في ذلك، ولكن ليس الآن. أرجوك... أريدُ أن أقول شيئًا يثقلُ كاهلي منذ زمن بعيد.... لن يضيرَك أن تسمعَ ويسمعوا صوتَ الإنسان الميّت في داخلي والذي يستحقّ أن يُبعثَ مرّةً واحدةً في الحياة من الوحش الّذي صرتُ عليه. **طأطأ رأسَه ثم رفعه نحو الأعلى فظهرت عروق رقبته نافرةً كشاةٍ استسلمت للمُدية قبل أن يتأمّل الجميع بعينين تشعرُ أنّهما ضوءان خافتان ينبعثان من كهفٍ مظلم.** لقد

ولِدت لأبٍ متسوّلٍ قذر، وأمٍّ قبيحةٍ تكره كلّ شيءٍ حتّى نفسها. ولِدتُ فلم أعلم مَن هو أكبر أو أصغر منّي في سلسلةِ إخوتي المنتميةِ شكليًّا لهما، فكلُّ ما عرفتُه مذ فتحتُ عينيّ أن وظيفتي في هذه الحياةِ هي الانطلاقُ صباحًا نحوَ إشاراتِ المرور والشّوارع المكتظّةِ كي أتسوّل ناسجًا الأكاذيبَ الّتي ترتديها العقول طوعًا وغصبًا حسبَ طقوس المزاج العامّة... الكذبُ سادتي أخطرُ من إهراق ماء الوجه، فالوجهُ من الممكن أن يفضحَ صاحبَه لكنّ اللّسانَ من يُوهم الآخرين ببراءة هذا الوجه.

لم أرَ الاحترامِ يومًا في عيونٍ أيٍّ ممّن قابلت، على النّقيضِ من نظرات الشّفقةِ الّتي لمستها من بعض النّاس هنا وهناك، حتّى إذا كبرتُ قليلًا وجدتُها قد توشّحت باللاّمبالاة فتعايشت معها ضائعًا في دهاليز الحياة؛ الّتي زوّدَت تلك النّظرات فيما بعد بنصالٍ حادّة من الاحتقار مشرّعة رؤوسها لي على الدّوام.

لكنّني اعتدتُه... كيف لا ونحن متسوّلون _حاصلون على شهادات أمراض مزمنةٍ وما شابهها_ نحيا على نسجِ الحيل فقط؟ فلم يعد يغضُبني مدركًا أنّنا نستحقّه بين مجتمعٍ يكدُّ من أجلِ لقمةِ العيش.. ظللتُ منبوذًا بأقلّ قدرٍ منه راضيًا بما أنا عليه، غير أنّي وجدتُ نفسي أمام حقيقةٍ لم تزل تطاردني منذ ذاك الوقت وهي: أنّنا جئنا من أبٍ أقذر مما كنّا نتخيّل، بل أقذر مما تخيّل كلّ مَن لا ولن يحترمنا... تخيّلوا فظاعةَ الموقفِ حين يكتشفُ السّافلُ أنّه سافلٌ أكثرَ ممّا يتوقّع، والوضيعُ أنَّ هناكَ من هو أوضع وأحطّ منه بمراحل!

لقد حَمَلت أختي منه، لقد فضَّ بكارتها طفلةً، وعاشرها معاشرةَ الأزواج، ليدخلَ هو السّجن، وأخرجُ أنا من نفسي، فلا هو خرجَ بعدها منه ولا دخلتُ

أنا بعد ذلك إلى نفسي. هل جرَّب أحدٌ منكم أن يكون أخوه هو ابن أخته الصّغرى؟ هل اختبرَ أحدكم هذا الشّعور القذر الّذي ما إن يختبره المصدومُ حتّى يجد نفسَه قد غرقَ حتّى مفرق رأسه في مصبّ دورات المياه العادمة؟!

بمن يستغيث حينها؟ هه؟ أخبروني. **ناظرًا نحو الحضور في قاعة المحكمة.** لو فرّغتم على جسده صهريجَ صابون ودعكتموه بالوردِ، وغيّرتم مسارَ الأنهار جميعها كي تصبَّ ماءها فوق رأسه فلن يتخلّص من وحلِه مطلقًا... لن تفوح منه رائحةٌ زكيّة مهما حاولَ أن تكون.

هل راوَدت فكرةُ قتلِ جنينٍ في بطنِ أمّه أحدَكم؛ لأن وجودَه يعني الخطيئة الحيّة الّتي تمشي على قدميها رغم ألّا ذنبَ له بها؟ أظنّكم تشعرون بالتقزّز لذكر هذا الآن.

لماذا الآن؟ ألأنّني اعترفتُ بجرمِ والدي فرأيتم وجهي من خلاله؟ لقد تخيّلتم ما حدث، وشمَّت أنوفُكم رائحة اللّحم المحترق تحت نير رغباته المريضة فاشمأزت أنفسكم له، بينما ما فعلته أنا أفظعُ بكثير ممّا فعلَه والدي.

لم أطالب النّاس بالاحترام لأنّني لم أعرفه أو أتعرّف إليه من قبل، لكنّني طالبتُهم بعد تلك الفضيحة ألّا يحمّلوني وزرَ خطيئته وثمن نزوته الحيوانيّة... هو من أسرجَ خيلَه في إصطبله، هو من قلى لحمَه بدهنه، هو من رفعَ إزاره واضعًا أطرافه في فمه ليلجَ غطاء مَن عليه تغطيتهم لا أنا، هو مَن هتك ستر مَن عليه إسدال ستره عليهم... طلبتُ إليهم تلميحًا وتصريحًا أن يشيحوا بوجوههم عنّي متقبّلًا رفضهم لوجودي بخنوع الأذلّة؛ غير أنّهم أشاحوها متناقلين الخبرَ العظيم بمتعةِ المتشفّي وشغفِ المتقصّي؛ وكأنّني من حرَّضته على ذلك.

قلتُ لأتقَاهم آنذاك: لقد أخطأ وعوقِب بما يستحقّ فما ذنبي أنا؟ لو عرفتُ لحلتُ بين الأمر وحدوثه. يستحيل أن تكونَ ابنته يا مولانا، لا يعقل أن يتلذّذ الإنسانُ بطهي وتناول لحمه متجشّئا بعدها بارتياحٍ روائحَ وجبته. قال لي حينها: «لن تغيّر قدرًا قد وقع يا رضا... لن تغيّر الكون... ما حدث قد حدث فافعل ما لا يتوقّعه الآخرون منك عبر أي لفتةً نبيلة وإن كانت صغيرة... لعلّها تساعدك أمامَ نفسك». وقد صدّقته، لذا لم أقتل الرّضيعَ مستسلمًا لخاطرةٍ تراءت لي كرسالةٍ غيبيّة لا أعرفُ مرسلَها إلى صندوق تفكيري المتواضع... **{مِن العدلِ ألَّا تعدلَ فخذه وضعه في غرفةِ المسكينينِ تلك، ولا تعد بعد ذلك إلى هذا المنزل مطلقًا، ودرّب عقلك أن ينسى بالكامل موقعه والدّروب الّتي تؤدّي إليه}...** غرفةُ المسكينينِ اللّذين سطوتُ ليلًا على منزلهما وسرَقتُ بخفّةٍ ما يجاورها؛ احتوت على مهد لطفلٍ لن يُنجبَ من عقيمين، لكنّهما بقيا بانتظاره متضرِّعينِ إلى الله أن يهبهما هذا الطّفل المستحيل...

- وكيفَ لا أثقُ بقدرته وقد رزَقني إيّاك. **قالها الرّجل لزوجته برقّةٍ متناهيةٍ دفعتها على الفور لاحتضانه.**

- لو لم تكن مثلي لطلبتُ إليك أن تتزوّج بغيري كي تحظى.... **وتحاملَت على نفسها كيلا تبكي.**

- لا أريدُ سواك. **قاطعها بأن وضعَ يده على فمها.** العقمُ أمامَ قدرةِ الأطبّاء لا حلّ له، غير أنّه أمامِ قدرة الله وافر الحلول.

- أثق بهذا ولم أيأس من روحِ الله ليلةً.

- عبرَ هذا اليقين لا غير تتحقّق المعجزات.

{عقيمان ويأملانِ بالإنجاب}. وددتُ حينها لو قذفت المسروقاتِ من يدي واقتحمتُ غرفةَ نومهما بدل التنصّت عليهما؛ وسألتهما أنْ كيف استطاعا تجاوزَ الحاجةِ إلى النّاس والتوجّه بكامل جوارحهم إلى ربّ النّاس. من أين لهم بهذا اليقين؟ كيف هذا؟ كيف يستطيع الإنسان أن يؤمنَ إلى هذا الحدّ منتصرًا على ضعفه؟

الإيمان يا سادة حلوٌ لمن يتذوّقه حقّ تذوّقه... تبتسمون؟! **وقد ارتسمت الابتسامات على وجهِ الجميع بمن فيهم القضاة.** ابتسموا، هذا شأنُكم، لكن لا تسخروا من رجلٍ لم تطأ قدماه حين كان طفلًا قيدَ التّشكيل والتّوجيه يومًا سجّادة مسجدٍ إلّا لسرقةِ أحذية المصلّين، مِنه إذ لم توقظه أمّه على صلاةِ الفجر إلّا ليسطو على منزلٍ تعلمُ علمَ اليقينِ أن صاحبه ساجدٌ في تلك اللّحظة خلف الإمام؛ مِنه إذ لم يفرّق لسنواتٍ طويلة بسببِ أميّته وجهله وظلام حياته بين كلام الله ورسولِه وبين كلامِ النّاس؛ بين ما أراده الله لعبادِه وما أراده الحاكمُ لعبيده... أيّ شقاءٍ أعظم _أخبروني_ من أن تُحرمَ حلاوة الإيمان؟ ألّا تجرؤ على رفعِ يديك للسّماء مُذعنًا لنداءات الخزيّ الّتي تصرخُ بها مساماتك كلّما حاولت؟

عدتُ بعدَ عدّة أشهرٍ ووضعتُ الطّفلَ في المهدِ فوجداه باكيًا دونَ حملٍ ومشقّة... فظنَّا أنّها معجزة.

فهل كانا محقّين يا سادتي بوصفها كذلك؟ أتصنعُ الرّذيلةُ معجزةً؟ أتكونُ المعجزةُ لعنةً في مكانٍ ونعمةً في مكان آخر؟ أم أنّنا لا نتساءل عن حقيقةِ المعجزات إن قدّمَت لنا ما أردناه؟ إيَّاكم أن تتساءلوا يومًا عن طيِّبٍ أصله خَبث، أو خبثٍ أصله طيّب. **مشيرًا بسبابته المتحرّكة إلى الحضور.** فالحُكمُ القطعيّ لما نراه أخيرًا لا ما يقالُ عن أصله.

أخي وابن اختي أيّها السّادةُ واحدٌ منكم الآن، مثلكم، يشبهكم. ليس لصّا، ولا قاتلًا، ولا متسوّلًا، رغم أنّه يحملُ دماءَ العجّان الأوّل بنسبةٍ أكبر منّي.

وضعتهُ ورحلْت... ثم تابعتُ الرّحيلَ من أدنى البلاد حتّى وصلت أقصاها هربًا من الجميع، من عائلتي، من حارتي، مِن أولئك الّذين تتّهمني عيونُهم قبل ألسنتهم. رحلتُ قائلًا في نفسي: كن سارقًا وسخّر طاقاتك لهذا العمل دون غيره... كان هذا أقصى طموحي في عالم السّوء والجريمة؛ فهي المهنة الوحيدة الّتي لا تحتاج إلّا للجرأةِ والخساسة، وهما ما تشربتهما في شوارع المدينة؛ لذا بدوت سارقًا لطيفًا وقنوعًا بدايةَ احترافي لها، فلم أسرق سوى احتياجاتي اليوميّة من طعامٍ، وخمرٍ، وتبغ.

كنتُ التقيتُ قبلها بصفيّة وتزوّجتها، فأنجبت لي غلامًا أسميته سيفًا... سيف هذا ولدِ في اليوم الّذي أنجبت فيه أختي أخي. **ضحك بملء فمه فور قوله هذا وأتبع ذلك بسعالٍ خفيف حينما انتهى.** هل بإمكانكم تصوّر أن تنجبَ أختُك أخاك وأن تنجب زوجتك ابنًا في نفس اليوم؟ أسميتهُ سيفًا لأنّني لم أكن قاطعًا بأمرٍ واحدٍ في حياتي فأردتُ أن يأتي من يقطعُ شكّي بيقيني، لكنّه بدل أن يفعل، قطعني أنا. أمّا هذه فهي من قالت لي وقد رأتني أتخبّط في الحياة:

- ماذا لو فعلَنا شيئًا لهذا الغلام؟ **أشار نحو صفيّة.**

- ألقميه ثديك فقط، هذا ما علينا فعله له.

- ولماذا لا نحاولُ مساعدته؟

- نساعده بماذا؟

- أن يتعلّم، أن يرتاد مدرسةً مثل أولئك الّذين يحتقروننا... أن يكونَ مختلفًا عنَّا؟

- ترغبين ببيعهِ إذن؟!

- لا. **قالتها بعد أن ضمّته لصدرها.** بل لا أريدُ له أن يكون مثلنَا فقط.

لم أفكر بطريقتها يومًا، لكنّني تخيَّلته بعدها وقد عادَ من الجامعةِ مُقبِّلا يدي أثناء دعواتي له بالنّجاح كما يفعل الآباء الطيّبون. راقَ لي الأمر فلم أمانع فكرة التحاقهِ بالمدرسةِ؛ وألّا يجولَ الشّوارعَ الّتي جال بها والده متسوّلًا. لقد كان لجُملِ صفيّة وقعٌ في نفسي فغيَّرت بذلك ما أردتُه وما قبلتُه من الحياة..

يا سادة: بعض الجُمل المجانيّة قد تغيّرُنا بالكامل، بعضُها قد تميتك وتحييك. لكنَّ الحوارَ هذا يدُّلكم أن صفيّة كانت تختلف عنّي قلبًا وقالبًا؛ غيرَ أنّي جررتُها تدريجيًّا نحو السّوء لتصبحَ أسوأ منّي بعدما تيقّنت ألّا فرار من واقعها معي... هذه المنحوسة تختلفُ عنّي... نعم... تختلفُ عنّي. هي مَن رجتني متعلّقةً بثيابي ألّا أقتلَ الغلامَ أو أمّه. من توسّلت لي حين تيقّنَتْ من عدم قيامي بهذا أن تضمّه لسيف وتعتني بهما سويّةً محاولةً إقناعي بشتّى الأساليب أنّ سرّه لن يُفشى طالما عزمنا على الرّحيل بعيدًا... رفضتُ ذلك بالطّبع مقسمًا لها _حين كنتُ أقسِمُ كالأناس العادّيين_ أن أمنحه عائلةً ليحيا بينهم في الوقت الّذي راحت توضّب حاجيّاتنا استعدادًا للرّحيل...

عندما بلغَ سيف العاشرة كنتُ لصًّا محترفًا يأتي على الأخضر واليابس بدهاء الثّعالب. لم يعلم أحدٌ بذلك فكلُّ ما عرفه النّاس عنّي في حارتي الجديدة هو أنّني عتَّالٌ متزوّج بخادمةِ بيوت. كلّ عيوبي انحصرت أمامهم بقذارة ملبسي وفقري طالما أنّه العيب الأهم _أي الفقر_ إن تساوت الرّؤوس. كنتُ لصّا

حاذقًا يعلمُ متى يعمل ومتى يتوقّف ومَن يستهدف، فلم يترك دليلًا واحدًا خلفه، لأنّني مذ بدأتُ وأنا أعلم أنّ عليَّ أن أبدأ من حيث انتهى الآخرون، فوجدتُ أنّ أعظمَ اللّصوص والقتلة الّذين طالت أعمارهم ومسيرتهم الإجراميّة لم يستهدفوا سوى الفقراء ومتوسّطي الدّخل، ولذا استهدفتهم مانعًا جشعي ونفسي التوّاقة بصعوبةٍ عن الأثرياء والسّاسة؛ فمجرّد الاقتراب من هؤلاء يعني اقترابك من قضبان السّجن حيث من عادة هؤلاء شخصنة الأمور فور مساسك من عمومِهم.

لم أترك دليلًا خلفي على عكسِ والدي الّذي لاحقني دليلُه يومَ التقيت بأتقى رجال حارتي القديمة؛ وقد انتقلَ ليسكنَ مصادفة في حارتي الجديدة الّتي لا تعرف من خبري شيئًا... لم أفكّر حينها بالهروب رغمَ استشعاري الضيّق من جواره مجدّدًا، ومع هذا لم أخف من فلتاتِ لسانِه؛ فاللّسان الّذي يجرفُ من العقلِ عباراتٍ منتقاةٍ بعنايةٍ عن السّتر والصّفح والنّهي عن الخوض في الأعراضِ ويهيلها على مسامعِ الآخرين بغنّةِ الخشوع؛ يستحيلُ أن يكونَ ساطورًا يقطّع أوصال عائلتي ليفرّق لحمَها على فقراء الفضول. **أطلقَ ضحكةً مفاجئةً كمن تذكّر شيئًا أو كمن أراد السّخريةَ من نفسه...**

«في نَسَبِهِ شيءٌ». هذا ما قاله التّقيّ عنّي لمَن لا يعرفني. هذه هي الجملة الصغيرة الّتي تطوّع لقولها متأسفًا حين رآني ألقي التّحيةَ على هذا وأردُّ التّحية على ذلك. هذه هي الجملة الّتي شقلبت حياتي بالكامل يومَ نعتني البعضُ بالمسكين والدّرويش، فرأى أنّني لا أستحقّ هذه الشّفقة حاسدًا إيّاي على شقائي؛ ليردّدَ النّاس ويتبادلوا فيما بينهم ما قالَه لهم من جديد، حتّى إذا بُعِثَ الخبرُ من الماضي بحلّةٍ حضاريّة جديدة راحوا يوجّهون حرابهم نحو ابني، ويوبّخونه ويعايرونه وينتقصون منه على شيء لا يعرفُ عنه شيئًا.

رحلَ عنّي يافعًا هاربًا منّي، من جدّه العجّان الأوّل، من النّاس الّذين اتّهموه بذنبٍ لم يذنبه... من نسخةِ النّاس الذين هربَ منهم والده يومًا بذنبٍ لم يقترفه... رحلَ وبقيتُ في مكاني مصرًّا على البقاء بعقليّة مختلفة وروحٍ مختلفة وأفكارٍ مختلفة؛ فكانَت أولى ضحاياي يا سادة وأفتخر بهذا هي ابنةُ ذلك التّقي. عليكم مطالبة صفيّة والإلحاح عليها لوصفِ ملامحِه حينَ رأى ابنته عاريةً ترفلُ بقيودها في فراشي. لكم أن تتخيّلوا كيف أرعدَ وأزبد منقضًّا عليّ ثم كيف استكانَ كأرنبٍ حين وقفتُ أمامَه عاريًا مشهرًا سلاحي في وجهه؛ مقسمًا أن أحتزّ رأسَها إن لم يهدأ ويستسلم لقدره فما حدث قد حدث، وليس باستطاعته تغيير ما كان.

قبّلتها أمامَه ثم فككتُ قيودها سامحًا لها بارتداء ثيابها؛ وله أن يغادرَ بها شاكرًا إيّاه على هذا الإنتاج المميّز من الثّمار الطازجة النّاضجة والحلوى اللذيذة المغلّفة بإتقان... راح يبكي شاتمًا مرّة ومهدّدًا مرّة وضاربًا على رأسِه مرّات ومرّات محاولًا اجتناب العيون الّتي راحت تتلصّصُ عليهما أثناء خروجهما من منزلي الّذي لم تمنع جدرانُه حينها الأصوات من التّسرب لمسامعهم.

- ما ذنب الفتاةِ يا رضا؟ أنا من أخطأت بإفشاء حقيقتك لا هي... لا تزرُ وازرةٌ وز أخرى. **والدّموع تملأ عينيه.**

لا أذكر كيف ومتى ولمَ قالها لكنّها الجملة الّتي أخرجتني عن طوري بالكامل؛ فاندفعت بعريي إلى الخارج صائحًا بأعلى صوتي مهدّدًا الجميع مِن على شبابيكهم وعتبات منازلهم.

- ولمَ حمّلتني وزرَه يا أنت؟ لمَ؟ مِن الآن فصاعدًا أنتم معرّضون أن يحدثَ معكم ما حدث مع هذا الزّنديق.. رضا العجّان لن يرحكمم يا أوغاد وسينتقم

منكم واحدًا تلوَ الآخر تأكيدًا لوزره الّذي حملتموه إيّاه، ونظرتكم عنه الّتي لن أخيّبَ ظنونها... ابشروا بما طلبتم.

انتظرتُ رجال الشّرطة بعدها للقبضِ عليّ فلم يحضروا. مرّت اللّيلة ثم اللّيلة ولم يحضروا. هذا ما لم أتوقّعه فقد جهّزت نفسي للسّجن ودفع ثمن هذا الانتقام؛ ولكنّه عوضًا عن التّوجه إليهم أو العودة للانتقام منّي رحلَ هاربًا بعائلته من ألسنةِ النّاس الّتي ساطته مباشرةً خائفًا من كلّ شيء.

رحلَ هو الآخر بعد أن آثر الاختباء بعاره معتقدًا أنّه بهذا سيحمي ابنته من اتّساع دائرة الفضحية؛ ممّا أتاحَ لي التّفكير من جديد حيث وجدتُ أنَّ بثَّ الرّعبِ في قلوبِ الآخرين يجعلهم متواطئينَ معك عبر السّكوت المطبق خشيةَ انتقامك منهم. عليكَ سيّدي القاضي. **ملوّحًا للقاضي بيمينه.** أن تحاكمَ ذاك التّقي لا لإفشائه سرّي وعدم التزامهِ بما يقوله من مواعظ وأحكام للملأ؛ بل لأنّه لم يفشِ سرّ ابنته وما فعلته بها لأنّه بهذا تواطأ معي على إخفاء جريمتي بحقّها... انظر سيّدي، فهو أيضًا لم يستغل فرصة القبض علي ليقدّم شكوى ضدّي ويثأر لابنته كما فعل الآخرون... لماذا برأيك؟ لأنّه شريك في الجرم.

يجب محاكمة أولئك الصّامتين الخائفينَ الّذين نأى كلّ بنفسه عن مواجهتي والدّفاع عن ذاك الرّجل وابنته أيضًا؛ ولو عبر تقديم شكوى صغيرة تؤكّد ما حدث. جميعهم أرادوا التّخلص منّي بالوكالة فانتظروا شهورًا _قبل أن نتبادل النّسيان والّتجاهل فيما بيننا ونتّفق ضمنيًّا على عدم التّعرض لبعضنا البعض_ أحدًا ما لينالَ منّي دون أن يحاولَ أحدُهم أن يكون هذا الأحد.

الجميع يريدون التّخلص من الظّلم شريطةَ ألّا يواجهوه بأنفسهم طالما لم يقع عليهم مباشرة؛ ظنًّا منهم أنّهم بهذا في مأمنٍ مما تعرّض له الآخرون غيرَ

مدركين أنّ الأمر مسألة وقت لا أكثر، وأنَّ الظّلم كائن سرطانيّ لا محالة سيطالهم في النّهايةِ فردًا فردا.

يومَ عاد سيف، عاد كآخر، يُشبهُكم، لكنّه لم يعد يُشبهني لأنّه رآني كما رآه النّاس يومًا فلم يتساءل إن كانَ محقًّا بما يراه طالما أنّ النّاس مخطئون فيما يرونه فيه.

- بذلةٌ أنيقةٌ وعطرٌ أخّاذ! هل أصبحتَ ثريًّا يا ابن صفيّة؟ **سألته والحزن يأكلني قبل شوقي لاحتضانه.**

- دعك من هذا، لنرحل، ونغيِّر أسماءنا. **قالها متيقّنًا للأسف بأنّني سأتبعه.**

- لكنَّ ملامحنا مَن دلَّت علينا، وستدلّ علينا مجدّدًا مهما فررنا منها.

- سنغيُّرها أيضًا، علينا أن ندفن الماضي.

- سيلاحقنا.

- لن أسمحَ له.

- لقد سمحتُ له أنا يومَ هربتُ من واقعي، ثمَّ كرّرتَها أنت، لذا فقد قرّرت بعدها أن ألاحقَه وألاحق النّاس أيضًا.

- اذهب معي، اترك كلّ شيء خلفك وامضِ.

- إخوانك لا يتقنون الآن إلّا ما يتقنهُ والدهم، هؤلاء الأشقياء سعداء فاتركهم وشأنهم، لقد تقبّلوا واقعهم، وماضيهم، ومستقبلهم برحابة صدر... لقد

ورثوا من العجّان الجد الرّضا والقبول بالحال أكثر منّي... أمّا أنتَ فأظنّك قد ورثت طبائع آل الكيس فتلبّستكَ هشاشتهم.

خيَّبَ ظني مرّةً أخرى فرحل بعدها، ثمَّ خيَّبَ ظنّي مرّة أخرى حين عاد برجال الشّرطة لا لأنّه أراد إقامة العدل وإنقاذ الضّحايا، بل لأنّه أراد الهروبَ إلى الدّاخل.

(10)

الطارقان

الآخرون أناسٌ نعرفهم، قد لا نهتم بملامحهم الّتي تشبهنا، أو أصواتهم القريبة من أصواتنا، ولا واقعهم المسلوخِ من واقعنا، لكنّنا نعرفهم.

قاعة المحكمة مليئةٌ بالوجوهِ المتشابهةِ والمتناقضة، بالنّفوسِ المتوافقةِ والمتنافرة، بأرواحٍ مجنّدةٍ وعدوّة، ووسط كلّ شيء ووسط الضّجيج الّذي يتبعه الهدوء، ثمَّ الضّجيجُ، ثمَّ الذّهول من كلّ محيطنا يتساءل كلّ منًّا حسبَ تفاعلهِ مع اللّحظة أسئلةً تبدأ بالفضول؛ وتنتهي على أعتاب النّقطة ذاتها.

ماذا لو كان اللّقيطُ أحدَ هؤلاء؟ ماذا لو كان القاضي، أو المحامي، أو السجّان؟ من هو سيف وسطَ هؤلاء؟ **{شعرتِ بوجوده سيما حين راح يذكرهُ العجّان متأمّلًا الجمع لائمًا إيّاه عبر نظراتهِ قبل كلماته}.**

لقد وجّه إليهِ الكلامَ لا لنا، لقد دافعَ عن نفسِه أمامَه لا أمامنا، لكنّه لم يشر نحوه كأنّما تنكّر له يومَ اعتبره ماضيًا لاحقَه لا أكثر.

نعم فالماضي من أقسى الملاحقين لنا أملًا بهزيمتنا، وها أنا قد هربتُ من وطني إلى جنيف فرماني في وطنٍ أقربَ منها إليه وأبعد عنه منّي، فلم أعد تلك الّتي جاءت منه، ولا تحوّلتُ لمن لا أعرفها... بدوتُ بين منطقتين فقط... في منتصفهما دون حراكٍ فكريّ... بدوتُ كساعةِ الحائط الّتي

توقفت عند الثّانية عشرَة مطلّةً على جسدٍ غارقٍ في غيبوبته رغم أنّه يتنفّس بانتظام غريب... **{انهض، لا تمت الآن، أرجوك، فالوحدةُ تفترسني}.**

طلبَ منّي أن أوقفها فور دخوله الغرفة ورؤيتها، فأوقفتُ عقاربها وأرقامها الإلكترونيّة سائلةً إيّاه إن كانت تشيرُ للثّانية عشرةَ مساءً أم صباحًا، غيرَ أنّه لم يكترث... ظلَّت واقفةً رغمَ دوران الوقت فلم يسأل بعدها عن الوقت الحقيقيّ مكتفيًا بما تخبره النّافذة من حديث الشّروق والغروب المكرور.

- هل تموتُ أشعةُ الشّمس بعد وصولِها النّافذة؟ **سألني هذا السّؤال قبل الدّخول بغيبوبته بساعتين أو تراه سأل نفسه هذا السّؤال بصوت مرتفع.**

- سؤال غريب.

- ويحتاج لجوابٍ غريب. **قالها بصوتٍ خفيض.**

- هل تمتلكُ جوابًا؟

- امتلك اعتقادًا.

- وهو؟

- كلّ نفسٍ ستموت، لكنّها ليست نفسًا فيما أظن، وكلُّ شيءٍ هالك إلّا وجهه، وهي شيءٌ فيما أظن، لكنّني لا أعلم إن كان هلاكها في وصولها أو في قادِمها!

- طالما استطعنا تخزينَها وتحويلَها لشيءٍ آخر فقد يعني ذلك هلاكها.

- أو حياتها.

- كيف؟

- النّبتةُ ما هي إلّا بذرة، وماء، وهواء، وتراب. جميعها تعني الحياة، وتطوّرات هذه النّبتة تغيّرُ إحساسنا بها، وما رأيناه منها قبلَ وبعدَ نموّها، لكنَّ شيئًا حدث لم نحط به علمًا فلم نعلم أصلَ الشّيء إلّا في معادلةٍ قد نخطئُ بها، فاكتفينا بالملموس من الظّاهر مطلقينَ حكمنا على النّتيجة لا الأصل.

- هذا شعر أم فلسفة؟

- هذا رأي.

- غريبٌ كعادتك.

- قد أكون.

- غرابتك نابعةٌ من نفسِك أم روحك؟

- هذا تأطير مقصودٌ منكِ لحصر غرابتي في الأمرين. **وحذّرني بإصبعه.**

- إذن من أين تنبع غرابتك؟ **ابتسمت.**

- هذا تأطيرُ إثباتٍ لأقرّ بغرابتي الّتي لا أراها.

- لكنّك بكلّ ما فيك غريبٌ حقًّا. ربّما كلماتك، تفكيرك، روحك، نفسك، شخصيّك، كينونتك. لا أعرف السّبَب.

- «الإنسان تابعٌ لنفسه، وليست النّفس تابعة للإنسان، لأنّ الإنسان بالنّفس إنسان، وليست النّفس نفسًا بالإنسان». أمّا الرّوح فلا تموت لأنّها هبةُ الخالق الأبديّة.

- والبدن؟

- وعاؤهما دون أن ندري كيف أو ما يحويه من أسرارٍ لا نستطيع سبر أغوارها وكينونتها الحقيقيّة.

- لم تخبرني عن أقرب إنسان لقلبك، لا تقل بأنّني هذا الشّخص فلن أصدقك! **تهرّبًا من الخوض بأطروحاتٍ لم أفهمها مطلقًا قلت هذا وابتسمتُ محذّرة إيّاه بإصبعي من قول عكس ما أريد.**

ظننتهُ سيضحك بيد أنَّ وجهَه تقعَّر كمن كره توجيه هذا السّؤال له أو كره الإجابة عنه.

- لا أعرف. قد يكون أصلان، أو العجّان، أو ربّما صفيّة. الحقيقة لا أعرف... لا أريد أيضًا أن أعرف.

حاولتُ وقد تسمّر جسدي عن الحركة بكلِّ ما فيهِ فهمَ جوابهِ الغريب؛ الّذي قاله بصوتٍ خفيت أتى من جوفِ نسيانهِ فلم أستطع، مع أنّني قد أكون سببَ هذا لكثرةِ ما ذكرتُ من أسماء شخوصٍ وأحداث على مسامعه المنتميةِ لذهنه الشّارد؛ وعمرهِ الموشكِ على الأفول.

- عدتَ لذكرِ أسماء لا صلةَ لك بها أيّها الشّاعر.

شعرتُ حينها أنّه استفاق من شروده قبل أن يحدِّقَ بي حائرًا.

- أقربهم إلى قلبي هي أمّي، ثمَّ حنان، أعتذر.

- لم تخبرني عن حبيبتكَ الأخيرة، أتشوّق لأعرف.

سألته هذا السّؤال كي أُخرجه من حالةِ الحيرة الّتي وقعَ بها، كمن تحفّزُ ذاكرتَه على استحضار ما اختفى من عوالمها؛ عوضًا عن التّشويش الواضح الّذي حدث له.

- هي من وطنٍ لا يعترفُ بها.

- ولماذا لا يعترفُ بها؟

- لأنّه ليس لها، هو لأصحابه، وهي من العابرين إليه ليس إلّا.

- حدّثني، أرجوك، لا أفهم مقصدك!

- أوّلُ ما وقعت عليه عيناي بعدَ أن أصابتني الرّصاصة مِن مجهول ما في قصر المعارف في وطني هو وجهُها، لا لأنّني دخلتُ في غيبوبةٍ أو ما شابه، بل لأنّني نسيتُ كلّ ما رأيته ذاك اليوم حينما رأيتها... لم تستغرق عمليةُ إخراج الرّصاصةِ وقتًا طويلًا لكنّني استغرقتُ وقتًا طويلًا بانتظارِ رؤيتها مجدّدًا.

من الصّعب أن تتغاضى عن فارقِ العمرِ مُقنعًا نفسك بأنّك لا تزالُ شابّا، لكنَّ الأصعب أن تقع في حبِ شابّةٍ مدركًا لهذه الحقيقة. حدّثت نفسي كثيرًا بأنّها قد تكون عقابًا لي على ما فرطَ من أمري، وأنَّ عليَّ أن أغادرَ المشفى دون التّفكير بها مطلقًا. الإعلامُ حينها وجدَ مادةً غنيّةً للانقضاضِ عليها وتضخيمها، وإذ تناقلت وسائله حادثةَ اغتيالي بشكلٍ كبير كنتُ حينها أرفضُ

الحديث والتّعليق على هذه الحادثة قائلًا بعضَ الأشعار القصيرة الّتي تدورُ حولَ ممرّضتي الحسناء، أو مَن عشقتُها دون أن أدري.

قد تتساءلين: ما الّذي ميَّزها أو جمَّلها أو شدّني إليها؟ لا أعرف، والحبّ يبدأ من هنا تحديدًا، حين لا نعرف.

عشِقَت أشعاري مثلكِ تمامًا، أحبَّت صوتي، رأتني ضخمًا وضخَّمت محبّتها داخلي... استغرق علاجي أسبوعًا وودِدتُ أن يستمرَ عمرًا كاملا يمكنني فيه أن أراها أكثر.

- هل أحبَّتك؟ **سألته بمتعةٍ متناهية متشوّقة لمعرفة المزيد.**

- أكثرُ ممّا يجب، ثمَّ ذهبنا نبحر في ذاك الشّوق الّذي لا ضفاف له، وندورُ كالأفلاك في سماءِ العشق دونما تعب. حدثَ كلّ هذا في أقلّ من شهرين فقط، لكنّها اختفت فجأةً بعدها. بحثتُ عنها كثيرًا، كدتُ أن أرفعَ كلّ حجرٍ في وطني مفتّشًا عنها، ثمَّ أوكلتُ لأحدهم مهمّة التّحقيقِ بغيابها ليجدها في المكان الّذي لم أتوقّع وجودها فيه أبدًا وبصفةٍ لا يمكن لي تخيّلها.

- أين؟ **والفضول يقتلني.**

- في منزلِ سمير صديقي، كزوجة.

- سمير بيك؟!

- التقيا في المشفى عندما أصابتني الرّصاصة ثمَّ تطوَّرت علاقتهما تزامنًا مع تطوّر علاقتي معها فتزوّجها... لم يخن كما قد تتوقّعين صداقتي إذ لم يكن يدري أنّها حبيبتي... حينَ التقيتُ بها لم تبدِ أيَّ ردّةِ فعلٍ تجاهي. صافحتني

وجلست أمامي بكلِّ هدوءٍ وبابتسامةٍ لم تفارق شفتيها، وكأنّها لم تكن حبيبتي يومًا.

- سعيدةٌ جدًّا برؤيتك أستاذ أصلان وقد تعافيت.

- سعيدٌ بك، أشكرك. **قلت هذا والغيظ يكاد يفترس ملامحي.**

- لطالما حدّثني سمير عن صداقتكما، رغم أنّه من رفض أن تكونَ شاهدًا على زواجنا.

ضحك فورَ أن قالتها سمير مُبرّرًا: «هي مَن رفضت إقامة حفل الزّفاف لا أنا مبدئيًّا، ومَن طالبتني بزواجٍ جنونيّ في ليلةٍ لا تُنسى».

الشّبهُ فيما بيننا، بيني وبين سمير أننا نفعلُ أيَّ شيءٍ فجأةً وبجنون صبيانيّ، ودون أن نكترثَ للآخرين، أمّا الشّبه الأكبر الّذي لم أعرفه من قبل فمختصٌ بالعاطفةِ تحديدًا وذوقنا الفكريّ، والشكليّ، والغبائيّ، فقد أحببنا يومَ خُدعنا الفتاة ذاتها، ثمَّ كرهنا أنفسنا لهذا الحبّ... قرأتنا جيّدًا فعلمت أنّه لن يتحدّث لي عنها أثناء علاقتها معه، وأنّني لن أتحدّث عنها طالما قد تزوجّها سيما أنّه بدا خجلًا ومحرجًا من كونهِ تزوّج فتاةً تجايلُ ابنته. حاولتُ أن أخيَّبَ ظنّها فلم أستطع؛ لا رأفةً به، بل لأنّني لا أهتم لشكلِ النّهاياتِ، طالما أنّها لا محالة قادمة.

كنتُ شاعرًا لا يتقنَ التّجارة كثيرًا، وكان تاجرًا لا يتقن الشّعرَ بتاتًا مع عشقه له، لكنّنا التقينا عند أبوابِ الوطن المحتلّ فطرَقتُ بابَه شعرًا؛ وطرقه مالًا عسانا نفتحه يومًا للغاضبين من ورائنا.

ماتَ مسمومًا بعدَ سنتينِ من زواجه. لم يقبضوا على القاتل لأنّ جميع الأدلّةِ أدانته شخصيًّا فبدا بأنّه القاتل والضحيّة معًا.

لم أرَ الحزنَ ولا مسحةً منه على وجهها لكنّها احتضنتني بحرارة بعد احتضاني لابنه.

- لقد انتحر. **قالت ذلك بصوت حادٍّ كمن تسخرُ من قيامِه بهذا.**

- التّحقيقات مَن ستثبتُ ذلك. **قلتُها وأنا أتخلّص من يديها بعصبيّة واضحة.**

لم أتخلّص من عناقِها قبل ذلك. كنت أحتضنها بقوّةٍ باثًّا أسرارَ الشّوقِ واللّهفةِ، متأملًا بعينينِ حائرتين تزيدُ من حيرتي فأعشق ذلك.

- ليتني استطيعُ تفسيرها. **همَستُ بذلك يومًا.**

- تفسيرَ ماذا؟

- هذه الحيرة.

لطالما شعرتُ بشغفها وولعهِا بي، لطالما لمستُ الشّوق بأطرافِ أصابعها وكلماتها، لكنّني لطالما لمستُ أيضًا ذاك الخوف في نظراتها أثناء حبّها لي، خوفًا جهلتُ أسبابه مُحيلًا إيّاه لفارقِ العمر فقط... تقابلنا كثيرًا وتحدّثنا كثيرًا كي أقول ما بيني وبيني: «هذه خُلقت كما أريد». ثمَّ بدت ممثّلةً بارعةً تخلو عيناها من أيٍّ معنى ولغةٍ وحيرة بعد غيابها الزّواجي.

تخلّصتُ من يديها بحدّةٍ واضحة مرّةً أخرى فأثارَ ذلك انزعاج حنان؛ الّتي راحت تعتذرُ لها عن تصرّفي قائلةً: «هو حزينٌ وغاضب فقط لموت صديقه... تعلمين مدى ارتباطهما في كلّ شيء».

- اعتذارُكِ لها ألصقَ بي صفةَ المجنون. **قلت لحنان فور مغادرتنا غاضبًا.**

- كانَ عليكَ ألّا تفعلَ ذلك، الجميع شاهدوا فظاظتك معها.

- لمَ لم تغاري من عناقها لي، أليست امرأة؟

- إنّها زوجةُ صديقك المرحوم، لستُ بلهاء إلى هذا الحدّ.

التقيتُها في غفلةٍ عن أعينِ زوجتي غير البلهاء بعد سنةٍ في كواليس مسرحٍ وقد انتهيتُ من أمسيّة شعريّة. عانقتني هذه المرّة في غرفةٍ تخلو من العيون. قفزَت على فمي لاثمةً له بلهفةٍ لم أختبرها من قبل منها. أمسكت وجهي ورقبتي واعتصرتهما بقسوة.

- أحبّكَ.

- أنتِ...

- أحبّكَ.

- أنتِ كاذبةٌ وحـ مممم.

- أحبّكَ.

- أحبّكِ أيضًا.

لقد بعتُ نفسي، وفكري، وصديقي، وعائلتي، وتاريخي بقبلة.

لقد تجاهلتُ الدّنيا بصحيحها وأعوجها، بحلالها وحرامها من أجل قلبي. **قال ذلك متنهّداً والنّدم يلتهمُ بقايا البريق في عينيه.**

- أنا أحبّك، لكنّني مجبرة على هذا.

- على ماذا؟

- على ألّا أكونَ كما تراني.

- لا أفهم.

- ولن تفهم، دعني أحتضنكَ أكثر، وأستنشقك أكثر فقط، فقد لا تراني.

- أنا متعب.

- وأنا كذلك، أريدك فقط أن تصدّق بأنّني أحبّك.

- لا أستطيعُ تصديقَ هذا. أنا كهل بائسٌ لا أكثر وأنت طفلةٌ ساذجة.

- كذِّبني بما شئت، وانعتني بما شئت، وصدّق هذا فقط، ضع يدكَ هنا. **أمسكَت يدي ووضعَتها على قلبها.** هل تشعر بخفقاته؟

- هذه لعبةٌ طفوليّة.

- حاول فقط أن تشعر، صدقّني هناك حديثٌ بين قلبي ويدك في هذه اللّحظات لن تترجمها سوى هذه القبلة.

وقبّلتني مجدّدًا ورحَلت بعدها تاركةً يدي مَن تحدّثني نيابةً عنها؛ يدي الّتي عضضتها ندمًا يوم سمعت نبأ زواجها مجدّدًا من سياسيّ محارب بعد سنةٍ من لقائنا هذا.

هذا اللقاء الّذي أسرَّت لي فيه أنّها خائفةٌ من اتّهامها بموت سمير بالسمّ لوجود لبس صغيرٍ في التّحقيقاتِ؛ لأساعدها على إغلاق ملفّ هذه القضيّة باعتبارها قضاءً وقدرًا... كنتُ متيقّنًا من استحالة قتلها له بالطّبع، فمثلها لا يمكن أن تقتلَ ذبابة، ثم جاءني اتّصالٌ ليليٌّ من ذاك السّياسيّ يطلب منّي الحضورَ لمنزله للضّرورة.

- إنّها جاسوسة. **أشارَ السّياسيّ لها وقد قيَّدها خلفَ مكتبه.**

- زوجتك؟ **كنتُ مصدومًا للدّرجةِ الّتي جعلتني أشعر أنّها ليست مَن أحببت.**

- كانت كذلك.

صعقتني هذه المعلومةُ رغمَ ما أبديته من فتورٍ تجاهها، صعقتني بالقدر الّذي لم أعد أفرّق فيه بين عشقي وكرهي لها، ومَن سبقَ من أو مَن تغلّب فيهما على مَن.

- جاسوسة. **قلتها مستغربًا.** لمَن، لحساب مَن؟

- للكيان الصّهيونيّ.

- للكيان، وما علاقتي أنا بهذا؟ **قلت هذا والأرض تميدُ بي رغم تظاهري بالثّبات.**

- توسّلت لي لإحضارك، للاتّصال بك. لديها ما تقوله لكلينا على ما يبدو بعد إصرارها على الإنكار والصَّمت.

من الصّعب أن تحبّ، والأصعب أن تحافظ عليه، ومن الخرافاتِ أن تحبَّ حبَّك له، لكن أسوأ ما فيه أن تعشقَ عدوَّك ويعشقك.

عمِلت جاسوسةً في المشفى الّذي أشرفَ في كثيرٍ من حالاته على المحاربين والسّياسيين لالتقاطِ أيّ معلومةٍ كانت، ولعلها شاركت باغتيالِ بعضهم، ثمَّ انتقلت للعمل خوفًا من اكتشافها كزوجةٍ متنقّلة بين أعداء دولتها السّرطانيّة.

خلّصتُها آنذاك من قبضةِ زوجها، خلّصتها من رصاصةٍ ودَّت أن تعانقَ دماغها. أقنعتهُ بأنّي أدافعُ عنه، وعن الشّرفاء أمثاله لا عنها بعقلانيّة ودون تهوّر.

- خبرٌ كهذا سيُفقدك مكانتَك في الحزب، ناهيك عن الإشاعات الّتي ستدور حول الأسرار الّتي انتزعتها منك، أو وصفك بالغبيّ والمخدوع وما شابه من أعدائك. قتلُها دليلٌ على غبائنا جميعا وانتصارٌ للكيان.

كذبتُ على نفسي قبل أن أكذب عليه مُدركًا، وقد جلستُ بجانبها في المطار، أنّني فعلتُ ما حاربته بشراسةٍ طوالَ حياتي إرضاءً لقلبي... **{ لقد أحببتَ قاتلةً قتلت صديقَك بعدَ أن قتَلت من لا تعلم قبله، أحببتَ جاسوسةً نقلت أسرار قومك للكيان، وحينما جاءت لحظةُ الحقيقةِ للانتقام منهم عبر جاسوستهم بعتَ قومك، وشعرَك، وغضبَك لوطنك من أجلِ قلبك}.**

لم أعانقها حين رحلَت لوطننا المغتصب الّذي تعتبره وطنها دونما عودة؛ كما لم أعانق روحي مجدّدًا بسببها. أعلمُ أنّني أخطأتُ حين أحببتها وحين خلّصتها، وأعلم الآن أنَّ الوطن أكبر مساحةً من القلب، لكنّني امتلكتُ قلبًا رديئًا لا يعرفُ الفرق بين الموتِ والحبّ، والفرق بين الشّعرِ والمرأة.

(11)

كانَ ولم يعلَم

بكلِّ بساطةٍ لم أصدّقه، لا لأنّني لم أرد هذا بل لأنّه قال أشياء لا يقولها عاقلٌ حتّى وإن حدثت فعلًا. كدتُ أعترف بجنونه، وذهاب عقله أمامه، لكنّني لم أفعل مقرَّة بيني وبين نفسي أنّه في ذروة الهذيان الذّهني... لقد تحدَّث عن جاسوسةٍ حرّرها بسهولةٍ لتعبرَ لكيانها، وكأنّها وقومها ليسوا أعداءه بتاتًا، أو كأنَّ أشعارَه الوطنيّة والتحريضيّة ضدَّهم وضدَّ السّنباريين بعد ذلك كانت مسرحيّة لا أكثر، أو ربّما تجاهل أنّه يقصُّ حدثًا لا يقومُ به إلّا المراهقون السّذج بينما كان بحسبِ استنتاجي وربطي للأحداث في أواخر الستّينيّات من عمره. أيّ حبّ هذا في هذا العمر الأقرب لعتبةِ القبر منه إلى عتبة المنزل؟ حتّى لو افترضنا أن حقنَ أكاسير الشّباب باهضة الثّمن قد أخّرت تقدّم جيوش شيخوخته سامحةً لحصونهِ بترميم نفسها للمقاومة سنويًّا؛ إلّا أنّها في النّهاية لا تعيدُ الكهل شابًّا عشرينيًّا من الدّاخل ... لقد أفقدته الحربُ والمرض عقلَه بالكامل فتخيَّل على ما يبدو أحداثًا لا تمتّ لتاريخه البطوليّ والنّضالي بِصِلة. **{كم مسكينٌ أنتَ يا شاعري المريض!}.**

لكنّني أعودُ مجدّدًا لأطرح السّؤال ذاته: لماذا أنا تحديدًا؟

لماذا أمتلكُ قلبًا كقلبي؟ أو عقلًا كعقلي؟ أيعقل أنّ أصلان قال ما قاله للسّخريّة منّي؟ حتّى لو فعل فالحقيقة لست غاضبةً منه. يبدو ألّا شيء يغضبني مذ كبرت وعرفت معنى الوحدة والانتقام ممّن لا يستحقّ؛ إذ أمتلك عاطفةً عكسيّةً تكره مَن يعطف عليها، وتحبّ من يسيء إليها في الأغلب؛

عاطفةً تجعل من أعدائي مثارَ شفقتي! فقد بكيتُ كثيرًا على ميمون رغم وقاحته، وتأثّرتُ بما قاله العجّان بل وصافحتهُ في آخر يومٍ من المحاكمة بدموعٍ صادقة.

كثيرون غيري تعاطفوا معه، كثيرون اعتبروه وأولاده ضحيّتنا قبل أن نكونَ ضحيّتهم؛ على النّقيض من الأغلبيّة الّتي كذّبته وسفّهته وزندقتهُ مطالبةً بشنقه في ساحةٍ عامّة، لكنَّ صحفيًّا وحيدًا اشتهرَ بذكائهِ وطريقةِ حواره مِن بين هذه الجموع المتعاطفةِ والكارهة مَن استطاعَ إقناعَه بإجراءٍ مقابلةٍ يتحدّث فيها عن أيّ شيء، كلّ شيء، تحت إشرافِ منظّمةٍ إنسانيّة نفسيّة تُعنى بسلوك وحيثيّات المجرم لدراسةِ وتشريح حالته.

- هي صفقةٌ إذن؟! **تساءل العجّان وقد راح يتفلُ على أرضيّة المكتب الّذي قيد إليه ليجد أمامه رجالا ونساء بملابس وحقائب رسميّة.**

- اعتبرها كذلك.

- وتتوقّعون منّي أن أساعدكم على فهمِ شخصيّة المجرم لمعالجتها؟

- إن تحدّثتَ بكلِّ ما فكّرت وتفكّر به فقد تسدي لنا خدمة الفهم بالطّبع.

- العدل.

- العدل؟

- أوجدوا العدلَ أوّلًا كي تفرّقوا بين مجرمٍ مريض ومجرمِ الصّدفة، أمَّا وقد مالت هذه الكفّة فأنتم أمامَ سوقِ خضارٍ لا أكثر؛ عُرضت فيه الخضروات المهرمنة والطبيعيّة دون أن يعلمَ أحدٌ عن حقيقتها... لمعرفةِ جيّدِها من

رديئها عليكم تذوّقها فقط... إن تذوَّقتم للحُكمِ فقد أفسدتم البضاعة، وإن تركتم الباعةَ وبضاعتهم فسدَ السّوق.

- والحل؟

- اعتنوا بالأرض لا أكثر، ولا تسمحوا للمزارعين أن يهرمِنوا بذورنَا.

رغمَ معارضتهِ فقد استطاعَ الصّحفيّ أن يكتبَ سيرةَ مجرمٍ فعلَ كلّ شيءٍ في مسيرته الإجراميّة إلّا القتل. شخصيتُه أثارت جدلًا غريبًا سيما وقد نشرَ الصّحفي بعض المقالات الّتي جاء بها أنَّ العجّان أنفق من مالِ السّطوِ، والنّشلِ، والسّرقةِ الكثيرَ الكثير على المتسوّلين وأولاد الزّنا واللّصوص ببذخٍ كبير.

- لعلَّك تأثرتَ ***بأرسين لوبين*** فحاولتَ تقليده. **قالها الصحفي مستغربًا من الضحك.**

- من أرسين بوبين هذا؟

- لصٌ ظريف، فعلَ مثلك لكنّه أنفقَ على الفقراء لا المجرمين كما فعلت.

- أنفقتُ على من يهمّني أمره. لم أرجُ ثوابًا كي أشقَّ عن صدورهم لأتبيّنَ فقيرَهم من مجرمهم، لعلَّ أرسين هذا أراد الشّهرة، أمَّا أنا فخشيتها. عشتُ أخشاها طوالَ عمري، فنحن كالخفافيش نحيا في الظّلام حتّى في الخير؛ إن كان ما قمت به خيرًا مِن أساسه.

- هل كان جُّدكَ عجَّانًا؟

- أحدُهم كان كذلك، لكنّه سرقَ فورثنا السّرقةَ منه لا الصّنعة.

- النّاس لا تصدّق قصصك وما ترويه لي.

- هل تصدّقني أنت؟

- الحقيقة، كلا.

- طالمَا أنَّ صحفيًّا مثلك لا يصدّقني، وجموعُ النّاس أيضًا فهذا يدلّ على صدقي.

- إذن سأصدّقك. **ضحك الصّحفي حتّى بانت نواجذه.**

- لا يهمّني هذا، ما يهمّني هو أن تتمّ صفقتنا. الحديث مقابل الإفراج عن ميمون كما وعدتموني.

- لماذا لم تشركه بعصابتك؟

- عائلتك.

- لماذا لم تضمّه لعائلتك رغمَ أنَّ الجميع تورّطوا معك؟

- لم يُرِد ذلك، باختصار.

- هل امتلكَ خيارًا؟

- كلّا، لكنّه فشِلَ منذ صغرِهِ بهذه الأعمال. ظننتهُ جبانًا بادئ الأمر، لكنّه لم يكن، بل لعلّه أوقح أبنائي على الإطلاق، غير أنّه ذهبَ إلى المدرسة فتفوّق على غرار أخته الّتي اهتمّت به، فقالت لي المنحوسة بنت الكيس مرّةً أخرى: «دعه يُكمل ما أردناه لسيف». لم أعد أكترث لتفكيرها ولا هي نفسها

اقتنعت بما قالته، لكنّها قالته وسكتُّ عنه... صدمني حين تفوّق في الثّانوية، وصدمني حين بدا متأنّقًا في ملبسه كصدمتي حين لم ينقض على فريسةٍ من الفرائس الّتي اقتدناها للمكان رغمَ فحولته.

- وما أدراك؟

- أدراني بماذا؟

- بفحولته.

ضحِكَ العجّان من سؤاله ثمَّ تابع:

- صدمني حين انتسبَ للجامعةِ دارسًا ما لا أعلمه. والدته فرِحَت بذلك فحثّته أكثر، وأغدقت عليه أكثر. كلّ ما فعله ميمون في حياته أنّه سكتَ عمَّا يراه. لم يشارك، ولم يساعد بشيء، لكنّه لم يكترث بما فعلناه يومًا.. جريمته هي الصّمت إن اعتبرناها جريمة.

- ألا تعتبرها جريمة؟

- إن كانت كذلك فسكّان الكوكب جميعهم مجرمون لما يصمتون عنه من فظائع وجرائم يرونها تُرتكب بحقّ الجميع.

- لا أجد سببًا يمنعُه من الانخراطِ بأعمالكم.

- باختصار يا أنت؛ ميمون لم يكن مجرمًا رغم بيئته المحيطة، وتعرّضهِ للكثير من المواقف الّتي تدفعه لذلك لكنّه لم يكن. يصلحُ أن يكون محتالًا يومًا أو مهرِّبًا لكنّه لم ولن يصبح مجرمًا.

- وهل التّهريب أو الاحتيال لا يعدّان جريمة بنظرك؟ **رفع الصّحفي حاجبيه استنكارًا ودهشةً.**

تجاهلَ سؤالَه باعتباره سخيفًا وراحت ملامحه تتلمّظ القرفَ من تفاهةِ الصّحفي فاستدرك فورًا ليسأله:

- تقول إنّ صفيّة الكيس لم تكن في أصلها كأنت؛ لكنّها تقبّلت أن ترتكبَ جريمة الاغتصاب الأولى على فراشها! **قالَ ذلك متردّدًا بعض الشّيء كمن خشيَ من استفزازه.**

- وهل كنتَ تتوقّع من امرأة مقترنةٍ بسارق قذر مثلي وقد خسرت بكرَها وأحبَّ البشر إليها جرّاء ثرثرةِ أحدهم إلّا أن تذيقَ الرّجل من الكأسِ ذاتها الّتي تجرّعت مرارتَها بسببه؟

- لكنّ الانتقامَ جرّ سلسلةَ جرائم أخرى...

- وتحوّلات وتنازلات لم تكن لتنتهي.

- هل تعتبر نفسكَ مجرمًا؟

- اخترتُ بعد كلّ شيء أحاط بي أن أكون. المواقفُ الّتي تظنّها الأغلبيّة بسيطة هي الدّافع وراء كلّ شيء عظيم... من الرّقم واحد جاء رقمٌ كبير، ومن صغار الشّرر احترقت ملايين الأشجار في الغابات. البسمةُ الصّغيرةُ أنتجت علماء وعباقرة، والكلمةُ المُحطِّمَةُ أنتجت مجرمين وقتلة.
أعرفُ طفلًا فقيرًا باعَ المناديل الورقيّة أمام الإشارات الضّوئيّة في الماضي البعيد، باعها كي ينفقَ على عائلةٍ يخلو بيتها المتهالك من أبٍ يرعاها... أوقفوه بجانبي كي يستعرضوا وجوهنا، وأمامنا بضائعنا التّافهة في المركز

الأمنيّ بعد حملةِ تنظيفٍ للشّوارعِ من المتسوّلين، والباعة المتجوّلين، وأفراخ اللّصوص؛ فراحَ يصفعنا شرطيٌّ مُستجدّ، ويهزأ بنا، ويسخرُ من ملابسنا وعائلاتنا، حينَ لم يُوكّل له أيّ عملٍ ورأى أنّ بإمكانِه أن يتسلّى بإهانتنا، وشتم دمائنا النّجسة، ووصفنا بأقذع الصّفات.

أمَّا أنا فأضمرتُ في نفسي أن أصفعَه أضعاف صفعاته لي عندما أكبر، وأن أقطعَ يدَه بعدها وأقصّ لسانه... ابتسمت لهذه الأفكار الّتي راودتني حينها وشعرتُ بالسّعادة وكأنّني قمت بهذا فعلا، فلم أعد أبالي بعدها بالشّتم، والصّفع، والرّكل المجانيّ، ولا بأمراضه النّفسيّة الّتي راح يتقيّؤُها علينا مِن فمهِ، ويديه، وقدمِه ليلطّخ بها أجسادَ ووجوهَ أطفالٍ لا ذنب لهم سوى أنّهم فقراء؛ أو أولاد عائلاتٍ قذرة وجدوا أنفسهم دون اختيارٍ منهم جزءًا منها... لم أبالِ لأنّ غدًا لناظره قريب... لكنَّ الغدّ هذا عندما حضرَ كنت قد فقدت كلّ أثرٍ يقودني إلى هذا الشّرطيّ المحظوظ لعدم تمكّنني من الوصول إليه ومعرفةِ أين يكون... أقسمُ لك بأنّني لو عثرتُ عليه ميتًا لنبشتُ قبرَه وبلتُ على جثّته انتقامًا ممّا فعل.

حينها مرَّ أحدُ الضّباط الكبار وقد ارتفع صوتُ الشّرطيّ وزاد حنقه غير المبرر. مرّ مصادفةً فتأمَّلنا ثمَّ راح يتأمّل الطّفلَ اليتيم ذاك. نهرَ الشّرطي بعصبيّةٍ قائلًا له: «مَن أمركَ أن تعنِّفَ أطفالًا بسطاء يخطفون لقمتهم من بين فكيّ الحياة؟ من أنت لتقيِّمَ أخلاق الآخرين وتطعن بأنسابهم من أجل بضاعة مزجاةٍ أمامك، أو ثيابٍ باليةٍ تسترُ أجسادهم؟ هذه النّظرات **وأشار نحونا**. ستجلد ذاكرتك طوال عمرك إن كنتَ إنسانًا، أمَّا إن لم تكن فهناك من سيسترد لهم حقّهم منك، لا محالة».

أعاد لنا بضائعنَا وأفرج عن الجميع لأنّه امتلك القرار، أو لأنّ حميّته ثارت كردّة فعل على تصرّفات الشّرطيّ، أو لأنَّ الإنسان في داخله _كما عبَّرَ عنه_ انتصر لروح القانون.

خرجنا وقد نقدَ اليتيمَ دوننا ورقةً نقديّةً من فئةِ العشرين؛ ولاعب رأسه ضاحكًا سائلا عن أحوالهِ وسبب بيعه للمناديل الورقيّة.

بخبرته وحدسه البوليسيّ استطاع فهم حالتهِ دون غيره، وقراءة واقعه من ملامحه وعينيه... صاحبَ خروجنا دخول سيّدة ثريّة ملأت المكان صراخًا، متّهمةً رجال البوليس بالتّقصير في عملهم؛ إذ إنّهم حتّى اللّحظة لم يعثروا على خادمتها الهاربة. لا أشكّ بدوافعِ هروبِها من سيّدةٍ مثلها تمتلك كلّ شيء إلّا ما يحتاجه الإنسان لكي يكون إنسانًا. راح الشّرطيّ يتحدّث إليها كما يتحدّث البوذيّ لصنمه، والابن البارّ لأمّه، بينما لم يزدها ذلك إلّا عصبيّة وغضبًا. لم يثر عليها ولم يلعنها كما لعننا رغم أنّها مَن امتلأت قذارةً حينها لا نحن.

بعدما عركتنا الحياة وسارَ كلّ في طريقهِ وجدتُ ذاك اليتيم أمامي في مركز شرطةٍ آخر، وقد زُيِّنت أكتافه بنجمة واحدة. عرفته لا لأنّني أعرف اسمه أو لأنَّ ملامحَه لم تتغيّر، بل لأنّه أعادَ كلام الضّابط الأوّل بالطّريقة والأسلوب ذاته، وعدد الحروف والوقفات بين الكلمات ذاتها، بل وبالنّبرة ذاتها كأنّه يخيلُّ إليكَ أنّه تسجيلٌ يعادُ سماعه صوتيًّا عبر فمٍ آخر فقط. وجَّههُ لأحدهم أثناء التّحقيق مع مجموعةٍ من اللّصوص كنتُ مُستجدًّا بينهم، ومضى كما مضى الأوّل إلى مكتبه بخطوات تكاد تكون واحدةً من حيث الهدوء والثّبات ثم لم أره بعد ذلك لأنّني لم أسمح لنفسي أن أقع في قبضةٍ أيّ أحدٍ بعدها...لقد علقَت بذهنِ اليتيم ابتسامة الضّابط ولمسة يده على رأسه

فأصبح مثله تمامًا، بينما علقَ بذهني ما قاله وفعله الشّرطيّ فلم أكترث لسواه.

- وما الّذي علِقَ بميمون برأيك؟

- قلت لك أيّها الغبيّ:«ميمون لم يكن مجرمًا».

(12)

المُنعطف

لا زلتُ حيًّا...

ورغم كلّ شيء، ورغم ما مرَّ بي حتّى هذه اللّحظة لا زلتُ حيًّا.

أستمعُ لعباراتٍ بين الفينةِ والأخرى من ريم حول الغيبوبةِ والموتِ وحثّها لي على النّهوض، أحاولُ أن أجيبَ فلا يطاوعني أيٌّ من أطرافي لهذا.

لعلَّ الحقنةَ الّتي حقنتني بها ***«ليزا»*** قبل حديثِنا المشؤوم هي من فعلت هذا بي. لا زلتُ أشعرُ بانتصاري على هذا المرضِ اللّعين لكنّني استسلمتُ لها يومَ راحت تستجوبني مهدّدةً بقطع..... إن أنكرتُ شيئًا، أو كذبتُ عليها... مذ صادفتها بجانبِ ريم وأنا على علمٍ بأنَّ القادمَ أسوأ من ماضٍ يلاحقني لاهثًا للإطاحة بي، ومذ دخَلت أوّل مرّةٍ غرفتي حتّى تأكّدت فورَ مغادرتها أنَّ نهايتي ستكون على يديها. لقد خدعتني معافًى وبكامل قواي العقليّة والجسديّة قديمًا، وها هي الآن تغتالني بكامل ضعفي وعجزي.

لم أمت في البحر رغمَ أنّه أحاطَ بي من جميعِ الجهات، لم أمت في السّجن رغمَ أنّني تمنّيتُ هذا لحظةَ رؤيتي المراحيضَ القذرة وقد طلبوا منّي تنظيفها... رفضتُ فسحلوني على أرضيّتها لضربي قبل أن يأتي أحدهم مُنافحًا عنّي آمرًا إعفائي من هذا الذلّ الرّوتينيّ.

قضيتُ في زنزانتي سنتين دون أن أتكلّم حتّى لنفسي، لا أمتلكُ الجديدَ لأقوله لكنّني احتفظ بالكثيرَ لأدلي به، لكنّني صمتُّ لأنَّ الحديث مع الجدار لن يفتحَ بابًا فيه.

في البعيدِ يسكنُ الوطن، هناك، حيث يبدو الظّلم أجمل، والذّل أجمل، والموتُ أجمل. هربتُ لبنغازي من أشياء تطاردني عامًا تلو عام دون أن يشعرَ بي أحد، من ضمير يجلدني ليلَ نهار، هربت من عبارات الإطراء الّتي لا أستحقّها، من نظرات القرّاء والجمهور الّذين يعتبرونني بطلاً قوميًّا ومناكفًا للتّطبيع والسّلام مع العدو... لم يعلموا أن شاعرَهم عشق صهيونيّة يومًا وتغنّى بها في أشعاره... هربتُ لبنغازي ثمَّ لفظتني تلك المدينةُ للبحر، فلفظني البّحر للسّجن، فلفظني السّجن للمشفى، ووضعني المشفى تحتَ رحمةِ من لا يَرحم؛ رحمة سيلا الّتي كانت تسمّى في الوطن يوم خدعتني ب ليزا.

كنتُ أنتظر ريم قبل أن تتسمّر سيلا أمامي كأن حضرت من العدم؛ إذ لم أشعر بوجودها إلّا وقد وقفت تحدّق بي كمن يتفحّص شيئًا من مكان بعيد، يحول دون رؤيته له بشكل واضحٍ الغبارُ، والأتربةُ، والبعدُ مع قصر نظرِ الرّائي.

- من الغريب أن نلتقي هنا وبعد كلّ هذه السّنوات الطويلة! **بدت لكنة سيلا أقرب للضّجر منها للسّخرية.**

- الأقدارُ تجبرنا أن نصفّق لها بالنّهاية. **وقد هربت من نظراتها العميقة الطّويلة إذ ارتعدت لها فرائصي.**

- لم أعرفك حقيقة رغم ما أثارته حولك الشّكوك والفضول تلك الحمقاء. سأعترف أنَّ الخبرَ الّذي جاءني من الخارجِ صدمني، قبل أن أصدم بك، أيُّ

أحجية هذه الّتي تحياها، وأردتَ لي أن أحياها بسببك؟! **جاهدَت كي تخفي عن وجهها ملامح الانتظار والتّشوق لما سأقوله.**

- تُصدمين بي؟هي صدمةٌ واحدة كنتُ أنا ضحيّتها لا أنتِ.

- تتحدّث وكأنّك أصلان فعلًا!

- ومن عساي أكون إن لم أكنه؟! **لم أفهم مقصدها من هذه الجملة.**

ضحِكَت بقرفٍ واضح قبل أن تجلسَ واضعةً قدميها على أطراف السّرير كنوع من الاستهانةِ بي أو تحقيري.

- أمَّا صاحبك أصلان فقد أتقنَ أكاذيبَه أكثرَ منك.

- صاحبي؟!

- وارتدى ثوبَ الوطنيّة والعنجهيّةِ باحترافيّة أكبر. ما يحيّرني هو كيف استطعتَ إقناعَ هذه السّخيفةِ أنّك شاعرُها المفضّل رغم أنّها تحفظُ شعره وتحاكي أسلوبَه أكثر منه؟ إنّها مولعة به أكثر من ولع زوجته المخدوعة به، ألم تكتشف هذا من طريقةِ حديثها إليك؟!

- تتحدّثين إليّ وكأنّني شخص آخر يا ليزا رغمَ معرفتك بي جيّدًا.

- نعم بالتّأكيد، مشكلتي أنّني أعرفُ أصلان جيّدًا بالقدر الّذي أعرفك به تمامًا، أتظن أنّي قد أتوه بينكما يا صديقي؟! أم تراك ظننتني البلهاء ريم كي تقنعني بشخصيّتك الجديدة؟ عدمُ اكتراثي بدايةً بك كان لظنّي أنّك مجنون فقط، لكنّهم أكّدوا لي أنّك كنت مع أصلان في الانفجار، ونجوت بأعجوبة.

- من الحمقى الّذين أكّدوا لك ما لا أعرفه.

- ليسوا حمقى، قومي لم يكونوا حمقى يومًا.

راحت تضحك بينما أحجمتُ عن الكلامِ تحت وطأةِ غضبتها ومحاولتها حتّى على الكلام؛ قبل أن تقف ريم مندهشةً من أواخر الحديث الّذي لم تتبيّن حقيقته بالكامل من هول صدمتها.

غادرَت الغرفةَ متجاهلةً ريم واثقةً أنّني لن أتحدثَ إليها مجدّدًا مهما فعلت، فظننتُ أنّها لن تعودَ إلّا إذا عزَمت على قتلي بيد أنّها عادت مجريةً الفحوصات تلو الفحوصات؛ بحثًا عن سراب لهثت وراءه يوم قادتني الأقدارُ للوقوعِ بين يديها.

رأيتُ موتي بدايةً في عينيها، وحياتي في عيني ريم، غيرَ أنّي رأيت العشقَ بعدها في عيني سيلا والموتَ في عيني ريم، ثمَّ عادت نظرةُ الموتِ والحياةِ لأصولها اللحظيّة **{هي نظراتٌ لن تتقنَ ترجمتها مهما ادَّعيت الذّكاء، فالنّظراتُ مهما فُسِّرت لن تفوقَ وضوحَ الكلمةِ المسموعة}.**

- لماذا انتحلتَ اسم معروف ثمَّ أصلان، ثمَّ تنكّرتَ لهما مجددًا؟ **صرخَت بها سيلا أثناء حقنها لي وكأنها تريد دمجَ هذه الجملة مع الحقنةِ كي تسري بدمي.**

- لم أدَّعِ شيئًا، بل لا يهمّني ما أحمله من أسماء طالما أنّ الموت زائري لا محالة، كلّ ما أودّ أن تعرفيه أنّني أحتقرك بالقدر الّذي احتقرت فيه نفسي بسببك.

- ادّعاؤك هذا لا يهمّ أحدًا يا سيد معروف الّذي ليس بمعروف هذا أيضًا.

- فليكن. لا رغبةَ لي بالبقاء أكثر، لكنّني بالتّأكيد أعرف نفسي أكثر منك.

نعم فلا رغبةَ لي بالبقاء حقّا تدفعني للصّراخِ لو استطعت أو منعها من حقني، بل ها أنا أستسلم لأنّني أريدُ الموتَ أكثرَ من أيّ شيءٍ الآن.

أشعرُ بمفعول الحقنةِ يسري في أوردتي شبه الميّتة فتحدث كيًّا فيها، أشعرُ بماءِ نارٍ يوقدُ ذرّات جسدي فأكادُ أشتعل من الدّاخل، أشتمُ رائحةَ القبرِ من خلالها دون أن أقاومها وقد تشنّجت بالكامل... اللّعينةُ لم تكتفِ عندما كانت ليزا في الوطن بحقن قلبي بعقار الخيانة، بل ها هي الآن تقضي عليّ بتهمةٍ لا أتبيّن حقيقتها ودوافعها.

أسمع وقعَ خطواتها تبتعد، ثمَّ تبتعد، ثمَّ أستمع لصوتِ الأطبّاء يجتمعون حولي ويباشرون عملَ ما يلزم عمله لمفارقِ الحياة بلا حماسة. أسمعُ صوت دن بينهم وهو يساعدهم ويذكرُ مسمّيات طبيّة لا أفهم معناها... نعم هو صوتُ دن الّذي تكوّنت تقاطيعُ وجهه من الانتقام والحقد والكراهية وقد وجدته أمامي في اليوم التّالي من وجودي في المشفى منتظرًا استيقاظي من النّوم. سلّطَ جوارحَه عبر عينيه طويلا دونَ أن ينبس بحرفٍ واحد ليُشعرني بعد دقائق بدت أطولَ من سنين عمري حينَ أغمضهما ببطءٍ ثم صوّبهما نحو الأرض أنّ خيبةَ أملٍ كبيرةٍ اجتاحت كيانه.... عاودَ تكرار هذا التّصرف بين الفينةِ والفينةِ ثمّ لم أعد أراه إلّا في كابوس كان في أحداثه البطلَ الأوحد، إذ جثمَ على صدري بجثّته الثّقيلة متحدّثًا بأحاديث مجنونة؛ مطبقًا بيديهِ دون أن أقاومه على رقبتي وسط فزعي من جنونه ووحشيّته؛ ليحدّقَ بقسوةٍ في عينيَّ الجاحظتينِ المستسلمتين للموت ويمضي قائلا وقد حرّرني من بين يديه وجسده: «لا لست هو، لا يمكن أن تكونه»... استقمتُ فزعًا متحسّسًا رقبتي وضلوعي مقسمًا أنّ حدثًا كهذا لا يمكن أن يكونَ خيالًا و وهمًا. شعرتُ أن دن اخترقَ منامي بطريقة أو أخرى، وأنّه في تلك اللّحظاتِ كان يقومُ بدوره

في منامِه كما قرّرَ وأراد فعايشنا الكابوس سويّةً؛ واستيقظنا سويّةً دون أدنى شكٍّ لا يمكن إثبات يقينَه مطلقًا.

وها قد جاءَ وسط هذا الفريق لإنقاذي، قد أموت الآن بسبب تصرّفات هؤلاء المجانين لا خوفًا من جنونهم. أسمعُ أحدهم يقول: «فقدناه»، ثمَّ يحاول آخر بطريقةٍ ما إنعاش قلبي فيعودُ للعملَ من جديد وسط دهشتِهم، أستمع لضحكاتِ ريم وشكرها لله قبل أن تشكرهم محتضنةً يدي باكيةً بحرارة.

يقول طبيبٌ بينهم: معجزة، كيف لهذا الجسد أن يقاوم جيوشَ هذه الأمراض؟ ما يحدث لا يُصدّق.

- هو بخير؟ **تتساءل ريم كمن تجيبُ نفسَها.**

- لقد دخل في غيبوبة.

يقولها الطّبيبُ ويمضي كآخر الذّاهبين، بينما أبقى غير قادرٍ على الكلام رغم إحساسي بكلِّ شيء يدور حولي.

لم أشعرُ بعدها بالوقت ولا بالمكان، فكلُّ ما أراه الآن في عتمتي وضياعي هو وجهان لشخصين أعرفهُما جيدًا... وها هو واحدٌ منهما يتراءى أمامي بكامله وكما أعرفه ويعرفني لأنّه أنا... نعم أنا... أنا وقد مشيتُ بدهاليز عوالم رماديّة الواقع والمجهول تفقدُني اتّزاني الفكريّ بالكامل.

يتلاشى وجهي كلّما مرّت الدّقائق البطيئة في درب ساعاتها الثّقيلة؛ فيحتلُّ الوجه الآخرُ ملامحي، وصوتي، وطريقتي فيسيرُ قافلًا لروحي محتلّا لها بالكامل.

لقد فارقتُ هذا الكائن بكلِّ ما فيه ورفضته حتّى قضيتُ عليهِ داخلي، وها هو الآن يعودُ إليّ بعد ضعفي مستغلًّا غيبوبتي من باب الذّهول، والصّدمةِ، والخوف مجدّدًا.

حاولَ أن يُبرزَ نفسه ويُشهرَ طيفه أحيانًا في حديثي مع ريم لكنّني حجّمته ونبذته كما يطردُ المؤمن وساوسَ الشّيطانِ عن أفكاره ونواياه.

يقترب، يقترب أكثر، يأتي من غياهبي، من الماضي البعيد والقريب، يأتي من حيث لا أدري، من منطقةِ الذّنب وجلدِ الذّات، يقتربُ وفي كلّ خطوةٍ يقتربُ بها منّي أراني أنسى الأشياء القريبة والزّمن الأقرب. حاربته بعد موت سمير ومساعدة سيلا للهروب ودحضته، حاربته بعد الانفجارِ وهزمته، حاربته في البحر وأغرقتُه، حاربته في السّجن وسحقته، حاربته في المشفى وصارعته بكلّ ما أوتيت من عزيمةٍ خائرة، فاستأنَفت هذه الحربُ القديمة نفسَها من جديد... تربَّصَ بي هذه المرّة جيّدًا حتّى وجدَ الفرصة المناسبة للانقضاض عليّ.... ها أنا الآن أتخلى عنّي له، أتخلّى عن ذاكرتي ولساني له، للكائن الّذي يلاحقني داخلي منذ عرفتهُ خارج جسدي، فيحتلّني بالكامل دون أن أستطيعَ مقاومته وردّه مدحورًا... كلّ شيءٍ الآن في ذاكرتي يبدو ضبابيًّا، كلّ شيءٍ يقتربُ ويبتعدُ في دوّامة تتقاذفني بين عججها كي أراه وأسمعه بصعوبةٍ بالغة.

ها أنا الآن أتلاشى، أرتعش، يتحرّك داخلي كالمصروع، ثم يبزغُ بالكامل لحظةَ أفولي، ها هو الآن يصرعُني ويطرحني أرضًا في أغوار حياتي، أتبدّدُ أمامَه بعد أن كنتُ قد استرددتُ نفسي، وقد أفقدني إيّاها مرّة قبل أعوام وأعوام..

الآن أنا لستُ أنا... **لستُ أنا** ... **وها أنا أتنفس** بطريقةٍ مختلفة، وها أنا أراني جيّدًا، أراني وأستحضرُ وجهَ أصلان وهو يتحدّثُ إلى ريم وقد جلسَت سعيدةً بكتابةِ ما يريد. لا أتذكّر جميعَ ما قاله لها لكنّني أعرفُ كلّ شيء عنه

قديما، وها قد ساعدني بإعادةِ ما قد نسيته عنه. سمعتُ الكثير من الأشياء أثناء تربّصي به، هزمتهُ أخيرًا بعد هزائمي المتكرّرة أمامه، هزمته قبل ذلك بأعوام عديدة؛ بيد أنّه استردَّ ذاته مجدّدًا منتصرًا عليّ، ومنذ ذاك الحين وأنا أُدحر أمامه رغم جميع ما مرّ به من أهوال.

من أنا؟ سؤالٌ أجد جوابين متناقضين داخلي للردّ عليه.

مللتُ الفرار من نفسي، ومن ذاتي، ومن الماضي بكلِّ ما يحملهُ فظننتُ أنّني سأتوقف عن هذا طالما أنَّ غرف المشفى تمنع الأصحّاء قبل المرضى من الهروب من وإلى أيّ شيء، بيد أنّي هربتُ مجدّدًا منّي عبر لساني لا جسدي.

مَن أنا؟ سؤالٌ قد يدفع آخر يحيا معي في الوقت نفسه أن يقول لي: أنا لستُ أنت، وأنتَ لستَ أنا.

مَن أنا؟ سؤالٌ يسأله سيفٌ لمعروف أو معروفُ لسيف فلا يجيبُ أحدهما الآخر.

الآن وفي هذه اللّحظات فقط أعودُ لأعوامٍ جعلتني أفقدُني بالكامل.

فقدتُني حتّى نسيت أن سيلّا الّتي تحدّثت إليَّ وحقنتني هي ليزا الّتي عرفتها وجالستها لمرّات في الماضي البعيد، الآن فقط أتذكّرها وأتذكّر وجهها اليهوديّ الجميل.

وها أنا حين لم أمت أراني أحيا الماضي ليصبحَ حاضرًا، بينما يفرضُ وجهُ العجّان ملامحَه أمامي من جديد. يفرضُ نفسه لا لأنّ ريم حدّثت أصلان عنه بحضوري في أعماقه، بل لأنّني أعرفه أكثر منها.

أعرفهُ وأحفظ نظراتِه الحادّة الّتي أطلقها في المحكمةِ قديمًا. وزَّعها ليراه مَن يبحث عنه، ويقولَ له: «أنا هنا». لكنّه لم يفعل، ظلَّ صامتًا لأنّه هربَ من ماضيه كثيرًا فلمَّا لحق به استسلمَ له بصمت، استسلمَ ووشى بوالدهِ وعائلتهِ بعد تأكُّدِه بأنَّ الفتاةَ الّتي راودَها عن نفسها لم تكن إلّا أخته.

- الفتاةُ في الدّاخل...

قلتُها فظنّت ريم بأنّني أقصدُها في الوقتِ الّذي ظنَّ فيه العجّان أنّني أقصدُ فتاةً وجدتها فريسةً قبلَ شهرٍ على فراشه، بينما كنتُ أقصدُ بهذه الجملة فتاةَ البنك الّتي راودتُها ثمَّ قابلتُها ثمَّ تحرَّشتُ بها لتسلبَ كرامتي، ورجولتي، ومالي...

لاحقتُها بعد أن قفزتُ عاريًا من السيّارةِ مرتديًا ملابسي مضمرًا أن أنالَ منها على الفور تحت أيّ ظرف وفي أي مكان لجأت إليه، لأجدها بعدما كدتُ أفقدها وقد دخلت منزلَ والدي العجّان. جلستُ مُراقبًا متوقّعًا ما يدور في الدّاخل دون أن أدخلَه كفرد منهم، فهذا والدي، هذه والدتي، هؤلاء إخوتي، وهذه هي أختي. أختي العاهرةُ دون أن أدري، ولا بد أن هناك فريسة انضمّت لشمل هذه العائلة مؤخّرًا؛ فكان انتقامي منه ومنّي ومنها أن نستسلمَ جميعًا للعدالةِ.

وقفتُ مراقبًا ووقفَ الآخرُ في مكانٍ قريبٍ منّي دون أن أراه أو يراني، أرادَ أن يقولَ ما لا أعرفه، وأراد ما لم أحط به علمًا وقد رأى العجّان يصطادُ بدينةً في مكانٍ ما ثمَّ يستدرجها إلى هنا ويجرّها بعد ذاك إلى الدّاخل بالقوّة.

أرادَ تخليصها، أرادَ أن يكونَ سواه حينها فلم يستطع، صرخاتُ الفتاةِ أقضَّت ماضيه وحاضره، خوفها لامسَ وجعه، لمعَ بريقٌ بعيد من مكانٍ بعيد أمامه

فجأةً فاتّصلَ بالبوليس وانتظر كما انتظرتُ؛ مدركًا أنَّ احترامهم لاتّصاله مَن جاءَ بهم على وجهِ السّرعة لا اتّصالي.

انتظرَ بعيدًا عنّي رغم قربه منّي، وانتظرتُ بعيدًا عنه رغم قربي منه. كلانا أراد شيئًا من داخل بيت العجّان، وكلانا اتّصل بالشّرطةِ لأهدافٍ مختلفة. وكلانا دخل بيت العجّان ورآهم دون أن يدخل إلى بيتهم.

- الفتاةُ في الدّاخل.

{عن أي فتاةٍ تتحدّث؟ عن فتاةٍ أردتَها فإذ بها أختك؟ أم عن فتاةٍ لا تعرفها قد يعرُفها آخر؟}.

- الفتاةُ في الدّاخل.

{عن أيّ فتاةٍ تتحدّث؟ عن فتاةٍ لا تعرفها وقد لا يعرُفها آخر؟ أم عن فتاةٍ يعرفها الآخر لأنّها أخته؟}.

-«الفتاةُ في الدّاخل، في الدّاخل رضا جاءَ بها إلى هنا». **{مَن قالَها أوّلًا أنتَ أم هو؟، من كرّرها ثانية أو سبق إليها، أنتَ أم هو؟}.**

رأسي سيتفجر فها هو الآن يحاول مقاومتي لكنّني أسحقهُ بإرادتي؛ إرادة الظّهور والسّيطرة عليه. ولن أتساءل: لماذا كنتما حينها في نفس المكان؟ وأردتما الشّيء ذاته بطرقٍ وأسبابٍ مختلفة؟

«الفتاةُ في الدّاخل، في الدّاخل، رضا جاءَ بها إلى هنا». لستَ مَن قالها بل هو، قالها بصوتك، بطريقتك، بهدوئك، قالَ ما أردتَ قولَه لكنّه ليس أنت. وقفَ خلفَك، لم ترَ ملامحَه جيّدًا. الظّلامُ من حجبَ نصفه، لكنّك سمعته، سمعتَه كما سمِعتْهُ ريم والبوليس والعجّان لكنّه ليس أنت.

{كيفَ لك أن تخرجَ من نفسك؟ وتقفَ خلفَك؟ ثمَّ تغادرُ تاركًا إيَّاك؟ كيف انسلختَ روحًا وجسدًا في لحظةِ الحقيقة؟ هل أنا من كنتُ خلفي وشاهدتُني مع البوليس أم آخرُ قالَ ما أردتُ قولَه وسبقني فيما أردتُ فعله؟}.

صرختَ حينها: «ساعدتكم فاسمحوا لي أن أرحل، هذهِ النّهايةُ، ولا أودّ أن أراها أرجوكم». أنتَ من قالها لا هو، أنتَ بينما صمتَ هو وغادر دون أن يعود.

تبخَّرْتَ من المكان، هربتَ من عيونِ العجّان الّتي لا ترى مترًا أمامها، ثمَّ تمازجتَ مع الألوان البشريّةِ في قاعةِ المحكمةِ لتتوه في الجموع الّتي تتشابهُ فيها الظّواهر وتختلف البواطن، تمازجتَ وحدك دونَه قبل أن تلاحقَه بعد ذلك بحثًا عن ذاتك الضّائعة.

(13)

هناك

جلستُ في غرفةِ التّمريضِ وقد بدأ اليأس يتسلّل لقلبي مستبعدًا عودته مجدّدًا إلى الحياة من غيبوبته، وبين دعواتي وتضرّعي أن يعودَ وبين جشعي شعرتُ بحاجةٍ ماسّةٍ أن يستيقظ كي أشعرَ أنّني لستُ وحيدةً في هذه الدّنيا...

تذكّرتُ حديثَه عن حبيبته فتمنّيت لو كنتها ورحتُ أتخيّل قصائدَه الّتي كتبت لي وبي. ابتسمت قبل أن تحتلَّ معالم البلاهة كامل ملامحي لتذكُّرِي شيئًا كنتُ قد قرأتهُ يومًا وضاعَ في مجاهل النّسيان؛ فقد قفزَ أمامي دون سابق إنذار الجزء الثّاني من الحوار الّذي أجراه الصّحفي مع العجّان تحتَ عنوان: «ميمون لم يكن مُجرمًا» فضربتُ يدي بجبهتي تعبيرًا منّي عن مدى سخافتي، مؤنّبةً عقلي كيف أنّه لم يستحضر هذه القصّة من ذاكرته رغم وجودِ رابط عجيب بين ما حدّثني به أصلان عن موت سمير وحبيبته؛ وبين حديث العجّان للصّحفي الّذي كنتُ قد نسيته بالكامل، وتذكّرته تلك اللّحظة فقط.

راح العجّان يومها يقصّ على الصّحفي قصّة الجريمةِ الفاشلة الّتي تركت آثارًا غريبةً في أواخر مسيرته وقد سأله عن تفاصيلها فقال له:

- ***لقد*** حوَّلتني تلك اللّيلة من لصّ محترف ومجرمٍ ماكر إلى لصٍّ يشعرُ بأنّه قد فاته الكثير، حيث كان عليه أن يكونَ جزءا من كلّ شيء، ويكتشف

مبكّرًا كيف يرى الآخرون العالم؛ لكن كان ذلك في الوقتِ الضّائع من تاريخي... بدأ الأمرُ حينما رميتُ بنفسي أمامَ تلك الشّابة الثّريّة فدهستني ولم تتوقف. أكمَلت طريقها كمن دهست جُرذًا لا إنسانًا فأضمرت الانتقامَ بشكلٍ لم يسبق أن فكّرتُ به... أرقامُ اللّوحةِ أرشدتني بعد أسابيع لمنزلها، وبعد مراقبةٍ امتدت ليومين قرّرتُ التّسلّلَ واختيارَ الوقتِ المناسبِ للانقضاض عليها وعلى زوجها طالما أنّه لا يسكنُ غيرهما المنزل. **{عليكَ فقط أن تبقى هنا مختبئًا حتّى يستغرقوا تمامًا في النّوم... ابدأ به أوّلًا وخدِّره وقيّده ثمَّ انتقل لها، اسحقها أمامه كما سحقتك ومضت غير آبهةٍ بك}.** انتظرتُ طويلًا لكنّه أشهرَ مسدّسًا تناوله على عجالة من أحد الأدراج حين اندفع إلى غرفة المكتب مما أوقعَ قلبي. **{لقد اكتشفَك يا غبيّ! سيقتلك}.** لكنّه لم يتّجهِ نحوي _وقد اختبأتُ خلفَ كنبةٍ عريضة_ بل نحوَها وقد أوثقها بعد جرِّها بعنف خلفَ مكتبٍ وسط ذهولها ومقاومتها. رأيتُ قدميهما وسمعتُ صوتَ الأقسام فارتعدت أكثر، لقد فعلتُ كلّ شيءٍ في حياتي إلّا القتل، وها أنذا أخشى أن أرى قتيلةً أردتُ اغتصابها. دارَ نقاشٌ لم أفهمه بدايةً... اتّهَمَها بالخيانةِ، بالجاسوسيّةِ للكيان الصّهيونيّ، بالدّعارةِ، بتصفيةِ شخوصٍ، وخداعِ شخوص، ورغمَ صلابتها إلّا أنّها راحت تتوسّلُ إليه أن يستمعَ لها باكيةً عاويةً بشكلٍ استفزازيّ...

- لا أعلم عن هذه الأوراق شيئًا، أقسم لك. **راحت تبكي مدقّقة في الورق الّذي راح يعرضه زوجها عليها وهي جاثمة على الأرض.**

- لعلَّ أحدهم زوَّر خطّكِ أيضًا. **قالها ساخرًا.**

- ليس خطّي.

لو اكتشفني حينها لكنتُ أنا من وضعَ تلك الأوراق، ومَن زوَّر توقيعها؛ فقد كان غاضبًا وشرسًا منتظرًا بصبرٍ المتحفّز جوابًا مُقنعًا ولو كاذبًا كي يصدِّقها. لم تقل الحقيقة ولم تكذب، فقد انهارت باكيةً مولولةً مذكِّرةً إيّاه بعشقها له، ولحظاتهما الحميميّة.

{سيقتلها وما زالت لا تفهم ما يريده منها هذا الرّجل.. أيّتها الغبيّة قولي له ما يريد سماعَه فقط... قولي ودعيني أنجو من هذا الجحيم... لعلّها حسناء جدًّا}.

قلتُ هذا في نفسي رغمَ أنّني لم أتبيّن ملامحها جيّدًا أثناء الحادثةِ أو من مكاني ذاك، لكنَّ صوتها بدا مزعجًا أو أنّه إزعاج الصّوتِ حين يختلط الخوف بالبكاء، بالرّجاء.

- لا أعلمُ عن هذه الأوراقِ شيئًا. **قالتها بثقة وحدّة وتحدٍّ.**

- والتّسجيلات والمقاطع؟

- لا علاقة لي بها ثم لو كنتُ أعلم أنّك تخونني على فراشي مع صديقتي لمَا بقيت على ذمّتك لحظة واحدة.. أنتَ تبرّرُ خيانتك وعهرك أمام نفسك.

صفعَها صفعةً آلمت خدّي أنا باعثةً لعيني إشارةً بذرفِ دمعةٍ سريعةٍ منها.

- أرجوك. **بتذللٍ وغنج.**

- قولي الحقيقة.

- لا أملكها، لكنّني قد أدلُّكَ على مَن يملكها.

- من؟

ذكرَت حينها اسمًا غريبا لم أتبين حروفَه جيّدًا إلا حينَ حضر وتردّد الاسم بعدها أكثر من مرّة، وما إن زوّدَته برقمه حتّى دعاه للمنزلِ تحتَ حجّةِ الظّرف الطارئ والأمر الغاية في الأهميّة. حضرَ سريعًا مصدومًا ممّا رآه، لم أره بالطّبع، لكنّ أقدامه دلّت على صدمته أثناء تقدّمه السّريعِ وتراجعه لخطواتٍ واسعة؛ ثمَّ تقدّمه البطيء بحذر، ثمَّ جلوسه بالقربِ من مخبئي.

- جاسوسة؟ **قالها القادم بصوتٍ يفيضُ بالدّهشةِ، والمفاجأة، والصّدمة.**

- وأكثر من ذلك، انظر إلى هذه، وهذه، انظر هنا. **سمعت صوت أوراق واحتكاك أشياء بلاستيكية ومعدنيّة بعضها ببعض.**

رحتُ أستمع لبعض التّسجيلات الغريبة: أحاديث، وألغاز، وثرثرات لا تفهمُ ما يريد قائلُها ناهيك عن أصوات همهمات رجل بصحبةِ أنثى على سريرٍ حار، ثمَّ استمعتُ لصوتِ أوراقٍ تُقلَّبُ على عجلٍ، وهمهماتٍ تصدرُ من الزّائرِ الّذي كان يعلمُ بوجودي مذ دخلَ الغرفة. علمتُ هذا حينَ سألَ الزّوجَ: هل نحن وحدنا؟

- أأنتَ واثق من هذا؟

- بالتّأكيد.

ضربَ بحذائه الأرض بضع ضرباتٍ سريعة، ثمَّ استراحَ على الكنبةِ، حينها أغمضتُ عيني واستسلمتُ لقدري...

{لم تقع يومًا في قبضةِ أحدهم، وها أنتَ الآن الفريسةُ لماكرٍ يتلاعبُ بأعصابك كما تتلاعب بأعصاب ضحاياك... هيّا. اخرج من مكانكَ واستسلم، دع الزّوجَ يقتلك، حياتك لا تعني أحدا، لن يكترثَ لموتك أو حياتك إنسانٌ على هذه

الأرض... لكنّني لا أريد الموتَ قبل أن أرى سيفا، لم يعد مذ رحل، فقط أريد أن أراه ثمَّ لأذهبَ بعدها للجحيم. الجحيم خُلقَ لأمثالي، أظنُّه كذلك. إذن انهض وتوّسلَ لهم أن يسلّموك فقط للبوليس دون أن يقتلوك. قل لهم: جئتُ سارقًا، ولم أسرق، ابكِ كما كنتَ تبكي صغيرًا متوسّلًا للمارّةِ أن ينقدوكَ عملةً واحدة، ابكِ هذه المرّةَ بصدق، لا تكذب، ابكِ وقل لهم: أريدُ أن أحيا فقط لأرى سيفًا ابني، فقد خرجَ ولم يعد، ابكِ فلعلّها الفرصةُ الوحيدة أمامك أن تبكي بصدق، أن تتألمَ بصدق، أن تشعرَ بأبوَّتك بصدق... لا، لا تفعل، لعلّه قالها مصادفةً، لو رآكَ لأخرجك من مكانك. اغمضْ عينيكَ كالنّعامةِ واستسلم لقدرك، لا تذهب إليه، عشتَ طوالَ عمرك هاربًا منك، من ماضيك، من عالمك، فإيّاك أن تمشي لقدرك، انتظره فقط، لا تسر نحوه فلم تخلق لتسير إليه بل ليطاردك}.

- هلّا تركتَنا وحدنا؟

- أثق بك. **تردَّدَ قبل أن يوافق مغلقًا الباب بعدها بعصبيّة.**

- أنت يهوديّة؟

- نعم، هذا صحيح.

- جاسوسة؟

- بالتّأكيد.

- هل قتلتِ صديقي؟

- كلا.

- ما الّذي يدعوني لتصديقك؟

- عيناي.

{ لقد قالت له تمامًا ما أراد سماعه... أقسمُ أنّها مَن قتلت صديقَه، الّذي لا أعرفه هذا، لكنّه أراد تصديقها}.

- لماذا أنا تحديدًا؟

- أحببتكَ فقط، لم أعشق سواك، كانت صدفة.

- هل عليَّ أن أصدّقك؟

- صدِّق هذه فقط، وكذِّبني بما شئت.

- ما هو المطلوب منّي؟

- أريدُ العودةَ إلى وطني.

- لا تملكينَ وطنًا لتعودي إليه.

- أمتلك العبورَ، فدعني أعبر إليه، أرجوك.

لقد اغتصبتُ وسرقتُ ألفَ امرأةٍ، لقد تاجرتُ بكلِّ شيءٍ إلّا أنّني لم أخن ذاك الوطن الّذي تحدّث عنه هذا الرّجل. لم تُتح لي الفرصة لخيانته بالطّبع لكنّني في المحصّلة لم أفعل، أمّا هوَ فقد راح يتحدّث للزّوجِ عن أمورٍ لا تقنعُ حتّى جاهلًا يقبع خلفَ الكنبة.

- ذهابُها يعني النّهاية، لقد حصلَت على معلوماتٍ وفضائحَ لو نُشرت فسيخسرُ الكثيرون الكثيرَ يا صديقي، ستذهب وقد عقدنا الصّفقةَ بدفنِ كلّ شيءٍ هنا مقابل عبورها للوطن.

- كيف سنثق بها، بهم؟ أنت تعلم.

- ثق بي أنا فقط، ما يجعلني واثقًا منها هو شيءٌ لا أملكُ دليلًا عليه.

ظننتُ أنَّ الأمرَ انتهى حين ساد صمتٌ ليس بالقصير بدا كافيًا لموافقة الرّجل على اقتراح الزّائر؛ الّذي اتّجه بعدها بهدوء نحوي ممسكًا بي من ياقتي؛ كجرذٍ يلفظُ أنفاسَه الأخيره بين أصابعه وقد التقطه من ذيله؛ مُخرجًا إيّاي بثقةٍ من مخبئي وسط دهشتهما ممّا اكتشفه هذا الثّعلب... ثم نزع قناع وجهي بهدوء.

- من أنت؟

- رضا. **هزَّ رأسه بتوتّر كي أكمل.** سارقٌ دخلَ إلى هذا المكان المشؤوم فأيقنَ بموته. **تسارعت كلماتي متزامنةً مع لهاثي.**

نظرَ إليّ متفحّصًا وجهي وجسدي ويدي بطريقةٍ غريبة... أطال النّظرَ أكثر ممّا ظنّنا جميعًا.

- قد رأيتكَ يومًا، أنا أعرفك.

- مثلك لا يكذب بالتّأكيد، لذا سأصدقك... لكن أين؟

- في حُلمي.

- حُلمك؟! **كدت أن أضحك لسفاهته غير أنّي خفت منه فهززت رأسي متلبّسًا الجدّيّة.**

- رأيتُ غزالًا بدينًا وقد أطلقتَ عليهِ سهمًا أخيرًا من كنانتك، لم تصبه لكنّه استسلمَ لك قبل أن أجيء وأخلّصه منك، كدتَ أن تقبضَ عليه مجدّدًا لكن ضلعًا حديديًّا حادًّا سقطَ من أضلاع صدرك ليستقرَّ في قدمك فأقعدك عن اللّحاق به، وشلَّ أطرافك بالكامل...

- تحقّق حلمُك إذن. **قلتها مداراةً له أملًا بالنّجاة.**

- من يدري؟

- لقد شعرتَ بوجودي فورَ دخولك، هل هذا صحيح؟

- ممكن، من يدري؟ **ابتسم قبلها دون أن تتغيّر ملامحه.**

- لماذا تجاهلتني؟

- القدرُ جاءَ بك شاهدًا فرضيتُ بشهادتكَ علينا.

- بما أنّه جاء بي وشهدتُ وشاهدت فهل قدّرَ لي بعد الشّهادة أن أذهب؟ **قلتها فبدوت كبخيل انتهى من عدّ ماله وتجهّزَ لإغلاق قاصّته عليه.**

- ستذهب حين تعدني أن تنسى ما حدث هذه اللّيلة، أن تنسى أسماءنا ما حييت.

- سأفعل.

- أصدّقك.

- كيف لمثلكَ أن يصدِّقَ مثلي؟ الوعد للشّرفاء يا سيدي، ولستُ منهم.

- كن شريفًا معي إذن.

- وستصدّق أنّني سأفعل؟

- سأصدّق إن وعدتني.

- كيف لمثلك أن يصدِّق مثلي؟ **قلتها غاضبًا أو كأنّني أحتج عليه.**

- هل تشعرُ أنّني أختلفُ عنكَ كثيرًا؟

- كلا. **قلتها بعد أن صمتُّ وتردّدتُ كثيرًا مطرقًا برأسي للأسفل.**

- إذن عدني.

- أعدك.

- بإمكانك الرّحيل.

التزمتُ بهذا الوعد لا لأنّني وفيٌّ أو راقَ لي ذلك. التزمتُ بوعدي شعورًا منّي بأن ما سمعته ورأيته أكبر من إمكانيّات الشّر الّذي أعرفه، والجرائم الّتي أرتكب... أنا بالنّسبةِ لهؤلاء قدّيسٌ بريء لم يكن للشّيطان عليه سلطان مذ احترف السّرقة. لقد تملّكني الخوف كما لم يتملّكني من قبل. شعرتُ بأنّ مجرّد التّفكير بالأمر فقط قد يحرّض قطيعًا من الضّباع لافتراسي وعائلتي دون رحمة؛ ناهيك أنّ هذا الرّجل هو الوحيد مَن تحدّثَ لي ورآني كما لم يرني أحد من قبل. لقد تفحَّصني بنظرةِ استكشاف لا استحقار، لقد أطال النّظرَ لي لا علي، لقد سامحني وتركني أرحل دونَ أن يعاقبني، دون أن يوبّخني، دونَ أن ينصحني ويعظني... لقد عاملني كإنسانٍ أخطأ فقط، دخلَ ليسرقَ فقط، لم يتّهمني بما نويتُ فعله، لقد حكمَ على واقعي لا داخلي. إنّها المرّةُ الأولى

الّتي أقف بها أمام من يراني مخطئًا؛ كما يرى نفسه مخطئًا فلا يفاضل بين خطئي وخطئه... هذا الخائن بطلٌ قوميّ، قد تعتبرهُ أنتَ خائنًا للأمّةِ والأرض والعرض؛ قد يبدو تاجرًا للمبادئ والأخلاق لكنّه بالنّسبة لي أفضلُ مَن على هذه الأرض.

نسيتُ اسمه احترامًا له، لوعدي... نسيته لكنّني طالما رأيته على التّلفاز، طالما سمعتُ اسمه وصوته على موجات الإذاعة.

- ولماذا برأيك أحبَّت فتاة مثلها رجلًا يجايلكُ تقريبًا كما وصفته لي؟

- لم أسألها هذا السّؤال حقيقة. **نظر إليه باستخفاف حينها.**

- هو مشهورٌ إذن. **سأله الصّحفي بخبث ليصطادَ معلومةً مِن على لسانه.**

- دعكَ من هذا، لكنّني لطالما تمنّيتُ أن أقول مؤخّرًا لعائلتي، للمساجين والمجرمين: أقسمُ لكم أنّني أعرفُ هذا الرّجل، لقد تحدّثتُ إليه يومًا، لقد رآني في منامهِ قبل أن يلتقي بي، لقد تحقّق حلمُه يومَ أنقذ تلك الصّهيونيّة منّي، أعلمُ أنّه ليس قدّيسًا، بل وأعلمُ أنّه لو لم يرني في منامه كما زعم لكان من المحتمل أن يسلّمني للبوليس، أو يتّخذ إجراء آخرَ غير مسامحتي.

قد تكون صدقةً لم يفعل غيرها يومًا. قد يكون تصرّفًا مزاجيًّا لا أكثر، قد يكون الأمرُ برمّته صدفةً، لكنّه فعلَ شيئًا لم يفعله أحدٌ ما قبله معي.

- لكنّك لم تتغيّر.

- ولمَاذا أتغيّر؟! كلّ ما هناك أنّني اقتنعتُ به، رأيته عظيمًا لأنّه بدا كذلك.

وسط ذهولي وشعوري أنّني حمقاء لعدم تذكّر هذا الحوار وربطه بقصة حبيبة أصلان؛ إلاّ أنّني لم أدرك تمامًا ما شعرَ به العجّان في حديثه عن هذا الرّجل الّذي لا أعرف إن كان هو أصلان فعلًا أم أنّ الأمرَ محض حادثةٍ متشابهة فقط ولا ربطَ بينهما، لكنَّ الأسئلة دومًا ما تُجلي لنا الحقيقةَ كاملة إن تبعتها أجوبةٌ واضحة، أمّا أنصافُ الحقائق فمُتعِبة؛ متعبةٌ كما هو الانتظار أيضًا؛ وها قد دخلَنا في يومٍ آخر وما زالَ شاعري مُبحرًا في غيبوبته، غارقًا في السّباتِ المرضيِّ اللّعين. أمَّا سيلا فلم تعد بَعدْ، قد لا تعود أبدًا كما قال دن وإحساسي بذلك.

هل قلتُ دن وإحساسي؟! نعم قلتُ هذا، وما بينهما يقبعُ حدسٌ ما في داخلي يقول لي بأنّ دن يخفي أشياء وأشياء، قد يكون على علم بسرّ اختفاء سيلا، أو على علم بالرّابط بينها وبين أصلان. دن الّذي تحولَّ تدريجيًّا لشخص غامضٍ ولطيف حين يتحدّث عن الشّيء الّذي أريدُ معرفته من باب المصادفة؛ رغم أنّه يعلم بأنّني أتلهّف لمعرفةِ أي شيءٍ بخصوص شاعري.

يعرفُ شيئًا ويخفيه عنّي... حدسي يقول هذا كلّما تحدّثنا، أو حاول التّهرب من أسئلتي عن سيلّا واختفائها. هو أيضًا اهتمَّ بفحوصات أصلان وساعد الأطبّاء على إنعاشِ قلبه قبل دخوله في الغيبوبةِ بهمّةٍ عالية.

للحظةٍ ما تجاهلتُ كلّ شيءٍ، فكّرتُ ألَّا أفكر فلم أعد أتذكّر شيئًا مما دار في عقلي خلال هذه الأيّام. لم أعد أقرأ ما أملاهُ عليَّ محذوفًا وموجودًا، كلّ ما كنت أفعله هو أن ألتهمَ أيّ شيء، وأجلس محرِّكةً فمي دون لذّةٍ بما يحتويه.

- لديَّ خبرٌ لعلَّه لا يساوي فلسًا في الجزيرة اللّعينة هذه، لكنّه يساوي العالم بالنسبةِ لك. **بعد أن دخل على عجالة وابتسامة ترتسم على شفاهه.**

- قل لي بربّك بأنّه استيقظَ من غيبوبته، قل هذه الجملةَ أرجوك. **قلتها متلهّفةً سماعَ الإجابة وقد نهضتُ ممسكةً بكتفي دن.**

- نعم، استيقَظ.

كدتُ أطير، بل طرتُ فعلًا، احتضنتُ دن. قبلته فرحةً وركضتُ ضاحكةً نحو غرفته، لكنّني لم أتمالك نفسي بعدها فاحتضنتهُ باكيةً واضعةً رأسي على صدره.

- إيَّاك أن تفعلَ ذلك بي مرّةً أخرى. **شهقتُ باكيةً بحرارة.**

- طيبةٌ أنتِ يا ريمي الصغيرة.

- أنت أستاذي وقدوتي وشاعري الأوّل وصديقي الوحيد.

رحتُ أبكي على صدره بحرارة شاعرةً أنّني لا أريد شيئًا من الدّنيا إلّا احتضانه.

تيقّنت أنّني لا أعرف حقيقةً ما أريد، لأنَّ التّناقض بين مشاعري يعتلجُ في مكانه، بينما أعتلجُ أنا مع جشعي الغبيّ الّذي لا أتقنه.

عاد بريقُه يحتلّني كأنّني ألتقيه للمرّة الأولى مجدّدًا. صحتُ به مكرّرةً جملةً قالها لي يومًا: «يضيعُ بريقُك إذا اقتربت، وتضيعُ أنتَ إذا ابتعدت». قلتها ثمَّ عقّبت عليها: «بريقُك لا يضيع أبدًا يا شاعري الكبير».

راح يبتسمُ ابتساماتٍ لم أشاهدها مسبقًا وكأنّه اخترعها للتّو، بيد أنّه لم يتحدّث، بل ظلَّ صامتًا كمن يحاول أن يصدّق أنّه على قيد الحياة بعد. راح يفتحُ عينيه كمن كره رؤية الظّلام من جديد فأراد أن يمتّع بصره بالنّور فلا

يكادُ يغمضهما؛ إلّا إذا نام لسويعات قليلة، حتّى إذا أفاق راح يطلبُ منّي أن أعيدَ على مسامعه ما كتبتهُ من رسائل، وكأنّه سلا تمامًا أنّه طالبني بحذفها.

راوغته فقلتُ له: «ما رأيك أن أعدَّ لك فنجان سكّر وأضع عليه القهوة؟» لكنّه لم يكترث بفلسفتهِ القهويّة، طالبًا منّي أن أعيد على مسامعه ما كتبَه لا غير.

حاولتُ التّملّص خوفًا من اكتشافهِ تلاعبي وكذبي؛ لكنّه لم ينزعج حينما عرف أنّني لم أمسح كلمةً ممّا قاله لي.

لم يغضب ولم يوبّخني، لم يكترث للأمر من أساسه، أو في الحقيقة هو لم يعد يكترث لشيءٍ مذ أفاق من غيبوبته إلّا بالسّؤال عن أحوال الجزيرة وما يتناقله المرضى والعاملون في المشفى عنه. لقد تغيَّر بالكامل حتّى شعرتُ أن الّذي يتمدّد في سريره أمامي مريضًا تحوَّل فجأة لشخصٍ آخر، شخصٍ لا يشبهُ شاعري إلّا بصوته ونظرة عينيه، من الممكن وصفه بأنّه تحولَّ لرجل سخيف يهذي بأي شيءٍ بعيد عمَّا كان عليه سابقًا.

قرأت له جميع ما أملاه عليّ ثلاث مرّات وفي كلّ مرّة راح يضحك عند ذكري للقهوة تحديدًا قائلًا: «تبًا للقهوة والسّكر» مجاراةً لي قبل أن يصمت ليومين مجدّدا. حاولت بعدها أن أتحدّث إليه، وأسأله عن أيّ شيءٍ بغية أن يسترسلَ بالحديث دون جدوى.

- هل ستبقى صامتًا؟ هل مللتَ من ريمك يا أستاذي؟

- مللت المرض فقط.

- اكسره بالحديث إذن لا السّكوت، ألستَ شاعري الّذي يقاوم المرض بالأدب؟

- ها، ربّما، ربّما، ربّما عليَّ أن أقاوم... **{قل لها: لا، لستُ كذلك، قل لها لستُ أستاذكِ، ولا قدوتكِ، ولا شاعركِ. قل لها: بأنّكَ نسخةٌ مزوّرة منه لا أكثر، قل لها: بأنّك تمامًا كطقمِ الماس الّذي قلَّده الجواهري يومًا لـ أصلان فلم تميّزه العيون بعد ذلك؛ لأنّها أرادت أن ترى ما أراده لها بأن تراه، قل لها: بأن صوتَك فقط مَن يشبهه؛ وأنّ الانفجارَ الّذي تعرضتما له سويَّةً في بنغازي قاربَ بينكما دون أن تدري، بعد أن قاربَت بينكما المسافات البعيدة قبل سنواتٍ عديدة مِن ذاك الانفجار، قل لها الحقيقة، أو اصمت مرّةً أخرى حتّى يحضرك الموت لتعلمَ هي حقيقتَك بعدها... لا، لن تعلم، وأنت تعلم بأنّها لن تعلم. فهم يعلمون من أنت أكثر منك ومنها، منها لأنّها تريد أن تكون شاعرها مهما أثبتت الحقيقة أنّك لست هو... لن يكترثوا لسجينٍ خدعَ ممرضتَه مُوهمًا إيّاها بأنّه شاعر معروف. أنتَ أو غيرك عمومًا لا تساوي في الحرب إلّا ثمَن رصاصة أو حقنةٍ قاتلة لا غير، ثمَّ إنَّها تريد منك أن تكون شاعرها كي تحصل على ما أرادته منه... هذا ما يروق لك بحدّ ذاته. لقد خَدَعت أصلان باحتفاظها بنصوصه كي تتاجرَ به، هذا ما يشجِّعكَ الآن أن تتقمّصَ دوره بالكامل، بل وتتمنّى أن تموتَ هنا ضمنَ فلسفات الموتِ على هذه الجزيرة والّتي أبسطها: أن لا كرامةَ للإنسانِ فيها سواء كان فوقَها أو تحتَها، لكنّك إن فعلتَ ومتَّ وحالفك الحظّ، فستُدفن في مكانٍ بعيدٍ عن جذورك اللّعينة حيث لا عينَ تطعنك باتهاماتها المجانيّة، ولا لسانَ يجلدك بنميمةٍ عارية... ستموت وتدفن كأنتَ في حقيقتك وكأصلان فوقَ شاهدِ القبرِ الّذي سيصبحُ مزارًا لعشّاقه يومًا إن حالفك الحظ؛ فقد تعودُ ريم للوطن لتنشرَ كلّ ما قلتَه لها عن أصلان، سيصدّقها الجميع حتّى أقربهم إليه، لأنَّ أحدا لا يعرفُ ما تعرفهُ عنه أنت، لا أحد سمعَ منه ما قاله لك دون غيرك، لا أحد يحفظ حياته بأدقّ تفاصيلها سواك أنت، لا أحد قرأ سيرته الضّائعة قبل الانفجار سواك أنت، أنت تحديدًا... قد ينقلون**

جثمّانك أو رفاتك بعدها للوطن بعد انتهاء الحرب، لا يهمّ، لن يتأكدوا من شيءٍ لأنَّ رسائلك من دلَّت عليك، قد يبنون مزارًا ضخمًا حينها، لا أحدَ سيعرفُ من أنتَ سواك.

هم يبحثون عن نهايةٍ مشرّفةٍ فقط لمسيرةِ شاعرٍ التهمته الحربُ، فلم يعلم أحدٌ مصيره. سيتلقّفون خبر وفاته لأنّهم بانتظارِ هذا الخبر. كن أنت النّهايةَ والخبر، كنهُ ميتًا بعد أن عجزت طوال عمرك أن تكون سواك، كن كبيرًا مرّةً بعد أن عشت صغيرًا في كلّ شيء.

سيترحّمون عليكَ، سيقرؤون الفاتحةَ بعيونٍ خاشعةٍ أمام قبرك، فلن تهتم حينها إن كانت الفاتحة موجّهةً لاسمكَ أو لاسمه، على روحهِ أم روحك، المهم أنّها أمام قبرك، قبرك الّذي تسكنه أنت لا أصلان. من حقّك أن تشعر بالاحترامِ مرّةً واحدة، فلتكن مِن بعدِ موتك، لا يهمّ.

عشتَ هاربًا من ماضيك، من العجّان من جدِّك، من نفسك، من العيون الّتي لاحقتك صغيرًا ثمَّ شابًّا لذنبٍ لم تقترفه، لقد تمنّيتَ طوالَ حياتك أن تحظى بالاحترام، هربتَ من جذورك العارية من أجلِ هذا، غيَّرت اسمك واسم عائلتك من أجل هذا، هجرتَ وطنكَ من أجلِ هذا، لكنّ ماضيكَ راحَ يلاحقك من أرضٍ لأرض دون أن تعلمَ أنّه مَن جاءك بثوبِ الحاضر مُخادعًا إيّاك، لكن دماءَ أبيكَ اشتعلت مرّاتٍ ومرّاتٍ تحتِ نيرِ الجنس، وسطوةِ المال.

ودَّعتَ العجّان كي لا تحيا حياتَه، وخشيةَ أن تنقلَ بؤسَه وعاره لأولادك الّذين لم تنجبهم. قلتَ مرارًا:«على هذه العائلةِ أن تتبخّر بالكاملِ من الأرض بأيّ شكلٍ من الأشكال». راودتكَ فكرةُ القتل يافعًا فتعجَّبت من نفسك، إذ كيف لك أن تقتلَ والديك وعمّتك وجميع من ينتمون لعائلة العجّان لتمحو تاريخَك، وتعودَ من بعدهم فردًا صالحًا؟، كلا، عليك فقط أن ترحلَ بعيدًا، عليكَ أن تحيا في مكانٍ لا يعرُفك فيه أحد... انتسب لغيره فهذا يكفي. العجّان لم يقتُل، فعلَ كلّ شيءٍ إلّا هذا، فعلَ الموبقات جميعها إلّا هذا فلا تحمِّله وزرَ

جيناته أبدًا. لا يعقل ألّا ترثَ منها الشّرّ الكامل من اغتصاب ونهبٍ وفساد، وترثَ منه ما لم يفعله... أنتَ قاتلٌ بطبعك فقط.

لم يقتلُ والدُك أحدًا، كان مُجرمًا فاسدًا أنشأ عصابةً عائليّة لا تتوانى عن فعلِ أيّ شيءٍ باستثناء القتل. لقد تحوّل حينما هربَ من عاره إلى ديّوثٍ وزنديقٍ بعدما تيقّنَ أنّه خسرَ كلّ شيء، فراح يبالغُ بخساراته انتقامًا من نفسهِ والآخرين دافعًا بأمّكَ وأختك لجني المال عبرَ جسديهما لكنّه لم يقتل أحدًا. أنتَ من فعَلتَ، أنتَ مَن رضيتَ لماضيكَ أن يستأنفَ نشاطه معك، ثمَّ عدتَ منه تائبًا فلم تستطع معايشةَ حاضرٍ لم تتقنهُ أبدًا، فما إن قررتَ _مدركًا أنّ التّوبةَ والإنابةَ أصعبُ من الهروب ذاته_ العودةَ لماضيكَ حتّى سبقتك الصّدفةُ بخطوةٍ واحدة يومَ رمَت بين أحضانِ شهوتكِ سمراء جميلةً؛ لم تعلم بأنّها أختك، لم تكن تعلمُ أنّه من أنجب شهد تلك... لم تغتصب إحداهن يومًا، ولم تمارس الجنس تحتَ تأثير الخوفِ والابتزاز كما فعل والدُك وإخوتك، لكنّك مارسته بالمال والخداع، لقد استغلّيتَ الكثيراتِ لظروفهن الصّعبة، وكنتَ على وشك ممارسة الاستغلالِ والجنس مع أختك؛ لتعيدَ مرّةً أخرى لهذه العائلةِ الخطأ والعارَ الّذي هربت ووالدك منهما طوال حياتكما... جدُّك فعلها متقصّدًا فحرثَ أرضَه بفأسهِ لكنّك كنتَ على وشكِ أن تفعلَها حينَ ظنّنتَ أنَّ كلّ أرضٍ من حقّك، فلا فرق لديك بين من يغتصبُ الأرضَ، وبين من يمتلكها بحرِّ ماله، وبين من يستغل صاحبها فيبتاعها بالحيلةِ، والمال، والمقايضة... هذا أنتَ وهذه حقيقتك مهما بدوتَ مختلفًا.

بماذا تختلف عن والدِك وإخوتك؟ أنتَ تشبههم وتنتمي لهم بكلِّ ما فيك، لم تستطع أن تكون كميمون فوحده من عايشَ واقعه رافضًا الانصياع له، ووحده من رفضَ الهروبَ بحثًا عن واقعٍ سيجده مشابهًا لواقعه، ووحده من تقبَّل فكرةَ الوالدين السيِّئَين دون أن يفكرَ بحذفهما من ذاكرته، ووحده من قبل العقاب على ذنوبٍ لم يقترفها بصدرٍ رحب... ميمون أشجعُ وأصدق منك، كانَ مُبتسمًا في القفص، كانَ في المكانِ الّذي تستحقهُ أنت، بينما جلستَ في قاعةِ

المحكمةِ حيث كان عليه أن يكونَ مكانك. لم يشِ بوالديه كما فعلت، لم يتنكّر لهما كما فعلت، لم يختبئ من عيونِ والده أثناء بحثه عنه موجوعًا كما فعلتَ أنت، لقد ماتَ العجّان آملًا أن يراك، لقد ذاقَ مرارةَ فراقك مذ رحلت فلم ترحم عشقه لك، كنتَ وحيدَه وصديقَه يوم فارقته، فلمَّا فعلت ذهبَ مُنتقمًا منك عبرَ أبناء وبنات الآخرين، أنتَ من دفعه للشرّ أكثر، من دفعه للسّوءِ أكثر يومَ خذلته، مَن دفعه أن ينسلخَ من إنسانيّته وكينونته دفعةً واحدة، سيما وقد أراد أن يرى حبَّه في عينيك، أراد أن يرى أبوَّته في عينيك، أن يرى تقديرَه واحترامَه في عينيك، لكنك لم تفعل.

العجّان الّذي لم يقبل ما فعله والده بابنته وهرب من عارهما يا أنتَ؛ هو العجّان الّذي شجّع شهد على الرّذيلة! كيف؟ أنتَ السّبب. نعم أنت لا سواك. لو بقيت لشدَّ أزرَ أخلاقه وبقايا كرامته وشرفه بك. لو نافحتَ عنه أمام الآخرين لظلَّ لصًّا فاشلًا باستطاعته فصل قذارته عن عائلته. أنت لم تظلم العجّان فقط... لقد ظلمت إخوتك البنين الصّغار بتركهم له والجنينَ الّذي سيتبعه جنين في بطنِ أمّك... أمّك؟ لقد ظلمت أمّك أيضًا فانصاعت لانتقامه فخسرت نفسها هي الأخرى. ربّما تكونُ مَن استدرجت الضّحية الأولى إلى الوكر. ربّما قرّرت في تلك اللّحظة ألّا عودة من كلّ شيء وعن كلّ شيء لم يأتِ بعد. صفيّة الكيس لم تكن مثله لكنّها أصبحت أسوأ منه يومَ قرّرت أن تحاكيه داخليّا وخارجيًّا بما يقوم به أملًا أن تشعرَ بلذّة الانتقام ممّن كانوا سببًا بخسارتها لولدها البكر.

أمّا هو فقد حرَمه النّاس من نظرة حبّ، وعطفٍ، واحترام طوالَ حياتهِ فبخلتَ عليه بها أيضًا، وكأنّك مَن ستقيمُ العدلَ بعد غيابه في القلوب. كان عليك أن تفعل، كان عليك أن تمنَحه ما تفقده فوحدك من كان سيقدّم له ذلك، لقد رحلتَ عنه خاذلًا إيّاه فانتقم لنفسه منك عبر الآخرين، انتقمَ منك من خلالِ مَن جاءَ بعدكَ من إخوتك، كان لصًّا، لم تكن تعلمُ ذلك حينها، كان لصًّا فقط بمسمى عتَّال فرحتَ تعاقبه على ذنبِ والدهِ فاعترفَ لك بذنبهِ ثائرًا لنفسهِ

فعاقبتَه برحيلك حينها، دافعًا إيّاهُ ليعاقبَ نفسه والآخرين عقابًا لك، أو عقابًا له.

لقدَ ظُلمَ من أبيه ومِنك، من أبيه وابنه، فكلانا مّن حمَّله ذنبًا لم يقم به، وحدك من كان باستطاعته إيقافه عن لصوصيّته لأنه أحبَّك، لو بقيتَ لمنعته عن كلّ شيء؛ ولتعايشتما مع عاركما سويًّا. كنتَ أنانيًّا فقط مدَّعيًا الظّلم المجتمعيّ متّخذًا منه ذريعَتك للهروب ضاربًا بعرضِ الأنانيّة حبَّه وتعلقه فيك، تركتهُ يواجه الظّلم والكراهيّةَ منبوذًا وحده، أردتَ أن تكونَ مُختلفًا عنه فحذفته من حياتك متجاهلًا أنّه والدك، وها أنتَ الآن تتساءل: ما الفائدة من احترام الكونِ لك أجمع طالما أنّك ابن أبيك؟ طالما أنّهم يحترمونَ الشّخص الّذي خدعتَهم به لا شخصك الحقيقيّ؟ ميمون يعلمُ ذلك؛ لذا لم يرحل، لذا بقيَ في مكانهِ وزمانهِ غيرَ مكترثٍ لما يقال حولَه، وله، أمّا أنتَ فرحلتَ عنكَ كي يراكَ النّاس غيرَك فلم تحظَ بالّذي بحثتَ عنه. وها أنتَ الآن وقد شارفتَ على خريفِ السّتين الملموسِ، لا زلتَ رافضًا لك، لاسمكَ، لأصلكَ، وجذورك، مُتمنّيًا الموتَ لتحظى باسم آخر، وقبرٍ يحجُّ له النّاس من أصقاعِ الدّنيا لتشعرَ ميتًا بما لم تشعر به في حياتك}.

- أستاذي... أستاذي...

-...

- أستاذي، أصلان. **هزَّزتهُ بوجل.**

- نعم. **وانتفضَ كأنّ مسًّا أصابه.**

- أعتذر... خفتُ من غيبوبةٍ جديدة.

- هل هي شهر حقّا؟

- وخمسُ ساعات.

- لم يحن الوقتُ بعد.

- لا خيار أمامي. **قلتها ضاحكة. {سيصمت الآن، أعرفهُ جيّدًا، سيغمضُ عينيه راحلًا عن المكان كيلا يتحدّث، لا تتركيه يفعل هذا بكِ، هناك أسئلة عليّ طرحها، هناك أمور يجب أن يشرحها لي. اصمتي ليتحدّث دون أن تُشعريه بلهفتكِ وفضولك لما سيقول، حاولِي أن تهدئي فقط، لقد عادَ من الغيبوبة بسلام، المهم أنّه بخير، ستعلمين كلّ شيءٍ حينما يشاء أن يخبرك به}.**

- أظنُّكِ تحدّثين نفسكَ وتحثّينها على الصّبر.

- كلّ ما أريده فقط أن تكون بخير.

هي أيّام ثلاثة بعد تحسُّن حالته قبل أن يدفعني الشّك والفضول لسؤاله عن سيلا وقد أحجم عن الكتابةِ بالكامل. رحتُ أرجوه أن يتحدّث عنها وعن علاقته بها، سيما بعد أن غادرت المشفى، وقالت لي ما قالت.

وبعد صمت ليس بالقصير قال لي:

- سيلا زميلتك هنا هي حبيبتي الّتي قابلتها في مشفى الوطن بعد أن تعرّضتُ لرصاصةِ أمسيةِ المعارف... كانت حينها تحمل اسم ليزا وليس سيلا.

- حبيبتك؟!!

- نعم هي حبيبتي. **{شعرتُ بالمتعةِ وأنا أتحدّث إليها كأصلان فقرّرتُ أن أخبرَها بما أعرفه عن علاقته بسيلا كي أصدمها بحقيقةِ شاعرها}.**

للحظةٍ دارت الأضواءُ حولي كبلهاء ترى كلّ شيء بشكلٍ مقلوب، شعرتُ بارتجاجِ الغرفةِ وتداخل الألوان أمامي، فمن أينَ تأتي هذه الألوان في غرفةٍ بيضاء؟ صدمتني هذه الحقيقة الّتي لم تخطر لحظةً في خاطري. صُدمت للحدّ الّذي ابتسمتُ فيه ابتسامةً لم أستطع بعد ذاك تحريرَها وفكفكتَها لإعادةِ فمي لمكانه. **{ليست جميلة، كيف له أن يحبّها؟ يا غبيّة ليس هذا وقت نقد جمالها وممارستك لغيرة النّساء، بل هو التّفكير بألف سؤالٍ وحادثةٍ غريبة، كيف استطاعت أن تخفي حقيقتها عنكِ؟ بل كيف استطاعت أن تتظاهرَ بعدمِ معرفتها به؟ ملامحه تغيّرت بالتأكيد لكنك تعرَّفت عليه فهل تأخَّرت هي بمعرفةِ ذلك؟ حبيبته أقدرُ على معرفته منكِ، لا يعقل ألّا تتعرّف عليه من صوته، لقد سمَلت عيني باف من أجله، لقد نعتته بالسّاحرِ وأشاعت ذلك لحمايته، ثمَّ تابعت حالته عن كثب لأنّها تحبّه، لقد أوهمتك بكراهيّتها له كي تصرفَ نظرك عن حبّها له، لكنّها غادرت دون عودة، هل طلبَ منها ذلك؟ اسأليه، دعيه يخبرك عن كلّ شيء، لا تسمحي له بالهروب، هدّديه بالقتلِ إن حاول التملّص، إن لم تفعلي ستصابين بالجنون... كلّا هو يهذي لا أكثر، لا تصدّقي خزعبلاته}.**

- سيلا أو ليزا هي الممرضة الّتي عشقتَها في الوطن؟ **والدّهشة تفرضُ نفسها وتتخلّل حروفي رغما عنّي قبل ملامحي.**

- نعم، وهي تلك الممرّضة الّتي تزوّجها صديقي سمير.

- قلتَ لي بأنّها جاسوسة يهوديّة، لكنّ سيلا سنبارية. **غير مصدّقة أو حائرة فيما أسمعه.**

- كلّا هي يهوديّة، عَمِلت هنا عمَلَها في الوطن لا أكثر.

- هل طلبتَ منها الرّحيل؟

- كلا، هي أرادت شيئًا لم تجده فقط.

- هل تحبّها؟ ألا زلت تحبّها.

-....

حمقاء أنتِ، ها قد صمتَ كعادته، الآن أدركتُ سببَ تعلّقِ سيلا بالشّعر، لطالما طلَبت مني أن أسمعها أشعاره تحديدًا، قبل أن ينقلوه بيومٍ واحد كنت أردّدُ شعره وأترجمه للسّنباريّة على مسامعها.

«يا عازفًا جمهورةُ الغيماتُ

والظّبياتُ

واللّحنُ الحجازيُّ القديم».

هي مَن راحت تعيدُ فحوصاته فجأةً بإصرارٍ عجيب بحثًا عن شيءٍ لا أعرفه، ثمَّ رحلت تاركةً كلّ شيءٍ خلفها، لأنّها الوحيدةُ الّتي تملكُ قرارَ البقاءِ والرّحيل، قرارَ العشقِ والهجر، قرارَ القتل والعفو، أمّا أنا فلا خيارَ أمامي سوى البقاء هنا وسماعهِ، ثمَّ انتظارِ لحظةِ الرّجوعِ للوطنِ برسائلَ وكتاباتٍ أخيرةٍ لشاعرٍ لفظَه البحر للسّجن مريضًا؛ فنقله للمشفى كي يموتَ نكرةً في جزيرةٍ لا تعرف قيمته... أعلمُ أنّه سيموتُ قريبًا ويدفنُ هنا بينما أعودُ بعدها للوطن مُقدّمةً ما أملكه من تسجيلاتٍ ورسائل وكتاباتٍ لذويهِ تزامنًا مع إحدى دور النّشر المعروفة. **{لكن لا يعقل لمثلهِ أن يحبّ صهيونيّة! لا يعقل هذا بأيّ شكلٍ من الأشكال... سأجنّ أنا على ما يبدو}.**

كلا لن أجنَّ، عليَّ فقط أن أفكّر بمنطقيّة بغضّ النّظر عن أيّ شيء، فهو سيحظى بعدها ميتًا بالاهتمام الّذي استحقّه في حياته، وسأحظى بالتّعويض عن حياتي بالكامل. لعلَّ عمرَه الكبير أودى بما تبقّى من عقله بعد الانفجار، حيث إنّي شككتُ كثيرًا بخرفهِ خاصةً بعد هذه الغيبوبة الأخيرة، وقد راح يخلط بين الكثير من الأشياء الّتي قالها عن حياته بطريقةٍ تجعلك تُسلّم بأنّه فقد عقله بالكامل، أو أسقطت قلاعَه جيوشُ الزّهايمر... بودّي أن أسأله عن العجّان وإن كان هناك رابط فيما ذكره بينهما لكن عليّ الانتظار أكثر وأكثر كي أحيطَ بكلِّ شيء. ثم لا ضيرَ من إيجادِ رابطٍ إن لم يكن ممّا يساعد على إضفاء الكثير من الإثارة والمفاجآت الصّادمة في سيرة حياته.

أحتفظُ بالكثيرِ من النّصوص الرّكيكةِ الّتي أملاها عليّ، والّتي لو لم يُملِها عليَّ شخصيًّا لما صدّقت بأنّه مَن كتبها. المرض، والحرب، والكبر أتلفوا الكثير من ذاكرته، سيما حين يستحضرُ بصعوبةٍ بعضَ ماضيه الغريب؛ واضعًا اللّومَ على القلمِ الّذي لا يصدق بأنّه ليس معروفًا قائلًا: كيف يمكنني إقناعك بأنّني أصلان؟

لم أعد تلك البريئة الّتي جاءت إلى هنا هربًا من عالمِها وبحثًا عن نفسها، أدرك أنّني تغيرتُ بالكامل وتشبّثت روحي بالمال بشكلٍ غريب، ورغمَ ذلك فلم أتمنَ لشاعري الموت هنا، ولطالما دعوتُ الله أن يشفيه بقلبٍ صادق؛ متضرّعة له أن يعيده إلى الوطن وألّا يُبقيني وحيدة على هذه الجزيرة الدّمويّة، لكنّني لن أنكرَ بأنّني تمنّيتُ أيضًا أن أستمعَ له أكثر، وأن أكتبَ عنه أكثر، فلكلِّ صفحةٍ رقميّةٍ وصوتيّةٍ ثمّنها الباهظ. **{أنتِ جشعةٌ رقيقة}.**

لن أكترثَ بشأن علاقته مع سيلا وإخفائه الأمر عنّي فهي حياته الغريبة بأحداثها الغريبة، ولا شأن لي بمن أحَبَّ وكَرِه، عليَّ فقط أن أدوِّنَ ما يمليه

عليّ محتفظةً به، عليّ أن أحرّضه على الكتابة أكثر وأكثر، فعشْقُ وطنيٍّ ورمزٍ مثله لصهيونيّة خبر يساوي الملايين. لو كنت أعرف هذه المعلومة مسبقا لطلبت إليها صورتها كي أعود بها يومًا للوطن وأنشرها كي يتعرّفوا على ملامحها، وحينها، حينما أعودُ للوطنِ سأمتلك المالَ الكثيرَ من راتبي الّذي ادّخرته طوالَ السّنواتِ السّت، ومن ريعِ كتاباته، سأنتقمُ لنفسي بعدها... سأجبرُ أحدهم على الزّواجِ بي مقابل المال، سأستبدل الأزواجَ واحدًا تلو الآخر مقابل دراهمَ معدودات على رأسِ كلّ سنة، سأشتري الحبّ والرّغبةَ بالمال، سأشتري الفضيحةَ أيضًا، من الممكن أن أشتري ألسنةَ النّمامات والواشيات جاعلةً إيّاهن يتحدّثن عن عرضي المهدور، وشرفي الضّائع بسبب خديعةِ أحدهم... سأعمل في مشفى الوطنِ ذاته وسأخرجُ صائحةً متّهمةً أحدهم بمحاولةِ اغتصابي؛ وسأسمع بعدها الهمسات الخافتة، وأرى نظراتِ الشّك والغيبة، سأدفعُ لمن يتحدّث أكثر، ومن يتّهمني أكثر، ومن يخوض في عرضي أكثر.... سأبحث عن ميمون، عن ميمون تحديدًا، سأدفعُ له المالَ الوفير مقابل أن يغتصبني، سأجبره على ذلك مهما كلّف الأمر، سأطالبه بأن يكرّر تصرُّفَه القديم أمامي شريطةَ أن ينفّذَ تهديده بالكامل. سأشتري اليد الخشنة الّتي حلُمتُ بها يومًا تتحسّس نهديَّ، وجسدي، سأشتري الفمَ الّذي رجوتُ أن ينقضَّ على حلمتيّ الثّائرتين فيغبُّ من شوقهما؛ فألقمهما إيّاه كلّما تعبَ منّي وتعبتا منه.

سأعلّق في منزلي ساعةً متوقّفةً كالسّاعةِ الّتي أوقفها شاعري... لا أعرف سرَّ توقّفها إذ لم يجبني عن فلسفته هذه رغم حديثه عن فلسفةِ الوقتِ كثيرًا، لكنّني سأشرح فلسفتي الخاصّة بوقوفها إذ سأقولُ لكلِّ زوجٍ مدفوعِ الأجرِ مُسبقًا: «وقوفها يعني أنّ هذا الوقت لن يمضي».

{أينَ سمعتِ نقيضَ هذه العبارة؟ أظنُّها نُقشت على خاتمِ ملكٍ طلبَ من أحد الحكماء نقشَ جملةٍ إن قرأها حزينًا أسعدته وسعيدًا أتعسته، فنَقشَ هذه العبارة: «هذا الوقت سوف يمضي»، لكنّني سأتشبث به كي لا يفعلَ ويمضي}.

حتّى العجّان ردّدَ هذه الجملة في السّجن على مسامعِ النّزلاء والصّحفي بطريقته الخاصّة.

تشردين دومًا بالخيالِ نحوه بغرابةٍ بالغة... تشردين كأنَّ قدرًا يجمع بينكما بطريقةٍ معقّدة لا تفهمينها... لقد تابعتِ المحاكمة، وسيرتَه في الصّحف، وأخباره بعد ذلك باهتمام شديد، لقد احتفظتِ بجميعِ اللّقاءات والجمل الّتي صدرَت منه. لقد تعاطفتِ معه رغمَ أنّه روَّعَ واغتصبَ الكثيرات ممّن لا ذنبَ لهن، وصافحتِه عند محاكمته بقلبٍ رقيقٍ عاطفٍ عليه. لا يستحقّ أن تفعلي ذلك، ولا أن تشعري نحوه بذلك.... لعلَّه انتقمَ لك من الجميلاتِ المرغوباتِ بينما لا أحد يراك كذلك! لعلَّه انتقمَ لك من الرّجال الّذين نعتوك بالفيل! فلم يبالوا بأنوثتك المحترقة داخلك...كلاّ، لستُ أعلم ما الّذي دفعني لهذا، لكنّني لم أكرهه رغم كلّ شيء.

تعرَّضَ في السّجن للطّعنِ على يدِ أحد النّزلاء. قيلَ بأنّه ثأر لعرضه المهدورِ قديمًا، وقيل: بل هو صاحبُ سوابقَ أراد أن يضيفَ لتاريخه الإجراميّ هذه الطّعنة لتمنحه الشّهرةَ بين أفراد ذاك المجتمع؛ سيما أنّ العجّان بدا الرّقم الصّعب والمجرم الأوّل في سجلّات الإجرام، ثمَّ قِيلَ أخيرًا: هي مشاجرةٌ عابرة في باحةِ السّجن بعد أن استهان أحدهم بالمسنِّ الأشيب لينشبَ شجارٌ بين كفين عاريتين ومطوى؛ فينتصر فيها رضا وقد طُعِن غدرًا مُترفِّعًا عن قتله... الصّحفي مَن ذكر الحادثةَ والملابسات، مُشيرًا أنَّ النّزلاء ورجال الأمن تمنّوا لو أنّه قتلَ ذاك الرّجل حينها لكنّه لم يفعل. تابعتُ بشغفٍ هذه الحادثة والحوار الّذي أُجريَ معه لكنّني فعلتُ ما لم أتوقّعه يومَ زرته في المشفى.

تحايلتُ للوصولِ إليه، ثمَّ عبرَ إقناعِ زميلٍ قديم ورشوةٍ صغيرة وجدتني أمامه وقد قُيِّدَ بالسّرير النّائم عليه رغمَ طعنته...

- هناك مثلٌ يقول: «القطّ يحبّ خانقَه». قيلَ هذا فيك أنتِ تحديدًا. **بعد أن تفاجأ من رؤيتي واحتاط لنفسه خشيةَ أن أكون قد حضرتُ للانتقام.**

- كلّ ما هناك أنّني لا أكرهك، أتعاطفُ معك فقط. **وتناولت كرسيًّا وجلستُ بالقرب منه تاركة مسافة أمان بيني وبينه.**

- ضحيّةٌ مسالمة، لكنّني لا أستحقّ هذا عموما.

- لماذا لم تقتله؟

- مَن؟ **ورفع حاجبَه.**

- طاعنك؟

- هل كان عليّ أن أفعل؟

- لا أعرف، لكنّه طَعنك.

- ليست المرّة الأولى، لطالما أُصبت بمثلِها في الشّجاراتِ والسّرقات.

- لكنّه أرادَ قتلك، تقصَّدَ ذلك.

- كثيرون أرادوا ذلك وفشلوا، واحدٌ منهم فقط مَن نجحَ بقتلي لكن بطريقةٍ مختلفة.

- قتلَ داخلك؟

- قتلَ الجزءَ اليسيرَ الطيّبَ منّي، محا الأبيضَ وسطَ سوادي، قصفَ الغصنَ الأخضرَ في صحرائي.

- تتحدّث كالأدباء، نصفُك مجرمٌ ونصفُك الآخرُ فيلسوفٌ رغمَ..... **سكتٌّ فلم أُكمل.**

- رغم جهلي وما أنا عليه من شقاء.

- نعم، هو ذا. **همستُ بها.**

- عندما كان سيف صغيرًا طالبني أن أساعده بالدّراسة أسوةً بآباءِ أقرانه، لم أمتلك حينها شيئًا. لم أعرف عن القراءة إلّا شكلها فأنا لصٌّ ولست كآبائهم، لكنّني بدأتُ معه وانتهيتُ بعد أن رحل.. كان يميلُ للأدبِ بشكلٍ عام فرحتُ أستمعُ له وأردّد ما يردّده فقط، وربّما جرّاء تأثّري بأديب راقَ لي مذ التقيته مصادفةً من وقتٍ ليس بالبعيد؛ بعدما رحتُ أستمعُ له كلّما ظهرَ على التّلفازِ أو الإذاعةِ أو المواقعِ الإلكترونيّة.

- كنتَ تبحثُ عنه في المحكمة لكنّه لم يحضر.

- كلّا، هو أكبرُ من أن يتذكّرني ويحضر مثل هذه المحاكمة، لقد التقيته مصادفةً عابرةً.

- قصدتُ سيفًا.

- آه، بحثتُ عنه، لم يحضر، أو حضرَ ولم أره، طالما لم يرد لي أن أراه فلن أراه ولن أسعى لذلك.

- قتلكَ يوم وشى بك.

- كلّا، يومَ رحل فقط، يومَ نظرَ لي كما نظر النّاس له، أستحقُّ تلك النّظرةَ لكن ليسَ منه، أستحقها منكِ، من الجموعِ، من بعضهمِ تحديدًا لكن ليس منه.

- وأنتَ ألم تقتلهُ أيضًا؟

- قتلتُ الكثيرَ من الدّاخل، لكنّني لم أقتله.

- ألهذا لم تقتل حقيقةً لا مجازًا؟

- هل كان عليّ أن أفعل؟

- هو سؤال فقط.

- لستُ إلها لأحدّدَ آجالَ النّاس، ومن يحيا منهم أو يموت، لم أرغب أن أكونَ أداةً للشّيطانِ تابعًا له بكلِّ ما يُدخِلُ عليه السّرور. استمراءُ الشّيء وتكرارهُ من النّفس لا الشّيطان، فالنّفسُ الّتي تفعلُ المعصيةَ بشكلٍ دوريّ تفعلها من ذاتها، لأنّها أحبَّت وراقت لها المعصيةَ فاستحلّتها، فلم تعد تبالي بحلالها وحرامها، لكنَّ الفعلَ الّذي تتبعهُ التّوبةَ ثمَّ المعصيةَ ثمَّ التوبةَ فهذا من تأثيرِ الشّيطان لا النّفس... لطالما شجَّعَتنِي على القتل وقاومتها بكلِّ ما أملك من رفض وعناد. كانت المرّةُ الأولى بأخي السِفاحِي، رأيتني أذبحُه كما النّعجة، رأيتني أواريه حُفرةً في مكانٍ وعرٍ تحت صوتِ الكلاب الضّالة الّتي قد تنبش الأرض وتلتهمه، لكنّني إذ هممتُ مُمسكًا مُديتي هتفَ بي هاتفٌ: من أنتَ لتقرّرَ بقاءه من غيابه؟ «أنا أحيي وأميت». مسّتني هذه الآية كتيّارٍ كهربائي نفضَ أطرافي لتقع المُديةَ من يدي فوضعته في مهد العقيمين بدل قتله. لستَ إلهًا لتقطعَ أنفاسَه أو تتركها ممارسةً حقَّها بالعدِّ التّنازليّ نحوَ

منطقةِ الصّفر. غلبتُ إبليسَ ذاته حينها مُدركًا أنّه استغربَ، بل صُعقَ، بل دُهشَ كما لم يسبق له منّي، لقد خيَّبتُ مساعيه، وأجهضتُ خططهُ بالكامل، لقد خذلته في لحظةِ الحقيقةِ كما خذلني سيف يوم رحيله.

- ألا يعادلُ ما فعلتَ القتل؟

- القتلُ أن تحكمَ على أحدهم ألّا يعود مُجدّدًا، أمَّا دونَ ذلك فالخيار للضّحيةِ في أن ينتقمَ منك أو يتناسى ما حدث له.

- لم ينتقم أحدٌ منك.

- لا بدَّ من محكمةٍ عادلة أقفُ فيها وغريمي ليقتصَّ لنفسه، فلكلٍّ بدايةٍ نهاية ولا بدّ للطّريقِ من آخِر، لا يعقل أن أُتركَ دون نهايةٍ حقيقيةٍ، يعلمُ فيها الجاني والمجنيّ عليه ما لهما وما عليهما. «قد نَفِرُّ من محكمةِ العدلِ الدّنيا لكنّنا لن نفِرَّ حتمًا من محكمة العدل العليا». لا يُعقل بتاتًا أن أنجو من جرائمي تلك، فعلتُها وأعلم ذلك، أعلمُ أنّني سأحاسب على ما فعلت. مَن أوجدَ الشّخوصَ، والظّروفَ، والأمكنةَ، والأزمنةَ؛ أجزمُ أنّه قد أوجدَ الجزاء والقصاص لكلٍّ ما حدثَ وسيحدث في ملكوته. لقد تعجَّلتُ بقصاصي من الآخرين كما تعجَّل غيري فَظَلمْنَا الآخرين قبل أنفسِنا؛ وبما أنّها _أي النّفس_ أمّارةٌ بالسّوء فبمجرّد أن لِنّا لها امتطتنا مُسابقةً المعاصي على ظهورنا فامتطينا شهواتِنا لاهثين دون أن تتوقّف ودون أن نقول لها: كفَى !

- نادمٌ أنت؟ **قلتها وقد أجهشت بالبكاء رغمًا عنيّ.**

- لطالما ندمت، لكنّني لم أتوقّف، لم أستطع التوقّف، حاولتُ كثيرًا لكنّني لم أستطع، كلّي مَن راح يدفعني ويمنعني أن أتوقّف. بات الاغتصاب والتّرويع

ديدنًا ممتعًا أكثر من غنيمة كبيرة في السّرقة أو من معاقرة الخمر، والمخدّرات، وإدمانهما. هي حاجتك لأن تكونَ صاحبَ الكلمة، حاجتك أن تكون الأقوى ليتذلّل لك الضّحايا مقبّلينَ يدك وقدمك للصّفحِ عنهم دون ذنبٍ اقترفوه، حاجتك أن تشعرَ بقيمتك واحترامك المفروض رهبًا كي تنتشي نفسك بالصّراخِ، والألمِ؛ والعذاب الّذي يزيحُ عن كاهلك عذابات الماضي... قد يصدمُ مذاقُ الدّمِ متذوّقَه صدفةً لكنَّ أحدهم لن يرتوي تحتَ دهشتك إلّا من قدحِ دماءٍ مركَّز.

- لقد ظلمتَ من لم يظلمْك ولم يتسبّب بأذى لك.

- ستقتصّون منّي؛ سنقف يومًا بين يدي الله، سأعترفُ بكلّ ما فعلت، لكنّني سأتحدّث أيضًا عن أولئك الّذين دفعوني لهذا دفعًا، سأخبرُه عن ذلك الحَدثِ الّذي أقيمَ يومًا في أزقّتنا احتفالًا بالمولد النّبويّ، سأخبره عن رضا الطّفل حينَ قفزَ من نافذته فرِحًا راكضًا باتّجاهِ صوتِ حلقةِ الذّكر، والصنّاجاتِ، والأناشيد... سأردّد ما سمعتُه أمامَ العظيمِ إذ لا يزالُ يتردّدُ في أذني حتّى اللّحظة ما أنشدوه بأصواتهم المخمليّة: «قل يا عظيم أنتَ العظيم، قد همَّنا همٌّ عظيم، وكلُّ همٍّ همَّنا، يهونُ باسمكِ، باسمك يا عظيم». **أنشدها بصوته النّشاز متقنًا اللّحن بمتعةٍ غريبة.** كان الصّوتُ يأتي من كلّ فجٍّ عميق. كانت السّتائر تتمايل تمايلَ الرّاقصات نشوى بما يتناهى إليها من تجلٍّ صوتيّ. الأضواء ساطعةٌ في كلّ مكان كأنّها طردَت الظّلام الّذي اعتدتُ عليه للأبد. النّسوة يراقبنَ بحياءٍ ما يشعرنَ به ولا يستطعن رؤيته. رجالٌ بعمامات خضراء ولحى مخضّبة بالحنّاء يحضرون ويغادرون بإجلالِ خشوعيّ وإكبار. روائح المسك والبخور تتنافسُ باحتلالِ الأنوفِ مع رائحةِ أصنافٍ ساحنةٍ من الحلوى المتنوّعة.

أسيرُ مع من يسيرون باتّجاه ***«الزّاوية»*** مأخوذًا بكلِّ شي. تتسارعُ نبضاتُ قلبي مع تسارع خطواتي وأنا أندسّ بينهم؛ وأزاحمهم كي أصل إلى مركزِ الحدث الكبير متحفّزًا لتقليدهم واتّباعهم بكافّة جوارحي... وفجأةً أمنعُ من الدّخول وأطردُ على مرأى ومسمعٍ من الجميع، وبموافقةٍ من الصّامتين قبل الرّافضين صراحةً دخولي.

سأقول له: بأنّي قد طُردت لأنّني رضا ابن العجّان، لأنّني ابن السّكيرِ العربيد المتسوّل السّارق، والفقير أيضًا.

طُردت لأنَّ أمّي متسولة قبيحة، وفقيرةٌ أيضًا، طرُدت وحدي بينما دخلَ الجميع لمولد نبيّكَ، وكأنّ النبيَّ لهم فقط، كأنّك أنتَ يا ألله لهم فقط، كأنّ العظيمَ والهمَّ الّذي همَّهم يهمّهُم فقط، كأنَّ اسمك الّذي يهون به أيَّ شيءٍ حسبَ ما أنشدوه يُهوِّن عليهم فقط، كأنّك يا ألله حكرٌ على أبناء المُعلّمين، والتّجارِ، والموظفينَ، ورجال الدّين، وسائقي الباصات، والأثرياء، والدّراويش؛ ولا نصيبَ لأبناء المتسوّلين، واللّصوصِ، والزّناةِ، والقبيحات الفقيرات بك... سأقفُ بين يديهِ شاكيًا أتقاهم، وأرذلَهم، أطيبَهم وأحقرَهم، صادقَهم ومنافقَهم، فقد رحبُّوا بالجميع، وأدخلوا الجميعَ مقدّمينَ لهم الحلوى والهريسةَ مجّانًا بينما حظيت أنا بالرّائحة فقط. التهموها بشراهةِ تناولِ الماعز للعشبِ الأخضر وحظيتُ أنا بالرّائحة فقط ... رأيتها تُطحنُ بين أسنانهم الصفراء، رأيتها تتناقلُ في المناديل الورقيّة كرسائل العشّاق في صناديق البريد، رأيتها تتساقطُ على الثّيابِ البيضاء النّظيفةِ الأنيقةِ لأقراني. ما الضّيرُ لو تساقطت أطرافُها على ثيابي الوسخة؟ هذه الفتافيت ستؤول للنّمل سواء تساقطت من يدٍ نظيفةٍ أو قذرة.

ينظرُ أحدهُم إلى عينيّ الدّامعتين بحنوٍّ يجدّدُ الأمل بحصولي على قطعةٍ منها، يناولني منديلًا ورقيّا محشوًّا بشيءٍ أتخطّفه تخطّفَ القرود للثّمار؛ وإذ أسارع إلى بعثرته بأصابع مرتعشة كي أصل إلى حلواي أجد أنّها مناديل كوّرت بقسوةٍ بعدما امتزجت باللّعاب وبقايا ذرّاتٍ مطحونةٍ بشراهةٍ من الحلوى... يشيرُ إلى سلّةِ نفايات بالقرب محرّكًا رأسَه دلالةً على حماقتي ويمضي إلى الدّاخل مقبّلًا يدَ ورأسَ أسنّهم المخضّبةِ لحيته بالحنّاء قبل أن يكوّر مناديلَ أخرى واضعًا إيّاها في جيبه.

تسقطُ المناديل من يدي فيصفعني أحدهم على رقبتي مجبرًا أن أتناولها وأضعها في مكانِها. أنكرُ أنّها لي مشيرًا إلى الدّاخل بينما تدهسني أقدامُ أقراني فأسقطُ أرضًا وهم يتسابقونَ إلى السّدور العريضةِ كالجراد لتستقبلَهم نظراتٌ عطوفة؛ كلّما حاولتُ بدوري الاقترابَ منها تحوّلت إلى نظرات ذئابٍ تدافعُ عن وجرِها.

أطردُ لمسافةٍ أبعد. أطردُ وقد تآمرت الأيدي لدفعي دون توقّف كأنّني خنزيرٌ صغير في حظيرة ظباء. أقفُ بعيدًا. أبعدَ من المكانِ الّذي تتنزّل عليهِ الرّحمة فيتطهّرون بها. أنظرُ بعد خاطرةٍ سريعةٍ إلى ملابسي. ملابسي هي السّبب. قذارتي هي السّبب. أندفعُ بسرعةٍ نحو غلامٍ يسيرُ بسلحفائيّة الواثقِ مدركًا أن لن يفوته شيء، وأنّه سينالُ حصّته من وليمةِ النّبي كثقةِ المهاجرين بحصّتهم من غنائم حنين. أطرحُه أرضًا وأجشمُ فوقَ صدره مهدّدًا نازعًا عن رأسهِ عمامته ومجرّدًا إياه من دشداشته البيضاء. أخلعُ ثيابي قاذفًا بها مترديًا ملابسه وقد فرّ باكيًا قبلَ أن أهزَّ رأسي حنقًا فورَ اكتشافي أنّه أطولُ مني بشبرين على الأقل... لا أكترث. أعدو مسرعًا يجرّ ثوبي لطولِه الحصى مسابقًا الوقت بفرحةِ المتأمّل؛ حتّى إذا سقطت العمامة من سرعتي عدتُ لالتقاطها رافعًا ثوبي كيلا تتّسخ أطرافه الطّويلة، لكنني طردتُ مرّة أخرى بقسوةٍ أكبر.

رحتُ أتأمّل ثوبي النّظيف. لا فرقَ بينه وبين ثيابهم. لا فرق بين عمامتي وعماماتهم... أُقصى مجدّدًا لمسافةٍ أبعد تتيحُ للمنبوذ أن يتلمّس الظّلامَ بعيونٍ لا تخدعها الأضواء السّاطعة.

سأتضرّع للعظيم الّذي أنشدوا له قائلًا: أعدنِي طفلًا، أعد ذاك المولد ودعهم يقدّمون لي قطعة حلوى فقط ثمَّ ليكن ما يكن، الجحيم، العذاب، العقاب، حتّى لو غُفِرَ لي كأشقى أهل الأرض. سأدعوه متضرّعًا: يا إلهي فقط أريد تناول قطعةِ الحلوى، فقط هذا ما أريده من عدلكِ وإحسانكَ، وكرمك، وعطائك اللاّمتناهي.

لقد بقيتُ مطرودًا عن مولدِه وحدي، يدورون وأدور، يدروشون وأدروش، يذكرون وأذكر، ينشدون وأُنشِد، لقد بقيتُ مطرودًا كطاحونةِ الهواء حين دخلَ الجميع طاحنينَ حلواهم بأسنانهم بينما طحنتُ فراغي بمعدةٍ خاوية، وعدتُ حين ظلُّوا يذكرونَ إلهًا استحوذوا عليه، ونبيًّا استأثروا به لأنفسهم مانعينَ إيّاي منكما. يا إلهي: كلّ هذه الدّنيا، كلُّها لا تساوي قطعةَ الحلوى تلك عندي.

ركلني والدي قاذفًا بي إلى واقعي من عزلتي ومُنتَبَذي. صفعَني وقد راحَ يتفقّدُ عمامتي ودشداشتي متكهّنًا جرّاء خبرته بما حدث. تنقّلت عيناه بين المولدِ وبين وجهي متلمّظًا الكراهية والحنق قبل أن يحذّرني: «لا تبكِ يا ابن العاهرة، هؤلاء مجانين ومعاتيه وظيفتهم في الحياةِ أن يولدوا ويموتوا فقط، فاشل ابن فاشلة أنت لا غير... ما لم تستطع الحصول عليه من التّسوّل فاحصل عليه من السّرقة يا وغد... لا تدع هؤلاء ينتصرونَ بازدواجيّتهم على حقيقتك الواحدة».

مسحَ على رأسي بعطف، وسار بجانبي. « هيّا، اذهب وأرني مهارتك... اثبت لي أنّك ابني كما أثبتَ أقرانُك الأغبياء أنّهم أبناء آبائهم الحمقى». كانت المرّة الأولى الّتي أسرقُ بها شيئًا يحرسه الآخرون لذا ضُبطتُ متلبّسًا فورَ قفزي عن السّور والتقاطي لقطعةِ هريسة خلّصها أحدهم من يدي بصعوبةٍ بالغة بعدما قبضتُ عليها بين يدي كالكمّاشة فانهرست وسقطت كجثثٍ متقطّعة الأوصال جرّاء لغمٍ دون أن أنالَ شيئًا منها. رُكلتُ وشتِمتُ بأقذع الصّفات منه. راح ينعتني بالسّارق ويذكّرني بين الخطوةِ والخطوة الواسعة وهو يجرّني إلى الخارج بالنّار الّتي أعدّها الله للظّالمين. قذفَ بِي متأسّفًا على عدمِ تطبيق حكم الشّرع بقطعِ يد السّارق. استغربتُ ضاحكًا متقلّبًا على بطني وظهري غير آبهٍ باتّساخ الثّوب الّذي لم يعد له قيمةً؛ مقلّدًا طريقتَه بإخراجِ الحروف بغنّتها وإقلابها وإعلالها وإدغامها من فمه، ناظرًا إلى يدي الّتي يأسف لها بأنّها لم تقطع.

نسختُ صورتَه في مخيّلتي وحدّثتها مرارًا وتكرارًا كيلا أنسى ملامحَه يومًا... لقد قذفني في النّار كمن يمتلك زمامَ أمرها، وقطعَ يدي كي أكونَ عبرةً لغيري من أجلِ قطعةِ هريسة لم أتذوّقها... ليتني استطعتُ نسخَ صورهم جميعًا في ذاكرتي. ليتني استطعت حفظ ملامح وأسماء وألقاب الجميع كي يلتقي بهم رضا شابًّا ومسنًّا ويستخلص من بين أيديهم حقّه القديم... نسختُ صورته فلم أمحها إلّا بعد أن وجدَني جاثمًا على صدره وهو مستغرقٌ بالنّوم في سريره بعد سنوات طويلة من يوم المولد. انتفضَ فزعًا محاولًا مقاومتي وقد حانت منه التفاتة لزوجته المقيّدة على مقربة منه على الأرض؛ حتّى إذا عمَل المخدّرُ عملَه واستسلمَ بعد استيقاظِه وجدني قد فرغتُ منها. أردتُ نزعَ قناع وجهي لعلّه يتسنبطُ منه ملامحَ رضا الطّفل لكنني عوضًا عن هذا نزعتُ عن طبقَ الهريسة الّتي أحضرته غلافَها الورقي مقدّمًا له قطعةً ليتذوّقها. أقسمتُ إن لم يلتهمها أن أغتصبه هو فراح يأكلها بشراهةِ من لم يدخل جوفَه

طعامٌ منذ ألف عام. نظرتُ إلى يدي الّتي أراد قطعها فقبّلتها لأنّها بدت معطاءةً أكثر من أيديهم جميعًا... لقد قدّمت له ما حرمني منه صغيرًا بنفسٍ راضية مرضيّة. لقد سمحتُ ليده أن تمسحَ عن فمِه القطرَ الّذي علق به بينما لو استطاع هو يومها أن يمسح عن يدي القطر لما أعرضَ عن ذلك.

رائحةُ القطرِ لتلكَ الحلوى ما زالت على يدي. **حاولَ أن يشتمَّ يديه فأعاق القيدُ يسراه فاستعان باليمنى واشتمَّها بعمق.** رحتُ أتذوّق القطرَ ممّا علقَ على يدي يوم المولد من صندوقِ الحلوى وجثّة القطعة المهروسة؛ بينما راحت تتلاشى أصواتُ الأناشيد، راحت تتلاشى أصواتُ الصّنّاجات، راحت تتلاشى أصواتُ الذّكر، والحلقاتِ، وصوت الحركات الرأسيّةِ والجسديّة ليس في تلك اللّيلة فقط؛ بل تلاشت طوالَ عمري بالكامل ولم تعد قطّ من حينها... شيء ما علِق في ذاكرتي، شيءٌ وحيد لم يُراوح ذاكرتي منذ تلك اللّيلة، هي رائحة الحلوى السّاخنة الّتي لم أتذوّقها.

تلاشى كلّ شيء إلّا تلك الرّائحة، ونسيت كلّ شيءٍ إلّا عبارةَ والدي: «ما لم تستطع الحصولَ عليه من التسوّل فاحصل عليه من السّرقة يا وغد». ولذا فقد حصلتُ على كلّ شيءٍ من خلالها: المال والنّساء والخمر والقمار والمخدّرات، لكنّني فشلتُ بسرقةِ شيءٍ واحد خلال مسيرتي الطّويلة لطالما حاولتُ الحصول عليه رغم مهارتي وعبقريّتي في عملي، فشلتُ بسرقةِ قلبِ ولدي سيف بينما نجحَ بما فشلتُ بهِ يومَ سرقَني، وقتَلني، ووشى بي.

(14)

لعله الوطن

- «شربتُ فلافلَ الإفطارْ

فلتصنعْ يداكِ الشاي

عسايَ نسيتُ أُخبركِ

بأنّ الشّوقَ نَهْنَهني

كآهاتٍ بثغرِ النّاي

لذاك الشّاي ِيا فدوى

لذاك الشّاي

لقد ضيّعتُ يا فدوى

بكاءَ الطّفلِ في عيني

لعُمقِ بُكاي

نقاءَ الصّوتِ من شفتي

لقُبحِ غُنايْ

جمالَ الكونِ في بصري

لضيقِ رُؤاي

سُكوني

طيبتي

أَلَقي

أكادُ بأنْ أكونَ أنا

لِلحظاتٍ أكونُ أنا

فأَلقاني أكونُ سواي

أعِدْ لي يا زمانَ القهرِ

ما ضيَّعتَ من عمري

أعد لي قلبيَ الأبيضْ

وأحلامي وفجرَ صبايْ

أريدُ الطّفلَ، ذاك الطّفلَ لا أكثرْ

أريدُ تسلسلَ الأيّامِ

والإبحارَ في جهلي

أريدُ الحزنَ

بادِلْني بأحزاني

أريد الحزنَ أنْ يبدو

كحزنٍ دونَ أن أُقْهَرْ

أريدُ تناوُلَ الإفطارِ مع فدوى

وكوبَ الشّاي

عسايَ نسيتُ أخبركِ

بأنّ الشّوقَ نهنهني

كآهاتٍ بثغرِ النّاي

لذاكَ الشّايِ يا فدوى

لذاكَ الشّاي»...

راحت تنشدُ القصيدةَ على مسامعي بصوتها الرّقيق محرِّضةً إياي أن أتحدّث... هي لا تعلمُ أن صمتي معها ما هو إلّا تنصلٌ وقتيّ لأجمعَ أفكاري، وأستحضرَ معلوماتي، وأحاديثي، وذكرياتي السّابقة مع أصلان... هذه خاتمةُ قصيدةٍ أحفظها شعرًا، وأسلوبًا، وتكنيكًا كما أحفظُ اسمي الرّباعيّ بل اسميَّ الرّباعيّين: الحقيقيّ والمنتحل، أحدهما: ***سيف رضا بديع العجّان***. والآخر:

معروف مشهور مرموق النقّاد. أنا من اخترتُ هذا الاسم يومَ أتلفتُ كلّ وثائقي، واستصدرتُ وثائقَ جديدة كي تدفنَ في حبرِها الاسم القديم.

والدي وأصلان فقط من عرفا الاسمين، مَن عرفا الحقيقة، ثمَّ احتفظَ كلّ منهما بما عرفهَ متجاهلًا أهميّته عندي.

خُلِقتُ عاشقًا للأدبِ الّذي لم أتحلَّ به بعد هروبي من الماضي السّحيق، بعدما فقدت شغفي به أثناء عملي مع صقر الّذي أغدقَ عليَّ العطايا حين لمسَ النّبوغَ منّي يافعًا موكلا إليّ مهمّة حراسته. وجدتُ ما أصبو إليهِ مؤقّتًا بعد هروب فاشلٍ دام طويًلا: المال، والاحترام، والنّساء سيما أنّ أجملَهن وأصغرهن مَن سعت للتعرّفِ إلي، قبل اكتشافي أنّها مدفوعةٌ لذلك من رئيسي صقر.

ومن خلال صقر تعرّفتُ على ليزا وتمنّيت كثيرًا أن أحظى بليلةٍ معها مهما كان الثّمن؛ لكّن الثّمن الّذي عُرض عليّ منها ومن صقر هو الّذي أصابني بالفتور تجاهها، أو ربّما الخوف من الاقتراب منها؛ سيما حين راحا يضعان مع نيران خطّة محكمة لقتل أصلان في شقّة هند.

- أنتَ زوجُها الآن، ستتّصل به الباسقةُ نيران. **مشيرًا إليها بابتسامةٍ قذرة.** لتقوده إلى هنا كفاعلةِ خير. سيدخلُ الشّقةَ وقد سبقه ابنه إليها. ما عليكَ إلّا الخروج من الغرفةِ تلك وإطلاق النّارِ عليهما كيفما اتّفق. **صمتَ قليلًا ثمَّ كمن تذكّر.** زوجٌ ثارت حميَّته بعد أن حاولَ الابنُ اغتصابَ زوجته الجميلة. فلما حضرَ الأبُ فجأةً أطلقَ النّارَ عليكَ فأرديتَه قتيلًا هو الآخر، هو مشهد من فيلم قديم ومستهلك لكنّها خطّة سهلة ومنطقيّة ومقنعة.

- ولماذا لا أقتله قنصًا في مكان ما بهويّةٍ مجهول؟

- لا، لا، أريدُ موتًا وفضيحة. لن نصنع منه بطلًا يحجُّ النّاس إلى قبره، أصدقاؤنا انتبهوا لأخطائهم القديمة. **ناظرًا نحو سيلا.** فلم يعودوا يصنعون أبطالا ملهمين للأجيال القادمة. يكفينا ناجي علي واحد وغسان كنفاني واحد، صدّقني لن تسجنَ أكثر من عامٍ في أسوأ الأحوال، بعدها أنتَ معنا كما كنتَ دومًا وفي جنّتنا يا صديق.

أعرفُ هذا الشّاعر لاهتمامي قديمًا بالأدب، كما أعرفُ أنّني لم أقتل من قبل، وها أنا الآن أعرفُ أنّني أمامَ مكيدةٍ دبّرت لي، لا تقلُّ دهاءً عن مكيدةٍ حيكت له.

انتظرتُ في الغرفةِ الأقرب لمكانهِ في الصّالةِ، أو في شقّتنا أنا وهند بما أنّنا تزوّجنا قبلها صوريًّا مُطرقًا سمعي لصوته، كان عليّ أن أقتحمَ الصالةَ لحظتها، لكنّني لم أفعل، جلستُ مُشعلًا لفافةً تبغي قبلَ أن يقتحمَ البوليس المكان. استغرقَ الأمرُ بضعَ دقائقَ ليضعوا القيودَ في يدي واضعين يدَهم على سلاحِ الجريمةِ الّتي لم تُرتكب. طلبَ أصلان منهم وقد تأمّلته متعجّبًا من جرأتهِ وخوضه هذا الفخ دونما سلاح أن يتحدّث إلي، رفضتُ بادئ الأمرِ لكنّه ابتسم بحنوٍّ غريب في وجهي.

- هل أنتَ زوجها حقًّا؟

- زواجٌ صوريّ بهدفِ الإيقاعِ بك.

- لمَ لم تندفع وتطلق النّار؟

- لم أقتل مِن قبل، ببساطة تلزمني جرأةُ القتلة، وقد يكون السّبب أنّني من محبّي شعرك. **قلت الجملة الأخيرة للسّخرية فقط.**

- سيف العجّان!! **قالها متفحّصًا وثيقتي وقد تناولها من يد أحدهم رادًّا إيّاها لي.** خذها، كم دفعوا لك لقتلي؟

- ما لم أحلمُ به.

- عدني.

- بماذا؟

- أن تنسى ما حدث هنا.

- في السّجن قد أنسى اسمي الكريه هذا.

- لن تدخله، عدني فقط، أنتَ لم تكن موجودًا هنا، أنتَ الآن موجود في مكان آخر، تفهمني؟

- هل ستصدّقني؟

- سأصدّقك.

- الوعدُ للشّرفاء، ولستُ شريفًا لأفي بوعدي.

- كن معي إذن كذلك.

- ما الّذي يدعوكَ لتفعلَ هذا؟

- لأنّني أعرفك. **قالها واقترب محدِّقًا بي.** رأيتك من قبل.

- تعرفُني؟! ورأيتني أيضًا؟ لم أجلس يومًا في أمسيةٍ شعريّةٍ لك، بل أراك كاذبًا مُتاجرًا بالوطن لا غير. **لم أفهم دافعي لقول هذه الجملة الّتي تفوّهت بها بيد أنّي كنتُ أسمعها أحيانا على التّلفاز من بعض منتقديه ومعارضيه فقلتها.**

- قد أكون، لا يهم من أنا، وما هي حقيقتي، لكن عليك أن تعدني.

- سأعدك، لكن قل لي أين رأيتني؟ كيف لك أن تعرفني؟

- في الحُلم.

- الحلم. **ضحكتُ كما لم أضحك يومًا سيما وقد بدا جادًّا بما يقوله.**

- عدني فقط.

- هل رأيتَ «سبعَ بقراتٍ سمان يأكلهن سبعٌ عجاف وسبعَ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخرَ يابسات»؟

غضبَ كما لم أرهُ بعد ذلك بهذا الغضب، صَفَعني، كلّا، لكمني لكمةً كادت تودي بأنفي، رفعني من ياقتي، ثمَّ حدَّقَ بي طويلًا.

- عدني لتذهب، أو سأذهب أنا بينما تذهب مع هؤلاء وسأحرص ألّا تعود من المكان الّذي سيقودونك إليه. **أشار لرجال الشّرطة.**

- وستصدّقني؟ **قلتها خائفًا من لكمةٍ أخرى فحميتُ وجهي.**

- أعتذر عن تصرّفي، عدني فقط. **قالها وقد عاد الهدوء يخيّم على ملامحه.**

وعدتُه وذهبت. دارَ في خلدي فورا بأنّه من مجانين هذه الأرض، من أولئك الشّعراء المجاذيب الّذين يدَّعون بأنّ الجنَّ يُلقي في روعهم الشّعرَ، لكنّني

وجدتُ نفسي خارجَ تلك المكيدة المجانيّة الّتي أوقعتُ نفسي بها لا لأقتله، بل لأعاقبَ نفسي بالسّجنِ على نزعةٍ تحتلّني منذ هربتُ من ماضٍ متعب.

ثمَّ وكِّلت بقتله مجدّدًا بتحريضٍ مالي من والدِ زوجتهِ عبر وساطة رئيسي الجديد في العمل. قلت في نفسي: «هؤلاء لا يهتمّون بأن يموتَ بطلًا أو عاهرًا، يريدونه ميتًا فقط. بل الجميع يريدُ قتل هذا الرجل، ويحاولون تصفيته بأيّ طريقةٍ كانت، فما الذّنب الّذي ارتكبه بحق هؤلاء الكارهين يا ترى؟». أجبت نفسي حينها: «لعلّه الوطن».

ضغطتُ على الزّناد، وقد صوبت فوّهةَ البندقيّة نحو كتفه، لا لأنّني لا أريد قتله، أو قصدت فقط إيذاءه وأخذ المكافأة، بل لأنّي كنتُ أحيا في منطقة الوسط في كلّ شيء، منطقة الإجرام وعدم القتل، ومنطقةِ الإعجاب بشخصه وكراهيّته في آن واحد. لم أكن قد قتلتُ قبلها ولا أطلقتُ النّار على قلب حيٍّ رغم براعتي بقنص الأهداف الحيوانيّة المتحرّكة بالصّيد. لكنّني بعد قنصي لكتفه ونجاته مالت كفّة الشّر داخلي نحو القتل الحقيقيّ والإجرام الحقيقيّ؛ فقتلتُ بعدها رجلًا فإذ بي أكتشفُ وقد تضرَّج بدمائه قتيلًا أن القتيلَ امرأة.. امرأة حسبتها رجلًا... امرأة كي أندمَ طوال عمري البائس على هذا... ليتني لم أطلق النّار وأقتل من أجل المال، كان يكفيني أن أكون سافلًا كأبي، أبي الّذي رفض أن يكون قاتلًا، فهربتُ منه كي أتفوّق عليهِ رغم احتقاري له.

أثارَ فضولي هذا الشّاعر فرحتُ أقرأ عنه أكثر، وأسمع منه وعنه أيضًا، رحت أفتّشُ في كلّ شيءٍ يتعلّقُ به بعدَ أن نقدَني مبلغًا ضخمًا وعفا عنّي، وحلُمَ بي قبل أن يراني.

حتّى ذاك الوقت القريب من الحادثة كنتُ حاملًا وثيقتي الحقيقيّة باسم سيف، وعلى وشكِ تسلُّمِ وثيقتي المزوّرةِ باسم معروف في ليلةٍ من ليالي أكتوبر الماطرة؛ إذ لمحتُ والدي العجّان وقد مرَّ من أمامي مسرعًا قبل أن ينعطفَ قاصدًا منطقةً قيدَ البناء والتمدّد العمراني مرتديًا بعدها قناعه المطلي بمادة ضدّ الأشعّة الماورائيّة. سرت خلفَه ببطء خشيةَ أن يكتشفني، بدا سريعًا عالمًا بالمكان الّذي يقصده، وما إن تيقنَّ، وقد التفَت يمنةً ويسرةً ألّا أحدَ يراه قفزَ كالقردِ، رغم سنِّه مِن على سورٍ عالٍ واختفى مباشرة... المنزلُ الّذي تسللَ إليهِ شبهُ منعزل عن المنازل الأخرى تقبعُ أمامه باحةٌ صغيرة. يدُلُّكَ طابقاه وحجره الفاخر، وصنعته المعماريّة عبر أقواسهِ وقرميده أن مالكه من ميسوري الدّخل؛ أو من كبارات رجال الدّولة المتقاعدين.

وقفتُ بعيدًا محاولًا حجب المطرِ وأخيلةِ ضوئي الخفيتِ لائذًا بغرفةِ عاملِ بناءٍ خلَت منه؛ وقد ضربت الرّياحُ والأمطارُ سقفَها الصّفيحيّ، منتظرًا خروجَ العجّان فقط... فضولي مَن دفعني لذلك، لم أرَه منذ زمنٍ بعيد، وها أنا أراه الآن ولم يزل يتمتّعُ بلياقته القرديّة. **{من المؤلمِ أن تكونَ شاهدًا على لصٍّ تسللَ لمنزلِ أحدهم بصفته والدك}.**

قلتُ هذه الجملةَ كزفرةٍ خرجت منّي، لكنّني لم أشعرُ إلّا بنصفِ خروجها من أعماقي، إذ أحسستُ بفوهةٍ مسدّسٍ أوقَفتهَا بعد أن وُجِّهت لرأسي.

- استدر ببطء. **جاءني الصّوت آمرًا بلهجةٍ حادّة سريعة.**

- سأفعل، لا أحملُ سلاحًا. **قلتها واستدرت.**

- هذا أنت؟

- أنت؟

وتذكّرت على الفور تلك اللّكمة الّتي ناولني إيّاها يومًا، معتقدًا أنّه يطاردني للانتقام من نكثِ عهدي الأوّل ومحاولةِ قتله، فأردت أن أقسمُ له أنّني كنت قادرًا على قتله لكنّني بدل ذلك آذيته فقط، لأنّني إن لم أقم بهذه المهمة لقام غيري بها بنجاح وهذا ما لم أرده، فإصابته في الكتف أفضل من موته... أردت أن أقول هذا غير أنَّ حيرته وتعجّبه من رؤيتي منعاني عن هذا؛ فالتزمتُ الصّمت قبلَ أن أقول ما قد لا يعرفه، مُستبعدًا أن أعترفَ بهذا له في قادم الأيّام الّتي سمحت لي بهذا في النّهاية.

- تكلّم. **ونقَرَني بفوّهة المسدّس على رأسي.**

- بماذا أتكلّم؟

- ما الّذي تفعله هنا؟ **انتبهتُ في تلك اللّحظة لحرسه الخاص وقد أحاطوا به.**

- أقسم لك بأنّني كنتُ مارًّا من هنا مصادفةً فرأيت والدي... هو لصٌّ عريق بالمناسبة، تسلّل إلى هذا المنزل، فدفعني الفضول فقط لمراقبته. أعتقد أنَّ مشاهدتي للسّرقة لا يُعتبر جُرمًا أستحقّ عليه القتل طالما أنَّ السّارق والدي!

- والدك؟

- أقسم أنّه والدي الّذي لا يعلم أنّني رأيته.

- هل تسلّل لهذا المنزل؟ **قالها مشيراً للمنزل ذاته.**

- نعم.

- هل تعرفُ مالكَ هذا المنزل؟

- كلّا، أقسم أنّني تبعتُه من ذاك الشّارع. **أشرتُ نحوه.** إلى هنا فقفزَ عن السّور ولم يخرج بعد.

- هل يحملُ سلاحًا؟

- لا أعلم، لكنّه ورغم فسقه من المستحيل أن يفكّر بقتلِ أحد.

- سأصدّقك.

ثمَّ قال لأحد حرسِه: «إن مرَّت ساعتان ولم أخرج من هذا المنزل فما عليكَ إلّا إبلاغ البوليس». سار قليلًا ثمَّ التفتَ كمن تذكّر شيئًا، وقال له مرّة أخرى: «إن خرجَ والد هذا قبلي فاتركه وشأنه، ثمَّ حاولْ ألَّا أراك مجدّدًا». **مشيراً نحوي.**

- ستدخل؟! **ليس الغريب أن يدخل أو لماذا يريد الدّخول، الغريب أنّه يصدّقني.**

لم يجبني بل أسرعَ متّجهًا نحو المنزل وغاب هو الآخر.

بعد ساعةٍ ونصف خرج العجّان ممسكًا بقناعِه من باب المنزلِ حائرًا، مرَّ مِن أمامنا فلم يرنا أو يلاحظني، سارَ ببطءٍ نحو الطّريق المغلق المعاكس لما قطعه من قبل، ثمَّ مرّ بمحاذاتي مرّةً أخرى ولم يرني ضاربًا كفّيهِ كلّما توقّف فجأةً، أو تابعَ المسير، حتّى اختفى عن ناظري.

خرجَ بعدها أصلان برفقةِ امرأةٍ متّجهًا لسيّارته الّتي تركها في الخارج قبل أن يلحقه حرسُه مطلقًا للرّيحِ عنانها بعد ذلك. قال لي فيما بعد بأنّها ليزا الّتي أحبَّها فكان لها الأثر الكبير بتأنيبِ نفسه وتأليبها من خلالِ التّفريطِ بمبادئَ

خانها من أجلها تلك اللّيلة، ثمّ راح يسردُ لي كيف انصاع لحدسِه حين رأى جسدَ العجّان يطير في الهواء مرتطمًا حال سقوطهِ بمقدّمة سيّارة الفتاة... تلك هي ريم الّتي خرجَت من بيت العجّان برفقة رجالِ الشّرطة، رأيتُها في المحكمةِ وقد جلست بجانب شهد، فلم تفارق صورتها الضّخمة الّتي لا تتّسعُ ذاكرتي للاحتفاظ بها ذاكرةً إضافيةً لطبعِ صورتها فيها... لو كنت على دراية بما تفكّر به آنذاك لقدّمت لها نفسي قائلا: أنا سيفُ العجّان الّذي وشى بوالده لإنقاذك كما تظنّين أيّتها الحمقاء. هي من حرَّضتني على مداعبتها حين راحت تتذكّرُ ملامحي وصوتي قائلةً: «أعرفُك، لقد التقيتك، أين، ومتى، وكيف؟ هذا الصّوت وهاتان العينان أعرفهما جيّدًا».

- صوتُ أصلان وعيناه.

قلتها ممازحًا لا أكثر، فهي صفةٌ ذُهلَ منها أصلان نفسه عندما التقاني أولَ مرة. قال لي: «كيفَ لك أن تقلِّدَ صوتي إلى هذه الدّرجة؟

- لكن هذا صوتي.

- حقّا؟

- هل أغنِّي لك لتتأكّد؟

- إيّاك أن تفعل، لا أريد أن أكرهه أرجوك. **قالها ضاحكًا.**

لم أقصد أبدًا أن أنتحلَ شخصه لكنّها تلقَّفَت من فمي هذه العبارةَ ونسجَت وهمًا دفعَ بي للتّفكير بما لم يخطر ببالي يومًا.

- أنتَ أصلان؟

- بعجرهِ وبجره.

كلّ ما فعلته أنّني استحضرتُ شخصيته، وأسلوبه، وطريقةَ حديثه الّتي أعرفها جيّدًا مقتديًا به يومَ نسجَ الأكاذيب والأوهام لحياتهِ مع زوجته حنان ليس إلّا... إذ بدأتُ كما بدأ، فقد بدأ ما بدأه مازحًا وتمادى حين صدَّقه الآخر، فلم يعد بإمكانه الرّجوع بعدها وقد غرقَ في الحقيقةِ الكاذبة، فتقمصتُ الدّورَ كما تقمَّصَ حين قررتُ اللّارجوع.

المفاجأةُ كانت فقط بسيلا الّتي أعرفُ كلّ شيءٍ عنها وعن علاقتها بـ أصلان، إلّا أنه يتوجّب عليَّ أن أقف هنا رافعًا للقدرِ القبّعةَ على هذه الأحداث الّتي تدلُّك: «أنَّ خالقَ هذا الكون لم يكن يلعب النّرد».

هذا الكونُ صغيرٌ أكثر مما كنتُ أتخيّل، وواسعٌ أكثر ممّا قد نتصّور، فقد التقيتُ هنا بثلاثةِ شخوصٍ لم أتوقعَ يومًا أن أقابلهم في حياتي: سيلا، ريم، وأنا.

رأيتُ في عينيّ سيلا موتي لأنّني رأيتهُ في عينِ من حاولوا قتلي عبر مراحلِ حياتي آخرها في انفجارِ بنغازي الّذي تبعَه إطلاق النّار على كلّ شيء... لقد قتلوا حينها البشر، والمقاعدَ، والسّتائرَ، والمنبرَ، والآلات الموسيقية. لم ينجُ إلّا مَن هرب، أمّا الّذينَ هربوا فلم يكن بينهم شاعرٌ يدعى أصلان... فأصلان مات وشبع موتًا الآن.

رأيت الموتَ في عينيها حينما سألتني: ما سببُ وقوفِ هذه السّاعةِ عن الدّوران؟

حاولتُ إخفاءَ خوفي، لكنّني استسلمتُ للدّهشةِ والخوفِ، وقد اقتربت محدِّقةً بملامحي بطريقةٍ غريبة.

- أنتَ أصلان؟

- كلّا، أنا معروف.

- هذه الملامحُ النّاجيةُ المتبقّيةُ منكَ تحيّرني، صوتُك، عيناك، صلعُك، لكنّها لا تحملُ تلك النّظرة، أين ذهبت؟

- في الحرب.

- كيف لها ألّا تكترثَ لرؤيتي؟

- عيناي؟

- وملامحك أيضًا.

كدتُ أن أبرّر متفوّهًا ببعض الأعذار الغبيّة لكنّني حدَّقت بها طويلا؛ ثم غامرتُ بعد أن حثثتُ لساني أن يفعل.

- قد لا أنسى ليزا العاشقة، لكنّني نسيتُ ليزا الـ......

- لا تُكمل. **قالتها بغضب، وامتلأت عيناها بالغِل.** لستَ أصلان؛ لقد مات في بنغازي، قتلوه، أنتَ سيف الغبيّ.

لم أشك بذكائها، سيما وأنّها عاشقةٌ استثنائيّة جعلت شاعرا يتحوّلُ عن مبدئهِ، لائمًا نفسه مؤنِّبًا إيّاها على جرمِ ما فعلت، لكنّني تسلَّحت بالصّمتِ

والمراوغةِ أثناءَ تردّدها الحَذِر على غرفتي في غفلةٍ من عينيْ ريم وإدارة المشفى. أخافني حديثُها عن الفحوصات الّتي تقومُ بها، وطمأنتني _بعد ذلك_ نظراتُ انتصارها في حربٍ تدور في الخفاء لا أعلم ماهيّتها... لكنّني في النّهايةِ لم أعد أكترث طالما أنَّ الموت يقتربُ منّي بشكلٍ كبير، ثمَّ دخلت كالغولةِ محققّةً معي لأشعرَ بما هو أبعد من الخوف حيثُ صرختُ بها بآخر ما أملكه من قِوَى.

- أصلان، معروف، سيف، مهما يكن، لماذا أنت مهتمّة؟

- قل الحقيقةَ فقط.

- نعم، أنا أصلان.

- وكيف لك أن تصغُرَ كلّ هذه السّنوات؟

- فحوصاتكم غبيّة، اتركيني وشأني.

لم تتركني، بل راحت تتحقّق من كلّ شيءٍ في جسدي بينما أخفت الحروق ما أخفت، وأكلَ الزّمان ما أكل، لكنّها بحثت عن شيءٍ ما لم أعرفه، وما بين تصديقها لشعورها بأنّني أصلان وتصديقها للأجهزة الّتي تنفي ذلك وقفَت أمامي حاقنةً إيّاي حقنةً ظننتُها الأخيرة:

- من حسن ظنّك أنّك لست أصلان يا صديقي. لو كنت لتمَّ نقلك إلى المكان الّذي لن تتمنّى مطلقًا أن تكون فيه، سيما أن رؤسائي متشوّقين للقائك والتّعرف إليك بعد سنواتٍ من الكرّ والفرّ. من حسن حظّك أنّنا تأكدنا أنّك سيف الغبيّ الّذي لا قيمةَ له مُتعطّفةً عليك بمنحك الموت اللّائق الّذي لا تستحقّه تقديرًا من قلبي الطّيب للأيّام الخوالي.

(15)

ساعات الصّفر

السّاعةُ كما هي متوقفةٌ عندَ الثّانية عشرة، أمَّا شاعري فقد توقّفَ مرّةً أخرى عن الكلام. كلّ ما أفعله الآن هو أن أتابعَ حالته جالسةً بجانبه قارئةً بعضَ قصائده. هو الهدوءُ المُتعب من جديد، والوحدة المفروضةُ على فتاةٍ أربعينيّةٍ لم تنجب النّساء أبدنَ منها.

تناولتُ حاسوبي متصفّحةً بعضَ ما أملاه عليّ قديمًا، اخترتُ نصًّا ظنَّ بأنّني قمتُ بحذفه، قرأته لعلّه يسألني عن سببِ وجودهِ على شاشتي رغمَ عدم اكتراثه بهذا منذ أفاق. أردتُ استفزازه للحديث غيرَ أنّه لم يفعل، ظلَّ صامتًا محدِّقًا بالسّاعةِ الواقفةِ كروحي، مغمضًا عينيه بين الحين والآخر.. رحت أقرأ بصوتٍ مسموعٍ:

كيف لي أن أقنعَ هذا القلم اللّعين بأنّني أصلان لا معروف؟ أراه يعاندُني كما لم يعاندني من قبل، أراه يرفضني كما لو أنّه يُنكرني فلا يتقبل شكلي الجديد ولا ملامحي الضّائعة، أقبلُ هذا من الأشخاص، من قرَّائي، من حبيبةٍ قد تتوهُ بيني وبينَ آخر، لكنّني لا أقبلُ هذا منه.

مرَّ على وجودي في مشفاي الأخير شهرٌ كما تشيرُ ساعةُ الحائطِ الصّامتة. أجدني مشتاقًا لعائلةٍ أضعتها يومَ فررتُ من بنغازي. بنغازي وحدها مَن تحتفظُ بالكثيرِ من الأسرار، ووحدها الشّاهدةُ على انفجارٍ كاد أن يودي بحياتي. يظنّون بأنّي قد لقيتُ حتفي، لكنّني مَن رآهم يحملون نصفَ جثّتي

ويحرقونها بلا رحمة، ليُقالَ لي في المشفى بأنّهم قد ألقوا برماد وبقايا ذلك الشّاعر الزّنديق في البحر، كيف لهم أن يفعلوا هذا بينما رحتُ أتحسّس جسدي المرقّط بالحروقِ والشّظايا؟ وكيفَ لهم أن يستدلّوا على الجثّةِ من هويّةٍ يستطيع أي شخص تزويرها، بل من المضحك حقًّا أن أكونَ حاضرًا زمنَ ومكانَ تزويرها وتسليمها.

قلت للطّبيبِ في بنغازي أنّني أصلان، فسخرَ مني ظانًّا أنَّ الصّدمةَ أودت بعقلي، ثمَّ راحت الأحاديث تتوعّدني عبر الأخبارِ والتّقارير، فرضيتُ أن أكونَ طِبقًا لما حملتهُ الهويّةُ الّتي في جيبي لثلاثة أشهر. **{كن معروفًا حتّى تتشافى ثمَّ عد إلى وطنك كأنت}.** لم أستطع وقد وجدتُ نفسي في شوارعَ لا تعترف إلّا بالموت، الموتُ في كلّ مكان، يلاحقُ الجميع، ولا يرحمُ أحدًا.

كلّ ما أملكه هو هويّةٌ لسواي، ربما تكون لرجلٍ لاحقني يومًا أو لاحقته بعد أن شعرتُ بأنّه يُشبهني كي نجلسَ طويلًا، ونتحدّث طويلًا، وكأنَّ الحلمَ الّذي زارني يومًا أرادَ أن يجثمَ على صدري في الواقع.

ربّما يكونُ مَن أطلقَ عليَّ النّارَ في قصر المعارف فأصابَ كتفي، أقسمَ بأنّه لم يرد قتلي في اللّحظة الأخيرة، لكنّه لسببٍ يجهله لم يمنع نفسه عن إيذائي... قال بأنّه كان يحيا حينها بالمنتصف.

رأيتهُ قبلَها، نقدتهُ مالًا، وصفحتُ عنه لسببٍ أجهله، لم أسأله عن سببِ إطلاق النّار، أو تراني سألته وتناسيت! أو ربّما لم أسأله مطلقًا... لا أعرف. لم أسأله عن محرِّضه، أو تراني سألته وتناسيت!. لكنّني سألته عن هذا بعد أن التقيته في الوطن، وفي أماكن أخرى في العالم نسيتها لكن كان آخرها في بنغازي... قال لي كلّ شيءٍ وصدّقته لا لأنّني أصدّق كلّ شيء، بل لأنّه لن يخسرَ شيئًا إن قالَ الحقيقةَ، فقد فرَّ مثلي من ماضيه اللّعين.

كان يعرفني بالطّريقةِ الّتي أعرف نفسي من خلالها، يمتلكُ عيني، يمتلكُ صوتي، يمتلكُ طولي وشكلَ جسدي رغم أني أكبره بأعوامٍ كثيرة. بدا غريبًا هاربًا من كلّ شيءٍ فآويتهُ بعدَ أن قصَّ عليَّ حكاياتٍ فرَّ من بطولةِ أحداثها في الوقت الّذي رحت أقصُّ عليه نفسي.

في الوطنِ حملَ اسمًا قاطعًا، وفي بنغازي حملَ اسمًا موجعًا، لكنّه صمتَ أكثرَ منّي حينَ راحَ يقرأ مذكّراتٍ لم يقرأها غيره، أو أحاديثَ لم يسمعها سواه، لقد حدَّثته لأنّني مارستُ الصّمت كثيرًا، ثمَّ بحثُ به لمن لن يصدقهُ أحدٌ إن نقلَه على لساني.

رافقني إلى مسرحِ بنغازي الأخيرِ وانتظرَ معي في كواليسِ المسرحِ كعادته؛ قبل أن يتحوّلَ كلّ شيءٍ لحطام، ماتَ سريعًا لكنّه عُذِّبَ ميتًا بشكلٍ وحشي، ماتَ قبل أن أخبرَه بأنّني أعرفهُ أيضًا، أعرفهُ كما يعرفُ نفسه. ماتَ قبل أن أخبره بأنّني التقيته يومَ لم يشعر بوجودي، قلتُ ما أرادَ قوله، وقالَ ما أردتُ قوله، فلم يعِ أحدٌ ما قصده، وما قصدته. هي حالةُ التّوهانِ حين تمرُّ الأوجاعُ والمخاوفُ من أمامنا، حينَ لا نشعرُ إلّا بما أردنا الشّعورَ به فلا نستوردُ إلّا الهروبَ حينها.

ها أنا أتحدث وسط دهشةِ ريمي الّتي تظنُّ بأنّني بدأت أرصُّ الأحاجي بين أسطري، فكيف لي أن أفسّرَ ما لا أريدُ تفسيره؟ لكنّني تعوّدت على طيِّ نفسي في حروفي أحيانا، وطيِّ حيرتي في ادِّعائي ما لا أملكه.

لقد أضعتُ سميرًا شهرًا في ميونخ، وحتّى هذا الوقت لم أعرف أين ذهب؟ ولماذا اختفى؟ ولماذا رفضَ الحديث عن سرِّ غيابه؟ أو تراني أعرف ولا أريد أن أقرَّ بمعرفتي كلّ شيء.

جلسَ أمامي في المسرحِ ثمَّ اختفى، سمعتُ حينها صوتي يجيء من الخلف: إلى أين أنتَ ذاهب؟ التفتُّ فوجدتهُ أمامي، وجدتُ قنَّاصي أمامي غيرَ أنّه غادرَ مسرعًا، لم أكترث فرحتُ أبحث عن صديقي الّذي تاه في شوارع ميونخ... حنان لم تصدّق أن غيابي كان بسببه، لطالما لم تصدّقني، ولطالما شعرتُ بهذا غاضبًا.

- لا زلتَ مصرًّا على عدم قول الحقيقة. **صرخت بي حنان فور إخباري إيّاها بالقصة هذه.**

- لقد قلتُ الحقيقة، أنت لا تريدين تصديق أيِّ شيء.

- تصديق ماذا؟!! ها؟! تصديق خبر اختفاء سمير أم اختفائك؟

- قلت لك ألف مرّة، هو الّذي اختفى لا أنا.

- سمير مات، مات يا أصلان، أنت تهذي بهذا قصدًا كي أشفق عليك، وأشعر بالرّثاء لحالك، تريد منّي إحالةَ أمر اختفائك جرّاء حزنك عليه، وقد دفعك للجنون هذه المرّة أيضًا، أنا لا أصدّقك.

كادت الأرض أن تميد بي حين سمعتُ ما قالت، نعم، سميرٌ مات، لقد قتل بالسّم، كيف لي أن أصطحبَ لميونخ صديقًا ميتا؟!

رحتُ أنظر إليها مصدومًا من حقيقةٍ لا أستطيع إنكارها، لكنّني أقسم بأنّه كان معي، وصاحبني لميونخ، كيف هذا؟ لا أعرف.

في الهند أيضًا صاحبني سمير بعد موتهِ، بعد موته!! لا يعقل هذا، لكنّه حدث، لقد صاحبني بعد أن التقينا مصادفةً في المطار!! لا أحدَ يلتقي في

المطار مصادفةً بأحد يريد الوجهةَ ذاتها إلّا إن كان يتبعه!! هل كان يتبعني؟! لكنّني تهتُ عنه في زحمةِ المشاة، حتّى بدت الهند أكبر ممّا هي عليه، هل أخبرها بهذا أيضًا كي تتّهمني بالجنون؟ وقفتُ في مكاني منتظرًا عودته، فلمَّا لم يعد قصدتُ الفندقَ مشيًا لأتوه في طريقي.

اصطدمت بشاعرةٍ لبنانيّة حينها، ما الّذي جاءَ بها من لبنان إلى هنا؟ ضحكت وعانقتني.

- أيُّ صدفةٍ لعينةٍ هذه! أصلان هنا؟

- أنتِ؟

- أنا.

تغَّيرَت كثيرًا لكنّها ما زالت تحملُ تلك الرّوحَ الجميلةَ في نبرتها وملامحها. دعوتها لاحتساءِ أيّ شيءٍ فدخلنا مقهى شعبيًّا لأجد سميرًا جالسًا مع أحدهم وقد أولانا ظهره، لوَّحت له فاستغرب منّي كأنَّه لم يتبين ملامحي جيدًا، أو استغرب من وجودِ صديقتي.

جلستُ بعيدًا عنه محدِّثًا الشّاعرة عن الشّعرِ والشّعراء، بينما راحت تحدِّثني عن لبنان وغضبها الدّائم منّي لأسبابٍ واهية. سرقَ أحدُهم حقيبتها فجأةً وفرَّ مُسرعًا للشّارع، بعد أن انطلق من إحدى الطّاولات المجاورة. ركضتُ وراءه بأعوامي الثمَّانين فبدوتُ كبطريقٍ يلاحقُ غزالًا، صحتُ بسمير أن يساعدني للّحاقِ به وسط ولولات الشّاعرة لكنّه ظلَّ جالسًا كأن لم يسمعني، ركضتُ وراء اللصِّ الّذي كان أسرع من نظراتي ذاتها وعدت بخفي حنين للمقهى.

عدتُ لكنّني لم أجد الشّاعرة ولا سميرًا... اختفيا.

اتّصلتُ بالشّاعرة لكنّها لم تجب، عدتُ إلى الفندقِ لكنّني لم أجد سميرًا. انتظرتُ وصوله قبل أن تتّصل بي الشّاعرة. سألتها:

- أين كنتِ غائبةً طوال هذا الوقت؟

- أصلان، هذا أسرعُ شوقٍ في الدّنيا؟ **ردّت ضاحكةً بتعجّب.**

- ماذا تقصدين؟

- لا أقصدُ شيئًا. **وبدت نبرتها أقرب للشّفقة منها للجواب.**

دخلَ حينها سمير واتّجه نحو المصعد غيرَ أنّي أقفلتُ الخط ولحقتُ به.

- أين كنت؟

- لم أفهم.

- لقد عدتُ للمقهى فلم أجدك.

ضحكَ حينها ضحكته الجهوريّة الغريبة... استغربَ ضاحكًا.. وصعد إلى غرفته دون أن يتكلّم.

لقد حدثت هذه الأشياء معي، لكنَّ سميرًا الّذي يُعد بطلَ هذه الأحداث كان ميتًا، لم أكن أهذي لكنّني لا أصدق أنّ ميتًا خرج من قبره، ثمَّ عاد.

(16)

كوميديا المأزق

هو نصٌّ من النّصوص الّتي لم أفهمها مدركةً أنّها من متناقضاتهِ وخزعبلاتهِ، وها أنا أجدني أفتّش فيه وأعاود قراءته؛ علّي أجد أجوبةً على الحيرة الّتي تفرض نفسها في تصرّفاته الجديدة أمامي. حمقاء مثلي توجّب عليها أن تستمعَ لتحليلِ هذا النّص منه؛ لأنّها لا تعي حرفًا مما جاء فيه.

لم أكترث بما يشبه هذه النّصوص الّتي أملاها علي في الثّلاثة أشهر الأولى من وجوده هنا، متجاهلةً مقاصده على اعتبارها أحداثًا غير مترابطة، وغير منطقيّة معلّلةً ذلك بألف سببٍ أحمق لا يمتّ للحقيقة بصلة...لذا أشرتُ عليهِ أن يكفَّ عن هذه النّصوص غير المفهومة مشجّعةً إيّاه على كتابة الرّسائل، غيرَ مدركةً أنَّ هذه الكتابات هي الّتي تعبرّ عنه في الحقيقة أكثر مِن رسائله لذويه..

طلبت إليه أن يشرحَ لي هذا النّص لكنّه لم يفعل، ورغم أنّني أعدته مرّةً أخرى بيد أنّه لم يتحدّث... لم يرغب مطلقًا بالتّحدث، فانكفأتُ على نفسي مجدّدًا، ومضيت إلى غرفةِ التّمريض حائرة وحيدة، لأبدو متطفّلة على كلّ شيءٍ في هذا الكون حتّى نفسي. لقد عاد من غيبوبته دوني، فلم أستطع اقتحام واقعه الجديد كما كنتُ أفعل كلّما غضب منّي أو شردَ ذهنه. أشعرُ بالوحدة رغم وجوده بل أشعرُ بأنّني مجروحةٌ من الدّاخل، ومومياء متحرّكة مدفونةٌ في رمالِ الحسرةِ والغربة.

مذبوحةٌ بالصّمتِ، ومذبوحةٌ بسكّينِ العباراتِ الصدئة من ألسنةٍ لم تحترم يومًا وجودي؛ حتّى من ظننُت أنّه احترمَ هذا سخرَ منّي حين وصفني بفتاةِ أحلامه هذا الصّباح... لقد قتلني دن بعد أن قالها ودفنني في قبرِ هشاشتي وضعفي حين راح مُبرّرًا بأنّه يداعبُني لا أكثر كصديقة... راح يمتدحُ روحي، وعقلي، وإنسانيّتي ليخفّف من وطأةِ جريمةِ الطّعن هذه... أيّ فتاة أحلام هذه الّتي تحدّث عنها قبل أن يعتذر؟!

هي الطّعنات المجانيّة ممّن يستحقّ ولا يستحقّ، وعليكِ أن تبتسمي بعدها مخفيةً ألمَك الّذي يجتاح روحَك جرَّاء عباراتٍ سخيفة.

- أقسمُ لكِ بأنّني لم أقصد، لقد قلتُ، تـ.. تـ.. تـ.. **وكادت تأتآت دن ألّا تنتهي.**

- لا عليك، أنا أيضًا انفعلتُ بطريقةٍ غبيّة. **مقاطعةً إيّاه بعصبيّة مغلّفة بالهدوء.**

- أعتذر ريم أعتذر.

- وأنا أيضًا أعتذر عن ردّةِ فعلي، أنتَ صديقي الوحيد هنا ولا يمكنني أن أفكّر بخسارتك.

يتبجّحُ أولئكَ الكاذبون بأنَّ الجمالَ جمالُ العقلِ والرّوح، يحاولونَ إقناعنَا بهذه السّخافات، وهم اللّاهثون ليلًا نهارًا خلفَ الحمقاوات والسّطحيات الفاتنات، أمَّا أنا فلم يلهث خلفي يومًا سوى كلب ضالّ صمتَ عن عوائهِ وجريهِ لحظةَ استدارتي خائفةً منه، غيرَ أنّه مَن خافَ منّي وولّى هاربًا... حتّى هذا الكلب ترفَّعَ عن عضّي، لأنّ لحمي لا يصلُح للمضغِ والتّلذّذِ به.

هل أنا قبيحةٌ إلى هذا الحدّ؟ المرآةُ لم تجبني، لم تجبني يومًا عن هذا التّساؤل المُكرّر فهجرتها للأبد. عيون الرّجالِ هي الأصدق يومَ تشيحُ

بنظراتها عنّي، أو عند منحها الشّفقةَ والرّثاء المجّانيّين، كلاّ، حتّى ذاك الكفيف الّذي قال لي يومًا بأنّ صوتي ملائكيّ لم يقترب منّي، لم يحاول التّحرشَ بي كلاميًّا على أقل تقدير، شعرَ بحجمي، بقبحي، بأنّني لا أصلحُ للسّرير، أصلحُ لكلِّ أعمالِ المرأة إلّا أن أكونَ مفعولًا به.

كيفَ باستطاعتي ممارسةَ الرّذيلة إن رفضتني الرّذيلةُ ذاتها؟ كم أكره هذه العفَّة المجّانيّة المفروضة عليّ، كم أكرَه هذا الطّوقَ الأخلاقيّ الّذي يطوّقني رغم أنفي. لماذا لا أملكُ خيارَ الفضيلة والرّذيلة؟ لماذا لا أملكُ أن أختارَ بين انحرافي واستقامتي؟ شهد امتلكت الخيارين فاختارت أن تكونَ عاهرة، سمارُها النّاعمُ وجسدُها الغض وضعَا الخيارين أمامها فاختارت الرّذيلةَ، أمَّا أنا فلم أختر إلّا ما فُرضَ علي. أين الشّيطان عنّي؟ ألا أستحقُّ منه أن يحاولَ مع أحدهم فيُزَيِّنني بعينه فيطلبني للرّذيلة الّتي سأوافق عليها مباشرة دون تردّد؟ أين وسواسه الّذي يحذّرون منه دومًا؟ ألا يجري في عروقي كما يجري في عروق الآخرين ليعلمَ أنّني أرضٌ خصبة لزراعةِ أيِّ شتلة فيها؟ لماذا يستثنيني مِن أعماله الّتي أتقبّلُها ويحاولُ مع الرّافضينَ له؟

تلومينَ أمَّك لأنّها تزَّوجت بآخر، تلومينها متناسيةً أنّك اشتهيتِ ما اشتهته. ماتَ والدك تاركًا خلفه شابّةً طازجة، فلمتِها على خيانتها له عبر آخر، أتذكرُين تلك الجُمَلَ الّتي قالها شاعري تباعًا في مطلعِ قصّةٍ ما؟ حين أوردَ ما استوقَفك فلم تجدي ردًّا لطرحه فأحلتِها للنّسيان، وها هي تجتاحُك مجدّدًا فلا تجدين لها ردًّا صادقًا رغم تصالحك مع نفسك الآن: «لا يُقرأُ الحزنُ بين السّطورِ كما زعمت عينيةُ ابن زُريق، لكنّه لم يتحدّث حينها بهذه الصيغة. لعلّي قرأتُها بين السّطورِ فوضعتها هنا، فقد خطَّه _أي الحزن_ لتلكَ الّتي تركَها خلفَه يومًا ماضيًا لنعشه. أتراها تزوّجت فكان مهرها القصيدة؟ أم تراها أجلستهُ في مقعدِه؟ وألبسته ثيابَه؟ وسمحت له أن يفترشَ فراشَه؟

خائنةٌ إن فعلت ذلك، ووحيدةٌ إن لم تفعل، فكيف نلجُ إلى السّعادةِ بالخيانةِ؟ أو كيفَ نلجُ إلى الوفاءِ بالوحدة؟».

قلتُ لها ألفَ مرّة: «أكرهُ جادًا هذا، أكرهه وأكره أبناءَه... ليسوا إخوتي، ولن يكونوا». لم تكترثي لها، لمشاعرِها، لحاجاتها الّتي أحرقتكِ كأنثى، تكرهين جادًا بقدرِ اشتهائك له، بقدرِ رغبتكِ في الحصولِ عليه، هل هذا اعتراف؟ كلاّ، هو ما خبَّأتِهِ عن نفسك، عن والدتك، عن تفكيركِ دوما. كرهتِ والدتكِ صغيرةً فأردتِ الانتقام لوالدِك منها، الانتقام من جريمتها الزّواجيّة، لم تتقبّلي ابتسامته، ولا رقيَّه الدّائم، لم تكترثي يومًا لحرصِهِ عليكِ، وعدلِهِ في تعاملِهِ معك أسوةً بأولاده... خجلةٌ أنتِ الآن من تذكّرِ تلك اللّيلة اللّعينة، خجلةٌ أنتِ من نفسكِ، منه، من والدتك الرّقيقة الطيّبة، وها قد رحلتِ هاربةً منهما إلى سنبار... سمحا لك بالسّفر إلى جنيف وأخذك القدرُ إلى سنبار.

رَفضَت والدتُك لكنّه أقنعها، قال لها: «شابةٌ من حقّها البحثُ عن طموحٍ خارج الوطن». لم يقل لها بأنّكِ راودتِه عن نفسه، لم يقل لها بأنّكِ اقتحمت عليه غرفته واهبةً إيَّاه نفسَكِ كمومسٍ فاشلة، لم يقل لها بأنّه عانقكَ باكيًا عليكِ كأبٍ أشفقَ على حماقةِ ابنته، لم يقل لها بأنّه مَن وضعكِ في فراشكِ؛ وأسدل على جسدكِ روحَه قبلَ غطائه عطفًا على مرضكِ الرّوحيّ هامسًا في أذني: «يا ابنتي، إيّاك أن تسمحي للحقد أن يدفعك نحو واديهِ المميت، لم أطالبك يومًا باحترامي كأبٍ؛ لكنّني أطالبك الآن ألّا تحوِّلي كرهَك لرغبةٍ في الانتقامِ من والدتك، ومن ذاتك، لم تفعل ما تستحقّ عليه هذا منكِ، ولا تستحقّين أنتِ هذا العقاب الّذي تنوينَ معاقبة نفسك به».

ليست الرغبةُ إذن، ليس اشتهائي له ما دفعني لهذا، بل انتقامٌ لا يحقّ لي أن أُمضيه عبر جسدي، جسدي الّذي لا يصلح للسّرير.

انتشلني من الماضي وذكرياته دن حين أخذ بيدي وسار نحو غرفةِ أصلان، سمعنا صوتَ رجال أمن الدّولة السّنباري بصحبةِ المدير قبل أن نراهم متحلِّقين حول سريره. راح المدير يشيرُ نحو شاعري شارحًا لهم تفاصيل حالته ونفيه أن يكون الشّاعر الّذي يدَّعي بأنّه هو، ضحكوا بينما راح ينظرُ نحو ساعةِ الحائط كأنّه لا يشعرُ بوجودهم بدايةً، ثمَّ رأيت نظرات الذّعر في عينيه تراقبهم كضبعٍ يتحلّق حوله الصيّاديون لقتلهِ، هي نظرات وحشيّة لم أرها مسبقًا تشعرُك أنّها آخر سلاح قد يذود بها دون جدوى عن نفسه.

- هذه الفحوصات تشير بأنّ عمرَه ناهز السّتين فقط، أطمئنكم بأن لا لبس في حالته على الإطلاق، هذا علمٌ متطوّر يا سادة.

جعلت هذه الجملةُ دمائي في حالةِ غليان رغمَ محاولتي تصنُّع الهدوء، بيد أنّي تلقّفت من يده الفحوصات، ورحت أقرأ ما فيها وكأنّها المرّة الأولى الّتي أستمع فيها لهذه الجمل بخصوص الفحوصات... انطلقت للجلوس خلفَ الشّاشة مستعرضةً حالته بالكامل غير تاركةٍ شاردة أو واردة إلّا وتوقّفتُ عندها وأعدتها بهدوء مميت؛ رابطةً النّص الّذي حيرَّني يومًا وبعض خزعبلاته الّتي لم أفهمها فوجدت أنّني أحمق فتاةٍ على وجه الأرض، فأصلان ليس أصلان.... أصلان ليس أصلان... أصلان ليس أصلان... كلّ شيءٍ هنا يدلّ على هذا، لقد أردتُ له أن يكون أصلان حين عرف الكلّ وبسهولةٍ أنّه ليس إلّا معروفًا هذا.

كدتُ أجن ثمَّ شعرتُ بانهيار العالم من حولي، وأخذت تتملّكني مشاعر متناقضة بين مناطق عديدة في نفسي لم أكن اكتشفتها بعد. **{ماذا لو ماتَ في آخر غيبوبةٍ دخلها؟، كنتِ حينها ستنشرين فقط ما جمعتِه منه راضيةً مرضيّة، قد تضيفين إليهِ بعضَ الأشياء من جعبتك، لا أحدَ سيكتشف هذا، لديه بعض النّصوص الرّكيكة فلن يفرِّقَ النّاشرُ بين نصّكِ ونصه، أنت تكذبين**

الآن، لقد تحوّلتِ من معجبةٍ لتاجرة، من عاشقةٍ لشعرهِ إلى جشعةٍ لا تكترث إلّا للمال، المال الّذي سيهديها رجلًا فحلًا يفترسُ أنوثتها، كم أنت بائسةٌ يا ريم؟ وكم هو مؤلمٌ تحوّلك هذا مع مَن لا يستحقّ؟ كانَ حلمًا أن تلتقيه فالتقيتِ به، كان حلمًا أن تصافحيه فجلستِ بجانبه وأملى عليكَ ما لم تحلمي يومًا بسماعهِ مباشرةً من شفتيه، لقد كان رقيقًا مذ التقى بك، لقد قرَّب إليك الوطنَ عبر صوته وأحاسيسه، لقد حنا عليكِ وأشاد بك في الوقتِ الّذي رحتِ تستنزفين عقله لخيانتهِ بعد ذلك، لم ترحمي ضعفه وهوانه على نفسه قبل النّاس، لم ترحمي مرضه، وغربته، ولم تشفقي على تخبّطه الفكريّ والكلاميّ، لم تحذفي ما أراد منكِ حذفه لأنّك خائنة جشعة، لم تحترميه ولا رغبتَه يومَ باتَ مرضه وحديثُه وآلامُه مشروعًا حقيرًا لديك لا أكثر... سيلا قاتلة المرضى العنصريّة لكلّ من ليس سنباريًّا أرحمُ منك، وأرقّ منك، وأصدق في تعاملها منك، أمّا أنت فبائسةٌ خائنة، بائسةٌ اكتشفت في النّهاية أنّ ما نسجت أحلامها عليه كان وهما، لقد جوزيت بما أذنبت نفسُك، فلا يحقّ لك أن تغضبي طالما أنّك لا تختلفين عنه، كلاكما مخادع وكاذب ومزوّر للحقائق، كلاكما يرتدي قناعًا يخفي خلفه وجهه الحقيقيّ، هو أذكى منك فقط، بينما أنت بلهاء بائسة، هذا كلّ ما في الأمر}.

- يقولون بأنّه ليس أصلان!! **قلتها لدن وأنا على وشك اقتلاع الشّاشة من مكانها جراء غضبي.**

- الفحوصات من قالت هذا منذ البداية ولم تريدي أنت تصديقها.

- لا أصدّق أحدًا، كان عليَّ ألّا أصدق قتلةً ومجرمين، لكنّه هو، أقسم لك أنّه هو، أعرفه، أعرفه أكثر من نفسي، صوته، عيناه، تصرّفاته، حركات وإيماءات جسده... إنّه هو، كيف يكون سواه وأنا أحفظه عن ظهرِ قلب؟ **قلت هذا وأجهشت بالبكاء من شدة انفعالي وحمقي، وقد خلص دن الشّاشة من يديَّ.**

- أصدّقك. **قالها بنبرة تتماهى بالثّقة بطريقة غريبة.**

- تصدّق ماذا؟ **رفعتُ رأسي محدّقةً بوجهه كأنّ ضبابًا يحيطُ به.**

- هو، طالما أنّك تقولين أنّه هو، فهو هو...

- تسخر منّي؟! لست مجنونة يا دن. **قلتها وكدت أن أضربه من شدّة انفعالي.** الفحوصات تقول غير ذلك، أنتَ وسيلا والمدير والكلُّ يقول غير ذلك، الحمقاء الّتي أمامك هي الوحيدة الّتي أرادت تصديق هذه الأكذوبة.

رحتُ أضحك بعدها من فرط غبائي ضاربةً كفًّا بكف كلّما تذكّرت حمقي متسائلة وسط نظرات دن الشّاردة؛ عن حقيقةِ شخص ينتحل شخصيّة شاعر ويتحدّث بطريقته وأسلوبه الأدبيّ في أغلب الأحيان.

- أقسم لك أنّه يتحدّث كشاعر، ويصف كشاعر، ويزيُّن النّص أيضًا بجمل عميقة وفلسفيّة حتّى يكاد يتفوّق على أصلان نفسه، إنّه هو فكيف له ألّا يكون هو؟

- أصدّقك.

أغاظتني هذه الكلمة لشعوري بأنّه يقولها شفقة بي ورثاء لحالةِ الجنون الّتي استعمرتني، فلكمته على صدره غاضبة وخرجت. رحتُ أدور في ردهات المشفى وغرفها ودهاليزها قبل أن أتوجّه مرّةً أخرى وتلقائيًّا لمطاردة السّراب وللبحثِ مجدّدًا في الفحوصات الّتي عملت عليها سيلا.. بدت فحوصاتُه مختلفةً فعليّا عن واقعه. ثرتُ من جديد حين فقدت الأمل واثقةً أنني سأخاطبُ غيرَه دونَ احتمالٍ يسيرٍ للخطأ... توجّهتُ نحوه أريد أن أصفعه لخداعي، الصّراخ به، إهانته، أردتُ التّعبير عن غضبي ولو بقتله، وجدته نائمًا فخفتُ منه. لم أستطع أن أعامله كمعروف رغم تيقّني بأنّه مخادع ومحتال،

لم أستطع أن أثورَ بوجهه وأعنّفه. عليّ أن أقول أنّني ورغم كلّ شيء شعرتُ بالخجل من أن أفعل هذا، كيف لي أن أعامله كشخص آخر بينما احترمته وعاملته لأشهرٍ طوال كشاعري المفضّل والقدوة؟! تراجعت بحياء غبيّ وانطلقت نحو السّكن باكية لأغطّ في نوم عميق لم أستيقظ منه إلّا في صباح اليوم التّالي. نمت لأكثر من عشرين ساعة متواصلة كهاربة من واقعها الّذي لا تريد العودة إليه، أردتُ أن أنام أكثر بيد أنّني لم أستطع فتوجهتُ وقد عاد المشهد لذاكرتي كالقطّةِ الّتي أضاعت أولادها نحو المشفى واندفعت لغرفته.

توجّهت نحوه ككرةٍ ثلجٍ تدحرجت فتعاظمت بغضبها وأحقادها منتظرةً لحظة الاصطدام فقط كي يتشظّى كلّ شيء تحمله، غيرَ أنّي اصطدمتُ بنفسي حين وجدته جالسًا إلى النّافذة فتشظّيت تاركةً لبقاياي الحقّ بالثّورة وقد صرختُ به:

- هل أنت أصلان فعلًا؟

لم يتفاجأ كمن كان على موعدٍ مع هذا السّؤال. نظرَ إلى السّاعةِ ثمَّ إلى النّافذة قبل أن يجيبني؟

- كلّا، أنا معروف النّقاد، أو سيف العجّان، أظن أنّني سيف أكثر من كوني معروف النّقاد.

تمنّيتُ كثيرًا أن أرى سيفًا هذا، لكنّني رحتُ أبكي بحرارة لحماقتي وغبائي، لقد خُدعتُ مجدّدًا لأنّني لم أفكر، لأنّني توهّمت ما أردتُ تصديقه، لم أفرّق بين شاعرٍ أعرفه وأحفظ شعره وأسلوبه وبين مدَّعٍ تلاعبَ بي، لعلَّه قرأ عن حياته ثمَّ راح ينسجُ الأكاذيبَ على مسامعي. **{الآن عليَّ أن أقول فهمت وقد راحت الأحداث الّتي قالها لي تتّضح معالمها جيدًا}.**

- سيف؟!

- سيف.

- هل استمتعت بغبائي؟ **قلتها باكية بحرقة ورحت أستذكر زلّات لسانه الدّالة على أنّه سيف أثناء حديثي معه بقهر وحنق.**

- أردتُ أن أكونَه ففشلت.

- أنتَ بارعٌ في الخداع، في القتل، قتلتَ والدك، والآن أنا.

- ونفسي، قتلتُ نفسي قبلَ كلّ شيء.

- كيفَ استطعتَ تقليدَه بهذا الشّكل؟ **غاضبة قلتها وضربت الأرض بقدمي.**

- لا أعرف، أنا أتحدّث بهذه الطّريقة، أتصرّف بهذا الشّكل، أنتِ من أرادَ تصديقي. سيلا أرادت ذلك أيضًا في البداية أو في النّهاية، لا أعرف حقيقة، حتّى أنا شخصيّا فقد أردتُ تصديقي.

- حبيبة مثلها كان من السّهل أن تتعرّف عليك.

- ربّما احتاجت وقتًا أكثر فقط للتّأكد.

- قل مرّةً الحقيقة. **بعصبيّةِ مَن نفذ صبرها باكيةً حائرة.**

- سأفعل، كان عليَّ أن أفعل من البداية. نسيت سيلا وتذكّرتها هنا، نسيتُها تمامًا، لم أعد أتذكّرُ ملامحَها جيّدًا سيَما وقد ضيَّعَت الحربُ ملامحي... وقَعت عيني عليها آخر مرّة قبل المكيدة الفاشلة للإيقاعِ بأصلان وابنِه... خرجَ صقر من حياتها هاربًا للخارجِ بعد أن سهَّلَت له ذلك ليدخل أصلان

حياتها صدفةً عبرَ رصاصةٍ كنتُ مَن أهداها إليه. لم أستطع قتلَه، لا لأنّه عفَا عنّي قبلها، بل لأنّني لحظةَ إطلاق النّارِ قرّرتُ ألّا أقتلَ أحدًا أيًّا كان، لكنّني لم أحترم هذا القرار بعد ذلك إذ قَتَلتُ بعدها رجلًا ما ثمَّ اكتشفتُ بأنّ المقتولَ أنثى... جُنَّ زوجُها لمقتلِها أمامَ عينيه لينقلبَ مُخنَّثًا ظنًّا منه بأنّه مَن مات لا هي، قتلتُ برصاصةٍ واحدةٍ الاثنين معًا، أحدهما واراه التّراب، والآخر مشى عليه... صادفني في كلّ مكان، رأيتهُ في أحلامي، في الشّارعِ، في المقهى، في السّرير، في مرآتي **{لماذا لديّ القدرة أن أتحدّث عن الشّيء دونَ استحضار صورته من مخيّلتي، لمَ أبدو ببغاء لا أكثر؟... لا أدري.. لا أدري}.** بدا لعنةً لن تنتهي مصرَّةً على جلدِ ضميري، حتّى قرّرتُ ألّا أكرّر فعل القتلِ مرّةً أخرى، لم أره بعدَها، لم يزرني في حلمٍ ولا يقظة، لكنّني تعجَّبتُ من عشقِه لها، من عشقِهِ الّذي أودى بهِ للجنونِ حين تلبَّسها في كلّ شيءٍ حتّى تكوينها الجسديّ.

- ما علاقتي بهذا؟ حدّثني عن أصلان... حدّثني ولا تكذب. **صرخت به والدّموع تنثال بغزارة من وجهي قبل عيني.**

- أطلقتُ على شاعركِ النّارَ قاصدًا كتفَه لا قلبَه؛ قنَّاصٌ مثلي لا يخطئِ هدفه، لكنَّ شاعرًا مثله أخطأ حينَ أحبَّ صهيونيةً ليبقى نادمًا على ذلك حتّى ماتَ...

- مات؟! **قلتُها مصدومة.**

- قد ماتَ كما تمنَّى، بل ماتَ بالطّرقِ الثّلاث الّتي تمنَّى إحداها: ذهبَ نصفهُ بالانفجار، ونصفه بالحريق، وما تبقى من النّصفين فقد نُثرَ في البحر، كنتُ موجوعًا لطريقةِ موتهِ البشعة، مع أنّني شعرتُ بسعادته لحظةَ تذكُّرتُ بأنّه خشيَ فلسفةَ الأرضِ أكثرَ من فلسفةِ الموت. ***رجلُ سلّةِ المهملات*** ظلَّ

محرِّضًا أيضا على قتلهِ نادمًا على إشراكهِ قسرًا في المهرجانِ الّذي صنعَ منه بطلًا. لطالما عضَّ أصابعه ندمًا على هذا قائلًا: «أنا السّبب بعلوِّ كعبِ هذا الحشرة، سأعيده صعلوكًا كما بدأ، لقد هاجمنَا وهجانا في عقرِ دارنا وفرَّ بجلده، لقد شتمنا في أرضنا ليبزغَ نجمُه في أرضه، بل في العالم على ظهورنا». لم يستطع، لم يستطيعوا جميعهم مهما حاولوا الإيقاعَ به. لقد فشلوا قبلها بقتله لكنَّ سيلا أُجبِرت مِن رؤسائها على الزّواجِ من صديقهِ لأنَّ الآخرَ أيضًا وقعَ في حبائلها بسهولةٍ؛ رغمَ أنّه كان أيضًا على إحدى قوائم تصفياتِ الموساد ليلقى حتفه على يديها. ومع ذلك فقد ساعدها بعد ذلك على الهروبِ من الوطن، ساعدَها ليلومَ نفسَه على تضحيتهِ بمبادئهِ، وصديقه، ووطنهِ من أجلِ قلبِه طوال حياته!!

دخلَ في عزلةٍ طويلة وفي غيبوبةٍ ذهنيّةٍ أبعدتهُ أعوامًا لا بأسَ بها عن المنابر والحياة، وتحتَ ضغطِ أصدقائهِ وعائلته للخروجِ من حالةِ العزلةِ المفاجئة والحظرِ الداخليّ الّذي فرضه على نفسِه، قبِلَ المشاركةَ بعد انقطاعٍ طويل بأمسيةِ ميونخ ثمَّ نيودلهي إضافةً لأمسياتٍ صغيرة هنا وهنا آخرها في بنغازي... التقينا حينها وبعدها كصديقين بعدَ أن التقينا كعدوّين في مواقفَ غريبة، أردتُ أن أكونه فاقتربتُ منه، تبعته على غيرِ هدىً منّي، أردتُ أن أكونَه لسببٍ أجهله، ليس صوتي الّذي يشابه صوته، ولا عيناي الّتي تشبهُ عينيه هما السّبب، لقد رآني كما لم يرني أحدٌ من قبل. وتركني أذهب بينما كان باستطاعتهِ قذفي كجُرذٍ في السّجن. لحقتُ بهِ من بلدٍ إلى بلدٍ، من مطارٍ إلى مطار، من مسرحٍ إلى مسرح. قد تشابهنا بالرّفضِ والانصياع، الوجودِ والّتيه، الهروبِ والبقاء، لقد هربتُ من العجّان كي أكونَ سواي، وهربَ من نفسهِ كي لا يكونَ صورةً مزيَّفةً فرَضَتها أعينُ النّاس عليه.

لقد هربتُ من عالمي لأكونَ سواي، وهربَ من عالمهِ الّذي لا ينفكُّ يُذكِّرُه بتاريخهِ النّضاليّ؛ في حينِ أنّ هذا ما كان يجلده بقسوة... لقد هربتُ من الرّذيلةِ الّتي لاحقتني فعدت لها من الفضيلةِ الّتي لم أستطع التّعايشَ معها، بينما هربَ من الفضيلةِ العالقةِ فيه غيرَ قادرٍ على تقمّصها مجدّدًا طالما أنَّ داخله يرى آخرَ فيه.

التقيتُها وقد استطعتُ أن أكونَ غيري، لكنّها أرادت لي أن أعودَ لعجّانيتي مُنغمسًا بما هربتُ منه باسمٍ وعارٍ آخر. لقد أضعتُ العجّان بهروبي منه، لكنّني عدتُ بأقبحِ ذنوبهِ العالقةِ بروحي مضيفًا له ذنبًا لم يرتكبه هو، ثمَّ طُردت عن باب التّوبةِ حين وجدت أن خلف باب منزلي تسكن عاهرةٌ كنتُ على وشكِ التهامها، بينما كان طبقي من صُنعِ والديَّ في مطبخهما السّريريّ... تساءلتُ كما تساءل: كيف باستطاعتك أن تحيا ممّا تهرب منه؟

- أنتَ تكذب أيضًا، تختلقُ أكاذيب جديدة لكنّها مجانيةٌ هذه المرّة. **وكدتُ أهجم عليهِ لأمزّقه بأظفاري من شدّة غضبي.**

سكتَ ولم يجب، لكنّني لم أعد أكترثُ لكاذبٍ تلاعبَ بي مثله. صَدْمَتي بحقيقتهِ لا تقلّ فظاعة عن رغبتي بقتلهِ الآن، لكنّني حمقاء، سأكرّرها ما حييت بل قد أستبدل اسم ريم بحمقاء كي لا أتناسى هذه الصّفةَ الّتي لازمتني طوال عمري. لقد كادت سنةٌ أن تمرّ وأنا أجلسُ أمامَه كشاعر لأكتشفَ أنّه الآن رجلٌ آخر... آخر يعترف أمامي بهذه الحقائق والخديعة كأنّها أمر طبيعيّ غير مظهرٍ أيّ شعورٍ بالذّنب والنّدم ممّا حدث! لقد منّيتُ النّفس بأحلام عظيمات مُسمِّدةً جشعي بهروبي الغبيّ من وطني لأجدني مخدوعةً بلهاء لا أكثر. أحلامي لا تساوي قرشًا الآن، لقد ذهَبت أدراج

ذكرياتٍ حاكها رجلٌ على لسانِ غيره... استدرتُ ذاهبة لاعنةً حُمقي بدموعٍ غزيرة غيرَ أنّه طلبَ منّي البقاء قليلًا قائلًا بهدوء:

- أُرسِلت سيلا باسم ليزا لتصفيةِ بعض المعارضين للسّلام ، بعضَ من حاربوا بشراسةٍ كيانهم الغاصب، ضمن عمليات تصفية تُدعى: الاغتيال الصّامت. نجحت في الكثيرِ من المهامِ الّتي أوكلت لها، وأخفقت بالقليلِ منها. أصلان كان أحد الأهداف الّتي ينوي الموساد تصفيتها، سيما وقد هاجمَ كيانهم وحرَّضَ عليه بشكلٍّ غير مسبوق، لكنَّ قتله لم يكن بالأمرِ السّهل لذكائهِ الفريدِ وثقلهِ الأدبيّ من ناحية، ولخشيةِ كيانهم من اكتشافِ أمرِها بعد توتّرِ العلاقات بين الكيان والوطن إثرَ اكتشافِهم لحادثةِ اغتيال مشابهة من ناحيةٍ أخرى. خدَمتُه الظّروفُ والأحداث وأطالت عمره عند صدورِ أيٍّ قرارٍ بتصفيته، لكنّهم حاولوا بعدها استهدافه من خلال نزار ابنه، حيثُ دفعوا بصقر وغيره للايقاع به فنجح صقرٌ بدفع هند للتّعرف عليه. كنتُ من ضمن هذه الخطّة الّتي دُبّرت له. لم يساعدنا ابنه كثيرًا لتردّده في خوضِ علاقةٍ غيرِ شرعيّة قد نستطيع بعدها ابتزاز والده، لكنّه في النّهايةِ وقع سيما بعد أن دفع صقر لها مبلغًا أكبر في حالةِ استطاع الإيقاع به واصطيادهما في البيت معًا وقتلهما.

نجح صقر دون سواه لأنّه كان مدفوعًا بكراهيّته الشّديدة له ففعل المستحيل لمساعدةِ سيلا، وإن كانوا قد نجحوا مع ابنه فقد باؤوا بالفشل الّذي تكرّر مع كلّ النّساء اللاّئي دُفع بهن لأصلان قبل ذلك، رغمَ عشقهِ للنّساء. ثمَّ جاء والد زوجته حنان وبتحريضٍ من رجل سلّة المهملات وأوكلوا لي مهمة اغتياله مجدّدًا أثناءَ أمسية شعريّة في قصر المعارف. الرّصاصةُ استقرّت بكتفه فنُقل للمشفى ليجد سيلا أمامه. راحَ يُحدّثها عن الرّصاصةِ الّتي عليهِ أن يحمد الله أنّها كانت سببًا لرؤيتها... عن شكرهِ للقاتل لأنّه

وضعه أمامها، راح يحدثها عن أولئكَ الّذين يريدون قتلَ كلماته لأنّه ليسَ تاجرًا ولا سمسارًا.

قال الكثيرَ الكثيرَ، هاجمَ دولتها ووجودهم، ووصفهم بأقذعِ الصّفاتِ كارهًا كلّ ما يتعلق بهم، وبدلَ أن تكرهه لذلك أحبّته. ارتكبت خطأً من وجهةِ نظرها لم تستطع إصلاحه بعدها، فقد سمحت لقلبها أن يحبّ شاعرًا نادى بقتل قومها وتهجيرهم وطمسهم عن الوجود، أحبّت شاعرًا طُلبَ منها قتله طالما أنّه بين يديها، ولا مبرّرَ لفشلها هذه المرّة. حاولت لكنّها لم تستطع، ضُغطَ عليها فبرّرت تأجيلها لهذا كثيرًا حتّى غادرَ المشفى... حينها طلبوا منها التّحوّلَ لصديقهِ سمير والزّواجَ به بهدفِ قتلهِ بهدوء ودون أن تتركَ شبه دليلٍ خلفها.

قتَلت سميرًا صديقه، قتلت الكثيرين، ثمّ تزوّجت بسياسيّ اكتشفَ حقيقتهَا عبر الصّدفة فلجأت إليه فورًا متيقّنةً من حبّه لها. تفاجأ وفعلَ ما لم تتوقعه، خشيَت الموتَ حينها غيرَ طامعةٍ بشيءٍ آخر، لكنّه ساعدها على الهرب والعودةِ لكيانها، بدا متألّمًا لهذا، بدا متعبًا مقهورًا لكنّه ساعدها وهربت... سيلا هذه ولدت لأبوين يهوديين، لُقنت كرةَ البشريّةِ جمعاء سوى شعبها المنبوذ، ثمَّ جُنِّدت للعمل لدى الموساد الّذي يطلبُ من عملائهِ أيّ شيءٍ، ولا يتوانى عن شيءٍ مقابل النّتيجة، وعليكِ أن تطيعيهم بنفسٍ راضية لأجلِ بقاءِ كيانك الهشّ على قيد الحياة... تكذبين، تمارسين الجنس، تروِّجين له، تقتلين، تتلاعبين، المهم أن تخدمي وطنَك عبرَ جسدكِ ويدك وعقلك وقلبك، عبرَ أيٍّ شيءٍ يُطلبُ منك.

لعلَّها أحبّته، ربّما، لكنّه من قال لي بأنّها كانت تحاول كثيرًا أن تثنيه عن كرههِ للمحتلِّ قبل أن يكتشفَ حقيقتها؛ بل وانتقدته بشدّة حين نشرَ ، مقالًا

تحدّث فيه عن ***حكاية فطيرة الدّم اليهودية*** . لم يجن جنونها فقط حينها، بل جن جنون أسيادها والسّاسة اليهود واصفين إيّاه بالعدو الأوّل لكيانهم.

- تريد منّي أن أصدّق هذا؟ هذا أشبه بفيلم فاشل أنت بطله. **تحدّثتُ بهدوء غير آبهةٍ به.**

- لا أعرف لماذا لا تصدّقين الصّدق بينما كنت مصدّقة أكاذيبي!

- لأنّك كاذب، أعرف قصّة هذا المقال من أساسه، وأعرف متى نشره وما حدث بسببه، لقد نشر هذا المقال في الخمسين من عمره، أي بناءً على كلامك فإنّه نشره قبل أن يلتقي بسيلا أصلا، إن كان التقى بها أو عرفها من الأساس؛ ثمَّ إنّ أصلان من المستحيل أن يعشق صهيونيّة... أنتَ تريد تزوير تاريخ أصلان النّضاليّ وتشويهه فقط، ولن أسمح لك بذلك، أنت تنسجُ قصصًا كاذبة عن شخص وطنيّ شريف بغية التّشويش على نظرتي له. تتحدّث بأشياء لا يعرفها أحد، ولن يعرفها أحد صدّقني، أرح نفسك من عناء حديث تافهٍ كهذا، لأنّك مصاب بمرض تيروم وهذا يعني أنّك ستموت كالصّرصار هنا، ستموت كسيف العجّان ابن العجّان المجرم القوّاد لا ك أصلان.. ألا تشعر بالخجل من أن تكون ابن العجّان الّذي كنتُ أحدّثك عنه؟ كيف لك أن تستمتع بأحاديثَ عن عائلةٍ ساقطة كعائلتك؛ ثمّ لا يتحرّك فيك أيّ شعور بالمهانةِ والذّل؟

أردتُ المغادرة غير أنّه صاح بي:

- هو مَن رأى العجّان مصادفةً حينَ أوقعَ بك بمكيدةِ دهسه، أصلان من لحقَ بك بعد ركوبكما سيّارتكِ حتّى منزله، لقد شهد حادثة الدّهس فعرف أنّ العجّان أوقع بك عبر الحيلة. تزامنَ ذلك مع وجودي وقد اتّصلتُ مُبلّغًا عن

عصابةٍ هي عائلتي... عصابةٍ تحتوي على رجل يغتصبُ النّساء في عقر داره وعاهرةٍ تسلُبُ الرّجالَ باحترافيّةٍ عالية، مثلي لا يُسلبُ إلّا مِن مُحترفة، أمَّا هو فقد رآكِ صدفةً كضحيّةٍ قادها العجّان للمسلخِ البشريّ، وقفَ خلفي صائحًا: «الفتاةُ في الدّاخل». لا أتذكّرُ تحديدًا من قالها، أنا أم هو؟! قال شيئًا على لساني، لا أتذكّر، المشهدُ ما زالَ ضبابيًّا كوجههِ الّذي لم أتعرّف على ملامحهِ جيّدًا حينها، غيرَ أنّي حينما حدّثتهم قصدتُ شهد في الوقت الّذي قال ما قاله قاصدًا إيّاك. صوتُه من تناهى لمسامعكِ لأنّه لم يرتجف كصوتي، كانَ حادًّا واضحًا بينما ضاعَ صوتي في رجفتي، قبل أن يضيعَ في الجلبة تلك. جاءَ بالبوليسِ كما جئتُ بهم، لكنّه غادرَ قبلي، قد لا تصدّقين بأنّني أجهل الآن إن كان خلفي حين صاحَ بهم مُحرّضًا على كسرِ الباب أم أمامي، لقد نسيتُ من غادرَ أوّلًا كيلا يراه العجّان، أنا أم هو؟ مع أنّه رحلَ قبلي! لقد قابلَه في بيت السّياسي. لقد عفا عنه أيضًا وتركهُ يذهبُ تاركًا في نفسه الأثر الّذي لم يندثر إلّا بموته.

قال لي أصلان في بنغازي: «كرهتُ أن يراني ليعلمَ أنَّ ما حدث هو تفسيرُ رؤياي وقد رأيتكَ تتفوّه بما على لساني». لقد كان أرأفَ بوالدي السّافلِ منّي، لقد رحمَه أكثر منّي، لقد أردتُ للعجّانِ أن يراني لحظةَ القبضِ عليه، لكنّه لم يسمح بذلك، إذن رحلَ قبلي!! بالتّأكيد أنّه من رحل قبلي لا محالة... رحلَ دون أن أدري إن كنتُ أنا من صاحَ بهم أم هو، إن كانَ هو من رحلَ أوّلًا أم أنا، يُحيّرني هذا الموقف تحديدًا لشعوري بالخيانةِ لوالدي الّذي لو لم أرحل لما كان بهذه القذارة... لا زلتُ مُتعبًا من خذلاني له رغم ما يستحقه، لا زلتُ مُتعبًا من حملي لدماء العجّان والعملِ بمقتضاها رغم ابتعادي عنه مُدّعيًا الاختلاف.

- خيالك واسع بشكل لا يتصوّره أحد. **{حمقاء إن صدّقتِ ما قاله سيفٌ هذا، وحمقاء إن تركتهِ يحيا أكثر من ذلك. حقنةٌ سامة تنهي هذه المسرحيةَ لتحتفظي بنصوصهِ كشاعرٍ أملى عليكِ آخرَ ما كتب، مليون، ميلونا نسخة تعني الثّروة على أقلّ تقدير، ستحصلين على أكثر من ذلك، نصُّه ميتًا أثمَنُ لدى دور النّشرِ والقارئِ من نصِّهِ حيًّا. كوني قاتلةً فحمقُكِ لن يقدّمَ لك سوى الحرمان والهروب... لكنّني لا أستطيع، لن أفعلَ ذلك، لستُ قاتلةً بل موجوعةً فقط، أُشفقُ عليه رغمَ كلّ شيء، لستُ غاضبةً منه، أنا غاضبةٌ من نفسي لا أكثر، ليكن ما أراده، لن يكتشفَ أحدٌ حقيقته إلّا إذا اعترفَ أمامهم بهذه الحقيقةِ لا غير... الحروق والعمرُ والسّجنُ والحربُ مُبرراتٌ لتصديقِ ما سيقوله حتّى لو تعارضَ مع ذاكرتهم عنه، سيُصدّقون بعد موتهِ أنّه هو لأنّهم بحاجةٍ لذلك، أنا أيضًا كنتُ بحاجةٍ لتصديقه، سيلا لم تفرّق بينهما رغم الفحوصات... الفحوصات لم تعد موجودة فدن حذفها بناء على أمر المدير ضمن قرار غريب... كلّ شيءٍ يحدث هنا غريب وغير منطقيّ، تحوُّلُ أصلان لآخر، اختفاء سيلا، انغراق دن بغموضه، ولطفه، ومداراته لي، اهتمام رجال الأمن السنباريّ به وزيارته للتّأكد من شخصه، أمّا العالم الخارجيّ فهو لا يثق بإعلام، وعلم، وحكايا سنبار، سيصدّقونني أنا فقط لا ما يصدر عن سنبار بخصوصه إن حدث لغط ما، حتّى إن حدث لغط فهذا من حظّ ما سأقدّمه لدور النّشر من أحداثٍ حدثت هنا مع شاعر مشهور}.** لكن دعنا نكملُ مسرحيتَك عموما فلا داعي أن نتوقّف عند هذا الفصل. **هتفتُ رافعة رأسي بشموخ كمن تتحدّاه.**

- ماذا تقصدين؟

- لتكن أصلان حتّى مماتك، كن ما أردتَ شريطةَ أن تُحدّثني أكثر عنه طالما أنّك قد قرأت مذكّراته الضّائعة ورافقته وحيدًا... ألم ترد من البداية أن تموت مثله وباسمه؟ ليكن كذلك، هي مصالح مشتركة.

ضحكَ كثيرًا، ضحكَ تلك الضّحكة الّتي أحفظها عن ظهرِ قلبٍ حين كان يضحكها شاعري على التّلفازِ أو أثناء أمسياته. **{لا يعقل هذا التّشابه بينهما حتّى ببروتوكولاتِ ضحكته، لقد تقمَّص دوره بالكامل قبلَ أن يأتي إلى هذه الجزيرة، لقد توحَّد هاربًا بشخص شاعري فقلَّده بأبسطِ قبل أعظمِ التّصرفات}.**

- موافق. **حدَّق بي مُبتسمًا.**

تركته وتوجّهت للحديث مع دن الّذي ما إن رآني حتّى ابتسم ابتسامةً دافئة، فقلت له قبل أن يبادرني بأيّ شيء:

- لم أعد أكترث لشيء حقيقةً، كلّ ما يحدث هنا يودي بي للجنون.

- ولا حتّى بشاعرك؟

- ليس بشاعر، هو شخص اسمه سيف انتحل اسم معروف يومًا، أنت تعرف هذا، وقد حدّثتك عن غبائي وحمقي بما فيه الكفاية.

- وما أدراك؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد بأنّه قد يكون شاعرك أصلان.

- لا ليس كذلك، أنت تخفي عنّي شيئًا يا دن، أشعر بهذا، قل ما لديك أرجوك. **قلت هذا والحيرة بدأت تفتك بي مجدّدًا.**

- لا أعرف، هي تساؤلات فقط، لو كنت على علمٍ بشيء لأخبرتك به.

لم أصدّقه، ولأنَّ الحديث حول أصلان بدا متعبًا فقد قطعتُ الكلام ثمَّ توجهت للسّكن مجدّدًا لأحظى بالرّاحةِ الفكريّة والنفسيّة، بعد كمية المفاجآت الّتي منيت بها بسبب سيف اللّعين هذا.

رحت أتذكر في سكني حكاية **«فطيرة الدّم اليهودية»** قبل أن أستسلم للنّوم، وهي ليست حكاية خرافيّة مثل حكايةِ **أبي رجلٍ مسلوخة** آكلِ الأطفال، بل حكاية حقيقية أبطالها اليهود.... حكايةٌ محفوظة بوقائعها في المحكمة الشّرعيّة في **«حلب وحماة ودمشق»** منذ عام **1840م.**

فالأب **«توما»** وهو من رعايا الحكومة الفرنسيّة، مارس الطّب فعرفه النّاس في دمشق. ثمَّ قام بتطعيمهم ضدّ الجدريّ، متنقّلًا بين حاراتِ دمشقَ لأكثر من ثلاثين سنة.... قصدَ عصرًا حارةَ اليهود، ليلصقَ إعلانا على البيوت، والمحلّات، والمعابد، والكنائس ببيعِ بيتٍ في المزاد العلنيّ لأحدِ رعاياه يدعى **«ترانوفا»**، وعندما وجد خادمُه **«إبراهيم»** أنّه لم يعد في موعده إلى **«دير تير سانت»** بحثَ عنه في حارة اليهود غروبًا، غيرَ أنّه لم يعد هو الآخر... بدأت التّحقيقات في اختفاء الأب توما لكنّ التّفتيش لم يسفر عن شيء. في تلك الأثناء حضر يونانيّان هما **«ميخائيل كساب ونمّاح كلام»** مقرَّين بأنّهما: شاهدا خادمَه، وهو يدخلُ مُسرعًا قلقًا متوتّرًا حارةَ اليهود، وعند سؤاله أجابَ بأنّه يفتّش عن سيّدهِ الذى جاء إلى المكان ولم يعد... بعدَ تتبّع الإعلانات الّتي جاء الأب للصقها، وجدوا إعلانا على دكانِ حلّاقٍ اسمه **«سليمان»** يسكنُ بالقرب من المعبد اليهوديّ، فقبضوا عليه وبعد ضربِهِ بالكرباج اعترف بأنّ الأب توما قابلَ في الحارةِ مجموعةً من حاخامات اليهود **«موسى بخور وموسى أبى العافية ويوسف ليتيوده وداود هرارى وأخويه واسحاق وهارون»**، ثمَّ اعترف بأنّهم جميعًا دخلوا بيتَ داود هرارى بصحبةِ الأب توما؛ وأنّ الحاخامات دعوه بعد الغروب بنصف ساعة إلى بيت داود

هراری طالبينَ منه أن يذبحَ الأب بعد أن وجدهَ مربوطَ الذّراعين، فأجابهم بعدم قدرتِه على ذلك، فلمَّا وعدوه بدراهم ذهبيّة وفضيّة وقد أصرَّ على الرّفضِ، قالوا له: بأنَّ من يفعل ذلك يرضي الرّب، ويدخل الجنةَ، ليلعب مع أنثى الحوت الّتي وعد الرّب اليهودَ الصّالحين بطعامها يوم القيامة.

قام أحدهُم بإحضار سكينٍ حادّ، وألقوا الأب توما على الأرض واضعينَ رقبته في وعاء كبير، ليذبحوه، ويجهزوا عليه حريصينَ ألَّا تسقطَ نقطة دمٍ واحدةٍ خارج الوعاء، ثمَّ جرّوه من الحجرة الّتي ذبحوه فيها الى غرفة أخرى ونزعوا ثيابه وأحرقوها، وقطّعوه إربًا ووضعوه في أكياسٍ أعدِّت لذلك مرّة بعد مرّة، حاملينَ إيّاها إلى المصرف القريب من حارة اليهود.

- ماذا فعلتم بعظامه؟ **سأله المحقّق مكفهرّ الوجه.**

- كسرناها بيد الهون.

- ورأسه؟

- كسرناها بيدِ الهون أيضًا.

- وماذا فعلتم بأحشائه؟

- قطعناها ووضعناها داخل الكيس، ورميناها في المصرف.

- هل كان الدم ينقّط من الكيس؟

- كلّا. لقد كانوا حريصين على كلّ نقطة دم، حرصهم على الذّهب والتّلمود.

- لماذا؟

- يستعملونه في الفطير.

- كيف ذبحتم الأب توما؟ **وجّه سؤاله للمجرم الآخر.**

- أحضرناه عند داود باتّفاقنا معه وقتلناه لأخذ دمه، وبعد أن وضعنا الدّم في قنينة أرسلناها إلى الحاخام موسى أبي العافية، وقد فعلنا ذلك اعتقادًا بأنّ الدّم ضرورة لإتمام فروض دينيّة.

- لماذا يستعمل الدّم في ديانتكم؟

- يستعمل لعجن خبز الفطير.

- هل يوزّع الدّم على جميع اليهود؟ **سألَ آخر.**

- كلّا إن ذلك غير ضروريّ وإنّما يحفظ عند الحاخام الأكبر.

- ماذا ينفع الدم؟ هل يوضع في الفطير؟ وهل يُعطى لكلّ الشّعب اليهوديّ؟

- ينفع الدّم لوضعه في الفطير الّذى لا يُعطى عادة إلّا للأتقياء من اليهود، وهؤلاء الأتقياء يرسلون الدّقيق إلى الحاخام الأكبر يعقوب العنتابى، وهو مَن يعجنه بنفسه، ويضع فيه الدّم سرًّا دون أن يعلم أحد بالأمر، ثمَّ يرسل الفطير لكلّ من أرسل الدّقيق.

- هل سألت الحاخام يعقوب العنتابى عمّا إذا كان يرسل من هذا الدّم إلى الحاخامات في الدول الأخرى أم يبقيه لأهل الشّام فقط؟

ـ قال لي الحاخام يعقوب العنتابى إنّه ملزمٌ أن يرسل من هذا الدم إلى يهود بغداد.

- هل كان القصد قتل راهب بعينه أو قتل أي مسيحيّ؟

. كانوا يريدون دم أيّ مسيحيّ مهما كان، لكنّهم اختاروا الأب توما لأنّه وقع بين أيديهم بالصّدفة.

- لماذا تفعلون كلّ هذا؟ ما دافعكم؟

- استعمالُ الدم في فطائر اليهود أمرٌ مذكور في أحد كتبنا المسمّى **«سادات أدار هوت»**، وهو كتابٌ مقدّس يتوارثه الحاخامات منذ أزمان سحيقة، ولم يأتِ مَن ينكره، أو يرفض العمل به... يقولون إن جميع الخارجين عن اليهود هم حيوانات ووحوش، لأنّ إبراهيم عندما أخذ ولده إسحاق ليقدمه ذبيحةً أثناء اصطحابهِ خدمه قال لهم: «امكثوا هنا أنتم والحمارة بينما أنا وولدي سنذهب إلى الأمام»... من هذه العبارة استنتج التّلمود بأنَّ كلّ من هو غير يهوديّ يصبح من فصيلة الحمير، أو من فصيلة الحيوانات غير العاقلة، وحتّى ذلك الوقت كان حاخامات اليهود يتركون مساحات بيضاء في كتبهم حتّى يتمكّنوا من طبعها في أوروبا، وهذه المساحات البيضاء تكتب بعد ذلك بخطّ اليد، أمّا ما يكتب بخطّ اليد فهي العبارة الّتي تسبّ السيّد المسيح وأمّه السيّدة العذراء، والعبارات الّتي تبيح عجن فطائر عيد الفصح بدماء غير اليهود.

على أنَّ المثير في قضية الأب توما أنّ الحاخامات القتلة عندما تخلّصوا منه؛ لم يتردّد أحدهم في أن يسرق ساعته ويخفيها عن الآخرين، وعندما سئل عمّا فعل، لم ينكر، وقال: «لقد سرقنا روحه وهى حلال لنا فلماذا لا نسرق ساعته؟».

تذكّرتُ العجّان حين حدثني عن كأسِ الدم فكدتُ أقيءُ روحي من جسدي... يتشابهُ الشرُّ وأسبابه وأمراضه ليس لدى الأفراد فقط بل والجماعات والطّوائف الضّالة أيضًا.

استفقت كسولةً وكنت قبلها قد جلست ناظرة للبحر البعيد وقتًا طويلا؛ قبل أن أتقلّب في فراشي وأنام. ارتديتُ ملابسي على مهلٍ سلحفائيّ ثمّ توجّهت للمشفى غير عابئةٍ بشيءٍ حدث أو قد يحدث.

بحثتُ عن دن فلم أجده بدايةً ثم لمحته يسيرُ في الممرّ بصحبةِ شاب صافحه مدير المشفى مودّعًا بحرارةٍ في بداية القسم قبل أن يتّجها نحو غرفةِ سيف. عجّل الفضول خطوتي سيما أنّها المرّة الأولى الّتي أرى فيها شخصًا من خارج كادر الموظفين والأمن السنباريّ في المشفى.

أسرعت حتّى لحقتُ بهم عند باب الغرفةِ وقد دخلوها. هذه المرّة وجدت رجال الأمن قد وقفوا أمام سرير سيف يتحدّثون بحديثٍ مغزاه أنّه سيعود للسّجن وقد استقرّت حالته.

- أيّ حالةٍ تلك الّتي استقرّت؟ **صحت بهم كأنّني غولةٌ استفاقت من نومها للتّو فتفاجأوا من غضبي.**

- هذه أوامر ويتوجّب علينا تنفيذها. **راحوا يتحدّثون متجاهلين وجودي بالكامل.**

نظرت إليه وقد ارتسمت على وجهه ملامح كلّ ذعرٍ في الدّنيا، بينما شعرتُ بالشّفقة عليه. لقد طالت مدّةُ علاجه ولم يمت فقرّروا الآن أن يموتَ ببساطة، لم يحالفه الحظّ أن يموت في المشفى كإنسان، فأرادوا له الموت كجرذٍ في حبس قميء.

استدرتُ لأعبّر عن حزني لدن بيد أنّ حدقتيْ عينيّ اتّسعتا حتّى كادت عيناي تنفجرانِ من تمدّدهما حينما وقعتا على الواقف بجانبهِ ببذلةٍ أنيقة... تقمّصني الذّهول حتّى كدتُ أقع أرضًا فتيبّست قدمي وتشبّثت بالأرض كي أتوازنَ من هول الصّدمة.

هذا هو آخر مَن رمى به القدرُ لهذه الجزيرة. لم يكن الشّاب سوى ميمون... ميمون بكلٍّ ما فيه، دهشةٌ تتبعُها دهشةٌ في هذا المشفى الرّديء، وغرابةٌ تزيحُ غرابةً بغرابةٍ لا يتوقّعها أحد.

صحت به مستنكرةً: ميمون!!

عضَّ على شفتيه بالوقت الّذي أشار لي فيه دن أن أصمت.

وسط ذهولي راح ميمون يتحدّث بالسّنبارية لرجال الأمن ويخبرهم عن آلية نقله السّريعة للسّجن. بدا وكأنّه واحد منهم، أو من يترأّسُهم في هذه المهمة، ولأنّني لم أعد أفهم شيئًا، ولأنَّ دن شدَّ على يدي أكثر من مرّة هامسًا أن أصمت؛ هامسًا أنَّ الأمرَ ليس كما أراه فقد سكتّ، ولم أعد أحرّك ساكنًا، ولم أنبس ببنت شفة.

أيُّ أقدارٍ هذه الّتي جمعتنا في هذا المكان؟ وأيُّ أقدارٍ هذه الّتي جاءت بنا من وطننا لنقف على حقائقَ حدثت فيه هنا؟

يتذكّرني بالقدرِ الّذي أتذكره تمامًا. تغيَّرَ كلّ شيء فيه غير أنّني عرفته، وعرفتُ أنّه عرفَني لحجمي، لصوتي، لمعرفتي به، أمَّا سيف فبدا كأنّه يراه للمرّةِ الأولى، نظر للجميع، لرجال الأمن، لي، لدن وميمون بعين الدّهشةِ

والفضول كمن ضلَّ طريقه بالكامل؛ فظلَّ على هذه الحالةِ يائسًا تائهًا غارقًا بأفكاره فلم يتفوّه بشيء مطلقًا.

ها نحنُ نلتقي مرّةً أخرى حيثَ قُدِّرَ لنا ذلك، نلتقي بعد أن لفظني الهروبُ لأحداقِ سيفٍ وميمون فلم أعد مدركةً إلّا لحقيقةٍ واحدة: «وهي أننا نقدِّرُ ما أردناه لتضحكَ الأقدارُ من تقديرنا».

شعرت بدوار مفاجئ فأمسكني دن خشيةَ وقوعي، أمسك يدي وقرَّبني منه فشممتُ عطره... **{هذه هي المرّة الأولى الّتي تلتقط فيها أنفاسي رائحة عطره اللّصوصيّة}.** عطرُه ولمسة يديه ذكّرتني بامرأةٍ أو رجل الطّائرة. تقصَّدت أن أرتمي على صدره، وألامس جسده. هو جسد تلك الخنثى، أشعر بهذا، كلِّي يقول لي هذا، تعتريني تلك الرّعشة الّتي اعترتني على متن الطّائرة مجددًا فأفقدُ نصفَ وعيي، فأطردُ هذه الخاطرة فورًا من حساباتي.

أتكونُ الأقدارُ ذاتها مَن أجلست بجانبي في طائرةِ القدومِ ذاك المكلوم؟ أكانَ رجلًا حقًّا؟ لا، كانت امرأةً بكلِّ ما فيها، بكت فأبكتني فأمسكتُ يدها واحتضنتها بقوّة، شعرتُ بحاجتها لهذا العناق، شعرتُ بحاجتي لأن أفرِّغَ ذبذباتِ قلبي التّعيس عبرَ جسدها، بدوتُ توّاقةً لاحتضانها أكثر من حاجتي للتّخفيفِ عمَّن لا أعرف.

شعرتُ بالتّقزّز حينَ لم أتبيّن ذكورتها من أنوثتها، إنّها رجل، مخنثٌ على هيئةِ أنثى، أيُّ رموشٍ وشعرٍ مستعارٍ ساعد هذا الوجهَ على الاختفاءِ خلفه، لكنّه يملكُ نهدين صغيرين، شعرتُ بهما فكيفَ جاءَ بهما لجسدٍ رجوليٍّ كهذا؟

- أنت سيف؟ **سأله ميمون وقد وقفَ أمامه بعد أن أمر رجال الأمن بالمغادرة.**

- لا أدري من أكون، لكنّني لا أودُّ أن أكون سيفًا.

- تمنيتُ لقاءك طوال عمري.

- أمَّا أنا فقد تمنّيتُ ألّا ألتقي إلّا بنفسي.

لم يتعانقا، لم يضمَّا سوى المسافةِ بينهما، لم يتحدثَا عن والدهما، عن حياتهما، ماضيهما، عن أيِّ شيءٍ لم يكن بينهما، ما جاء هو من أجله، ما يتوقّعه هذا من زائره. لم أرَ حميميّةً في عيونهما ولو بقدرٍ يسير، بدا اللّقاءُ فاترًا ميِّتا كموت عقاربِ ساعةِ الحائط.

- من عجائبِ الحياةِ أن نلتقي هنا. **وجَّه ميمون هذه العبارة لي.**

- مِن عجائبهِ أنْ لا زلتَ تذكُرني.

- وجودكِ لا يُنسى، محفورٌ بذاكرتنا جميعًا، المهم ها قد حضرت لأجلكم أخيرا.

- لأجلنا؟! لم أعد أفهم شيئًا.

هي لحظات فقط حتّى عرفتُ أن دن من يقف خلف تواجده هنا؛ ووسط غرابة الأمر إلّا أنّني شعرت بارتياح مفاجئ حين بدأت تتضّح لي الرّؤية بأنّ شيئًا ما كان يحدث في الخفاء يديره دن. لن يذهبوا به إلى السّجن، حدسي يقول هذا، وبعض الجمل الّتي تنساب من صوتهم أيضًا عن الهروب والخلاص من هذا السّجن.

أما سيف فحاولَ كثيرًا أن يتذكّرَ صورة ميمون لكنّه فشِل بذلك، قال لي بأنّه لا يتذكّرُ وجهَه مُطلقًا.

- لقد كان في القفصِ بجانبِ والدك.

- لم أره يومًا .. لا أتذكّره.

- هي الحرب، والسّجن... هي الذّاكرة المتعبة.

- لا أعرف، هل أنتِ متأكّدة بأنّه ميمون؟

- بالطّبع، هو الشّخص الوحيد الّذي لا يُمكنني نسيانه.

- لا يهمّ... لا يهمّ كلّ هذا الآن... لا يهمّ. **{أيُّ ذاكرةٍ هذه الّتي تتذكّرُ أبعدَ الأشياءِ وأحقَرها تاركةً بعض النّقاط الأهم في حياتي؟ لا أذكرُ وجههَ رغمَ أنّني لطالما تمنّيتُ أن أفعلَ ما فعلَه أثناء هروبي، سيعيدونني للسّجن، لكن ما علاقة ميمون بهذه الجزيرة اللّعينة؟ وكيف تحوّل لرجل أمن هنا؟ ليتني متُّ بحقنة سيلا وانتهى الأمر، كانَ بإمكانها خنقي فقط لكنّها لم تفعل، كان بإمكانها نسياني أو تجاهلي أو تقبيلي لكنّها لم تفعل.. لم تترك الحرب ما أذكره من جسدي ولا مِن ملامحي، الانفجار شوَّه خارجي بالقدرِ الّذي شوَّهَ داخلي، لا زلتُ أتذكر يومَ سرت مع أصلان للمسرح، جلسَ يُحدّثني عن شوقهِ لحنان، حدّثني عن الألمِ الّذي يحمِله في روحه، عن التّشابهِ الغريب بيني وبينهَ في الصوتِ، والعينينِ، والحقارة.**

- هل ترى نفسَك حقيرًا إلى هذا الحد؟

- وأكثر.

- يا صديقي، أنا قاتل، سافل، أنا ذكرٌ كاد أن يضاجعَ شقيقته.

- أهون بكثير مِن أن تضاجعَ مبادئك وأخلاقَك واتّزانك من أجلِ قلبٍ لا يستحقّ، أهونُ من أن تخونَ وطَنك، وصديقَك، وصورتَك أمام الآخرين من أجلِ قلبٍ مشاع لا يفرّقُ بين الطّيرِ والأفعى، ولا الذئبِ والحمل.

- هو خطأ واحد.

- بل كارثةٌ واحدةٌ أجهزَت على كلّ شيء، ليتنا استبدلنا أدوارنا في الحياةِ يا صديقي، كلانا يتمنّى الآن خطيئة الآخر مُحَجِّمًا قبحَها، ليتنا استطعنا تلبُّسَها والتّعايشَ مع حقيقتها، أحسدُك على ما اقترَفتَ فتحسدني على ما لا أُحسد عليه. لقد قَتلَتْ سميرًا، قتلت صديقي، فساعدتُها على الهرب لا الموت، على الفِرار لا السّجن، أحملُ على ظهري ألمًا يكادُ يقصمه، كم أودّ أن أعترفَ بذنبي أمام النّاس، عليهم أن يعرفوا حقيقةَ البطلِ الّذي رسموه، حقيقةَ البطل الكرتونيّ الّذي راحت رياحُ الرّغبةِ والعاطفةِ تحملهُ وتحطّهُ في زوابعها العابرة... بدأ الأمر من نزار، صمتي عن ذنبه وطيشهِ والتّسترِ على فضائحه أوصلني إلى هنا، بأيِّ وجهِ حقٍّ دخلت هند السّجن بينما حلَّقَ في معاصيه بالخارج رغمَ اشتراكهِ بالجرمِ ذاته؟ حتّى أنت، لماذا عفوتُ عنك؟ مَن خوَّلني لأكون القاضي والجلّادَ، والسّجانَ، والمخلِّصَ في آن واحد؟ ميمونك سُجنَ لأنّه ابن العجّان لا غير، أمّا نزاري فقد بُرِّئَ لأنّه ابني؛ ابن الشّاعر المعروف الّذي لا تريدُ دولته المساس بقيمته بعد أن جعلت منه رمزًا لقضيّةٍ لم يصنها.... العجّان ذاته يومَ عفوتُ عنه ظنَّ بأنّني فعلتُ هذا لأنّني عاملته كإنسانٍ في الوقتِ الّذي لم يستحقّ فيه معاملتنا للكلاب، كان سارقًا مُغتصِبًا، عفوتُ عنه لأنّني لم أرَ فرقًا بيني وبينه حينها. دخلَ خائنًا بينما كنتُ خائنًا في ذات الوقت لكلِّ ما آمنت به سابقًا، ضحكتُ حينما قرأتُ حديثه عنّي في الصّحف بعد أن تابعتُ بعض جلساتِ محاكمته على الشّاشات. لقد أثَّرت فيه... تأثّرَ بسببِ نظرةٍ وحديثٍ دافئ، وعفوٍ كاذب، بيد أنّي وقد رأيتهُ في الحلمِ الّذي تحققَ يوم خطف البدينةَ ليسرقها أو ليغتصبها قلت: ليست مصادفةً أن ألتقي بولدهِ في الخارج وبه في

الدّاخل، ليست مصادفةً أن أرى خيانتي، وحقارتي، وسفالّتي تتشكّل أمامي على هيئةِ رجلٍ يُدعى العجّان بعد أن رحتُ أبحث فيهِ عنّي.

- تكرههُ أكثر منّي.

- بل أكره نفسي، لكنّني سأعترف بحقيقتي، سأتحدّث للجمهور بما فعلت، سأعترف بما اقترفت يداي، لقد تعبتُ كثيرًا، لقد طاردتُني كثيرًا، وآن لي أن أستريح.

حاولتُ إقناعه ألّا يفعل لكنّه رفض ذلك، بدا مُتعبًا عبرَ سنوات الصّمت من ذاك الموقف، اتّجهنا للمسرحِ من الكواليس لكنَّ الانفجار بعثرَ وجودَنا كما بعثرَ المكان، رأيته ميتًا مُبتسمًا بينما رأيتني أحترقُ قبل أن أتحاملَ دافعًا نفسي لدورةِ المياه مانحًا جسدي الماءَ المتدفّق من أنابيبه المتفجّرة، لقد منَعه الموت أن يعترفَ بخطيئته بينما حملتني الحياة للكذبِ مجدّدًا بعد أن لفظني البحرُ إلى السّجن فالمشفى}.

(17)

حين ينفعُ البكاء

قادني دن بسرعةٍ إلى غرفةِ التّمريض قبل أن يتحوّل لشخصٍ جدِّي أكثر من اللّازم، أردتُ الحديث غير أنّه وضع يده على فمي وحدَّق بعيوني قائلًا:

- من الآن فصاعدًا لن تتكلّمي، ستستمعينَ لي جيّدًا، وبعد ذلك ستفهمين كلّ شيء، سنهرب؛ أنا وأنت ومريضك، سنعود للوطن. اللّيلة سنعود بعد أن تسنح الفرصة، ثقي بي فقط، لقد دبّرت كلّ شيء، خروجنا سيكون أسهل مما تتصوّرين.

أفلتني واستدار يتابعُ عمله بهدوء كأنَّ شيئا لم يحدث، أو أنّنا معتادون على الهرب كلّ ليلة. حين لم أجد ردًّا مناسبًا جلستُ متعجّبةً من حقيقةٍ غريبة وهي أنّني لا أملك من أمري إلّا أن أتبعه.

علمتُ أنَّ ميمون ينتظرُ سرًّا في إحدى الغرف بغيةَ تهريبنا مع رجال الأمن السّنباري المزيّفين بعلمٍ وتسهيلٍ من مدير المشفى، بينما جلست في مكاني كطفلةٍ تنتظرُ بائع المثلّجات على عتبةِ بيتها بشغف كبير... لا أعلم ما الّذي يحصل وسيحصل لكنّني أنتظر في الوقت الّذي ينتظرني فيه الانتظار بهدوء تامّ.

حمقاء بالكاملِ ستكونين إن أضعتِ من بينِ يدكِ ميمون، لقد قالَ بأنّه يفعلُ كلّ شيءٍ مقابل المال حين تحدّث لدن. تملكينَ مبلغًا لا يُستهان به لكي يقبلَ

ممارسةَ الحبِّ معك، عامليه فقط كسيّدةِ أعمال وتحدّثي له بصراحةِ عن مرادك «الجنس مقابل المال». **{سيقبل بالتّأكيد}.** لا تضيِّعي هذه الفرصة، فور وصولك للوطن اطلبي منه هذا، تحدَّثي إليه بكلّ وضوح وبشكل عملي مباشر.

قلتُ الجملة الأخيرة بصوتٍ عال فاستدار دن ضاحكا.

- لمن؟

- لسيف. **قلتها متأتئة وتعلثمَت معها ملامحي.**

أردت المغادرة، لكنّ الخوف فجأةً تملّكني من فكرةِ الهروب، نعم أريد الهروب والخروج من هذا المكان؛ لكنّه الرّعب الّذي حاولت طرده وعدم التّفكير به قبل قليل باختلاقِ أوهام من هنا يفرضُ نفسه؛ لأشعرَ برعشةٍ تبدأ من أطرافي حتّى أطراف شعري.

- هل سنهرب؟ لم لا ننتظر حتّى انتهاء عقدنا عوضًا عن هذه المجازفة... لن يتردّدوا بقتلنا إن أمسكوا بنا. **قلتها غير مصدّقةٍ أننا قد نقوم بذلك، أو كأنّه لم يقل لي هذا ولا أخبرني عنه.**

- انتهاء عقدنا؟! عقدنا لن ينتهي إلّا بموتنا. هل تثقين بهؤلاء؟ ثقي بي فقط. **وقد استدار بكرسيّه نحوي كي يراقب انفعالي المفاجىء، أو لعلّه كان ينتظره وتعجّب من تأخّره فقط.**

- وبهذه السّهولة؟!

- لم يكن سهلا، لكنّني تدبّرت الأمر، أرجوك فقط أن تثقي بي لا أكثر.

رحتُ أرتجف كأنَّ ماسًّا كهربائيًا أصابني بينما نهض وأمسكني من يدي وحدَّق بعينيَّ صارخًا: اهدئي، يجب أن تهدئي.

رأيتُ ملامحَ الغضب الّتي لم أرها مسبقًا في وجهه ثمَّ كست حمرةٌ دافعها الخجلُ وجهَه بعد ثوانٍ من صراخهِ بي. وقفَ أمامي ثمَّ وجّهَ كلامه لي كما يوجّه العسكريّ كلامه لمن يعلوه رتبةً:

- ريم، ريم هل تقبلينَ الزّواج بي؟

جاءني السّؤال من مكان بعيد استغرق وقتًا طويلًا كي يخترق أذني وصولًا إلى مركز الإدراك؛ شاعرةً أنّه في الطّريقِ قد أضاع صداه وبعض حروفه فتصنّمَ وجهي وتجمّدت عيناي في مكانهما كملاكمٍ تلقّى لكمةً قويّة شلّت جسدَه الّذي على وشكِ السّقوط على أرضيّة الحلبة كلوحٍ خشبيّ.... هذا هو السّؤالُ الّذي تمنّيتُ منذُ نهدتُ أن أُسأَلهُ، بل هو السّؤالُ الوحيد الّذي لم أتوقّع يومًا أن يوَّجهَ لي. انتظرتُ طوالَ عمري عبارةَ غزلٍ عابرة، نظرةَ شبقٍ مارّة بالقرب لا أكثر، أمَّا هذا السّؤال فهو المعجزةُ الأخيرةُ على الأرض لا محالة «بعدما ولّى زمانُ المعجزاتِ».

دن هذا الستّيني الوسيم صاحب العينين الوقّادتين، والنّبرة الرّشيقة الخشنة، هذا الرّجل الأنيق الدّافئ ذو البشرةِ الدّاكنةِ، والأنفِ الحادّ وشعرهِ المتماوجِ بالسّواد والبياضِ يطلبني للزّواج! يطلبُني أثناءَ أرذلِ حوارٍ صريحٍ بيني وبيني للزّواج!

- أعِد ما قلته.

- هل تقبلينَ الزّواج بي؟

- أعدِ.

- هل تقبلينَ الزّواج بي؟

- أعدها مرّةً أخرى. **قلتهُا موجوعةً بنبرةٍ يتوجّع فيها الوجعُ ذاته بأنفاس مرتجفةٍ متقطّعة مخنوقة.**

- هل تقبلين الزّواجَ برجلٍ يمتلُك قلبًا أحبَّكِ؟

لم أُجب، الكلماتُ وحدها لا تكفي لمثلِ هذا الجواب، العباراتُ الواضحةُ قد تقتلُ الأجوبةَ الحزينةَ السّعيدةَ إن نطقتُ بها... احتضنتُه، دفنتُ رأسي في صدرهِ مجهشةً بالبكاء الأنينيّ المتواصل، ولجتُ ألمي الّذي هربتُ منه دومًا لتقوقعي البائس في أفكاري وذكرياتي المؤلمة، زفرتُ بألفِ آهٍ تكتنزُ آهاتٍ مُرهقاتٍ مُفرِّغةً حمولتها الثّقيلةَ على صدره.

أنا أنثى، أنا روحُ القيثارةِ، ورجفةُ البيانو، ورعشةُ العود الشّرقيّ، أنا غنجُ العباراتِ الّتي تنثالُ من شفتيْ شاعرٍ عاشق رسمتني بها نبراتُه بريشةِ الصّهلة، أنا السّماء الزّهريّةُ، والبحرُ اللّيلكيّ، والنّوارسُ الحوراءُ تسبحُ في شمسِ الآمالِ البعيدة، أنا أشجارُ القوسِ قزحيّة حين تحملُ الخوخَ العسليّ، والإجاصَ المخمليّ، والرّمّان العنّابيّ؛ سامحةً للهدوءِ أن يداعبَ أغصانَها الملوَّنةَ النّاطقةَ عطرًا روحانيًّا، أنا السّنابلُ الطفوليّةُ حينَ تجري خلفَ النّسائمِ مرتديةً وشوشاتِ القصيدة، أنا الأنهارُ المخمليّةُ يومَ تصبُّ في صمتِ الخيالِ الواسع، أنا الأرضُ الهلاميّةُ القابلةُ لاحتلالِ المطرِ النّاعم، والرّيحُ الغاضبةُ، والشّمسُ الباردة، والأنهارُ العابثةُ، والهدوء الصّاخب، والضّجيج الصّامتُ بكلِّ ما فيها، أنا أحياني الآن بكلِّ ما جهلتُ يومًا من نفسي.

عانقتهُ لأنَّ مسافةَ الصّفرِ بين الجسدين هي أصدقُ مقاييسِ الرّوح. عانقَني بشدّة فراحَ يبكي أيضًا، راحَ يبثُ شوقًا غريبًا لم ألمسه يومًا.

كاد أن يخترقني كلّما توحّدَ بي، كاد أن ينتزعَ قلبي بدقّاتِ قلبه، وينتشلَ طبولَ نبضي بآذانِ نبضاتهِ المتسارعةِ. **{لا تسألي كيف يتحوّل الفمُ لأذنٍ والأذن لفمٍ نهمٍ يلتهمُ أوجاعَ الأنينِ في قلبٍ صحراوي... لا تسألي}.**

لم أفكر أن ألمسه مُسبقًا ليأسي المتجذّرِ في روحي، لم أره يومًا، لم أحدِّق في عينيه يومًا، لم أفكر أن أفكّرَ بأيِّ همسةٍ ونظرةٍ وعبارةٍ صدرت منه.

حمقاء أنا...

حمقاء يومَ تجاهلتُ رجلًا لطالما احتواني، ناقشني بأتفهِ الأمور مُتقبّلًا سذاجتي ضاحكًا على كلّ سخافاتي، حمقاءُ يومَ تجاهلتُ رجلًا ابتسم لي فور رؤيتي، عاندني بما لا يكترثُ به، حاورني كما أريدُ له أن يحاورني... أقنعتُ نفسي أنّ أشجاري ذبُلت فحقَّ للتّجاهلِ والحرمانِ قطعها، وأنَّ أرضي لا تصلحُ للحرثِ والبذور، وأنّ سمائي لا شمسَ فيها، وغيمي لا مطرَ يسكنه. مذ وصلتُ هنا وأنا لا أنفكُّ أجلدُ بداناتي، مجترَّةً أحاديثَ الطّفولةِ والمراهقةِ لا غير، ومذ كبرتُ وأنا أتحاشى المرآة كعدوّةٍ ستوجّه لي ألف عبارةٍ قاتلةٍ إن حادثتها؛ حتّى تحاشيتُها بالكاملِ أثناء دوراني في فلكِ العباراتِ ذاتها عن بداناتي وقبحي... هل أنا قبيحة؟، كيف لي أن أجيبَ نيابةً عن وجهي؟ عن العيونِ الّتي تراني لحظةَ هروبي منها خشيةَ قراءةِ جوابٍ أتوقّعهُ ولا أقسمُ عليه؟ كيفَ أُجيبُ نيابةً عن أذواقِ الرّجالِ المختلفة؟ لقد رقتُ للستّيني قبلها بكلِّ صفاتي، وقرأتُ اللّهفةَ والصّدقَ فيهما، لقد أرادني حينَ رفضت، ثمَّ بنيتُ من أحاديثِ النّاس وتجاهلهم سورًا يحيط بي خشيةَ أن تطأ أرضي نظراتٌ ساخرة لا تقتصرُ عيون الكون عليها... هناك نظراتٌ أخرى على هذا

الكوكب، هناكَ أيادٍ خشنة قد تشتهي قطفَ ثمارك، تختلفُ قطعًا عن الأيادي المودِّعَة والسّاخرة. لو لم يأتِ البوليس ليلةَ اختطافكِ لاغتصبوك، لم يأتِ بك العجّان للعبِ النّردِ ولا للحديثِ معك في السّياسةِ، ولا لمسامرتك كضيفة ودعوتك للعشاء، كنتِ هدفًا وفريسةً ككلّ الضّحايا، كنتِ أنثى ككلّ الإناثِ اللائي عبرن من ذاك المكان ليخرجنَ مخدوشاتِ الحياء والرّوح والجسد... كيف سمحتِ لنفسك أن تتعاطفي مع حقيرٍ سافلٍ كالعجّان؟ كيف استطاعَ حقدُك أن يدفعَكِ للإشفاق عليه؟ لقد انتقمَ لك من النّساء بغضِّ النّظر عن حسنهن وقبحهن، بغضِّ النّظر عن بدانتهن ونحافتهن. هل كرهتِ كلّ النّساء؟ لم تكوني كذلك، فلماذا تعاطفتِ معه؟ لماذا لم تتعاطفي مع ضحاياه اللائي كنتِ على شفا دقائقَ لتكوني واحدةً منهن؟ لو فعلَها لأفسدَ حياتك كما أفسدَ حياةَ الكثيرات بسبب أمراضه، وحقده المزمنِ على البشر. لقد أراد الثّأرَ ممّن لم يقترفوا ذنبًا بحقّه.... أكره العجّان، أكرههُ بالقدر الّذي أحبُّ فيه دن... لطالما ادَّعيتِ أنّك النّاجيةُ ببدانتكِ قبلَ إنقاذكِ من رجال الشّرطة، كلّا، عليكِ الآن أن تعترفي أنّك من نأى عن الرّجالِ مانعةً إيّاهم الاقتراب منك خوفًا من جرحٍ مجّانيّ بسببٍ ضعفكِ، وشخصيّتك المهزوزة... تساءلي الآن بكلِّ صدق وتجاهلي كلّ عوالقِ روحكِ القديمة، تساءلي بصوتٍ قراريّ داخليٍّ مرتفع: وهل تكون العلاقات بلا جراحٍ وصدمات؟ تساءلي: وهل من المعقولِ أن تقتربَ منك عينٌ إذا ما نظرت لها بعينك؟ تساءلي: كيف لك أن تقرّري أنّ ما ستجنينه من المسلَّمات الكونيّة هي الجراح لا غيرَ متجاهلةً أنّ للحياةِ وجوهًا كثيرة؟

عانقيه، اتركي جسدَك يستريحُ من عنائه في جسده، اتركي روحَك تنامُ في لحظةِ الحقيقةِ لأنّ الأحلامَ لا تزورُ النّائمين غصبًا.

شعرتُ بالسّعادةِ المُبكية مُستمِدّةً علاجَ حزني من جسده؛ جسدهِ الدّافئ الّذي غمرني بشوقهِ اللّذيذ. للحظةٍ ما شعرتُ بأنّني احتضنته من قبل، عانقته أكثر ودفنتُ رأسَه هذه المرّةَ في صدري، لكنَّ هاجسي أعاد لي ذاك الشعور. **{هو لا محالة الحلمُ الّذي تمنّيتِ أن يكونَ واقعًا فعشتهِ قبل ذلك، هو شيءٌ حدثَ في اللّاوعي منكِ فشعرتِ به الآن بكلِّ صحوكِ ويقظتك، لكنّني لمستُ هذا الجسد قبل ذلك! لقد احتضنته من قبل... لا يهم، عانقيه أكثر، استمعي لما يقوله الآن بكلِّ جوارحك، دعيه يبثُ شوقَه كلامًا وعناقًا، قبِّليه... كلا، لا يحقّ له تقبيلك، ويحكِ العناق أشدُّ حرمةً من القُبل، لا يهم، لا يهم، لن أضيِّعَ لحظة عناقٍ حميميّة كهذه، لكن جسدَه يذكّرني بشيء، لا تفكري وعانقيه أكثر، سأفعل لكنّني حمقاءُ من أسوأ عاداتها بأنّها تفكّرُ دومًا بأمورٍ كثيرةٍ في الوقتِ الّذي لا يصلحُ فيه التّفكير بل الانجراف للدّاخل، لم يعانقني أحدٌ من قبل، لم يمسسني بشرٌ سواء كان رجلًا أو امرأة من قبل... عانقَني جاد يومًا كأبٍ حانٍ ووالدتي أحيانًا، عانقني أبو سند لكنّني أسأت له بغبائي وأمراضي، عانقتُ سيفًا كمريضٍ بعد غيبوبته ظنًّا منّي أنّه شاعري، عانقتُ رجلَ الطائرة ظنًّا منّي أنّه امرأة، رجل الطائرة؟ كيف ذلك؟ هو ذات العناق، هذا هو جسده!! إنّه جسد دن، دن هو رجل الطّائرة!}.**

انتفضتُ بكلِّ ذرةٍ يحتويها جسدي وروحي، فدفعتهُ عني فجأةً صائحةً:

- أنت رجلُ الطّائرة، أنتَ من جلسَ بجانبي كامرأةٍ عانقتُها باكيةً بعدَ شعوري بالعطف عليها، أنتَ من غضبَ بعدها ونزعَ الرّموشَ والشّعر المستعار... أنا متيقّنة من هذا بكافة شعوري. **قلتُها دفعةً واحدة متنفّسةً الصّعداء محترقةً بأحرفها الّتي ابتعلتُ أغلبها.**

وقفَ محدِّقًا في الأرضِ متمتمًا بكلماتٍ لم أفهمها.

- قل بأنّك هو.

- لم أكن يومها هو، كُنتها تمامًا. **قالها بهدوء.** كنتُ زوجتي الّتي قُتِلت بدلًا عنّي.

- أنتَ إذن. **روحي صُدِمت قبل ذاتي وملامحي.**

دن هو الرّجل المقتول بزوجته... الرّجل الّذي مات حيًّا برصاصةٍ قتلَت زوجته... يحزنُني شعوري بالتقزّز حينها الآن، لقد آلمتُ مَن وفى لزوجته ميتةً عبر جنونه، بينما استحقَ أكثر من عناقٍ تبعَه اشمئزاز حتّى وإن كان ذلك في جنباتِ أعماقي الّتي لم يلج إليها. كيف حكمتِ على قناعهِ بالرّذيلةِ بينما تقنَّع بالوفاء عبر التّضحيةِ بجسدهِ وروحهِ لمن لم تعد؟ أحدّق بعينيه هذه المرّة... عينيه اللّتين تشي به.

القناعُ الحقيقيّ لا نستبدله بحربائيّةٍ حين حاجتنا له، بل هو جزءٌ منّا يُظهِر للنّاظرِ إليهِ ما أراده لا ما أردناه له، يحصُلُ التّلوُّنُ في عيون النّاظرين إلى القناعِ لا القناعِ نفسه، وها أنا الآن أرى دن وفقَ عينيَّ وما تريدانِ أن تراه لا ما أظهره القناعُ من حقيقته.

- قل شيئًا... قل كلّ شي يا دن... قل.

تهاوى على المقعد كجبلٍ سبقه انهيال التّراب والحجارة الصّغيرة إلى القاع بعد زلزالٍ ضربَه؛ دون أن تقوى صخوره الكبيرة على الصّمود.

- كنتُ بيتوتيًّا لدرجةٍ كبيرة، حياتي اقتصرت على العمل والبيت لا غير، أحببتُ زوجتي الّتي قبِلت أن تعشقَ وتتزوّجَ لقيطًا لا يُنسبُ لأبويه... أحدُهم وضعني في مهدِ زوجينِ عاقرين، فلمَّا أرادا قبولَ هذه الهديّةِ الغريبةِ اكتشَفت العاقرُ أنّها حمَلت بتوأم ولدتهُما في اليومِ الّذي حملني فيه زوجُها لملجأ الأيتام خشيةَ المساءلةِ القانونيّةِ رافضينَ تلك الهديّةَ المجانيّةَ؛ طالما أنَّ

هديّةً غير متوقّعةٍ طرقَت بطنَ العاقر الّتي لم يحتمل قلبُها هديّتين متتاليتين دفعةً واحدة فاكتفت بواحدة.... فكأنّما طَمَعُنَا البشريّ يتوقّف عن الزّحفِ حين نحظى بما لن يُسبّب لنا خوفًا وإزعاجًا ذات يوم؛ فإن لم نعوَّض قبلِنَا بالهديّةِ ولو شُنقنا من أجلها؛ مطلقينَ عليها مسمّى معجزة إلهيّة، وكأنّنا من نقرّرُ هويةَ المعجزاتِ، ونفرِّق بينها وبين الخرافات وفقَ حاجتنا لا وفقَ واقعها المنطقيّ.

كنتُ بيتوتيًّا أعودُ من عملي لأجالسَ زوجتي الحبيبة متنقّلًا بين قنوات التّلفاز فقط... كثيرًا ما لاحقتُ الحلقات التّلفازيّة، والأفلام بشغفٍ كبير، وكثيرًا ما شاهدتُ أثناءَ تنقّلي العشوائيّ بين القنوات بعض اللّقطاتِ العابرة في البرامجِ الإخباريّة لتفجيرات وكوارث هنا أو هنا، وكثيرًا ما شاهدتُ الضّحايا، والنّيران المشتعلة، والبيوت المهدّمة، والأتربةَ الغباريّة الّتي صبغت وجوهَ الأشخاص الّذين لا أعرفهم... أحيانًا ومن باب التّغيير والملل رحتُ أشاهدُ بعضَ الكوارث الطبيعيّةِ والبشريّةِ دون اكتراث قائلًا في نفسي عند رؤيةِ الضّحايا: هم أشخاصٌ لا أعرفهم، الكاميرا أحيانًا كانت تُسلِّطُ في حوادثِ القتلِ وضحايا الانفجارات على وجهِ رجلٍ مندهشٍ مصدوم غارقٍ في الحيرة والذّهول. لطالما اصطادت الكاميرا هذا الوجه لتنتقلَ بعدها للحدث مفصِّلةً إيّاه، لتعودَ إليهِ بعدها وما زالَ مُتسمِّرًا في وجومه؛ جاحظة عيناه لا يحُرّك ساكنًا. لم أكترث له وإن تكرّرَ هذا الوجهُ وشبيههُ بتلك الملامحِ المصدومةِ في أيِّ مكانٍ، وعبرَ أيّ برنامجٍ إخباريّ يُصدِّرُ صورتَه عند ذكر الحدث، فأنا لا أعرفه كما لا أعرفُ الضّحايا في ذاك الانفجار، أو الزّلزالِ، أو الفيضان وما شابه... ولأنّني كُفِلتُ من أبوين بوذيّين حملاني من وطنك نحو الهند صغيرًا بالتّحايل والتّزوير؛ فقد رفضتُ عندما عملتُ في مصر وقد نسيت العربيّةَ وطباعَ أهلها، أن أحقنَ عالمًا بوذيًّا بحقنةٍ قاتلةٍ لأنّه مناهضٌ للحركةِ الصّهيونيّة ورافضٌ لتقديم عبقريّتِهِ لها. كلّفني هذا الرّفض والإبلاغ

عن الشّخصِ الّذي عرضَ عليَّ هذا العرضَ التّهديدَ بقتلي، والانتقامَ بأيِّ شكلٍ منّي، خفتُ فعزمتُ على الهروب وزوجتي من مصر بغيةَ الرّجوع إلى الهند بأسرعِ وقت ممكن، أصرَّت أن ترتدي بعضَ ثيابي، فارتَدَت من ملابسِ الرّجل الهندي التقليديّة ما يناسبها وسطَ دهشتي من إصرارها على ذلك، ارتَدَت ما أرادتهُ بينما توسّلت لي أن أرتدي ملابسها مقسمةً أن رفضي ذلك يعني انفصالها عنّي للأبد فرضخت لجنونها؛ وغادرنا شقتنا باتّجاه المطار، وفورَ نزولنا من السيّارة تعرَّضت لرصاصةٍ اخترقت رأسها محطِّمةً جمجمتَها. ماتت على الفور وسط صدمتي ودهشتي لما حدث، لقد ضحَّت بحياتها من أجلي أو أرادت الموت معي فماتت وبقيتُ أنا، وقفتُ على الرّصيفِ وقد اكتظّ أوّلًا بالأشخاص المتأوّهين، ثمَّ رجال الشّرطة، فالصّحفيين الّذين جاء أحدهم بالكاميرا ووجهها لوجهي، سلَّط الكاميرا عليَّ لأكون صاحبَ الوجهِ الّذي كنتُ أراه في البرامجِ الإخباريّةِ مصدومًا، مكلومًا، متسمّرًا في وجومه، فاغرًا فمه وسط دهشتهِ الغريبة، لأكونَ ذاك الشّخص الّذي لا أعرفه فوق هذا الكوكبِ في مكانٍ ما؛ والّذي تصوره الكاميرا ليكونَ محورَ حدثِها الإخباري بوجههِ وملامحهِ الّتي أعرفها. بكيتُ بحرقةٍ لأنّ الأشخاص الّذين لا نعرفهم والّذين تعرّضوا للقتل والدّمار والظّلم والكوارث الإنسانيّة هم أشخاص نعرفُهم، هم نحنُ في مكان آخر، هم أشخاص نقابلهم دون أن ندري.

قُتِلت مكاني فلم أعد حينها رجلًا بعدما أعفته من لعبِ هذا الدّور يومَ ارتدت ملابسه، لكنّني وقفتُ كهِيَ، غادرتُ كهيَ، ورحلتُ بحقيبةٍ تحملُ ملابسَها وعطرها وزينتهَا. عدتُ حاملًا قلبَها في ضلوعي فأصبحتُها دون أن أدري. بقيتُ بعدها في مصر بملابسها وقلبها وصوتها وطقوسها الدينيّة إذ لم أكن متديِّنًا قبلها، بقيتُ بكلِّ دفئها ورقّتِها لأجدني إيَّاها بكاملها دون وعيٍّ منّي... رحت أستغلّ مهارتي بترميم الوجوه وصناعة جلود الوجه كالأقنعة

لعمل وجهٍ كوجهها أتقمّصه بالكامل. تجمَّلت بوجهها ظاهريّا وبروحها داخليّا دون وعي منّي.. لقد تركني قاتلُها أهيمُ في شوارع الإسكندريّة مجذوبًا مريضًا مُزدوجًا فكأنّه علِم أن بقائي على قيد الألمِ أشدُّ عقابًا لي من الموت، هِمتُ في الشّوارعِ متعرّضًا للإهانةِ والضّرب والازدراء الجسديّ والرّوحيّ؛ لكنّني كنتُ سعيدًا لأنّني طالما حلُمت بذاك القنّاص مرتعبًا منّي.

زرته كما زارني في الحلم لأجده متوسّلًا لي بأن أسامحَه وأصفحَ عنه، زرته في اليقظةِ كما زارني فبدوتُ شبحًا يطارده من مكانٍ لآخر حتّى وعدني إثر تعب ضميره ألَّا يقتلَ مُجدّدًا. لم أكترث لوعده متمنّيًا لقاءه لأقتصَّ منه، لكنّني لم أعد أراه في حلمي، لم أعد أستطيعُ زيارته في الحلمِ واليقظة.

وجدتُ نفسي قد تعافيتُ بعد سنواتٍ طوال من انفصامي وسطَ مساعدةِ عائلةٍ صعيديّة طيّبة علمِت بما مررت به. تعافيتُ لأعودَ للعملِ مجدّدًا في مشفىً مصريٍّ غيرَ أنّي كلّمَا هممتُ بركوبِ طائرةٍ لم أستطع ارتداء ملابسي بل ملابسها بكامل حلّيها وزينتها. رؤيتي لأيِّ مطارٍ يعيد لي وجهها غائمًا بالموت، ويعيد روحها لتحتلّني وفاءً وعشقًا لها، رؤيتي لأرصفةِ المطارات وصوت الطّائرات المقلعة والهابطة يعيدني لأتلبّسها رغمًا عنّي، حتّى التقيتكِ... حتّى جلستُ بجانبكِ في طائرة سنبار المتوجّهةِ لجنيف، لم أخدع مثلك بل كنتُ على علمٍ بوجهتي وحقيقتها كما لم أعلم شيئًا في حياتي من الحقائقِ مثلها قط، فالقدرُ وحدهُ مَن نبَّأني عبرَ حديثٍ مع سجينٍ سابق في سنبار وقد التقيته في مصر مصادفةً أن قاتلَ زوجتي في سجن سنبار. هنا دفعتُ نصفَ ما أملكه رشوةً لرئيس تلك المنظّمة الإنسانيّة كي ينقلَه من سجن الجزيرة لمشفاها قبل أن أتقدّمَ للعمل فيه؛ شريطةَ التّنسيق مع إدارة المشفى للاعتناء به والتّحفظ عليه بأفضل حالة صحّية حتّى حضوري لأنهي حياته عذابًا وانتقامًا علي يديّ. انطلقتُ مسافرًا للعملِ فيه على الفور

وبسهولة ليتسنّى لي لقاءُ قاتلٍ يدعى معروف النّقاد، بيد أنّي وقد سبقته إليهِ شعرت بالنّدم، أو بأنّي خدعت من رئيس المنظّمة ظنًّا منّي بأنّهم لم ولن ينقلوه، أو ربّما يكون قد مات في سجنه؛ قبل أن أتفاجأ به قد لحق بي للمشفى لينامَ على بعد أمتارٍ من انتقامي منه... أعرفه، أعرفُ وجههُ من كوابيس الحلمِ واليقظة، أعرفُ وجهه المصدوم يومَ نظرَ لي من بعيد وقد صوَّب بندقيته من نافذةِ عمارة، أعرف وجهه لأنّه صوَّبها لي ثمَّ أعادها متردّدًا مغادرًا النّافذة، أعرفُ وجهه جيّدًا لأنّه مرَّ من جانبي مغادرًا محدِّقًا بي إثر ذهولي وعجزي وضعفي لحظةَ موتها، كنتُ هشًّا للدّرجةِ الّتي رأيتُ فيها قاتلي يغادرُ بالحياةِ بعد أن غادرت بالموت؛ دونَ أن أصيحَ بأنّ هذا قاتلها.

استغرقتُ وقتًا طويلًا بالتّقصي عن اسمه في قائمةٍ تطول من المجرمين والسّفلة حتّى تأكدتُ أنّه ضالّتي، ووقتًا أطول حين تأكّدت أنّه في سجن سنبار.

حدّثت نفسي أثناءَ ركوبي الطّائرة بأنّني قد أطاردُ شبحًا لا أكثر، لكنّها الرّغبةُ بالهروب على شكلِ أملٍ ما، ورجاءٍ علَّه قد يتحقّق.

جلستُ بجانبك كزوجتي لا أنا، جلستُ ممارسًا طقوسي البوذيّةَ بحزنٍ وضياعٍ شديدين فعانقتني باكيةً وضممتِني لكِ، ضممتِني دون أن تعلمي بأنّكِ تعانقينَ روحًا أخرى غيرَ روحي، وكيانًا لا يتجسّدُ بي، فانتقَلَت الأنثى الّتي تسكنني عبرَ هذا العناقِ لجسدك، لقد استحوذتِ كمغناطيسٍ على كاملِ روحها من روحي، وسحبتِ هالتَها من هالتي لتدفعيني خارجًا منها، شعرتُ بقلبكِ، بروحكِ، بجسدكِ، برقّتك. فتشابهتِ معها بقلبها، وروحها، ورقّتها، فخرجتُ منّي حين استقرَّت في قلبي لا جسدي كما كانت، فانتبذتُ في المقعد الأخيرِ باحثًا خجِلًا مِن الرّجلِ الّذي أضعته طوالَ هذه السّنوات

ظالمًا له، ولمن أحببتها، ولمن سأحبّها من جديد. **قالها ودارَ رافعًا يديه كصوفي يرقص ثمَّ توقف.** وبينما انشغلَ الآخرون بالحديث والاعتراض على الخديعةِ الّتي تعرّضوا لها؛ انشغلت بتأمّل أعطيات القدرِ بعدها في أن يكون القاتلُ مريضًا بين يدي وكأنّ القدرَ يقول لي:«اقتص لنفسك فها قد قدمتُه لكَ على طبقٍ من مرض».

- أردتَ قتلَه؟ **قلتُها مندهشة من كلّ ما سمعت سيما الجملة الأخيرة.**

- أردت شاكرًا القدر على هذه المنحة الّتي سعيت إليها لكنّني ما إن هممتُ فعلَ ذلك نظرتُ في عينيه، فلم أجد فيهما نظرات قاتل، عيناه تخلو من القتل والقسوة، لم أرَ هاتين العينينَ فهما لم تتعرّضا للتّشويه كوجههِ وجسده.. ولجتُ حلمَه بقسوةٍ لكنّه لم يكن هو الرّجل الّذي أبحث عنه.

- لا أصدق أن بإمكانك الإقدام على هذا الشّيء، إيَّاك أن تفكّر به، حتّى ولو كان هو مَن قتلَها فعلا.

- ليس هو يا ريم، هذا الشّخص ليس القاتل.

أردتُ متسرّعةً أن أؤكد له بأنّه معروف والّذي يُدعى سيفًا لكنّني أمسكتُ لساني في آخر لحظةَ خشيةَ انتقامه.

- أعرفُ بم تفكّرين الآن؛ فحوصات سيلا كان ينقصها شيءٌ، لقد تفحّصتها ألف مرة، وفي كلّ مرّة كنتُ أجد أن هناك شيئًا ما غامضًا في فحوصاته، وسواء كان هو أو لا فإنّني لم أعد أرغبُ بالانتقام، أريدُ فقط أن نتزوّجَ ونغادرَ من هنا. **قال هذا ونهض كمن أفرغ حمولته من الماضي وتخفّف من أثقاله.**

- مدير المشفى متواطئ معك؟

- وفي كلّ شيء.

- لماذا تريد مساعدة هذا الرّجل إذن؟

- لأنّك لن تغادري دونه... لا حاجة لي بسؤالك عن هذا.

وقفتُ محدّقةً به وقد راح يلتصق بي كلّما ابتعدت عنه دون وعيٍ، راح ينتظرني أن أتكلّم فلم يدر في خلدي بعد هذا الكلام إلّا سؤال سخيف.

قلت له جادةً: هل نقصَ وزني أنا أم زاد وزنُك؟

خطر لي هذا لأنّني أردتُ له أن يقول لي كلامًا رقيقًا عن بدانتي، أو أنوثتي الّتي لم أستمع يومًا لمن اهتمّ بها، لكنّه بدل ذاك عانقني مجدّدًا وضمني إليه ضاحكًا مردّدًا بين الحين والحين: أنتِ حبيبتي.

(18)

اليقَظة

أنا الحلقةُ بين كلّ هؤلاء، أنا الحمقاءُ الّتي لم تعد تفهم فلسفةَ القدرِ رغمَ أنّها الوحيدةُ الّتي باستطاعتها فهمَ ذلك. ها أنا أجد نفسي أمامَ سيف وميمون أبناء العجّان الّذي خطفني يومًا. أمامَ دن الّذي لا يُعقل إلّا أن يكونَ ابن السّفاحِ الّذي وضعه العجّان يومًا في مهد العاقرين... قد كنتُ أبحثُ عن الرّوايةِ في حديث أصلان قبل أن أعرفَ حقيقته، وها أنا الآن أجدني أمامَ روايةٍ لن يصدِّقَ أحدٌ أنّها حقيقيّة، وأنَّ القدرَ جمعَ هؤلاء جميعًا عبري، أو عبر الصّدفةِ والأحداث المتقنة. وها نحن نُبعدُ عن الوطنِ أميالًا ألقت بنا لنتقابلَ جميعًا هنا، لتتبلورَ الحكايةُ بعيدًا عنه، وكأنّه رفضَ أن يخبرَنا بنفسه الحقيقةَ طالما هربنَا منه.

سيلا لم تعد، وميمون ما زالَ ينتظر اللّحظة المواتية للهروب تحت إشراف مدير المشفى الّذي جهزَّ جثّةً طازجةً لتدفن مكان سيف للهروبِ والرّجوعِ للوطن. أما دن فبوذيّته الّتي يعتنقُها ضمن إيمانه الرّاسخ تجلدُ روحي بسياط الذّنب والفضيلةِ من جديد.

كيف لي أن أتزوج ببوذيٍّ وأنا مسلمة؟ أتساءل ثمَّ أجيبُ بتساؤل آخر: وكيف لك القبول بممارسةِ الخطيئةِ ما دمتِ بهذا الطّهر؟ هو السّرُّ وخوفنا من الوضوح، هو الخفاء الّذي قد نرتكبُ فيه المعاصي الّتي لا نقبل أن نُتّهمَ لصحيحها قبلَ خطئها، كنتُ راضيةً بعلاقةٍ غير شرعيّة قبل يومٍ من الآن في

العتمةِ الشّيطانيّة، وها أنا لا أجدُ حلًّا لعلاقةٍ في نهارِ الملائكةِ والعيون النّاظرة.

طلبتُ من ميمون أن أستعملَ هاتفه وأتّصل بعائلتي فورَ هروبنا السّريع والسّهل من المشفى باتّجاه البحر، اتّصلت وأخبرتهم عن دن كأنّه الخبرُ الوحيد الّذي يتشوّقون لسماعه لا سرّ اختفائي وانقطاعي بالكامل بعد السّفر.

جاد وبَّخني منهيًا حديثنا بهذا الشأنِ بغضبٍ كبير، والدتي شتمتني جهارًا نهارًا على العهر _كما وصفت_ الّذي أفكّر فيه. هي المرّةُ الوحيدةُ الّتي تشتمني فيها وتنعتني صراحةً بالمريضة.

ألم تكتشف مرضي إلّا الآن؟ ألم تكتشف ضياعي إلّا اللّحظة؟ أينَ كانت حينَ ماتَ أبي شابًّا وتزوَّجت غيره دون أن تجزعَ عليه؟ لمَ لمْ تجن كدن؟ لمَ لمْ تلبس ملابسه الذّكوريّة تعبيرًا عن وفائها؟ لمَ لمْ تكترث بمشاعر طفلةٍ قيدَ النّمو جسديًّا وفكريًّا وعاطفيًّا... ثمَّ أين أولئك المنظّرون للحديث الشّريف «فاظفر بذات الدّين تربت يداك؟» لم أرهم، لم يطلبوا الزّواج منّي، لم يسألني أحدهم إن كنت من حفظةِ كتاب الله، والواسطيّة، والأجروميّة، والمعلّقات أم لا!! أو إن كنتُ مواظبةً على الصّلواتِ الخمسِ وقيام اللّيل، وصوم الإثنين والخميس كما يشتهون!! لم يقترب منّي أحدهم سائلًا كي يتأكّد من إيماني وإخلاصي لتربتَ يداه، أمّا هذا البوذي فقد رآني كما لم يرني أحدٌ منهم. يتبجّحون بما لا يفعلون، ثمَّ يلهثون للزّواجِ بالجميلاتِ ليفرضوا عليهن ما نظَّروا به وتبجّحوا به؛ لا من أجلِ الله بل لأجل ألّا يقال عنهم بأنّهم كاذبون.

أصدَقُهُم مَن تزوّجَ بشهد العجّان، فقد كان إمامًا للمسجد، وبعد مرافعةِ والدها عن نفسهِ طلبَ يدَها وتزوّجها وسط دهشةِ العجّان وأبنائهِ والنّاسِ

أجمعين. راحوا يسخرون منه، بل وفقدَ في خطبةِ الجمعةِ نصف المصلّين السّاخرينَ المستقذرين له. وصفوه بالدّياثةِ والجنون بينما وُصِفَ مِن أنقاهم: «بأنّه رجلٌ درويش على البركة». ثمَّ خطبَ يومًا خطبةً عصماءَ ذكرَ فيها مثالب ومخازي الجاهلية، ذكرَ فيها الحقائق عن التّغيّر الّذي طرأ على مجتمعٍ كافرٍ زنديق؛ وكيف تحوّل بعد الهدايةِ لمجتمع مثاليّ عادل! لم يبالِ بالقيلِ والقال فصنعَ من مومسٍ مثلها زوجةً مثاليّة. قيلَ لي يومًا بأنّها ناسكةٌ متفرغةٌ للعبادةِ وعملِ الخير، لكنّهم ما زالوا يشيرون إليها بالمومس التّائبة كدليلٍ على تحوّلِ الإنسانِ من الشّر إلى الخير، لكنّهم ومع ذلك لم يورّوا فكأنّهم وبالرّغمِ من مدحهم للتّائبِ يذمّون الممدُوح.

- ألا زلتِ في حيرةٍ من أمرك؟ **قطع دن هذه الذّكريات.**

- أنا في حيرةٍ مُذ خلقت.

- بإمكاننا مغادرةُ الجزيرة بسهولة وسط هذه الأحداث، الفرصة سانحة.

- الفرصةُ ما تخيفني لا الهروب من هذا المكان.

سادَ الصّمت بيننا قبل أن أسأله:

- لماذا لم تقتله؟ أجِبني بصدق.

- ليس هو.

- يحملُ اسمه.

- ولكنّه لا يحملُ عينيه.

- هل سألته؟

- حاورتهُ في كابوسٍ ولجنا إليهِ سويّةً عندما قرّرتُ الإجهاز عليه، غيرَ أنّه لم يعترف، قال لي: «لم أقتل إلّا صديقي ووطني». كان صادقًا أو أنّني خدعتُ نفسي بقوله.

- خدعتَ نفسك!! وهل أردت تصديقه عبر كابوس؟

- عندما بحثت عنه كنت أتوق لقتله. عندما رأيتهُ مريضًا، مسنًّا، محترقًا مشوّهًا وحيدًا في غربته أشفقت عليه، رجوتُ روحي أن تصفحَ عنه، رجوتُ قلبي أن يغفر خطيئته الّتي أنهت حياةَ حبيبتي.

- كيف باستطاعتك أن تتسامحَ بهذا الشّكل؟

- قتلها ولم يقتلني، كانت سببًا في توبته وإقلاعه عن القتل إن كان هو فعلًا. لقد أرادت بموتها أن تثنيهِ عن ممارسةِ هذا العمل مرّةً أخرى ففعلَت... لستُ أنا من عليَّ محاكمته، بل من يمتلك القدرةَ على العقابِ والثّواب دون دافعٍ شخصيّ.

- إذن قال لكَ في كابوسكما ما أردتَ سماعَه لا أكثر! **وكتمتُ ضحكتي.**

- بل رأت عيناي في الواقع عينيْ بريءٍ لا قاتل، لطالما قلتِ لي بأنّه شاعر، لا أعتقد أنّ الشّعرَ والقتلَ يجتمعانِ في قلبٍ واحد.

- لعلِّي كنتُ مخدوعةً فقط. **قلتها ساخرةً من نفسي.**

- مذ قابلت ميمونا وأخبرتك عن الهرب لم يعد الفضول يحتلّك كما كان سابقًا.

- لم أعد أكترثُ لشيءٍ قطّ.

هي الحقيقةُ الّتي بدأت تتسلّل إلى روحي سيما وقد رفض سيف نقله للوطن بخطّةٍ محكمة. رفضَ الهروب مفضّلًا السّجن معاندًا الجميع تحت دهشتنا. لم يصدّق أحدٌ منّا أنّه يريد الموت هنا وبهذه الطّريقة. بعد موافقته أخيرًا بشقّ الأنفس وعند التجهّز للرّحيل رفضَ مُجدّدًا شاكًّا بكلّ ما حوله، متسائلًا بريبةٍ مبرّرة عن وجود ميمون ودافعه لتهريبنا بهذا الشّكل السّهل، ورغم تطمينات دن له ووعده بأنّه سيشرح له الأمر لاحقًا إلّا أنّه لم يقتنع، وتشبّث بالسّرير كالأطفال الصّغار خائفًا... وسط هذا الرّفض طلب منّي دن أن نرحلَ دونه لكنّني في الحقيقة كنت أشفق عليه رغم كلّ شيءٍ، فحاولت إقناعه بيد أنّه رفض. حينها نهضَ دن وحقنه حقنةً أفقدته الوعي... حتّى إذا انتهى مفعولها واستيقظ من سباتِه مرتعبًا ممّا يراه كنّا في وسط البحر... الغريب أنّه تأقلم بعد استيقاظهِ بدقائق مع ما يراه وبدا سعيدًا نشيطًا على عكس توقّعاتنا، متفاجئًا بسعادة غامرةٍ أنّه وسط البحر، وأنّنا عائدون إلى الوطن. شعرتُ أنّه لا يتذكّرُ شيئًا ممّا حدث بتاتًا.

سألني عن ميمون ومن يكون وما الّذي جاء به إلى هنا؟ وكيف فررنا بهذه السّهولة؟ بدا ناسيًا أو متناسيًا آخر يومين بالكامل كأنّه لم يحيَهما أبدا.

- أنتَ تتلاعب بي مجدّدًا، لا أعرف السّبب لهذا، ألا تملّ من هذه الحيل الصّبيانيّة؟ **قلتها وقد شعرت بالحيرة من تصرّفاته.**

- أتلاعب بك؟ **سألني مندهشًا، وكأنّه تفاجأ من طريقتي الوقحة بالحديث إليه.** لا أفهم مقصدك!! تحدّثي.

- كفاك تلاعبًا أرجوك.

- تلاعُبي بماذا؟ **{ما بال هذه الحمقاء تتحدّث إليّ بأشياء لا أفهمها؟! نعم لقد بدأت أنسى الكثير من الأشياء، لكنّني لم أنسَ الماضي القريب جدًّا، أجدني الآن في وسط البحر مع أنّني لا أذكر شيئًا ممّا يتحدّث هؤلاء به، لقد تملّكني الرّعب فجأة قبل أيّام، شعرتُ حينها بشيءٍ يسري بداخلي كنتُ أظنّه الموت، لكنّني كنت أقاوم كي أعودَ بكاملي إلى نفسي وقد تهت عنها مجدّدًا، الخوف! نعم فالخوفُ مَن أفقدَني نفسي يومًا وها أنا أنتصر عليه مجدّدًا}.**

- هل فعلًا ترغبُ بالعودة إلى الوطن؟ **سألته كسرًا للملل أو للخوف أو حتّى للغرابة لا أكثر وقد لاذ بالصّمت.**

- لا أعرف حقيقةً، كلّ ما أعرفه أنّني لم أمت؛ كنتُ أشعر بأنّني سأحيا عامًا آخر، لا أريد العودة لأنّني الآن في طيِّ النّسيان، لا أريدُ العودة للبحثِ عن نفسي، لكنّني أرغبُ بشيءٍ واحد فقط؛ شيءٍ سيزيحُ عن كاهلي وألمي الكثير الكثير.

- ما هو؟

- أريدُ رؤيةَ أمي.

- أمّك؟!! **ضحكتُ رغمًا عنّي، فأمُّه ماتت بعد أشهر فقط من إعدام العجّان.**

- نعم أمّي، أشتاق أن أضمَّها إليّ.

- لكنّها ماتت منذ زمنٍ بعيد.

- كلّا، لم تمت، أشعرُ بذلك، قد مرَّت سنواتٌ ثلاث على آخر لقاءٍ بيننا، لكنّني أعلم أنّها لم تمت، هي بانتظاري.

- سيف، أمُّك ماتت منذ زمنٍ بعيد، ماتت بعد إعدامِ والدك ببضعةِ أشهر فقط.

حدَّق بي كما لم يحدّق بي مُسبقًا. قرأتُ في عينيه شيئًا غريبًا لم أستطع تفسيره، نهضَ عن كرسيه المتحرّك والّذي زودناه ببعض الأدوية والأجهزة فنزعها ووقف بصعوبة، راح ينظر للبعيدِ كمن يقول للبعيد بأنّني قادم. وقفتُ خلفه خشيةَ أن يصاب بالإجهاد أو الدّوار فيسقط.

- هي المرّة الأولى الّتي ينتصب جذعك هكذا مذ دخلت المشفى.

- الوطن بانتظاري، **عمّانُ** يا ريم تسألُ عنّي. لا أريدُ أن أدفنَ بعيدًا عنها، أريدُ أن أدفنَ في **سحاب** حيث يقطن والدي، حتّى ولو أهالوا عليَّ التّراب فإنّني متقبّل لهذا دمتُ أقطن بجانبه، أريدُ أن يزورني أبنائي وأحفادي كما كنتُ أزورُ والدي... القدرُ يمنحني الفرصةَ الأخيرةَ لبرِّه ووالدتي قبل أن ألفظَ أنفاسي.

- سيف، أنتَ تتحدّث كأصلان أفق من خزعبلاتك؟ **ضحكتُ بسخريةٍ رغم إشفاقي عليه ثمَّ توقفتُ حينما شعرت بملامح الغضب احتلت وجهه.**

- ما بالك أنت؟ ما الّذي دهاك؟ عن أيّ سيف تتحدّثين؟ أنا أصلان، أصلان. **وضع يده بعصبيّة على رأسه كأنّه يريد اعتصاره بين يديه.** لا أعلمُ كيفُ كنتُ سيفًا، لا أعلمُ من الّذي راحَ يتحدّث عنّي، بلساني، بأعماقي، بسرِّي وجهري، أنا متعبٌ من كلّ شيءٍ حولي الآن، أريدُ العودة، أريد أن ألتقي بأمّي، أريد أن أراني، ريم، أريدُ مرآةً يا ابنتي كي أرى نفسي، لقد نسيتُ وجهي. **راح يتحسسّ وجهه وعينيه.** أريد أن أرى عيني، من المؤلم أن ترى أعيننا كلّ شيءٍ إلّا هي، أن ترى كلّ شيءٍ باستثناء ملامحنا.

لعلَّها هلوسات العمرِ، والشّيخوخةِ، والحرب، ولكنّني أحضرتُ له مرآة بعد أن كدنا نخترعها اختراعا من على اليخت وقد راحت عيناه تذرفُ ماءها، راح ينظرُ في المرآة مدهوشًا تارةً، وغارقًا في خيالهِ تارةً، ومبتسمًا تارةً أخرى... شيءٌ ما يحيّرني وقد أدخلني في دوّامةٍ جديدة، رحتُ مستمعةً لتسجيلاتِ قصائده الأخيرة عبر جهاز ميمون مستحضرةً صوته السّريريّ، لأجدهما مختلفينِ بعض الشّيء، رحتُ أنظرُ في عينيه مستحضرةً عينيه السّريرتين لأجد أن نظراتهما تختلفانِ في الكثيرِ من المواضع. **{لا أعلم ما الّذي يجعلني أتوه بين شخصين رغمَ أنّ الفحوصات، وحديثه، وما جرى يدلانّني على هويته، أعلم أنّه سيف فلماذا أتعاطف معه مجدّدًا كأصلان؟ حمقاء حتّى بهذه}.**

الرّحلةُ امتدَّت لأيّام طوال لم نعد نحصيها في هذا المحيط الكبير. اليخت اتّسع للمحبِّ، والحالمةِ، والكاره، والمريض الحائر، لم يتحدث أحدٌ منّا لأحد... ساعةُ الحائط المتوقّفةُ تفرضُ فلسفتها على ألسنتنا الخائفة من التّعبير عمَّا يعترينا رغمَ أنّها بقيت وحيدةً خلفنا.. لعلّنا جميعًا أردنا العودةَ للجزيرة فلم نبح بهذه الرّغبة، أشجعنا كان ميمون ومساعدوه المتنكّرون بثياب الجيش السّنباري وربّان اليخت حيث راحوا يكرعون الخمرَ، ويرقصون أحيانًا كمجانين شاذين كلّما سنحت لهم الطّبيعةُ بذلك.

وصلنَا شاطئًا يخلو من الحياةِ لنمتطي جمالًا قطعت بنا مسافاتٍ طويلة. لطالما حدّثت نفسي: «سيموت سيف قريبًا». الإجهاد والخوفُ تملّكنا جميعًا لكنّه على ما يبدو تحصَّن بالأمل أو الوهم الّذي راحَ يصدّقه.

ركبنا بعدها حافلةً قطعت آلاف الكيلومترات لنجد أنفسنا بعدها أمامَ مطارِ **«برج العرب»** في الإسكندرية. سرنا على الرّصيف ببطء لمجاراة خطوات سيف المتعبة والبطئية قبل أن يصرخَ دن قابضًا على عنقِ سيف باكيًا: «لقد قتلتَها هنا أيّها الوغد». دخلَ في هستيريا جنونيّة صائحًا محاولًا قتل سيف

مُطبقًا على رقبته، حاولوا منعه وقد جحظَت عينا الاثنين، هذا لغضبه وهذا لضعفه وانقطاع الأكسجين عنه. لم يفلحوا لكنّني رحتُ معانقةً رأسَه هامسةً به: «من أجلها، من أجلي، من أجلِ قلبك المتسامح أرجوك أن تتركه». جثا على الأرضِ باكيًا مُقبّلًا الرّصيفَ وسط دهشة المارّةِ ورجال الشّرطة لتصرّفه.

- من هذا المجنون؟

- قد قلتَها سيدي، مجنون لا يُلام على تصرّفاته، بل هم مجموعة مجانين شاءَ القدر أن ألتقي بهم. **قالها ميمون ضاحكًا ظنًّا منه أنّها مداعبة لرجل الأمن المصري الّذي بدوره كاد أن يبصقَ عليه.**

راح سيف يتنفّس بصعوبة متسائلًا عن الدّافع وراء تصرّف دن بهذا الشّكل.

- أريدُ ثوبَها وزينتها وعطرها فقط. **راح يردّدها دن كالأطفال.**

- نعم يا ماما؟ **قالها ميمون ساخرًا مُتفهّمًا إياه.**

جثوتُ بجانبه وضممت رأسه لصدري مُجبرةً إيّاه على النّهوض.

- إن لم نغادر الآن بك كأنت، فلن تجد نفسَك مجدّدًا، ستتوه من جديد، هيا حبيبي، أرجوك، كن أنتَ، فأنا بجانبك ما حييت.

نهضنا ثمَّ قدَّمنا جوازاتنا الّتي جاء بها ميمون لنجلسَ منتظرين الطّائرة المغادرة إلى الوطن بعد أن سهّل بعض رجال المطار هذه المهمّة لنا باتّفاق مع ميمون... سادَ الصّمت مجدّدًا رغمَ أنّني رحت أحادث دن الموتور لحظتها بأشياءَ كثيرة بغيةَ أخذهِ للواقعِ لا الماضي.

(19)

مدينة البن

في تمام السّاعة السّادسةِ من مساء **27 أكتوبر** من عام **2086**م هبطَت بنا الطّائرة في مطار **«ماركا- عمّان»** «حيثُ ما زالت عمّان تختصرُ العواصمَ حين تنغمس العواصمُ في المدينة، وهنا حيث تجتمعُ البداوةُ بالحضارةِ والحماسةُ بالنّسيبِ؛ يوجدُ صدرٌ واحدٌ ما زال يحتضنُ الجميع».

أوّلُ ما قيل فور هبوطها جاء على لسان ميمون: «لا مستحيلَ مع ميمون العجّان»... قالها ضاحكًا بعد أن ابتسمَ في وجهِ سيف مُعقبًّا وقد انحنى أمامه: «أهلًا بك في أرضك أخي العزيز، لا أتمنّى أن ألتقي مرّةً أخرى بمجانينَ مثلكم... الأخ يريد ملابس نسائيّة، أيا عجبي !». **أشارَ لدن، ثمَّ عاودَ الضّحك وغادر.**

سحبني دن للذّهاب لكنّني ذهبتُ مودِّعة سيفًا الحائر المبتسم وقد جلسَ على الرّصيف الخارجيّ للمطار من التّعب.

- عليكَ التوجّه للمشفى لاستكمال علاجك، سأستدعي سيّارةِ إسعافٍ لنقلك.

- لا، لا أصدّق أنّني في الوطن، سأذهب لبيتي أوّلًا، أريد رؤيةَ والدتي. **قالها ثمَّ وقعَ للخلفِ مغشيًّا عليه مرتطمًا رأسه بالرّصيف بقوة، وكأنّما قدري أن أصاحبه حتّى موته.**

دخلَ في غيبوبةٍ لم أظن أنّه سيفيق بعدها... الأطبّاء هم الأطبّاءُ في كلّ مكان، فقد خمَّنوا بأنّه لن يحيا للغد، ظنُّوا أنّي ابنته فراحوا يتحدّثون لي عن حالتهِ الصّحيّة المتأخّرة وعن احتمالِ موته السّريع. لكنَّ هيئتنا بعد ذلك جعلت

منّا مثارَ شكٍّ سيما وقد تبيّنَ أنّنا لا نمتّ له بأيّ صفة، ناهيك عن الجرحِ الغائر في رأس سيف بسبب ارتطامهِ بالرّصيفِ والّذي دفعهم للاتّصالِ بالشّرطةِ الّتي استجوبتنا على انفرادٍ طارئ.

وجدنا أنفسَنا متّهمين بضربِ سيف والاعتداءِ عليه، لكن ولأنّني في وطني الآن، ولأنَّ شعور المغترب عنه لحظةَ يطأهُ يجنحُ فورًا للشّوقِ والأمان؛ فقد رحتُ أحدّثهم عن كلّ ما مرَّ بي مذ خرجت من سنبار حتّى وصولنا إلى الوطن مذ ساعات قليلة.

- في النّهايةِ لم أفهم، هذا سيف أم معروف أم أصلان؟ **سألني المحقّق.**

- هو سيف الّذي حاول انتحالَ شخصيّةِ ذاك الشّاعر.

- آنسة ريم... الشخصيّة الّتي تتحدّثين عنها ليست شخصيّة عاديّة.

- أعلم هذا.

- إذن هو شخصٌ انتحلَ شخصيّته في سنبار؟

- وتقمّصه بالكامل.

هذه هي الجملةُ هي الّتي بدأت واختتمتُ بها كلامي في التّحقيق، والّتي تلقّفها أحدُهم ليقذفها في أذن صحفيّ ما لنجد الإعلام المرئي والضّوئي الحداثي وعدساتهم قد حاصرت المشفى؛ لنقل خبرِ عودةِ الشّاعر أو منتحلِ صفتِه للوطن أخيرًا... خبرٌ أقنعَ المحقّقين بعد أن تطابقت أقوالي ودن حينها بأدقّ التفاصيل، خبرٌ جعلني أقفُ أمامَ عائلةٍ سمعتُ عنها ولم أرها إلّا نادرًا في

الشّاشات.... **{سحقًا لكلِّ شيء، نظراتهم السّعيدة ستتحوّل لحزنٍ شديد حين يكتشفون بأنّه آخر لا يعرفون عنه شيئًا}.**

توجَّبَ علينا الذّهاب لمركز الأمنِ لمتابعةِ الإجراءات لكنّ حنان أوقفتني مندفعةً نحوي رغمَ محاولةِ البوليس منعها من الحديث إلي.

- قولي لي أين كان؟ هل هو بخير؟ هل جاء مُستيقظًا كما قالوا لي ثمَّ دخل في غيبوبته هنا؟

أردت أن أقولَ لها بأنّه ليس زوجها لكنّني تردّدت.

- هل هو أصلان أم آخر انتحلَ شخصيته كما يقولون؟

حاول رجال الشّرطة منعها لكنّها دفعتهم باكيةً كنمرةٍ أكلت الضّباعُ أشبالها.

- قولي لي هل هو أصلان؟ أقسمتُ عليك أن تقولي الحقيقة.

أمسكتني من ذراعيَّ باكيةً صارخة، وراحت تهزّني رغم أنّ أبناءها وبناتها حاولوا منعها عنّي وسحبها للوراء.

- أرجوكِ، هل هو أصلان؟

- لا، هذا مريضٌ يحمل اسمين سيف ومعروف. زوجكِ مات في انفجار بنغازي... أعتذر لأنّني من نقلَ لك هذا الخبر لكنّها الحقيقة.

راح بعضهم يبكي والآخر يهلّلُ ويخفّف عنهم، بينما تابعتُ طريقي نحو المركزِ لأجدَ والدتي وجادًا بانتظاري في المركز، عانقتهما للمرّةِ الأولى سويّةً بشوقٍ احتلّني وبثثته في العناق، قبّلتهما للمرّةِ الأولى مذ تزوَّجا.

- اشتقتُ لكِ، اشتقت لوالدي.

قلتها للمرّة الأولى أيضًا باثّةً بها اعتذاري لجاد، هذا الشّخص الرّقيق الّذي لطالما عاملني كابنته رغمَ أنّني عاملته كعدوٍّ لدود.

أمّا ميمون فقد جلسَ مُبتسمًا وقد ضُبِطَ بعد ساعتين من وصولنا في أحد المقاعد تحتَ الحراسة الّتي لم تمنعهُ أن يصيحَ بي:

- أقسمُ أنّك نذيرُ شؤمٍ مذ ولادتك، العجّان مارسَ أعماله طوالَ حياته باحتراف فلم يقع إلّا بعد أن التقاك، سيف المجنون كاد أن يُخنق من حبيبك الأبله المخنث رغم أنّه نجا من انفجارٍ وسجن ومشفى سنباري، وها أنا الآن قد قبضَ عليَّ وبسهولة وبشكلٍ غريب لم أتوقعه مُتّهمًا بالتّهريبِ والمتاجرةِ بالبشرِ ومن الممكن اتّهامي بالتّعدي على سيف جرَّاء رؤيتك.

أردتُ أن أشتمه وقد استشطتُ غضبًا غيرَ أنَّ دن تولَّى هذه المهمّة قبل أن يحولَ رجال الأمن بينهما.

هي ليلةٌ أخرى تضاف لحياةٍ مليئةٍ بالتّعب قد يعقبُها أيامٌ تزيح عن كاهلنا آثارها. هي ليلةٌ أخرى ستعقبُها ليالٍ بارداتٌ حائراتٌ كثيرة، سيَما وقد أدخلتُ نفسي في متاهاتِ الرّجوعِ والهروبِ من جديد. في البعيد قد تمضي بنفسك لبعيدِها دون مشاعرَ ذنب مؤنِّبَةٍ، بينما عليك أن تقتربَ منها في قريبك لأنّك لا تحيا وحدك في الكون.

أعودُ كأخرى تاركةً للحمقِ مساحتَه المعهودة، مضيفةً الكثيرَ من التّساؤلاتِ، والاعتبارات، والتحوّلاتِ لشخصيّةٍ فقَدَت الكثيرَ منها، في الوقت الّذي أضيفَ لها الكثير دون أن تسعى لذلك. أيُّ إيمانٍ مطلق بما يجري فوق هذا

الكون يتملّكني لأصدِّقَ بعدَها أيَّ شيء محال؟ وأيُّ عمقٍ هذا الّذي يتداخلُ بعمقي كيلا أصدّق بعدها أيَّ شيء ممكن؟ صراعُ التّغيُّرِ أصعبُ من إرادة التّغيير ذاتها؛ وإن طالت مقاومتُها من الجوارح، فالرِّدَّةُ الطبعيّةُ وعودةُ الأشخاصِ لديدنهم السّابق؛ بعد تحوُّلِهم للأسوأ أو الأفضل ما هو إلّا نتاجُ صراعِ التّغيُّر... قلّةٌ من يثبتون على جديدهم، بينما يعودُ الكثيرون لماضيهم قناعةً منهم أن تحوّلهم الجديد لا يمثل حقيقتهم وكأنّما «كلٌّ خُلِقَ لما هو ميّسرٌ له».

العجّان نفسه لم يتقبل التغيُّرَ بعد إلقاءِ القبضِ عليهِ. لم يتب، لم يندم، لم يعتذر عمَّا اقترفته يداه، حتّى قيلَ إنّه في ليلةِ إعدامه بعد منحهِ الحقّ بالأمنية الأخيرة، طالبهم بزجاجةِ شيفاز ومكسّرات وسيجار كيني... حاولوا ثنيهُ عن طلبِهِ وقد ذكَّروه بأنّه مقبلٌ على الموت لا الحياة... نقَّلَ بصَره بين رجلِ الدّين والطّبيبِ مبتسمًا؛ فكلّمَا أراد الكلامَ ضحك وجرعَ القليل من خمرته وعاود الكرَّة، حتّى قال أخيرًا بعد محاولاتِ الكلامِ والسّكوت العديدة مشيرًا باليد الحاملةِ للزّجاجة:

- أنتما، أمَّا أحدُكما فطبيبٌ لن يحيي العظام وهي رميم، وأمَّا الآخرُ فلن يقرّر من سيدخلُ الجنّةَ والنّار. نحن متشابهون في عجزنا وحكمنا، لستم أرحمَ عليَّ من إلهٍ أنزلَ رحمةً على الأرض من أصلِ مئةٍ في السّماء.

- يا رضا اتقِ الله.

- شربتُها آلاف المرّات في حياتي، هل هذه فقط من ستُدخلني النّار؟ أقْسِمْ على أنّ هذه. **ورَفعَ الزّجاجة.** مَن ستدخلني النّار، وسأقذفُها للتوّ مقلعًا عن شربها للأبدِ، أقصدُ أبَدِي الّذي حان. **تضاحكَ مبديًا أسنانه الصفراء.**

- الأعمال بخواتيمها، فاذكره، واستغفر، واتلُ القليلَ من كتابه، ثمَّ قابله تائبًا.

- لو كان يُخدع بهذا لخدعته، لكنّه تقدّست أسماؤه يا أغبياء لا يُخدع مثلكم. يعلمُ بأنّني لستُ نادمًا على أيِّ شيء، أنا لا أشعرُ بالنّدم، ولو عادَ بي الزّمن لعدتُ لِما كنتُ عليه... اصمتوا فقط وخلُّوا بيني وبينه، وجزاكم الله خيرًا على نصائحكم الدّافئةِ هذه. **قال الجملةَ الأخيرةَ موقنًا بها.**

- غريبٌ هذا الرّجل.... لقد غلبَ عليه الشّقاء. **همسَ بها رجلُ الدّين للطّبيب بصوتٍ لا يكاد يسمع.**

- سمعتُك، لقد قلت غلب عليه ولم تقل غلب عليهِ في ظنّي الشّقاء. انظر كيف رحت تمارسُ دورًا لا يحقّ لك ممارسته. لستَ نبيًّا يا أحمق كي تتفوّه بهذا الاعتقاد... أُذنُ رضا تستمعُ لدبيبِ النّملِ الّذي لن يفرّق بين أجسادنا عند التهامنا كجيَفٍ منتفخة، بل أجزم أنَّ مذاق جسدي ألذُّ من مذاقِ جسديكما سيما وقد شوهتهُ الأعينُ والظّنون والأحكام المُسبقة، لستُ غريبًا، الغريب أن تطالبني بأن أكونكَ في اللّحظة الأخيرة رغمَ أنّك ستحتقرني في داخلِك مهما حييت.

شربَ حتّى ثمّلَ بالكامل منتشيًا وقد راح يغنّي الأطلال بصوته الخشن هازًّا رأسَه وأكتافَهُ متمايلًا على إيقاعه الصّوتيّ تحت دهشتهم، ثمَّ تقدّم نحو نهايتهِ بأقدامٍ ثابتةٍ إلّا ما أثّرت على استقامتها زجاجةُ الخمر لا الخوف قائلًا لمن حضره:

- كم عظيمٍ لُفَّ هذا الحبلُ حول رقبته! وكم جبانٍ نجا منه! سأموتُ ذئبًا بعد غزواتٍ وفتوحاتٍ قمتُ بها، سيذكُرني التّاريخ كأمكرِ من أنجبتهم الجريمةُ على الإطلاق.

سعلَ كثيرًا ثمَّ أردف: رضا لم يقتل، رضا لم يرتكب إلّا الكبائر، ولطالما تصدَّق على مَن يستحقّ، على كلّ مَن يراهم، النّاس لا يستحقّون الصّدقة، سيذكرني التّاريخ كآخر المجرمين المُنصفين، وها أنا أموتُ بطلًا واقفًا، فما ماتَ شريفٌ في فراشهِ قطّ.... أعطني نظّارتك. **صاحَ بالطبيب.**

- نظّارتي؟!

- بصري ضعيف، أريدُ أن أرى الملائكة جيّدًا حين يحضرون لقبضِ روحي، أعطني إيَّاها، هيّا. **أمسك بها بيمينه دون أن يضعَها على عينيه.**

ضحكَ حينها أحدُ رجالُ الأمن فأضحكَ الحاضرين قبل أن يقول: «هذا **حطيئة** العصر على شكلِ مغتصبٍ لا شاعر».. وإن كان الحطيئة قد مات على بغلته معلّلا أنّ الكريمَ لا يموتُ على فراشه؛ فالعجّان مات فجرًا وقد أعدِم مخمورًا مطروبًا غيرَ نادمٍ على شيء، أمَّا آخر ما قالَه فقد نُقِلَ على لسانِ رجلِ الدّين الّذي حاكَ من نهايتهِ حكايةً وموعظةً راح يستدّلُ بها على سوء الخاتمة، فما إن يذكر قصَّته باكيًا حتّى يُعرِّجَ كيفَ راح يتبجّح بأعدادِ ضحاياه، وكميّة الأموال الّتي حصلَ عليها وأنفقها بكرمِ **«ابن جدعان»**.

قبلَ أن يلتف الحبل حول رقبته قال لهم: «أعرفُ رجلًا عربيًّا قاومَ جدُّه **«النقّاد»** الإنجليزَ في بدايةِ الألفيّةِ التّاسعة وخاضَ غاراتٍ على معسكراتهم في كلّ مكان. تفاوضوا للقائه وإبرامِ هدنةٍ معه، فلمّا قبِلَ بعد طولِ عناءٍ وقفَت كتيبةٌ بانتظارهِ أمام بيت الوسيط، فما إن ترجَّلَ عن فرسه حتّى أدَّى

المارشال له التّحيّةَ العسكريّةَ رغم عداوته احترامًا لشجاعتهِ ووطنيّته. حفيدهُ هذا استبدلَ اسمَ عائلتِه بعائلةٍ أخرى غيرَ آبهٍ بموقفِ ووطنيّةِ واسمِ جدِّه.

سرقَ ابني الاسم لكنّه لم يسرق التّاريخ، وتجاهلَ الحفيدُ التّاريخَ والاسم لكنّه ظلَّ حفيده، فلا هذا استطاعَ الفخرَ زورًا، ولا لِحقَ العارُ بذاك، ولا زلتُ لا أدري حتّى هذه اللّحظة كيف يتخلّى الرّجلُ عن تاريخٍ يسعى له غيره باذلًا روحَه من أجل ذلك!؟

أعدِم بعدَها كيلا يُصدّقَ أحدٌ بعدَ الخلافِ الّذي شجرَ بين طائفتين في جواز وحرمةِ الصّلاة عليه أنَّ الجنازة اكتظت بمئاتِ الباكينِ عليه، فقد تبعه الكثير من المتسوّلينَ، واللّصوص، والمومسات، وأبناء السّفاحِ الّذين أكّدوا بأنّهُ من ساهمَ ماليًّا في معيشتهم، وتحصيلهم الدّراسي مترحّمين عليه آسفين لموته.

أمَّا أنا فلم أصدّق كيفية اختفاء دن في متاهاتِ الهروب بعد ذلك؛ وقد طالبني بعد أن قصصتُ عليهِ قصةَ العجّان دون إخباره بأنّه قد يكون من ذويهِ؛ أن يزورَ قبره، ممارسًا طقوسَه البوذيّة أمامَ شاهدٍ كتب عليه: «هنا يسكنُ أشقى أهلِ الأرض». فقد رأى نفسهُ شقيًا ككلِّ الأبرياء والمظلومين. لطالما تساءلت إن كان يرى نفسَه ضحيّةً حقًّا ومظلومًا أم هي كلماتٌ هو قائلها؟ ثمَّ كيفَ لمن ذاقَ مرَّ ضحيّةٍ ما أن يتعاطفَ مع مَن جرَّع المرارات للكثيرين في حياتهِ الإجراميّة؟

عامٌ مرَّ على اختفائهِ وكأنَّ الأرضَ ابتلعته هو الآخر، لا أعلمُ إن تاهَ بشخصيّةِ زوجته، أم بشخصيّتهِ الّتي أحببتها! كلّ ما أعرفه أنّه استأذنني للذّهابِ إلى دورةِ المياهِ في مقهىً ما، ولم يعد من حينِها.

أخبرني قبل رحيله بأنّه مَن استبدل الحقنة السّامة في يد سيلا لحقنةِ مضاد حيوي سريعًا ودون أن تنتبه، فقد حقنته بعد تأكّدها بأنّه ليس أصلان الّذي كانت تسعى لنقلهِ كانتصار لها إلى رؤسائها. بعد ذلك وضع لها دن السمَّ في شرابها فماتت في شقتها دون أن يعلم أحدٌ عنها، ودون أن تشيرَ الجريمة لأحد، لقد قتلها بسمّها انتقامًا للمرضى الّذين قتلتهم، ولم تستطع نفسه المتسامحة مسامحتها، ولأنّنا لم نكن نعرف شيئًا خارج أسوار سجن المشفى فلم نعرف بينما عرفَ هو وصمت.

خطّط للهروب بعد تيقّنه أن قاتل زوجته ليس المريض الّذي لاحقه للجزيرة، ففعل الكثير والكثير حتّى أقنع مدير المشفى بالهروب بمبلغ ضخم فوافق على هذا ناهيك أنّه أرادَ التّخلص من السّاحر الّذي يسمل العيون إن غضب بينما لم يدرِ أنَّ سيلا من فعلت ذلك لأن السّنباري حين لا يتّفق مع الصّهيوني يقتلُه، بينما يكتفي الصّهيونيّ حين لا يتّفقُ مع السّنباري بفقء عينيه.

الرّشوة حلٌّ للكثير من الأمور سيما في زمن الحرب، واختلال الموازين والرّوح الوطنيّة الحقيقيّة... وفور تلقّيها بحث المدير في الخارج عن مهرب فلم يجد أبرع من ميمون الّذي يمتهن هذا، فجاء به وكأنّه أحد أفراد الأمن السّنباري لإيهام الجميع بخطّة الهرب السّهلة الّتي أعدّها من البداية ميمون. أمَّا إتقان ميمون للّغة السّنبارية فهذا بسببِ عمله في التّهريب وحياتهِ على الجزيرة لمدٍ متفاوتة؛ ليتفاجأ أنَّ المريض الّذي سيهرّبه لم يكن سوى سيف لكن وكما هو متوقع من مثله فقد تفوق حبَّه للمال على رابط الدّم بالنّهاية. وبالنهاية الّتي تخصني فقد خلت أيّامي من كلّ أولئك الّذين تعايشتُ معهم في الحقبةِ الأخيرة تدريجيّا، فرَّ مَن فر، وتاهَ من تاه، وماتَ من مات، ولا زلتُ بين منتصفيْ نفسي.

وها أنا الآن أجدني وقد جلستُ وحيدةً في مقهى الهروب الأخير لعلَّ دن يأتي، مُدركةً أنّ الغيابَ التهمهُ بالكامل... لن يأتي، الهاربون بلا سببٍ واضحٍ لا يعودون إلى مقاعدهم. قلتها بصوتٍ مسموعٍ كتنهيدة.

- سأجلسُ مكانهم إذن طالما لن يعودوا. **قالتها حنان بعد أن وجدتها جالسةً أمامي وسط غيبوبتي التذكّرية وقد نسيت أننّا تواعدنا أن نلتقي هنا.**

- مرَّ وقتٌ طويل. **قلتها مبتسمة سعيدة برؤيتها.**

- كلّ أوقاتنا طويلة.

- قهوة حلوة من فضلك. **تحدثت للنّادل.** وأنتِ؟ **مشيرةً لحنان.**

- قهوة حلوة و«بوجه». لكن أرجو أن تضعَ أكبرَ قدرٍ من السّكر عليها.

- ثمَّ قم بتحريكها، ثمَّ ضع ملعقتين من السّكر، ثمَّ قبل أن تسكبها في الفنجان. **قاطعتُها بهذه الجزء.**

- ضع ملعقتين من السّكر، ثمَّ ضع ملعقتينِ أُخريين في الفنجان واسكب القهوةَ عليهما.

- ولا يضيرها لو وضعت بجانب الفنجان القليل من السّكر. **قلتها وضحكنا سويّةً.**

غادر النّادلُ مذهولًا من مجنونتين ضحكتا بعد هذه الجُمل المحفوظةِ عن ظهرِ قلب والّتي قيلت بجدّيةٍ سريعة.

- قرأتُ كلّ شيء، أشكرك على مساعدته. **قالتها بنبرةٍ دافئة.**

- لا أستحق شكرك، فعلتُ ما فعلت مِن أجل المال.

- لو فعلتِ ذلك من أجلِ المالِ لما أتلفتِ ما أملاه عليك من غرائب واعترافات تسيء له وتشوّه صورته فور وصولك الوطن؛ واستعضت عن ذلك بكتابةِ روايةٍ لا تتناول مذكّراته وحياته الخاصّة بشكل رئيس.

لم أجد ما أقوله فساد الصّمت قبل أن يقدِّم لنا النّادل القهوة.

- لم يكن من عشَّاقِها. **قالت ذلك لكسر الصّمت قاصدة القهوة.**

- هذا صحيح.

- هل ستحدّثينني عنه؟

- يبدو أنّني بحاجةٍ للحديث عنه، ويبدو أن روايتك بحاجةٍ لهذا الحديث الأخير كي تكتمل. من حقكِ أن تكتمل. **أخَذَت حنان نفسًا عميقًا ثمَّ تابعت.** امتلَكَ أساريرَ وجهٍ لطالمَا أشرقت عندَ إحساسهِ بالخجل محاولًا إثبات العكس. **راحت مستذكرةً الماضي بوجهٍ رقيق حزين.** امتلكَ صوتًا هادئًا خشنًا في أعتى لحظات الغضب، امتلك نبرةً جهوريّة صادقة عند قولهِ الشّعر، امتلك عينينِ ناعستين بلمعةِ الرّغبةِ كانتا السّر دومًا بانجذابي نحوه. **تبسّمت وشعَرَت بالخجل.**

- ذكر لي يومًا أنّك بعد لقائكما الأوّل تنصّلت من معرفته وتجاهلتِ وجودَه كأن لم تلتقِ به من قبل... لعلَّ هذا التّمنع ما شدّه إليك.

- لم يكن تمنّعًا ولا تجاهلًا. **ضحكَت حين تفوّهَت بهذا.** حين لم يصرّح بحبّهِ فعلت. كان عليهِ أن يعترف ويشهرُ ذلك أمامي بوضوح.

- واستسلمَ بالطّبع. **قلتُ هذا مدركةً أنّها قالت ما قالته ممازحةً مخفيةً شيئًا ما.**

- كانت المرّة الأولى الّتي أراه فيها أو أسمع به في مسرح الجامعة حيث راح يلقي قصائدَه على المنبر؛ ضمن نشاطٍ ثقافيّ عرفتُ فيما بعد أنّه دُبّر بالاتّفاقِ مع العميد الّذي أصرّ على حضور جميع الهيئات التدريسيّة ليضمن متآمرًا معه وجودي في المسرح.

- كانَ هذا اللّقاء الثّاني وفقًا لما أملاه عليّ. **قلتُ هذا مستدركةً على كلامها.**

- كلّا، كان هذا هو اللّقاءُ الأوّل الّذي اعتقدَ أصلان بعد تدبيره له ليلتقي بي بأنّه الثّاني... اللّقاء الأوّل لم أكن متواجدةً فيه. **عاودَت الضّحك.**

- لم أفهم.

- ولا هو حينها فهم... ولا أنا حقيقةً. كلانا وقعَ في لبس غريب أدّى إلى الإبحار في كلّ ما هو أغرب بعدها.

- أحاولُ أن أفهم لكنّني أزدادُ حيرة. **ابتسمتُ ببلاهة.** تقصدين أنَّ ما أملاه عليّ كان غيرَ دقيقٍ بسببِ حالته؟

- كلّا، كلّا، لكنّه اعتقد أنّه يعرفني أو أنّه قابلني فكانت وسيلته للتعرّف إلي وشدّ انتباهي أن يفرضَ نفسَه عليّ بعد أصبوحته الشّعرية في الجامعة؛ معتقدًا أن شعرَه سيكون الفخّ للإيقاع بي.

- وهل كان غير ذلك؟

- لم أحبّ الشّعر يومًا. لكنّني لا أنكر أنّه شدّني حينها بصوته وطريقته متيقّنةً دون إيجادِ دليلٍ على هذا أنّه كان يقرأ لي فقط ويقصدني بجميع ما يقوله، سيما بعد أن بدا واضحًا أنّه متّجه بكامل جوارحه ونظراته وإحساسه نحوي

«كما تتّجه زهرة دوّار الشّمس نحو الشّمس». للحظةٍ شعرتُ ألّا أحد في المسرح غيري وغيره، وأنّه بعد قليل سيهبطُ ممسكًا بيدي كي يدعوني لرقصةٍ لن أستطيع مقاومتها. تعجّبت من هذا الشّعور الّذي فرض إيقاعه على عقلي فانسحبتُ من المسرح مغادرةً، وقد راحت تتناهى إلى مسامعي جملٌ متلعثمة ومتردّدة لم تكن تصدرُ من فمه أثناء جلوسي أمامه.

- كان هروبًا؟

- ربّما... لكنّ ذلك لم ينجح إذ وجدته اقتحمَ سيّارتي جالسًا في المقعد المجاور ملتقطًا مفاتيحها بعد أن صُدمتُ من وقاحته محاولةً طردَه وسطَ حيرتي مما قامَ به. هدّدته بأن سأصرخ وسأستدعي الأمن لتهجّمه علي.

- تهجّمي؟! **قالها أصلان وقد جحظت عيناه.**

- وهل هناكَ مسمّى آخر لما تقوم به؟ **صرختُ به وأردتُ النّزول من السيّارة غير أنّه أمسكني من يدي دون إرادةٍ منه مرتسمةً على وجههِ ملامح الانكسار والصّدمة قبل أن يتركها متفاجئًا من ردّة فعله أو فعلي.**

- هذا عقابٌ لي على شيءٍ لم أفعله. لومي عطرك لا أنا لأنّه كان السّببِ بطمس رقمك من على راحتي.

- رقمي؟ **وشكّكني بنفسي قليلا قبل أن أضربه على صدره بقبضتي صارخةً به أن ينزل.**

- غادر سيّارتي. **قلتها بحدّة.** أعطني المفاتيح وغادر. **محاولةً خطفَ المفاتيح من يديه.**

- لماذا هربتِ؟

- هربت؟ من تظنّ نفسك أنت؟ أنا لا أعرفك.

- بل تعرفينني. **قال هذا متيقّنًا ممّا يقول فشعرتُ بالخوف منه.**

- أنت رجلٌ مجنون... هيا غادر قبل أن...

- استمعي لحديثي ثمَّ خذي قلبي لا مفاتيح خردتكِ هذه. **قاطَعني بحزم.**

- لا أريد أن أستمع.

- الزّوجة الصّالحة لا تتصرّف مع زوجها بهذه الطّريقة. **قالها بثقة.**

- زوجها؟! **ابتسمتُ رغمًا عنّي جرّاء جنونه وثقته وقد شعرتُ بالطمأنينة قليلًا بعد أن خطر لي سبب اللّبس الّذي حدث معه فجأةً مدركةً أنّه لم يكن متطفّلا بقدر ما كان مخطئًا.**

- نعم، أنت ستصبحين زوجتي.

- آه، لقد قررتَ إذن!!

- أنتظر توقيعك على القرار فقط.

- هات المفاتيح. **وحاولتُ خطفَ المفاتيح من يديه مرّة أخرى.**

- وافقي أوّلًا.

- على ماذا؟

- على الزّواج بي، أمّي تنتظر موافقتك، أم أنّك تريدين أن تبدأ المشاكل بينك وبين حماتك مبكّرًا؟

- حماتي؟

- ألا تعلمين أن والدةَ الزّوج تسمى حماة؟!

-أنت مجنون.

- بكِ.

- أنتَ. **وتعثّرت خطواتُ الحروف على لساني.** أنتَ غريب.

- مذ دخلتِ قلبي.

لا أعلم لماذا أجهشتُ بالبكاء حينها، وما هو السّبب الحقيقيّ وراء تلك الدّمعات؟ لكنَّ الأمر الوحيد الّذي كنتُ على يقين منه أن هذا الشّاب دخل من البوابة العريضة لقلبي، مقفلًا خلفه الباب بأقفال محكمة... سمحتُ له أن يجلسَ بجانبي في السيّارة ويحدثني عن حياتنا المستقبليّة وعن البيت والأولاد وعن طبع حماتي الحاد وطيبتها في آنٍ واحد، وكيفيّة التّعامل معها، دون الاكتراث بالنّظرات الفضوليّة الّتي راحت تسلقنا بنارها عجبًا من هذا الشّاعر الّذي قطع أصبوحته الشّعريّة ولحق بفتاةٍ غادرت المسرح محتلًّا سيارتها غير آبهٍ بشيء.

- لم يقل لي شيئًا عن هذا أبدًا... **متعجِّبةً من حديثها.** أظنّه أخبرني بقصّةٍ أخرى عن لقائكما الأوّل.

بعد صمتٍ وتردّد ليس بالقصير؛ وبعد تنهيدةٍ غريبة خجلة قالت بصوتها الرقيق:

- أصلان قابل أختي التوأم لا أنا بدايةً.

- أختك؟

- نعم، لقد شاهدها وتحدّث إليها مطوّلًا في أمسية شعريّة غير أنّه أضاع وسيلةَ الاتّصال بها، فراح يتتبّعَ أخبارها الّتي قادته عبر الصّدفة لي لا لها معتقدًا أنّني ضالّته.

- كنتِ على درايةٍ بهذا اللّبس؟

- تيقّنتُ منه بعد لقائنا الثّاني واحتفظتُ به حتّى اللّحظة.

- لم يخبرني أن لك توأمًا يشبهك.

- لأنّه لا يعلم... ولا يعلم أيضًا أنّني وأختي لم نكن إلّا أبناء الجنائنيّ في ذاك القصر الّذي جاء إليه خاطبًا.

- كيف هذا؟ **قلتها منصعقةً ممّا أسمع.**

- هو ذاته لم يصدق بدايةً بأنّني ابنةُ أحد الأثرياء، لكنّه اقتنع بعد ذلك؛ وراح يكذبُ مدَّعيًا ما لا يملك، علمتُ هذا منذ اللّقاء الثّاني بيننا، لم أُظهِر له بأنّني لا أصدّقه... انخدعتُ له مظهرةً أنّني أصدّق كلّ ما يقوله. جاء بعدها لخطبتي من سيّد القصر. ذاك السيّد الّذي اشترانا من والدي الجشع فورَ موتِ والدتي لحظة ولادتنا وألحقنا بنسبهِ على الفور؛ حتّى إذا حملت زوجته بأولادٍ من صلبهِ جعلنا خدمًا لهم لا أكثر؛ منتظرًا أن يتخلّص منّا بالزّواج بعدما استحالَ إسقاطنا من تبعيّته النّسبيّة عبر شهادات الميلاد خشيةَ اكتشافِه وتعرّضه للمساءلة القانونيّة، أو خسارته سمعته بين رجال الأعمال والسّياسة.

حملنا اسمه لا دماءه، ورضيتُ وأختي أن نكونَ خدمًا له ولعائلته بعدها؛ مُذكّرًا إيّانا وعائلته أنّنا لقطاء من شكلٍ آخر وظيفتهم الخدمة وتقبّل

الإهانات حتّى موتهم. كرهتهم جميعًا وتمنّيت لو باستطاعتي الانتقام منهم؛ لكنّني كنت أضعف من أن أحقّق حلمي.

أمّا أصلان فقد ظل ناسجًا جملةً من الأكاذيبِ الّتي حفظَها عن ظهرِ قلبٍ لكثرةِ ما ردّدها على مسامعي. جاء والرّفضُ صوبَ عينيه فراحَ يتحدّث بثقة، لا ثقة الواثق، بل ثقة المرفوض، ولم يك يعلم أنّها مسرحية شاركَ فيها السيّد بعد رجاء وتذلّلٍ للخلاصِ من إحدى التوأمين.

لجأتُ قبل زواجنا لصديقٍ قديم وهو سمير كي يساعدني بايجادِ وظيفةٍ له بدخلٍ جيد كي لا يُكشفَ أمره أمامي فيشعر بالحرج. مدركةً أنّ أكاذيبه ستساعدني على عدم اكتشافه أكذابيي. أمّا طقم الماسِ المقلّد فقد أتلفتهُ فور إعطائي إيّاه محضرةً من مالي طقمًا حقيقيًا منتظرةً لعشرينَ عامًا على الأقل؛ أن يأتي بطقمٍ آخرٍ حقيقيّ مُستبدلًا إيّاه بين الحين والآخر، ظنًّا منه أنّي لا أعرفُ حقيقة الأمر، بيد أنَّ الحقيقة الّتي لم يكن يعلُمها هي أنّ الطّقمين كانا حقيقيّين ولا وجودَ لمقلَّدٍ بينهما.

- ومشاجرة الزّفاف؟

- كنَّا الاثنين بحاجة لها سيما أنّها تنهي فصل مسرحية العائلة من حياتنا والّتي لا يريد أحدنا الرّجوع إليها. بالطّبع حساباتنا مختلفة لكنَّ هدفنا كان واحدًا.
ضحِكَت مرتشفةً بعد ذلك قهوتها.

- ألم يقابل توأمك؟

- لو قابلها لعرف كلّ شيء؛ لكنَّ القدر لم يشأ هذا ببساطة، كنت أنتظر أن يعرف حقيقتي وأحدّثه عن عائلتي الحقيقيّة وعن أختي، لكنَّ هذا لم يحدث رغم أن توأمي عاشت في الوطن وتزوّجت وأنجبَت فيه؛ ولم تغادره يومًا.

- غريب حقًّا؛ هل أحببتهِ كمَّا أحبّك؟

- أحببتهُ بالقدر الّذي جعلَني أغفرُ كلّ شيءٍ حتّى خيانتَه لي. علمتُ عن علاقتهِ بالممرّضةِ الّتي أوجَعتهُ بعد ذلك بالزّواج من صديقه... في العزاءِ احتَضَنَتهُ فدفعَها عنه غاضبًا، فتأكَّدتُ من تلك الوشوشاتِ الواشيةِ به عندي تمامًا. **{شيءٌ ما بملامحِ ريم يحيُّرني، لا أعرفُ ما هو!}.** غيرَ أنّه دخلَ بحالةٍ غريبة فنأى عن النّاس جميعهم، دخل بوحدانيّةٍ، وعزلةٍ إثرَ ليلةٍ عاد في صباحها كرجلٍ آخر... هجرَ كتاباتهِ، ودعواتِهِ، وامتهنَ الجلوسَ غارقًا في أفكارٍ لا يعلمُها سواهُ في حديقةِ المنزلِ، أو غرفتهِ الخاصّة، رفضَ أن يقابلَ أصدقاءه أو عائلته. **{نظراتها غريبة، نظراتُ ريم غريبة بعض الشّيء}.** حتّى إنَّه رفضَ يومًا استقبالَ والدته قائلًا لي: «لا تستحقّ هذه المرأةُ العظيمة أن يكونَ سافلٌ مثلي ابنًا لها».

تفاقَمت حالتُه حتّى انتقل للفراشِ ليكونَ طريحَه لشهورٍ عديدة، وبعد محاولاتٍ وضغوطٍ من أصدقائهِ قَبِلَ المشاركة بأمسيةٍ في ميونخ بعد انقطاعه لسنوات طويلة عن الإعلام والمشاركات، غيرَ أنّه التقى هناكَ بشخصٍ مجهولٍ في كواليس المسرحِ؛ فبدلَ أن يلقي قصائدَه على الجمهور، قامَ الآخرُ بدورِه وسط دهشةِ الحضور حينها... خرجَ بعدها مسرعًا باحثًا عن شيءٍ ما، غابَ شهرًا قبل أن يعودَ للفندقِ جالسًا في قاعةِ الانتظار، في تلكَ الأثناء دخل بالوهمِ تمامًا متخيّلًا أنّ ذاك الشّخص الّذي رافقه هو صاحبه سمير الميت، وقد أخبرني بعد عودته بأنّه بحثَ عنه كثيرًا فلمَّا وجده فجأةً في الفندقِ وجدَه وقد ظنَّ نفسهَ رجلًا آخرَ، أي إنَّ سميرًا الميت عادَ مختلفًا عمَّا يعرفه، وهذا لأنّه أراد لهذا الرّجل أن يكون سميرًا عبر أوهامهِ الداخليّة.

لم يتقبّل أن يموتَ صديقُه مسمومًا سيما وقد عرف قاتلَه وصمت عنه، لذا فقد عامل الرّجل المجهول كسمير، حدّثه كسمير، وصادقه كسمير، ثمَّ لم يعد يقتنع على ما يبدو وتحت تأثير شعوره بالذّنب إلّا بشيءٍ أعمق من هذا وهو أن يتقمّص شخصيةَ رجلٍ سواه، فلم يجد أفضل من المجهول ليتقمّصَ شخصيته، فتحوّلَ هذا المجهول الّذي كان سميرًا بنظره إليهِ شخصيًّا.

الرّجل الآخرُ أو المجهول الّذي يُدعى سيف العجّان أو معروف النّقّاد عاشَ معه هنا، في الوطنِ، لفترةٍ وجيزة، فراح يتحدّثُ في بعضِ الأحيان عن قصصٍ لم تحدث معه يومًا، وعن أشخاصٍ لا وجودَ لهم في حياته، لكنّنا لم نكن نعرف حقيقةً سرَّ تحولّه هذا.

تصرّفاته، حديثه، طباعه آلَت للتغيرِ تدريجيّا دون مبرّرٍ منطقيٍّ لهذا، ثمَّ تعافى من هذه الحالةِ ليسافرَ إلى الهند بعد دعوتهِ إليها وقد لحقه الشّخص المجهول هذا دون أن نعرف.

التقيا مع صديقةٍ له وهي مَن حدثتني بهذه الأحداث بعد أن جلسا معها قبلَ أن يستأذنهما خارجًا من المقهى باحثًا عن شيءٍ ما، لعلَّه بحثَ عن نفسهِ: «قبل أن يغادر وقفَ شخصٌ خلفَه على مسافةٍ قريبة؛ ناظرًا باتّجاهه وقد أولاه ظهرَه، قبل أن يلاحقَ هذا الشّخصُ لصًا خطفَ حقيبةَ إحداهن هاربًا بسرعة». لم يعد للمقهى ثمَّ قابل سيفًا لائمًا إيَّاه على غيابه غير المبرّر، قبل أن يتّصل بالشّاعرة صديقتهِ الّتي تحدّث إليها كأنّه لم يلتقِ بها منذ زمن، رغم أنّه كان قد تركها للتّو... سبب هذا فقدان الإحساس بالزّمن أو الوقتِ تمامًا لأنّه رفض الواقع وأراد دومًا الرّجوع للماضي، أو الحياة بشخصيّة أخرى غير

شخصيّته. فعلِمت حين قالت لي هذا بأنّه عاد لتلك الحالةِ الّتي شُفي منها قريبًا أو الّتي ظننا أنّه شفيَ منها مخطئين.

عادَ بعد أيّامٍ من وصولهِ من الهندِ لحياتهِ الطبيعيّةِ حاملًا حزنًا ما لم أستطع الوصول لحقيقته؛ رغم محاولاتي الحاثَّةِ له على الحديثِ والإدلاءِ بما يحملهُ، أخفى شيئًا موجعًا عن الجميعِ بيدَ أنّه تصرَّف بطبيعته لأعوام أنستنا تلك الحالة الّتي مرَّ بها.

ثمَّ سافر إلى بنغازي واختفى... ثلاث سنوات وهو في عدادِ الأموات، حتّى جاءني ذاك الاتّصال من رجال الشّرطة قبل الإعلام الّذي تلقَّف هذا الخبر. **{تفاعلُ ريم مع حديثي تفاعلٌ يوجسُني، شيءٌ ما فيها ينبئني بمخاوفَ ومتاهات لا أعلمها}.** لكنّني ما إن رأيتكِ وتوجهت لغرفته في مشفى الوطن حتّى رحتُ متفحِصةً جسده وملامحه الضائعة احترتُ فعلًا إن كان هو أو آخر، لقد انتظرتُ حتّى أفاقَ من غيبوبته. نظرَ إلي، ابتسم وعانقني، لم أستطع الممانعة رغمَ أنّني لم أتأكد من هويّته.

- خفتُ أن أموتَ دونَ أن أراكِ... **قالها أصلان لي بعذوبةٍ بالغة.**

- هل أنتَ أصلان؟ **أمسكتُ وجهه متأملةً هيئته الجديدة.**

- أنا هو، لقد شوّهتني الحرب.

- قل لي شيئًا لا يعرفه سوانا.

- لا أتذكّر. **قالها بعد صمتٍ طويل.**

- أرجوك، قل شيئًا لأعرف أنّك لست سواك.

- أنا أصلان يا حنان وأنت زوجتي وحبيبتي.

- قل شيئًا، أرجوك. **قلتها باكية بحرقة.**

صمت طويلًا، ثمَّ قال: من الجميل وقوف هذه السّاعةِ عن الدّوران أيضًا. لعلَّ ريم من أوقفتها كيلا أرى دورانها القاتل حينما أستيقظ، يبدو أنّها تمنَّت ألَّا أموت هنا أيضًا وتوقّعت لي استرداد أنفاسي المتعبة. **وراح يشير نحو ساعةِ الحائط المتوقّفة.**

- أصلان، إن كنتَ أصلان حقًا فقل لي أين التقينا وما حدثَ حينها بالتّفصيل، لقد فتّشت في جسدك فلم أرَ أثرًا لرصاصةِ كتفك ولا آثارًا لعملية الزّائدة في خاصرتك، أرجوك أن تتحدّث.

- لا أتذكر، عقلي متعبٌ من كلّ شيء. **قالها بعد محاولاتٍ جاهدة.**

لم أصدِّقه يا ريم. **{قلتها رغم الهواجسِ الّتي راحت تحاصرني كلّما ذكرتُ اسمها وحدَّقتُ في عينيها لكنّني تابعت حديثي}.** ظننتهُ رجلًا آخرَ، طلبَ منّي حينها أن أستدعيكِ فلم أفعل، طلبَ أن نجري له الفحوصات الّتي تؤكد هويّته.

- وجميعها أكَّدت بأنّه آخر. **قلتُ هذا رافعةً كتفي إقرارا منّي بالعجب مما حدث رغم أن نظرات حنان لي بدأت تأخذُ شكلًا غريبا.**

- نعم، جميعها صبَّت بأنّ هذا الرّجل ليس أصلان فغادرنا المشفى تاركينَ إيَّاه على سريرهِ بينما راحَ غاضبًا ضاحكًا ناعتًا إيَّانا بالأغبياء. صاح بنا إذ رحلنا: «أنا محاط بالأغبياء، طوال سنوات عمري وأنا لا أعرف ولم ألتقِ ولم أنجب ولم أصادق إلّا الأغبياء».

لقد صدَّقتُ الفحوصات وكذَّبته، صدَّقتُ العلمَ المتطوّر، صدقت التّحاليل والتّشخيصات الحديثة وكذَّبته، صدَّقتُ ما قاله الأطباء بأنّه آخر وكذّبت من كانَ عليّ تصديقه. **قالتها دامعةً حزينة ثمَّ بعد أن استسلمت للدّموع الحارقات قبل أن تتمالك أعصابها مجددًا.** حتّى أصرَّت والدتُه وقد ناهزت المئة وعشرة أعوام على زيارة هذا الآخر... جَلسَت أوّلًا بجانبهِ لاهثةً مهللةً محوقلة لترتاحَ من عناء الوصول مشيًا لغرفته، جلست بعد أن أراحت جسدها الثّقيل من عناء المسير المنهك، كان نائمًا حينها مُستغرقًا في مُخدِّراتِ الأدوية والعقاقيرِ المعالجة، وقفت بصعوبةٍ بعدها رافضةً أن ترتدي نظّارتها رغمَ ضعفِ بصرِها متحسسةً ملامحَ وجهه.

استيقظَ حينما بكت صائحةً: إنَّه ابني.

- يا جدّتي هذا ليس ابنك. **قالها جودت حزينًا.**

- هو ابني، هذا صغيري.

نظرَ إليها مُقبّلًا يديها قائلًا: لا زلتِ جميلةً أيتها الحسناء.

نظرَ نحو السّاعة الّتي راحت تتحرّك برشاقةٍ يصاحبها إيقاعُ نبضهما كجوقةٍ متناسقة العزف دون أن يعرفَ النّاظرُ والسّامعُ من منهما المايسترو لها ... حاولنَا إبعادَها عنه، وإقناعَها بأنّه ليس هو، غيرَ أنّهما غضبَا منَّا ناعتينِ إيّانا بالحمقى... طلبَ إليها الطّبيبُ أن يتحدّث إليها بعيدًا عنه بيد أنّها رفضت.

- قل ما تشاء أمامه.

- الفحوصات لا تقول بقولك، جميعها تدلّ على أنّه رجلٌ آخر.

- لن أكذِّبَ قلبي وأصدِّقَ فحوصاتكم الغبيّة.

احتضنَها، احتضنَ قلبَها، ثمَّ بعد ذلك بدقائقَ مات بهدوء... عانقها بعد أن وشوشها بقصيدةٍ قديمة ومات.

- ثمَّ جاءَ طبيبٌ شاب وأعادَ الفحوصات على جثّتهِ مجددًا. **قلتُها وسطَ نظراتِ اتهامٍ وانعدامِ راحةٍ راحت توجهها إليّ عينا حنان دون أن أعرفَ سببها.**

- نعم، ثمَّ جاء طبيبٌ مجتهد ليشرِّحَ جثته مُكتشفًا بعد أن سحب العيّنة من خصيته تحديدًا أنّه يحمل في جسده حمضين أنويين لا واحدًا، وهذه حالة نادرة ومتطورة جدًّا تشبه إلى حدٍّ بعيدٍ الحالة القديمة الّتي تعرفُ علميًا ***«بالكاميريا»*** المتعلّقة بالحمض النّووي **«DNA»**... يحدث هذا جرّاء وجودِ طفلين في رحم الأم فيمتصّ أحدهما الآخر فيتلاشى بالكامل بينما يحيا الآخر بحمضيين أنويين... أمّا العقارات والأدوية الّتي تناولها أصلان في مشفى الجزيرة السنباريّة فقد حوَّلت الخلايا النّائمة في الحمض الآخر لخلايا نشطةٍ أعادت تحفيزَ نفسها ونموها البطيء شبه المنعدم خلال فترة وجوده تلك في السّجن أو المشفى. الصّمت والعقاقيرُ، وتقمّصُ روحهِ وذاتهِ لشخصٍ آخر أقنعَ تلك الخلايا بهذا فتقبّلت بعضها التطوّر غير المنطقي الّذي طرأ عليها؛ ليصبح من الصّعب فصل الحمضين بسهولة واكتشاف حقيقة هذا الشّخص.

ولعلَّ الخلايا هذه مَن ساعدته لينفصل أحيانا ويتلبّس شخصيّة سيف ويتقمّصه أثناء الحديث مُستندًا على ما سمعه وتخيّله مُسبقًا؛ سيما حينما كان يكرّر في نفسه ما كرّره سيف أمامه عندما اقتربا من بعضهما البعض ؛ طاردًا شخصيّته الحقيقيّة بالكامل أثناء ذلك.

- لقد سُجنَ كمعروفٍ، وعرفتهُ كأصلان، ثمَّ تحوَّلَ لسيفٍ، ثمَّ عاد ومات كأصلان أخيرًا. لطالما حاولَ إقناعَ قلمه بأنّه أصلان لا معروف. وبالتّالي فقد كان أصلان ذاته إن تحدثَ عبرَ القلم، ينازعُه على هذا الشّخص الآخر الّذي تقمَّصه، وكان سيفًا بعد حقنةِ سيلا وخوفه.. فالخوف من كان يهزمُه عقليًّا في داخله ليتقمّص الآخر... لقد أنَّب نفسَه بشدّة بعد مساعدة سيلا على الهروب قديما فتقمّصَ دورَ سمير أولًا ثمَّ سيف الّذي التقى به في ميونخ، ونيودلهي، وبنغازي مُتقبّلا أن يكونَ مُجرمًا مثله لا شاعرًا، فلم يستطع الخروج من تلك الشّخصيّة ناهيكِ عن متاعب العمر، والحربِ، والسّجن، والمرض.

لقد قاومَ كلّ هذه الأشياء، ومع ذلك فلم يتعرَّف على حقيقته إلّا أمّه. أمَّا المعجبةُ، والحبيبةُ القاتلة، والزّوجةُ فقد تُهنَ في شخصه بينما لم تخطئِ الأمّ بذلك رغم شيخوختها وضعفها وقصرِ بصرها... تلك الأم الّتي عاد معها الوقت للاحتساب بعد توقّفه لثلاثة أعوام في ذهنه وإدراكه؛ قائلةً لمن حولها: «ليتَ أبا أصلان على قيد الحياةِ لأبرهنَ له ما لم يصدّقه أحدٌ يومَها حين قلتُ للجميع بأنّني أحملُ جنينين في بطني».

(20)

فلسفاتُ جنازة

في السّادسة صباحًا وفي **31 أكتوبر** من عام **2086م** مات الشّاعر ***أصلان باكير*** ليوضعَ في ثلّاجة الموتى ليومين قبل أن يدُفنَ ضمن وصيته في ***«فسقيّة»*** أعدَّها رافضًا التّراب.

- ما رأيكِ أن أختتمَ روايتي بهذه الجملة؟ **سألتْ حنان هذا السّؤال باقتضاب.**

- هي النّهايةُ على ما أظن، ما العنوان الّذي اخترتِه لهذه الرّواية؟

- لستُ أنا.

- لستُ أنا؟

- نعم، ألّا يروق لك هذا العنوان؟

- لا أعرف حقيقةً. **صمَتت قليلًا ثمَّ تشجَّعت.** لا أعرفُ لكنّني مذ جلستُ أمامكِ وأنا أتساءلُ بيني وبيني عن أشياءَ غريبةٍ تسيطرُ على صوتِك وعينيكِ وملامحكِ وطريقةِ نظراتكِ وانفعالاتك. **قالتها على استحياء.**

- لعلَّها آثارُ حزني عليه حقيقة، أنا متأثرةٌ بكلِّ ما جرى له.

- ريم، لقد سقطَت رموشُ عينك اليمنى على الطّاولة، إنّها بجانبِ الفنجان. **وأشارت إليها مستغربة.**

نظرتُ للطّاولةِ فوجدتُ رموشًا مستعارة قد سقطت فعلًا، لتقفَ حنان فجأةً متفاجئةً وجِلةً منّي... تقدَّمَت منّي، راحت تدور محدِّقةً بي قبل أن تنزعَ عن رأسي شعرًا مُستعارًا لا أدري مَن وضعَه على رأسي **{أو لعلّي أنا من وضَعَه!}.**

- من أنتِ، أو مَن أنتَ؟

سقطَت الرّموشُ عن العينِ الأخرى، نظرتُ إلى نافذةٍ قريبةٍ عكَست وجهًا لا يشبهُ وجهي، سقطَ نهداي من صدري على فخذي **{أو تراني أنا من أسقطَهما!}.** وقفتُ أمامَ النّافذةِ، وقفتُ أمام عينيْ حنان.. لستُ ريم الّتي أعرفها، لستُ أنا، هذه أو هذا ليس أنا، من أنا؟ تساءلتُ باكيًا؟ حدَّقتُ جيّدًا بالنّافذةِ، أسرعتُ لمرآةٍ في منتصفِ المقهى، من أنا؟! وقفتُ أتحسّسُ ملامحي، أعرفُ هذا الوجه، رأيتهُ يومَ قتلوا زوجتي أمام عيني وأسقطوها قتيلةً على رصيفِ المطار، رأيته يومَ أطبقَت يداي على عنقِ أحدِهم قبل سنة، رأيته يومَ وقفتُ أمامَ قبرِ العجّان شاعرًا بمغناطيسيّةٍ أمامه، رأيتُه في عيني ميمون الّذي صُعقِ من حقيقتي ثمَّ ضحكَ شاتمًا كلّ شيءٍ إلّا أصلي الطيّب... رأيتهُ وقد طارت ريم في الهواء بعد أن تعرَّضت لحادثِ سيرٍ مروِّع.

ماتت مبتسمةً بعد أن أمسكتُ يديها باكيًا، لكنّها لم تمت، كنتُها فرحتُ أنتظرني، لم تذهب فقد ولجَت إليَّ فور موتها فرحتُ أرتقبُ عودتي... المرآةُ، نظراتُ حنان تعيدُ لي شيئًا منّي، وتسقطُ أمامي الرّموشُ والشّعرُ المستعار، وتذوب المساحيقُ مِن على وجهي لأكتشفَ بأنّي أنا، لستُ أنا، لستُ أنا... لستُ أنا مرّةً أخرى.

«تمّت بحمد الله»